مجلة كلية الآداب

العدد الثاني - ذو القعدة ١٣٩٩ - اكتوبر ١٩٧٩

منشورات جامعة صنعاء

٢٠٧٤

جامعة صنعاء
المكتبة العامة
الرقم /
التاريخ /
هدايا

مركز الدراسات والبحوث اليمني
الدوريات
الرقم العام
رقم التصنيف

مجلة كلية الآداب

العدد الثاني

ربيع الثاني ١٤٠١هـ ـ مارس ١٩٨١م

منشورات جامعة صنعاء

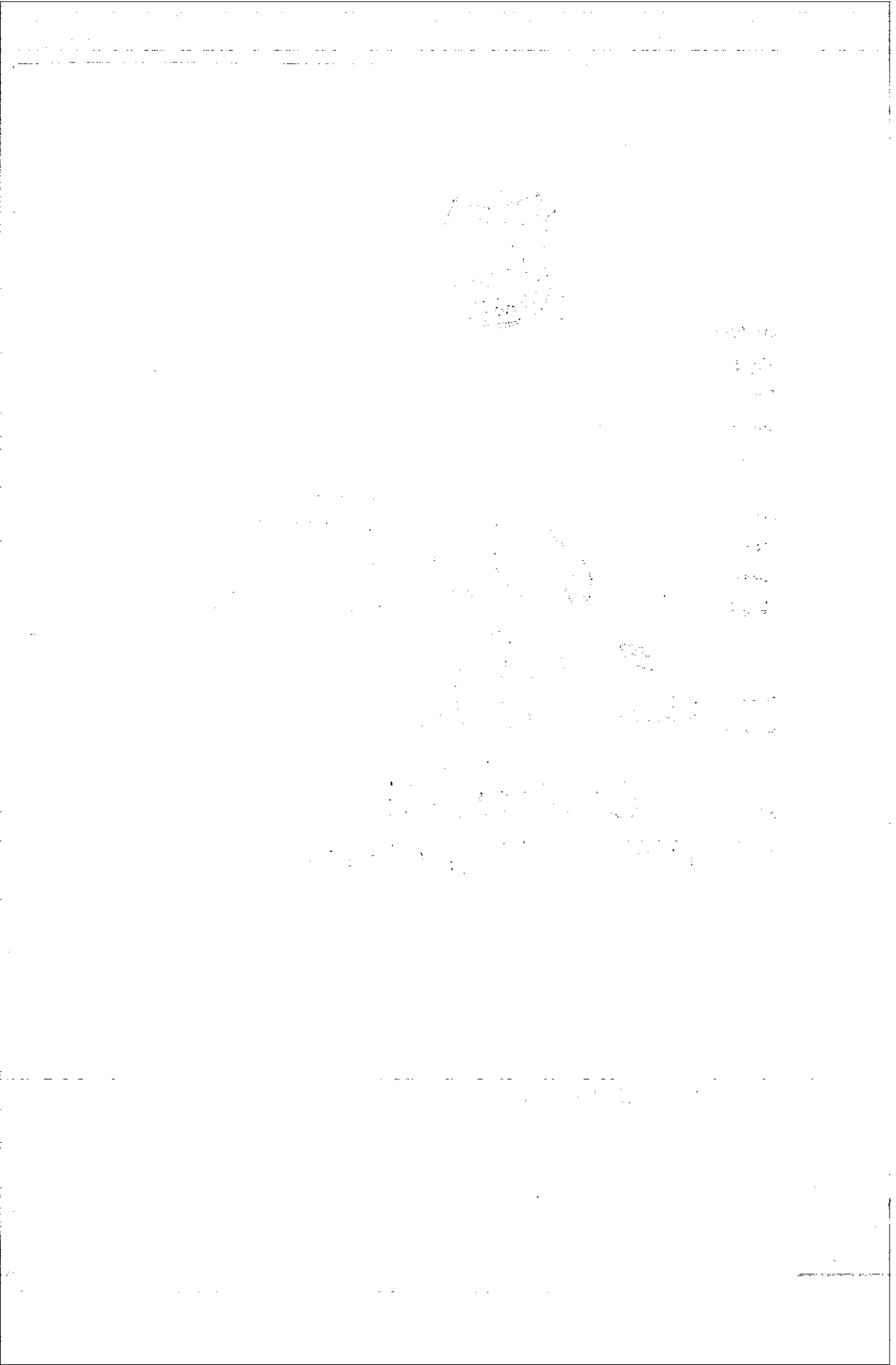

● محتويات العدد ●

		الصفحة
● كلمة التحرير		٣
● بعض الملامح الاقتصادية للجمهورية العربية اليمنية	الدكتور احمد حبيب رسول	٥
● ثلاثة نقوش صفوية من عرعر وبدنة	الدكتور يوسف محمد عبد الله	٦٠
● الخطاب السابع لأفلاطون	الدكتور عبد الغفار مكاوى	٨٣
● ميخائيل بسللوس من خلال كتابه التاريخ الزمنى	الدكتور .. رافت عبد الحميد	١٥١
● نصوص لاخوان الصفاء حول فلسفتهم السياسية فى مخطوطة لابن منكلى	د. محمد فريد حجاب	٢٢٥
● الدخل الفردى واستهلاك الغذاء فى الوطن العربى	الدكتور عباس فاضل السعدى	٢٦٣
● الاحصائى الاجتماعى والعلاقات العامة بالمستشفيات	د. زهير حمدى على	٢٨١
● ملاحظات اولية حول النقد الادبى فى اليمن قبل ١٩٤٨	د. عبد العزيز المقالح	٢٩٩
● من جهود علماء اليمن فى علوم العربية « المناهل الصافية »	الدكتور عبد الرحمن محمد شاهين	٣١٧
● دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة	الدكتور احمد محمود صبحى	٣٣٧
● اليمن وحضارات الشرق القديم	الدكتور هنرى ريفلين	٣٥٣
● ملامح اثرية من الجامع الكبير بصنعاء	الدكتور سامى احمد حسن	٣٥٩
● انطباعات	الدكتور محمد عبده غانم	٣٦٩

● JANE AUSTEN'S EMMA	K. S. Misra	Page 5
● ORWELL AS A LITERARY CRITIC	Ramses Awad	19
● CAWELTI'S METHODOLOGY AND POPULAR CULTURE STUDIES		81

إدارة البحوث والنشر

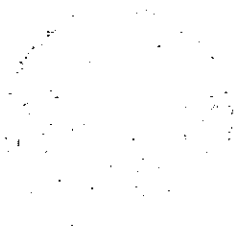

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة التحرير

لا ريب أن هذا العدد الثانى من مجلة كلية الآداب يبدو أكثر أهمية من العدد الاول ولو من حيث الحجم على الاقل ، وان كان الفرق فى الحجم لا يعود الى زيادة عدد المقالات بقدر ما يعود الى سعة بعضها بحيث بلغ احدها ٧٥ صفحة ولا ريب أن هذا العدد هو أيضا أكثر أهمية من حيث تنوع بحوثه التى تشمل الجغرافيا والتاريخ وعلم الآثار والدين والفلسفة واللغة والآداب والنقد الادبى

ومرة أخرى تجد اليمن حصتها الطيبة فى هذا العدد وذلك فى المقالات التى تتناول — مشاكل التطور الزراعى ، والنقد الادبى فى اليمن قبل ١٩٤٨ ، واسهام علماء اليمن فى علوم اللغة ، والعلاقة بين اليمن والحضارات القديمة ، وبعض الملامح الاثرية لجامع صنعاء ، وللمرة الاولى ، فى قصيدة عن صنعاء فى الليل ونرجمتها الى العربية .

وفيما عدا القصيدة المشار اليها التى يشترك فيها قسما اللغة العربية والانكليزية بالمجلة ، فان جميع المقالات باللغة العربية تأتى من داخل الجامعة بينما يأتى اثنان من المقالات الثلاثة من خارج الجامعة .

وتعكس المقالات بصورة عامة مستوى رفيع من البحث الاكاديمى بأقلام اساتذة فى هذا الفن . والامل وطيد بأن القارىء وان لم يتفق مع الباحث فى جميع ما ذهب اليه — سيجد متعة كبيرة فى المستوى الرفيع للبحوث المقدمة .

بعض الملامح الاقتصـــادية

للجمهورية العربية اليمنية

الدكتور أحمد حبيب رسول

تقع الجمهورية العربية اليمنية بمساحتها البالغة حوالى ٢٠٠ ألف كيلومتر مربع (٢٠ مليون هكتار) فى الركن الجنوبى الغربى للجزيرة العربية ما بين خطى عرض ٤٠ ١٢° و ٢٦ ١٧° شمالا . ومابين خطى طول ٣٠ ٤٢و ٣٠ ٤٦ شرقا وتمتد مسافة حوالى ٤٠٠ كيلو متر من الشمال الى الجنوب .

وتعتبر الجمهورية العربية اليمنية من الأقطار النادرة فى عالمنا المعاصر التى لم تحظ باهتمام حقيقى للباحثين . فاليمن الشمالية أو اليمن الخضراء كما سماها المؤرخون العرب والتى بلغت شأنا من التقدم والازدهار فى العصـــور التاريخية القديمة ، عاشت منذ قرون وأجيال عديدة ما قبل عقد من الزمن فى عزلة تامة عن الحضارة الانسانية وفى ظل تخلف شامل فى جميع ميادين الحياة . ويعود الانفتاح الحضارى لليمن على العالم الى الفترة التى تلت ثورة سبتمبر لعام ١٩٦٢ .

وقد حاولنا فى هذا البحث دراسة بعض الملامح الاقتصادية للجمهـــورية العربية ضمن البوتقة الجغرافية من خلال الدراسات والأبحاث والمصادر المتوفرة باللغات المختلفة ومن ملاحظاتنا ودراستنا الميدانية فى بعض مناطقها .

وقد بوبنا هذا البحث الى قسمين رئيسيين : يتناول القسم الأول دراسة القطاع الزراعى والثروة الحيوانية . بينما خصص القسم الثانى لقطاع التعدين والصناعة .

ونكتفى فى هذا العدد من المجلة بنشر القسم الأول من البحث آملين نشر القسم الثانى فى العدد القادم منها بعونه تعالى .

قطـــاع الزراعـــة :

تشمل الزراعة القطاع الرئيسى فى الاقتصاد اليمنى الشمالى ، سواء من حيث عدد المستغلين أو من حيث الدخل المتأتى عنها .

فقد ساهمت الزراعة وحدها فى عام ١٩٧٥/١٩٧٦ بنسبة ٥ر٤٤٪ فى تكوين الناتج المحلى الاجمالى . ولكن تنخفض مساهمة الزراعة فى تكوين الناتج القومى الاجمالى الى ٧ر٢٩٪ وذلك بعد اضافة صافى التحويلات الخارجية التى يرسلها المغتربون اليمنيون والتى بلغت فى عام ٧٦/٧٥ حوالى ٢٥٧٠ مليون ريال (جدول ١) أى مايعادل نحو ثلث الناتج القومى الاجمالى للجمهـــورية العربية اليمنية .

السمات الأساسية للقطاع الزراعى

أولا : يمثل القطاع الزراعى القطاع الرئيسى فى اقتصاد الجمهورية العربية اليمنية ويعمل فيه نحو ٧٣٪ من مجموع القوى العاملة فى البلاد ، لكنه لا يسهم بأكثر من نصف الناتج المحلى الاجمالى . وهذه الحقيقة تبدو أكثر جلاء اذا ما علمنا أن المنتجات الزراعية تشكل أكثر من نصف قيمة المستوردات الكليـــة للبلاد فى الوقت الحاضر .

ثانيا : قلة نسبة الأراضى المزروعة فى الجمهورية العربية اليمنية . اذ تقدر المساحات الزراعية سنويا بحوالى ١ر٥١٥ مليون هكتار أى ما يعادل ٥ر٧٪ من المساحة الكلية للبلاد . وهناك نحو ٢ مليون هكتار من الأراضى الهامشية تزرع مرة واحدة كل أربع أو خمس سنوات . وقلة نسبة الأراضى المستغلة للانتاج الزراعى (جدول) ٢ — ٣) نابع عن التكوين الطيوجرافى للبلاد(١) وقلة الموارد المـــائية .

---

(١) من حيث التكوين الطبوجرافى ، يمكن تقسيم اليمن الشمالى الى أربع مناطق طبيعية كل منطقة لها سماتها المحدودة . ومن حيث المناخ والموارد المائية وحياة السكان والمناطق هى :

١ — المنخفضات الساحلية المعروفة بسهول تهامة : ان سهول تهامة تشمل الأراضى المواطئة الرملية التى تمتد بمحاذاة ساحل البحر الأحمر لمســـافة حوالى ٤٠٠ كلم باتساع يتراوح ما بين ٣٠ — ٦٠ كم . ولا يزيد ارتفاع أى جزء منها عن ٢٥٠ م فوق سطح البحر . وتشغل هذه السهول مساحة تقدر بحوالى ٢ مليون هكتار (٢٠ الف كم٢) أى ما يعـادل نحو عشر المساحة الكلية لليمن الشمالى . وتتميز هذه السهول بارتفاع درجة الحرارة والرطوبة طوال العام ، حيث تتراوح درجة الحـــرارة السنوية ما بين ٣٢ درجة صيفا و٢٤ درجة م شتاء . أما الرطوبة فتتراوح ما بين ٦٠ — ٨٠٪ وتتراوح أمطارها ما بين ١٥٠ — ٢٠٠ ملم سنويا . وضمن هذه المنطقة يوجد شريط ساحلى ، وهذا الشريط الساحلى عبارة عن أرض فقيرة جافة وحارة طوال العام تنتشر فيها الكثبان الرملية المتحركة ، لهذا كانت مقفرة وغير صالحة للانتاج الزراعى . =

ثالثا : ان اكثر من ٨٩٪ من المساحات المستغلة للزراعة مشغولة بزراعة الحبوب فقط ، فى حين لا تتجاوز نسبة الأراضى المشغولة بزراعة القطن والتبغ ٢ر١٪ من مجموع الأراضى المستغلة . أما البن فنصيبه لا يتجاوز نصف بالمئة من مجموع الأراضى الزراعية المستغلة (جدول ٢) . وتأتى الذرة البيضاء والصفراء والدخن فى مقدمة محاصيل الحبوب المزروعة فى البلاد .

= ٢ — المرتفعات الوسطى : تتألف من الحافات الشرقية والغربية للمرتفعات العليا المركزية ويتراوح ارتفاعها ما بين ٢٠٠ — ١٥٠٠ م فوق سطح البحر وتكون تضاريسها وعرة تقطعها وديان عميقة وأغلبها تصب فى سهل تهامة . وتتألف تربة هذه المنطقة من الرواسب البركانية التى جرفتها سيول الأمطار من المرتفعات العليا لهذا استغلت هذه المنطقة لزراعة المحاصيل الزراعية المتنوعة (القمح والشعير والذرة والبن والقات) حيث تم تهيئة سفوح ومنحدرات الجبال بشكل مدرجات منتظمة .

٣ — منطقة المرتفعات العليا المركزية — وتشمل هذه المنطقة الأراضى التى يزيد ارتفاعها عن ١٥٠٠ م فوق سطح البحر وتتميز مرتفعاتها بانحدارها الشديد . لهذا يصعب اقامة المدرجات على سفوحها كما هو الحال فى المرتفعات الوسطى ، وتكون قممها الجبلية جرداء فقيرة التربة بفعل التعرية المائية . وتستلم المنطقة قدرا من الأمطار تصل الى ١٠٠٠ ملم فى آب . ثم تقل تدريجيا باتجاه الشمال ، حيث تبلغ فى صنعاء نحو ٣٠٠ ملم سنويا و ٢٠٠ ملم سنويا فى الشمال على الحدود مع المملكة العربية السعودية . وتشغل منطقة المرتفعات الوسطى ومنطقة المرتفعات العليا المركزية سويا نحو نصف مساحة البلاد .

٤ — الهضبة الشرقية شبه الصحراوية : وتشغل هذه المنطقة الأراضى الشمالية والشرقية المحصورة بين سفوح المرتفعات العليا المركزية والحدود اليمنية — السعودية ، حيث تلتقى فى نهاية امتدادها مع صحراء الربع الخالى . وهذه المنطقة التى تشمل خمس مساحة اليمن (٨٠ر٠٠٠ كم٢) ، خالية السكان عموما وفقيرة فى مواردها مع أنها كانت فى العصور الغابرة مركزا لحضارة زراعية قديمة ، قامت على تشييد سد عظيم شهير فى التاريخ ألا وهو سد مأرب الذى انهار حوالى القرن السادس الميلادى . وتجرى فى الوقت الحاضر الدراسات الأولية لاعادة بناء هذا السد وذلك بمعونة دولة الامارات العربية .

شكل (٣) توزيع السكان حسب النشاطات الاقتصادية
في الجمهورية العربية اليمنية عام ١٩٧٥

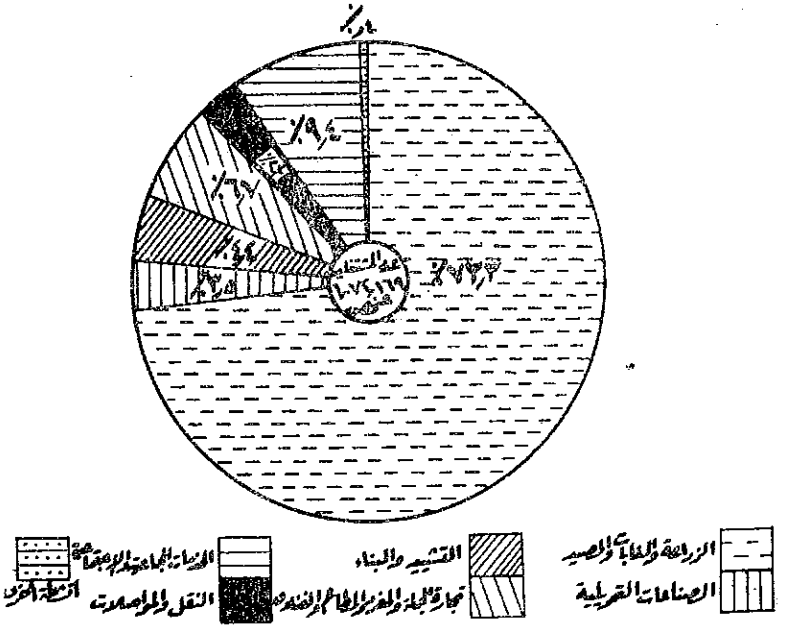

وهذه المحاصيل تشغل حوالى ثلاثة أرباع جملة المساحات الزراعية المستغلة ، فى حين يشغل القمح حوالى ٥ر٣ ٪ من المساحات المستغلة للزراعة . وهذا التباين فى المساحات المخصصة لأنتاج المحصولين أى الذرة والقمح ، يعكس لنا تباين نمط الغذاء بين المدينة والريف فى اليمن الشمالى ، حيث يكون سكان الريف حوالى ٩٠ ٪ من المجموع السكان فى البلاد ، وان الذرة والشعير يشكلان المادة الغذائية الاساسية لجماهير سكان الريف فى اليمن الشمالى ، بينما يمثل القمح المادة الغذائية الاساسية لسكان المدن ، الذين يتزايد عددهم باستمرار نتيجة الهجرة الداخلية للسكان من الريف الى المدن الكبيرة ، كما هو الحال فى جميع البلدان النامية .

وعليه فان الذرة تمثل المحصول الزراعى التقليدى للريف اليمنى ، حيث اعتمد السكان على زراعتها من أقدم العصور التاريخية . وتزرع فى جميع

انحاء البلاد وحتى على ارتفاع ٣٠٠٠٠ م فوق سطح البحر . وتوجد منها انواع شتى (الذرة الصفراء والبيضاء والحمراء والبنية اللون) ، كما أن الذرة اكثر مرونة من القمح من حيث مطالب نموها الطبيعية والبشرية . حيث يمكن زراعة الذرة تحت ظروف طبيعية متباينة الخصائص فيما يتعلق بتوافر المياه أو بخصائص التربة أو بمستوى سطح الارض .

ثم أن الذرة تعطى محصولين فى السنة فى أكثر مناطق اليمن . اما القمح فيزرع مرة واحدة فى السنة .

جدول (٢)

المساحات المزروعة بحسب المحاصيل الزراعية فى عام ٧٥ / ١٩٧٦ .

المحاصيل	المساحة المزروعة بالف هكتار	نسبتها المئوية
الحبوب		
الذرة (البيضاء	١١٩٥	٨٥ر٦٦
والصفراء والدخن)		١٢ر٦٣
الشعير	٦٨	١٢ر٦٣
القمح	٥٠	٣ر٣٩
القطن	١٥ر٠	١ر٠٠
التبغ	٤ر٦	٣١ر
السمسم	٩ر٧	٦٦ر
العنب	٨ر٨	٦٠ر
الفواكه	١٢ر٣	٨٣ر
البن	٧ر٥	٤٩ر
التمور	١ر٣	٠٩ر
الخضروات والبطاطا	١٠٢ر٨	٦ر٩٧
جملة المساحات المزروعة	١٤٧٤ر٥	١٠٠ر٠٠
جملة المساحات القابلة للزراعة الدائمة	١ر٥١٥	
جملة مساحة البلاد	٢٠ر٠٠٠	

المصدر :

وضعنا هذا الجدول اعتمادا على البيانات الواردة فى كتاب الاحصاء لعام ٧٦ / ١٩٧٧ ، الجهاز المركزى للتخطيط ، ادارة الاحصاء ، صنعاء ، ص ٧٢ — ٧٤ .

القطن :

ويزرع فى منطقة تهامة(وادى مور وزبيدوسردد وريمة) اعتمادا على مايجرى فى الوديان من المياه أثناء فترة الفيضانات . كما تعتمد زراعته على المياه الجوفية أيضا . ونظرا لتفاوت ما يجرى فى الوديان من المياه من عام لآخر . فاننا نلاحظ تذبذبا فى كمية الانتاج من عام لاخر . وأشهر أصناف القطن المزروع فى اليمن الشمالى هو النوع الامريكى المعروف باسم أكالا Acala النوع السودانى المعروف باسم صقل Sakal . ويتميز النوعان بقصر طول تيلتهما(١) .

والحقيقة ان هناك امكانات كبيرة لزيادة انتاج البلاد من القطن ورفع انتاجيته فيما لو توفرت المياه والارشاد الزراعى واستخدام الاسمدة . ولا يخفى ما لتنمية زراعة القطن من أهمية لتوفير المادة الاولية اللازمة لمصانع الغزل والنسيج القطنى المتواجدة فى كل من صنعاء وتعز وتلك المقترح انشاؤها حسب الخطة الخمسية الاولى (٧٦ — ١٩٧٧ — ٨٠ — ١٩٨١) . هذا فضلا عن كون القطن من محاصيل التصدير الرئيسية لليمن الشمالى (شكل ١٠) .

البن :

ويزرع فى مناطق عديدة من المنطقة الجبلية على ارتفاع يتراوح ما بين ١٠٠٠ — ٢٢٣٥ كلما توفرت مياه لريه . وتسود زراعة البن على المدرجات الجبلية وعلى طول وديان الانهار ومن أفخر أنواع البن اليمنى النوع المعروف بالمطرى نسبة الى بنى مطر على مسافة ٦٠ كم من العاصمة صنعاء . وهو يتميز بصغر حجم حباته . وقد أعطى البن اليمنى الفاخر اسمه لأطيب أنواع البن فى العالم وهو (موكا Moca) وبن موكا جاءت تسميته من ميناء المخا على ساحل البحر الاحمر حيث كانت السفن البرتغالية والهولندية وغيرها تنقل البن اليمنى الى أوربا حيث اشتهر الى يومنا هذا(١) .

ان المساحات المزروعة باشجار البن شهدت فى السنوات الاخيرة تناقصا كبيرا بسبب احلال زراعة القات محل زراعة البن فى الكثير من المناطق التى

---

(١) عدنان ترسيسى ، اليمن وحضارة العرب ، بيروت (بدون تاريخ) ص ٥٤

كانت تشتهر بانتاج البن . وذلك لان المناطق الملائمة لانتاج البن هى نفسها الملائمة لانتاج القات .

وهناك أيضا امكانات كبيرة للتوسع فى زراعة البن فى الجمهورية العربية اليمنية اذا أمكن التغلب على مشكلة عدم توفر المياه وتم استخدام الأسمدة فضلاً عن تطوير أساليب الزراعة والرى . ولا شك أن التوسع فى زراعة محصول البن لهو أمر ضرورى للاقتصاد القومى . وذلك ما للبن اليمنى من شهرة عالمية تؤهله لان يكون أحد المحاصيل الزراعية الرئيسية للتصدير .

تتباين نسبة المساحات المستغلة للزراعة من لواء لآخر . اذ تبلغ نسبة المساحات المستغلة فعلا الى المساحة القابلة للزراعة الدائمة فى لوائى صنعاء وتعز ٧٠ ٪ ، فى حين ان هذه النسبة ترتفع أكثر من ٨٥ ٪ فى لواء الحديدة وحوالى ٧٨٪ فى لواء اب . بينما تنخفض النسبة الى حوالى ٦١٪ و ٦٥٪ فى لوائى حجة وذمار على التوالى (جدول ٣) .

وهذا التباين فى نسبة الاراضى المستغلة بين الالوية يعود لعوامل عديدة أهمها : —

١ — توافر المياه : ان حوالى ٨٥ ٪ من جملة مساحة الاراضى المزروعة تعتمد فى زراعتها على الامطار وحوالى ٩ ر٧ ٪ تعتمد على السيول ، فى حين ان الاراضى التى تعتمد على الرى الصناعى لا تتجاوز نسبتها ٢ر٧ ٪ من مجموع الاراضى المزروعة . وهذا يعنى ان المناطق أو الالوية التى تستقبل كميات أكبر من الامطار . او تلك التى تحوى مياها جوفية غزيرة مستغلة ، تعتبر أهم المناطق التى استغلت أراضيها الصالحة للزراعة لغرض الانتاج الزراعى ، وهذا ومما يحسن الاشارة اليه هنا ، هو أن الامطار قليلة فى اليمن الشمالى بصفة عامة . وانها تتباين من منطقة لاخرى . أكثر من خمس المساحة تستلم أقل من ٢٠٠ مم من الامطار سنويا (سهل تهامة والهضبة الشرقية شبه الصحراوية) . وفى النسبة الباقية من مساحة البلاد تتراوح كمية الامطار السنوية ما بين ٢٠٠ — ١٠٠٠ مم . وهناك موسمان لسقوط الامطار : الموسم الاول فى الفترة ما بين شهرى ابريل ومايو والثانى ما بين شهرى يوليو وأغسطس .

وبصورة عامة يمكن القول ان كميات الامطار السنوية الساقطة فى اليمن الشمالى ليست بكافية وان هذه الكميات تتذبذب من عام لآخر بدرجة كبيرة. كما ان مواعيد سقوطها متغيرة من عام لآخر مما يقلل من قيمتها ومن درجة الاعتماد عليها . لهذا أصبحت الزراعة المطرية عرضة للمخاطر . فعليه لابد من اتخاذ الوسائل الكفيلة لتطوير وسائل الرى الصناعى ، لضمان توفير المياه للانتاج الزراعى . وهذا ما أكدت عليه الخطة الخمسية الاولى كما سنرى فيما بعد .

* * *

استخدامات الأرض حسب المحافظات فى الجمهورية العربية اليمنية عام ١٩٧٧/٧٦ بالف هكتار

اللواء	المساحة الاجمالية	المساحة القابلة للزراعة الدائمة	المساحة الهامشية	غابات وشجيرات اخرى	استخدامات المساحة الكلية	نسبة المساحة الى المساحة المستغلة فعلا	نسبتها الى المساحة القابلة للزراعة الدائمة
صنعاء	٨ر٠٠٠	٤٠٠	٦٠٠	١٠٠	٦ر٩٠٠	٤٠ر٠ ٪	٢٨١	٧٠ر٠ ٪
الحديدة	٣ر٥٠٠	٢٣٥	٥٠٠	٤٥٠	٢ر٣١٥	١٧ر٥ ٪	٢٠٠	٨٥ر١ ٪
تعز	١ر٢٠٠	٢٥٠	١٠٠٠	٥٠٠	٣٥٠	٦ر٥ ٪	١٧٦	٧٠ر٤ ٪
اب	١ر٣٠٠	٣٠٠	٥٠	٤٠٠	٥٥٠	٦ر٥ ٪	٢٣٣	٧٧ر٧ ٪
حجة	١ر٧٠٠	١٣	٣٥٠	٥٠	١ر٢٧٠	٨ر٥ ٪	٧٩	
صعدة	١ر٨٠٠	٦٠	٢٠٠٠	٠٠٠٠	١ر٥٤٠	٩ر٠٠ ٪	٠٠٠	٠٠٠
دمار	١ر٠٠٠	١٠٠	٢٠٠	١٠٠	٦٠٠	٥ر٠ ٪	٥٦	٥٦ ٪
المجموع	٢٠ر٠٠٠	١ر٥١٥	٢ر٠٠٠	١ر٦٠٠	١٤ر٨٨٥	١٠٠ر٠ ٪		٦٠ر٨٪

المصدر : وضعنا هذا الجدول اعتمادا على كتاب الاحصـــاء العـــام ١٩٧٧/١٩٧٦
مصدر سابق ، ص ٧٠ ــ ٧٥

أرقام محافظتى المحويت ومأرب محسوبة ضمن المحافظات التى فصلت عنهـــا .
... لا تتوافر بيانات .

جدول رقم (٤)

الاراضى الزراعية المستغلة بحسب مصدر الرى

بالف هكتار فى عام ١٩٧٦ / ١٩٧٧

اللواء	مساحة الاراضى القابلة للزراعة الدائمة	الامطار	الفيضانات	رى دائم الابار	
صنعاء	٤٠٠٠	٣٧٤	—	٢٠	٦
الحديدة	٢٣٥	١٠٢	١٠٠	٥	٢٨
تعز	٢٥٠	٢٢٠	١٠	١٨	٢
اب	٣٠٠	٢٧٨	—	٢٠	٢
حجة	١٣٠	١١٥	١٠	٥	—
صعدة	٦٠	٦٠	—	—	—
ذمار	١٠٠	٩١	—	٥	٤
البيضاء	٤٠	٣٧	—	—	٣
المجموع	١٥١٥	١٫٢٧٧	١٢٠	٧٣	٤٥

المصدر : كتاب الاحصاء لعام ١٩٧٧/٧٦ . مصدر سابق / ص ٦٩ .
ارقام لوائى مأرب المحويت ضمن الالوية التى فصلت عنها .

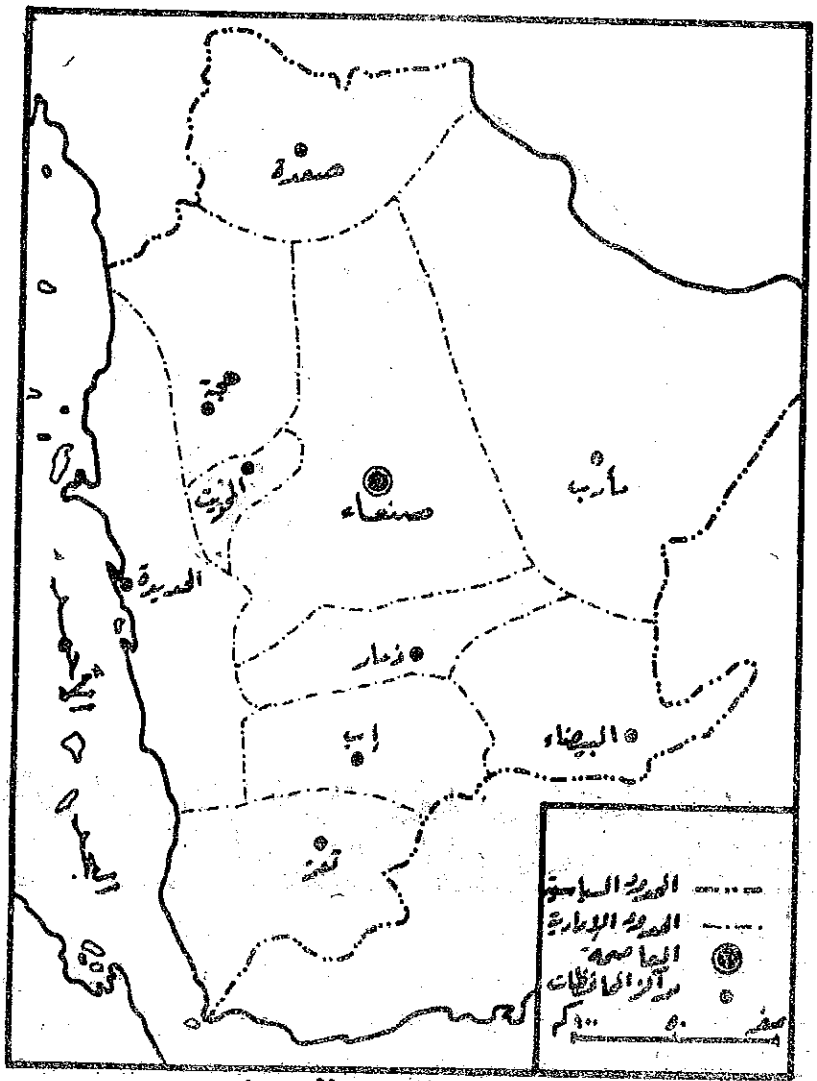

شكل (٤) الجمهورية العربية اليمنية
(التقسيمات الإدارية)

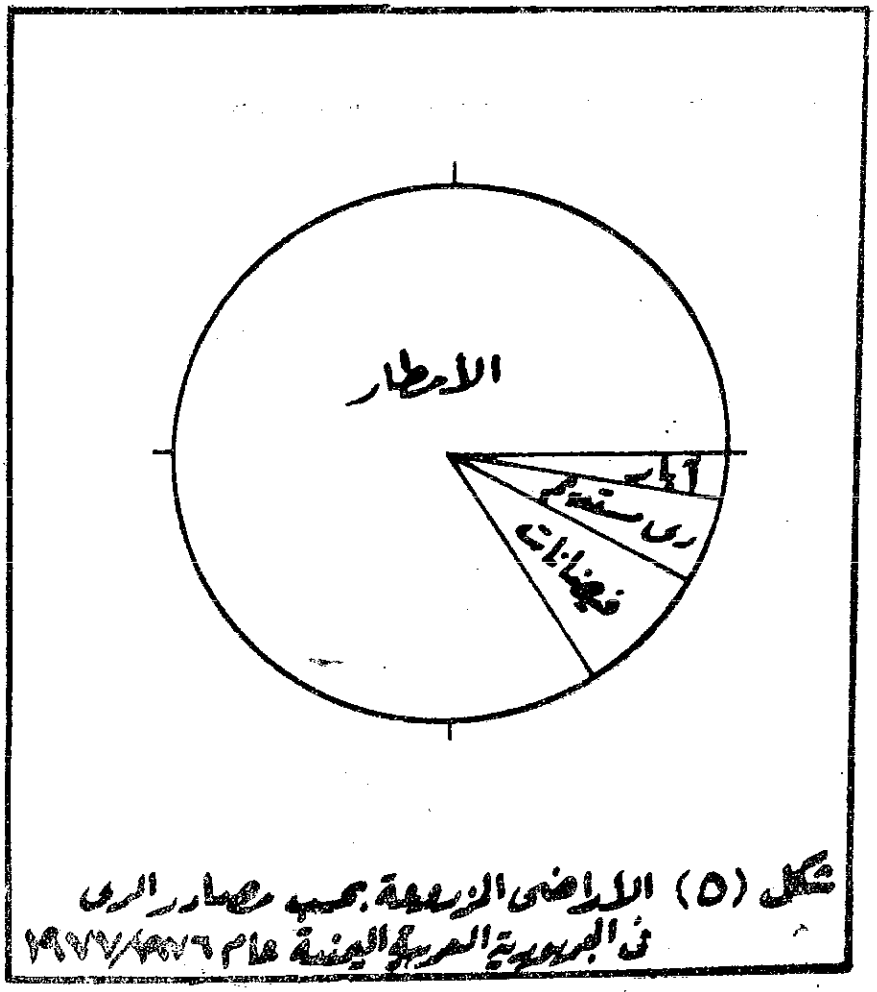

شكل (٥) الأراضي الزراعية حسب مصادر الري
في الجمهورية العربية اليمنية عام ١٩٧٦/١٩٧٧

٢ ــ تباين الكثافة السكانية وارتفاع القدرة الشرائية : ان الالوية التى تتميز بالكثافة السكانية العالية والمقرونة بالقدرة الشرائية المرتفعة مثل : تعز وصنعاء واب والحديدة : تعتبر أهم الالوية استغلالا لاراضيها القابلة للزراعة (جدول ٣) . وذلك لارتفاع الطلب المحلى على المنتجات الزراعية بسبب ارتفاع الكثافة السكانية المقرونة بارتفاع القدرة الشرائية ، حيث يعيش فى الالوية الخمس المذكورة نحو ٧٠ ٪ من مجموع سكان البلاد(١) .

(١) النتائج الأولية للتعداد العام للسكان والمساكن فى فبراير ١٩٧٥ ، الجمهورية العربية اليمنية ، الجهاز المركزى للتخطيط ، صنعاء ، ص ١٢

شكل (٦) التوزيع الجغرافي للسكان حسب الألوية عام ١٩٧٥
في الجمهورية العربية اليمنية

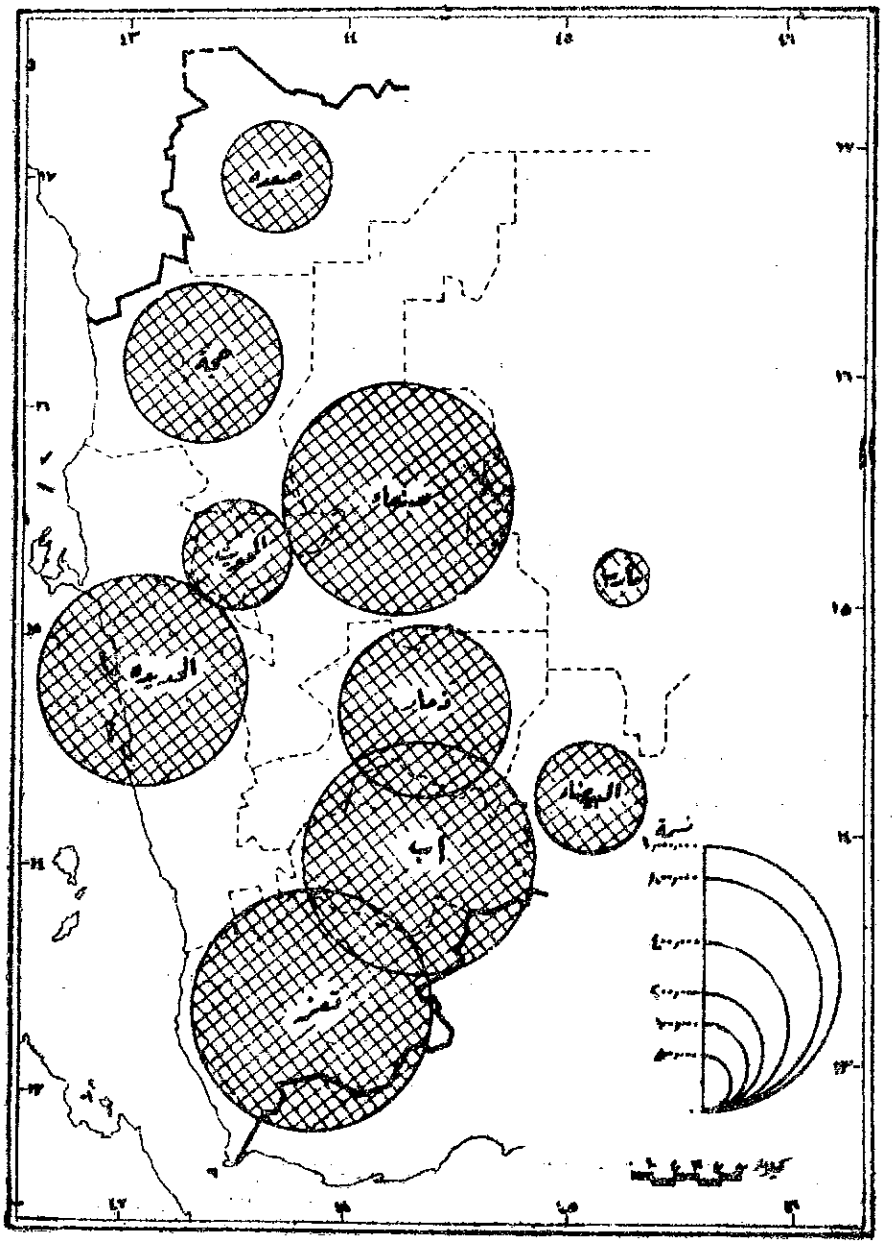

ومما هو جدير بالاشارة ، ان نسبة كبيرة من الاراضى المستغلة للزراعة فى الالوية المذكورة ، تكون مشغولة بزراعة القات الذى يتميز بارتفاع سعره وبالتالى بارتفاع عائده نظرا لرواج السوق المحلى لهذا المحصول ، بسبب ارتفاع القدرة الشرائية للسكان القاطنين فيها وخاصة فى مراكز الالوية المذكورة .

٣ ــ هجرة القوى العاملة : ان القوى العاملة هى العنصر الاساسى بين مجمل عناصر قوى الانتاج . ان الريف اليمنى يعانى وبصورة خاصة منذ السنوات العشر الاخيرة ، من تدفق هذه القوى العاملة فى اتجاهين الاتجاه الاول : نحو الخارج وبصورة خاصة نحو المملكة العربية السعودية . والاتجاه الثانى وعلى نحو بسيط الى المدن كصنعاء والحديدة وتعز . ويقدر التعداد السكانى الاول فى اليمن الشمالى والذى جرى فى فبراير ١٩٧٥ ، السكان المتواجدين خارج حدود الدولة بحوالى ١٩ ٪(١) من المجموع العام للسكان(٢).

ويقدر عدد المهاجرين الى المملكة العربية السعودية وحدها بحوالى مليون وربع . وهؤلاء يمثلون نحو ٣٥ ٪ من مجموع القوى العاملة فى اليمن الشمالى . والمهاجرين هم من رجال وشباب العائلات الفلاحية الصغيرة والمعدمة . وعليه كانت العلاقات الانتاجية السائدة فى الريف اليمنى الشمالى قوة الدفع الاساسية لعملية الهجرة هذه ، ونظرا لكون مردود انتاجهم لم يعد يكفى لسد مقتضيات معيشتهم فى حدها الادنى . وهكذا تفقد الزراعة قوة العاملين فيها ، مما قد يؤثر بدوره فى تدنى مستوى الانتاج كما ونوعا . هذا ومما هو جديربالاشارة ، ان أغلب المهاجرين هم من محافظات : صنعاء واب وتعز .

رابعا ــ لا تظهر فى الاحصاءات الزراعية الرسمية أية اشارة الى محصول القات.مع أن بعض التقديرات تشير الى أن مساحة الاراضى المشغولة

---

(١) نفس المصدر ، ص ٧

(٢) قدر عدد السكان للجمهورية العربية اليمنية فى تعداد عام ١٩٧٥ بحوالى ٦ ملايين وربع المليون نسمة .

بزراعة هذا المحصول قد تبلغ حوالى ١١ ٪ من مجموع المساحات المستغلة فى البلاد(١) .

ونعتقد أن هذا الرقم مبالغ به . ولو سلمنا جدلا بأن نسبة الاراضى المشغولة بزراعة القات لا تقل عن ٦ ٪ من جملة المساحات المستغلة للانتاج الزراعى . فان هذه المساحة تعادل المساحات المشغولة بزراعة القطن والبن والتبغ والخضروات مجتمعة . وهنا يكمن الخطر ، خطر توسع مزارع القات . ولذا نأمل أن تجرى دراسات علمية حول ما يشغله القات من المساحات على مستوى عموم القطر اليمنى الشمالى وعلى مستوى كل أقليم من أقاليمه . وكذلك دراسات حول انفاق العائلة أو الاسرة من دخلها للقات ، وغير ذلك من الدراسات التى نفتقر اليها . وذلك لاجل دراسة ابعاد مشكلة القات بشكل متكامل وواقعى .

ونظرا للانتشار الواسع لمحصول القات فى اليمن الشمالى ولما لهـذا النبات من تأثير سىء فى الاقتصاد اليمنى الشمالى ، ارى من الضرورى القاء الضوء على بعض جوانب وابعاد هذه المشكلة .

ان عادة مضغ القات (أو التخزين) كما يطلقون عليها من أخطر العادات ضررا وشعويقا فى اليمن الشـمالى ولهذه المشكلة العميقة الجـذور أبعاد اجتماعية واقتصادية وسياسية .

ويصور الاستاذ (محسن العينى) رئيس الوزراء لليمن الشمالى الاسبق هذه المشكلة بقوله :

« كلنا نعانى المأساة والمشكلة التى تعيشها بلادنا . لقد أصبح موضوع (القات) وصمة فى جبين اليمن ، ان أكثر من مليون مواطن يتناولون القات فاذا صرف كل مواطن على القات ثلاثة ريال يوميا ، وقد يصرف البعض أكثر من ذلك بكثير ، ولكن اذا افترضنا ان متوسط ما يصرفه الفرد يوميا هو ثلاثة

(١) Armin Schopen. Das Qat, Geschichte und Gebrauch des Genussmittels Catha Edulis Forsk. In der Arabischen Republik Jemen. Arbeiten aus dem Seminar fur Volker Kunde der Johann Wolfgang Goe the—Universitat Frankrurtam Main, Wieshaden 1978. p. 25.

ريالات ، معنى ذلك ان ما ينفق على ذلك فى اليوم هو ثلاثة مليون ريال ، اى أكثر من الف مليون ريال سنويا . وهذا ما يصرفه الشعب اليمنى على القات(١)» .

وكان هذا التقدير عام ١٩٧٢ . ولا شك ان هذا السعر قد زاد أكثر من عشرة أمثال فى الوقت الحاضر . وهذا يعنى ان ربطة القات التى كانت تباع بثلاث ريالات الآن بأكثر من ثلاثين ريال .

هذا وقد بذلت محاولات للقضاء على هذه الآفة « القات » ولكن جميع هذه المحاولات باءت بالفشل وظلت عادة مضغ القات راسخة فى المجتمع اليمنى . اذ لا تقتصر هذه العادة على الرجال فقط . بل انها تسود أيضا فى مجتمع النساء ، حتى بلغ من هذه العادة فى المدن الكبيرة انه ما ان يحل وقت الظهيرة ، حتى تتوقف الاعمال لانشغال المواطنين بالتخزين حتى غروب الشمس .

ان القات عبارة عن شجيرة من فصيلة — Catha Edulis — تزرع فى منطقة الجبال العالية من البلاد على ارتفاع (٨٠٠ — ٢٧٠٠ م) ولاوراقه خصائص مخدرة .

ويصل أرتفاع شجرة القات ٢٠ قدما وتعمر فى حدود العشرين سنة وتورق أوراقا جديدة طوال العام . ويبدأ بقطف أوراقه بعد عام واحد من زراعته ويمضغ السكان وريقاته ويحتفظون بالمضغة عدة ساعات فى أفواههم . ويبدأ مضغ أوراق القات اعتبارا من فترة الظهر . ويختلف مفعول القات باختلاف درجات جودته ومما يخلفه من شعور عام بالارتياح أو النشاط العضلى . الذين اعتادوا مضغه يضعونه فى اسمى مراتب الجمالية . ويعتبرونه مادة منبهة . بعضهم يستخدمونه كوسيلة مشجعة للعمل وآخرون لغرض التمتع أو من باب التعود أو لقتل الوقت .

لا تتوافر بيانات عن كميات القات المنتجة ولا عن نسبة المستخدمين للقات من مجموع السكان . وقد يبالغ البعض فى تقدير نسبة المستخدمين للقات من جملة سكان اليمن الشمالى . حيث تصل تلك التقديرات الى نحو ٩٠ ٪ وعلى

---

(١) جريدة الثورة ، ٢٠ مايو ١٩٧٢ ، صنعاء .

ما يبدو أن هذه التقديرات قائمة على نسبة الاستخدام فى المدن الكبيرة لا فى الريف ، حيث لاتزال تقطن أكثرية سكان اليمن الشمالى .

ونحن نعتقد بان نسبة المستخدمين للقات بشكل مستمر تتراوح ما بين ٧ر٧ ٪ — ٩ ٪ من مجموع السكان أو نحو ١١ ٪ — ١٤ ٪ من مجموع السكان الذين تبلغ أعمارهم ١٠ سنوات فأكثر(١) .

ان للقات تأثيرا سلبيا واضحا على تطوير القوى المنتجة فى البلاد . الامر الذى يؤثر بدوره فى تنمية هذا القطر . ان استخدام القات يقلل من كفاءة الطبقة العاملة من حيث الانتاجية ومن حيث ساعات العمل الانتاجى . ويقدر بعض الباحثين بأن اليمن الشمالى خسرت لانتشار عادة استخدام القات حوالى ٥٠ مليون ساعة عمل(٢) . ومن ناحية ثانية فان تخصيص مساحات واسعة من الارض لزراعة القات والجهد الكبير الذى يبذل فى العناية لانتاج هذا المحصول يعيق الى درجة واضحة تطوير المحاصيل الزراعية الاساسية للسكان واقتصاديات هذا البلد . ومن ناحية ثالثة نجد ان استخدام القات الذى يتميز بارتفاع سعره يكون على حساب رفاهية ودخل أفراد العوائل اليمنية القاطنة فى المدن .

---

(١) تم احتساب هذه النسب بالشكل التالى :

١ — استبعاد الأحداث الذين تقل أعمارهم عن ١٠ سنوات ويبلغ عددهم فى تعداد عام ١٩٧٥ نحو ١ر٥٧٨ر٦٨٦ نسمة أى نحو ٣٥ ٪ من مجموع السكان .

٢ — احتساب فقط ٥ ٪ من جملة عدد الاناث البالغ عددهن فى التعداد المذكور نحو ١ر٥٩٧ر١٧٠ نسمة ، ضمن المتعاطين للقات .

٣ — احتساب من ٢٠ — ٢٥ ٪ من جملة عدد الذكور البالغ عددهم فى التعداد المذكور نحو ١ر٣٥٠ر٤٧٠ نسمة ، ضمن المتعاطين للقات .

٤ — تم استبعاد المغتربين اليمنيين فى السعودية ودول الخليج وشرقى افريقيا والولايات المتحدة البالغ عددهم أكثر من ١ر٣ مليون مغترب .

(٢) Jemen — Report, Information der Deutsch — Jemeniti-schen Gesellschaft, Nr, 7, 1976, Frankfurt, P. 20.

ونحن لا نتفق مع من يمنح هذا المحصول صفة ايجابيات اقتصادية . اذ يدعى هؤلاء ان القات يشكل وسيلة لانتقال القوة الشرائية من المدينة الى الريف الذى ينتج هذا المحصول ويسهم بالتالى ، كما يدعون التنمية الذاتية للريف اليمنى(١) .

اذ لو استغلت أراضى الارياف لانتاج محاصيل غذائية ونقدية لكان المردود الاقتصادى وعلى مستوى عموم البلاد ، أعظم قيمة واهمية من القات ولساهمت القوى المنتجة فى هذه الارياف بخدمات اعظم لوطنها ولامتها .

ان زراعة أشجار القات فى اليمن الشمالى قد انتشرت على حساب زراعة أشجار البن الذى عرف اليمن بانتاج أجود اصنافه فى العالم . ان زراعة البن شهدت تدهورا محسوسا منذ أوائل هذا القرن . وعليه قد حل القات محل البن ، لأن زراعة القات تجود فى نفس المناطق التى تصلح لزراعة أشجار البن . بل وان القات يزرع فى مناطق أكثر ارتفاعا من مناطق زراعة البن. هذا ومنافسة أشجار القات لأشجار البن تعود لعوامل كثيرة نذكر منها :

١ ــ ارتفاع سعر القات بالنسبة لسعر البن ورواج سوقه المحلى .

٢ ــ الارتفاع المتزايد فى الداخل الناتج فى وحدة المساحة المزروعة بالقات مقارنة بالبن او اى محصول زراعى آخر .

وفى تقرير لبعثة منظمة الاغذية والزراعة للامم المتحدة F.A.O. زارت اليمن الشمالى عام ١٩٧٥ قدر انتاج كل مزرعة مساحتها هكتار واحد وتحتوى ٢٠٠٠ شجرة من أشجار القات ، بما يتراوح ما بين ٨٠٠ ــ ١٢٠ الف ريال سنويا(٢) . وعليه من النادر وجود محاصيل أخرى فى العالم تنافس القات من الناحية الاقتصادية .

---

(١) الجهاز المركزى للتخطيط ، الجمهورية العربية اليمنية ، الخطة الخمسية الأولى (٧٧/٧٦ ــ ١٩٨١/٨٠) ، الكتاب الثانى ، تحليل للوضع الراهن ، مطبعة دار الكتاب ــ دمشق ص ٢٥

(٢) زراعة البن فى اليمن عام ١٩٧٥ ، تقرير فنى مقدم الى منظمة الأغذية والزراعة التابع للأمم المتحدة (غير منشور) صنعاء ١٩٧٥ ، ص ٢٤

واستنادا الى دراسة ميدانية قمنا بها فى وادى الاهجر القريب من مدينة شبام الواقعة على مسافة ٥٧ كم شمال غرب العاصمة صنعاء ، تبين ان الدخل الناتج من وحدة المساحة البالغة لبنة واحدة (١٦ × ١٦ ذراع) أى ما يعادل حوالى ٢٥٠ متر مربع :

٥٠٠٠ ريال بالنسبة لمحصول القات .

٨٠٠ ريال بالنسبة لمحصول البن .

٦٠ ريال بالنسبة لمحصول الذرة .

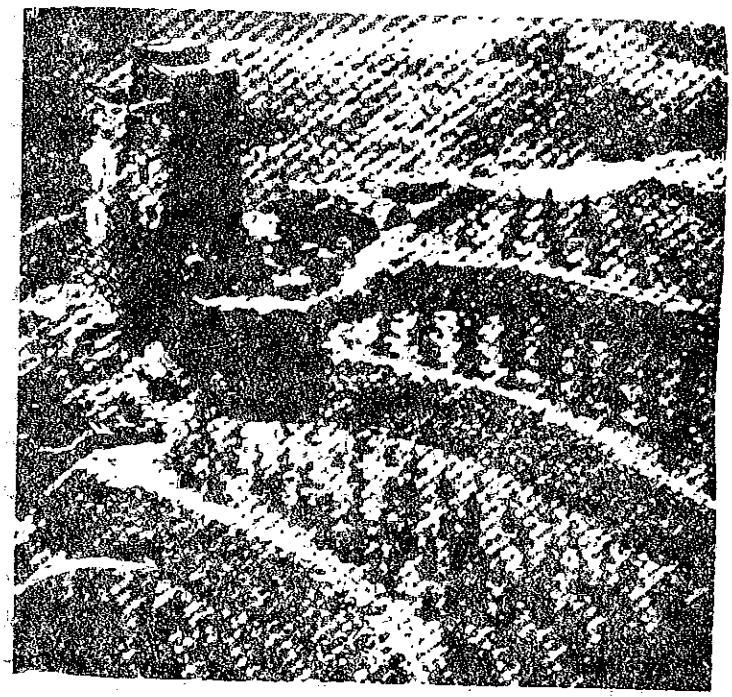

شكل (٧)
مزارع أشجار القات على المدرجات فى منطقة المرتفعات الوسطى على امتداد طريق صنعاء ـــ الحديدة

٣ — ان البن محصول نقدى كان يزرع لغرض التصدير الى الخارج(١) . وكان تصدير هذا المحصول يعانى من صعوبات كثيرة منها تخلف طريق النقل والمواصلات فى عموم البلاد شاطبة ، وتذبذب أسعار البن فى الاسواق العالمية من سنة لاخرى .

٤ — ان أشجار البن بحاجة الى عناية اكبر من أشجار القات كما تتطلب فترة أطول لكى تعطى ثمرا (٣ — ٤) سنوات . هذا الى جانب شدة حساسيته للبرد وتعرضها لاخطار الجراد والافات الزراعية الاخرى التى تتعرض لها اليمن من عام الى آخر . فى حين ان أشجار القات تقاوم الآفات الزراعية ، ولا تتأثر لارتفاع درجة الحرارة(٢) وتتحمل الجفاف نسبيا ، ولا تتطلب سوى مجهود بسيط .

٥ — ان اشجار القات تعطى محصولا طوال العام ، فى حين تعطى شجرة البن محصولا واحدا فى العام .

ومن الناحية الصحية ، فان استخدام القات له مضاعفات كثيرة ، منها الارق وسوء الهضم وفقدان الشهية وضعف البنية .

تقييم القطاع الزراعى :

يتميز القطاع الزراعى فى اليمن الشمالى بتخلف عام مستوى عموم البلاد . وتعتبر الحبوب وبخاصة الذرة والشعير أهم المحاصيل الزراعية ، مع أن انتاجها المحلى ، لا يسد الا جزءا قليلا من حاجة السوق المحلى . وهذا مما يعكس لنا انخفاض الانتاج والانتاجية فى المجال الزراعى بصورة عامة،لهذا تتصدر الحبوب استيرادات الدولة من حيث القيمة ، حيث بلغت قيمة استيرادات الحبوب ومنتجاتها فى عام (٧٥ — ١٩٧٦) حوالى خمس قيمة الاستيرادات الكلية للبلاد . (شكل ١١) .

---

(١) ومما يلفت النظر أن أهل اليمن لا يستهلكون البن وانما قشور البن التى يغلونها مثل الشاى .

(٢) وفى بعض المناطق تتأثر أشجار القات بانخفاض درجة الحرارة فى فصل الشتاء الى مادون درجة الصفر المئوى — وفى هذه الحالة يتحول لون أوراق القات الى اللون الأصفر المائل الى الحمرة وتصبح الأوراق غير صالحة للاستخدام .

وان تدهور الانتاج الزراعى فى اليمن الشمالى حصيلة حتمية للاوضاع التى تتحكم فى القطاع الزراعى فى هذا البلد . فالعلاقات الانتاجية السائدة فى الزراعة والاساليب المستخدمة فيها وقلة الامطار والاستغلال الجزئى لموارد المياه الجوفية وهجرة القوى العاملة البشرية من الريف اليمنى ، كلها عوامل لعبت ولا تزال تلعب دورها فى انخفاض الانتاج الزراعى فى هذا البلد . وبالنسبة للانتاج والانتاجية فى القطاع الزراعى نكتفى بأيراد بعض البيانات المتوفرة ، التى تعكس واقع الانتاج الزراعى فى اليمن الشمالى .

ان انتاج القطن قد انخفض من ٢٨ ألف طن فى عام ١٩٧٥/٧٤ الى ١ر٥ ألف طن فى عام ١٩٧٧/٧٦ . كما انخفض انتاج اليمن من ٥٠٠٠٠ طن فى عام ١٩٦١/١٩٦٠ الى حوالى ٣ر٤ الف طن فى عام ١٩٧٧/٧٦ (شكل ٨) . ومما تجدر الاشارة هنا ان انتاج اليمن الشمالى من البن كان يتجاوز ١٣٠٠٠ طن فى فترة ما قبل الحرب الثانية(١) .

كما انخفض انتاج الشعير من ١٦٠ الف طن فى عام ١٩٧٠/٦٩ الى ٥٤ الف طن فى عام ١٩٧٧/٧٦ .

اما بالنسبة للقمح فكانت الزيادة فى انتاجه خلال الخمس عشرة الاخيرة طفيفة جدا بالمقارنة بزيادة عدد السكان وارتفاع قدراتهم الشرائية خلال الفترة المذكورة . حيث زاد الانتاج من القمح من ٢٦٠٠٠ طن فى عام ١٩٥٩/٥٨ الى ٥١٠٠٠٠ طن عام ١٩٧٧/٧٦ (شكل ٩) .

ولقد انعكس آثار التدهور الزراعى وبالتالى عجز القطاع الزراعى والثروة الحيوانية عن تأدية وظيفتها فى مجمل الاقتصاد الوطنى ، على ميزان المدفوعات والذى أخذ يتحمل عبء الاستيراد المتزايد من المنتجات الزراعية ومن منتجات الثروة الحيوانية كما يوضح الجدول التالى :

---

(١) محمد سعيد العطار : مصدر سابق : ص ٢٠٢ .

(جدول ٥) قيمة صادرات واستيرادات الجمهورية اليمنية من المواد الغذائية والمنتجات الحيوانية

بألف ريال

السنة	الصادرات		الاستيرادات	
	قيمة الصادرات	نسبتها الى الصادرات الكلية	قيمة الاستيرادات	نسبتها الى الاستيرادات الكلية
١٩٦٤	٣ر٥٩٨	٧٤٪	١٠ر٣٨٩	٤٥ر٣٪
١٩٦٦	٤ر٦٩٠	٦٤ر٤٪	٣٤ر٤٩٨	٦١ر٢٪
١٩٦٩	١٥ر٧٤٣	٨٧ر٧٪	٦٧ر١٥٢	٤٢ر٥٪
١٩٧٢/٧١	١٤ر٧٩٨	٥٩ر٩٪	٩٣ر٢٥٦	٤٥ر٦٪
١٩٧٣/٧٢	٢٤ر٢٦٤	٩٧ر٥٪	١٨١ر٧٠٣	٤٤ر٢٪
١٩٧٤/٧٣	٥٢ر٦٩٦	٩٥ر٢٪	٣٦٧ر٢١٠	٤٩ر٣٪
١٩٧٥/٧٤	٤٢ر٨٧٠	٨٠ر٩٪	٤٢٢ر١٩٦	٤٣ر٠٪
١٩٧٦/٧٥	٤٣ر٢٥٦	٨٦ر٤٪	٧٤٩ر٤٢١	٤٤ر٠٪

المصدر : كتاب الاحصاء لعام ١٩٧١ ، ص ٤٦ .

كتاب الاحصاء لعام ١٩٧٧/٧٦ ص ١٢٣ ، ص ١٣٠ — ١٣٦

شكل (٨) إنتاج القطن والتبغ والبن فى الجمهورية العربية اليمنية
خلال الفترة (١٩٧٠/٦٩ - ١٩٧٧/٧٦)

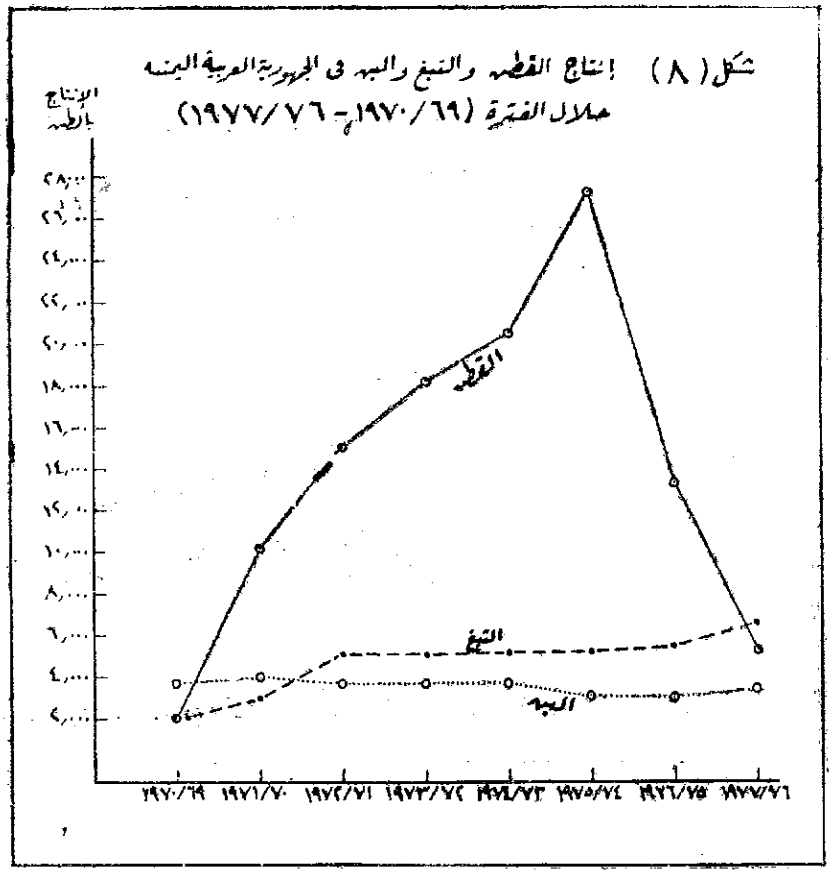

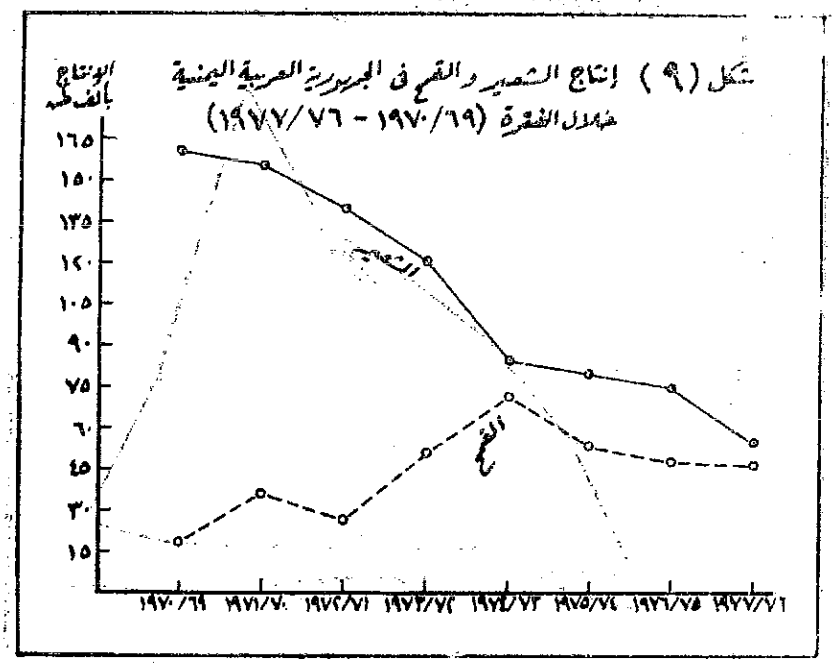
شكل (٩) إنتاج الشعير والقمح في الجمهورية العربية اليمنية
خلال الفترة (١٩٧٠/٦٩ - ١٩٧٧/٧٦)
الإنتاج بالف طن
١٦٥
١٥٠
١٣٥
١٢٠
١٠٥
٩٠
٧٥
٦٠
٤٥
٣٠
١٥
الشعير
القمح
١٩٧٠/٦٩
١٩٧١/٧٠
١٩٧٢/٧١
١٩٧٣/٧٢
١٩٧٤/٧٣
١٩٧٥/٧٤
١٩٧٦/٧٥
١٩٧٧/٧٦

ومن الجدول (٥) يتضح :

١ — ان قيمة المستوردات من المواد الغذائية فى ارتفاع مستمر . حيث ارتفعت من حوالى ١٠ ملايين الى نحو ٧٤٩ مليون ريال خلال الفترة ١٩٦٤ — ١٩٧٦ ، أى ان قيمة المنتجات الزراعية والحيوانية المستوردة تؤلف حوالى ٤٤ ٪ من جملة استيرادات البلاد (٧٥ / ١٩٧٦) . وترجع هذه الزيادة الى عجز القطاع الزراعى عن مواجهة الطلب المحلى المتزايد على المنتجات الزراعيه والحيوانية وذلك بسبب تزايد السكان وارتفاع قدراتهم الشرائية من ناحية وتغير نمط استهلاك المواطنين من المواد الغذائية ومن منتجات الثروة الحيوانية من ناحية ثانية .

٢ — على الرغم من ارتفاع قيمة الصادرات من حوالى ٣ر٦ مليون ريال الى نحو ٤٣ مليون ريال خلال الفترة المذكورة نفسها الا انه من الواضح ان نسبة الزيادة فى قيمة الصادرات ضئيلة جدا بالقياس لنسبة الزيادة فى الاستيرادات . وعليه فان هناك عجزا واضحا وان هذا العجز فى تزايد مستمر ما بين قيمة صادرات واستيرادات الدولة من المنتجات الزراعية ومنتجات الثروة الحيوانية . ومن ناحية أخرى يظهر فى الشكل (١٠) هزال قاعدة الانتاج الاقتصادى وذلك لكون الاقتصاد اليمنى اقتصادا وحيد الجانب حيث تؤلف المواد الاولية الزراعية والحيوانية (القطن والبن والجلود الخام) أكثر من ٨٥ ٪ من جملة الصادرات قيمة . بينما تؤلف المواد الغذائية نحو ٤٥ ٪من جملة الاستيرادات قيمة . وهذا يعنى ان هذا الاقتصاد الوحيد الجانب عاجز حتى عن تلبية الحاجات الضرورية للمواطنين .

وعليه فان التخطيط السليم والحاجة الملحة فى اليمن الشمالى فى الوقت الحاضر ، تستدعيان من السلطات المسئولة ضرورة اتخاذ الاجراءات الكفيلة بتوسيع القاعدة الزراعية فى البلاد . وذلك بتنويع المحاصيل الزراعية ، على أن يكون التركيز على تطوير المحاصيل الغذائية الاساسية والمحاصيل الاقتصادية التى تعتمد أساسا على تجارة الصادر **كالقطن والبن**

والتبغ بصفة خاصة ، بهدف سد متطلبات السكان من المحاصيل الغذائية الرئيسية كالقمح والذرة وتشجيع عمليـة التنمية الصناعية ، بما تقـدمها الزراعة من المواد الخام الاولية للمشاريع الصناعية المتواجدة والمقترحة كالقطن والتبغ وقصب السكر وبعض أنواع الخضروات .

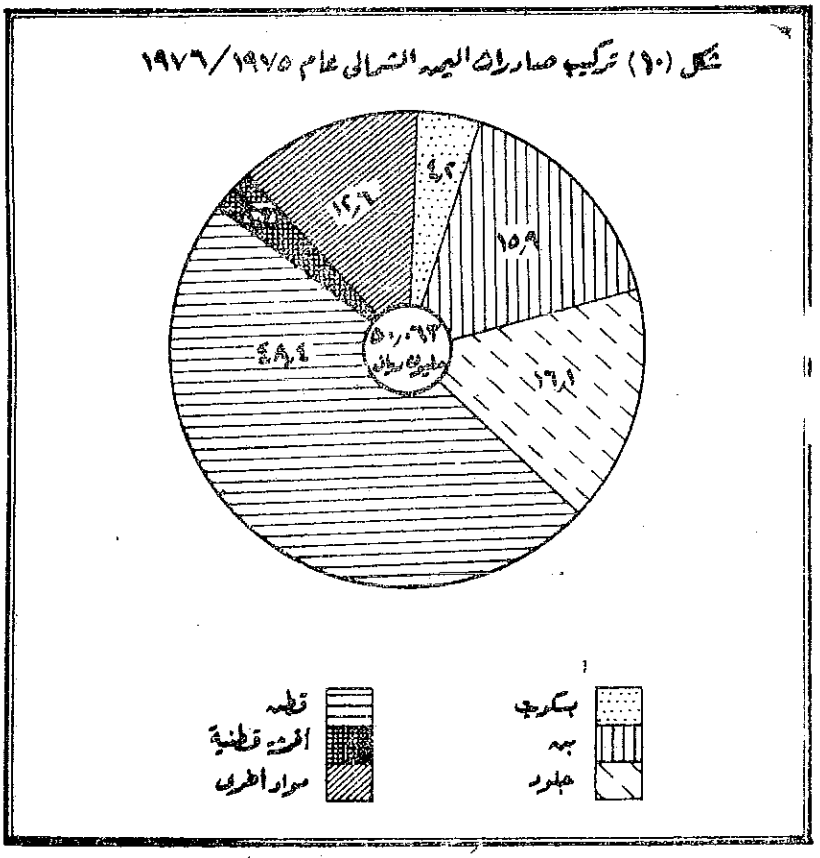

شكل (١٠)

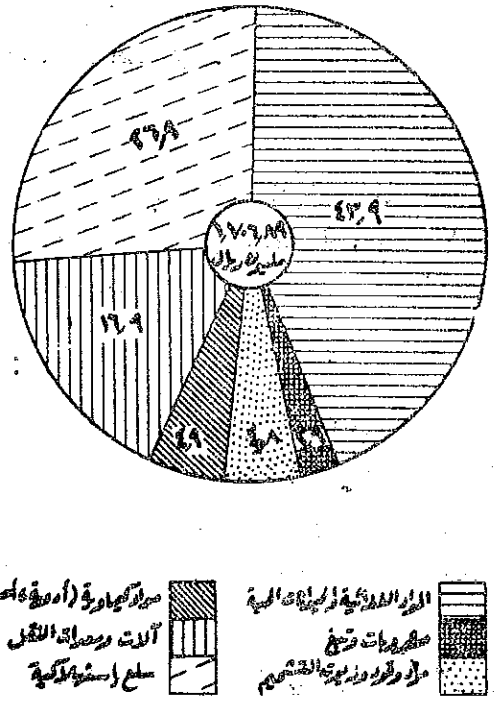

شكل (١١)

تركيب استيرادات اليمن الشمالى عام ١٩٧٦/٧٥

بعض عوامل تخلف القطاع الزراعى :

سبق وان تطرقنا لعامل هجرة القوى العاملة من الريف اليمنى الشمالى ونتائج هذه الهجرة فى تدنى مستوى الانتاج الزراعى (ص ٨) . كما اشرنا لعامل قلة الأمطار السنوية وتذبذبها من عام لآخر ، وتأثير ذلك على الانتاج الزراعى كما ونوعا . حيث يعتمد ٨٥٪ من المساحات المستغلة للانتاج الزراعى على الأمطار (شكل ٥) .

بالاضافة الى هذين العاملين : هناك عوامل اخرى كثيرة تلعب دورهـــا فى تخلف القطاع الزراعى ، ومن هذه العوامل نذكر :

١ ــ طبيعة العلاقات الانتاجية المتحكمة فى الريف .

أنماط الملكية الزراعية فى اليمن الشمالى :

الملكية الخاصة :

ان حوالى ٨٠٪ من جملة المساحات الزراعية المستغلة فى الجمهورية العربية اليمنية تعود للأفراد أى انها ملكيات خاصة . وهذه الملكيات الخاصة تصنف الى صنفين بحسب حجمها .

١ ــ الملكيات الكبيرة :

وهذه تكون حوالى ٧٠٪ من جملة الأراضى المزروعة وتشمل أخصب الأراضى الزراعية فى اليمن الشمالى ، ويذكر الأستاذ العطار بأن بعض الملكيات الكبيرة المتواجدة فى مناطق صنعاء وتعز وإب ووادى زبيد (فى سهل تهامة) تتراوح مساحتها ما بين ٣٠٠ الى ٢٥٠٠ هكتار وقد تصل أحيانا الى ٥٠٠٠ هكتار(١) .

وهذه الملكيات التى تمثل أخصب الأراضى الزراعية الموجودة فى اليمن الشمالى تعود للشيوخ وكبار التجار . وهؤلاء يكونون حوالى ٢٠٪ من مجموع المالكين للأرض فى البلاد .

ويتم استغلال هذه الملكيات عن طريق عقود خاصة ما بين مالكى الأرض والفلاحين الذين لا يمتلكون أرضا . وبموجب هذا الاتفاق تؤجر الأراضى قطعا الى الفلاحين تبعا لعلاقات المشاركة التى تختلف من منطقة الى أخرى ، تبعا لعوامل عديدة منها :

مصدر المياه ووفرتها وخصوبة التربة وموقع الملكيات الزراعية ونوع المحاصيل التى تزرع فيها ومتطلباتها . وتتفاوت حصة الفلاح المزارع ما بين ثلث ونصف المحصول . والحقيقة انه ليس هناك أى قانون يحكم علاقات المشاركة لأن الكلمة لصاحب الأرض .

---

(١) محمد سعيد العطار ــ التخلف الاقتصادى والاجتماعى فى اليمن ، أبعاد الثورة اليمنية ، بيروت ، ١٩٦٥ ، ص ١٢٤٠

٢ ــ الملكيات المتوسطة والصغيرة :

وهذه تشمل حوالى ١٠٪ من جملة الأراضى الزراعية المستغلة . وتتراوح مساحات الملكية هنا ما بين ٤ الى ٣٠ هكتار فى سهل تهامة(١) .

وهذه الملكيات تعود فى أغلبها لأبناء القبائل ويتم استغلالها من قبل ابنـــاء القبائل أو تؤجر للفلاحين المعدمين حسب اتفاق بين المالك والمؤجر . غير أن انتاج هذه الملكيات لا يسد المتطلبات الضرورية لاستغليها .

(ب) أراضى الدولة :

وهذه تكون حوالى ٢ ــ ٣٪ من جملة المساحات المزروعة(٢) وكانت ملكيتها تعود لأفراد العائلة الامامية السابقة . وتؤجر هذه الاراضى للمزارعين حسب اتفاق بين الدولة والمزارعين . وقد استغلت بعض هذه الملكيات فى اقامة مزارع تجريبية فيها كمشروع وادى زبيد ومشروع وادى سردود فى ســـهل تهامـــة .

(ج) أراضى الوقف :

وهذه تكون حوالى ١٥ ــ ٢٠٪ من جملة الملكيات الزراعية المســـتغلة فى اليمن(٣) . وهذه الملكيات تؤجر للمزارعين ويخصص ريعها لخدمة المســـاجد ولاصلاح وصيانة الشوارع والآبار . وتدار هذه الملكيات من قبل ناظـــر الأوقاف .

من هذا العرض للعلاقات الانتاجية فى الزراعة اليمنية ، يظهر سوء توزيع الملكية الزراعية ، حيث يمتلك ٨٠٪ من ملاكى الأراضى الزراعية فقط ١٠٪ من جملة الأراضى الزراعية . فى حين يمتلك ٢٠٪ من الملاك حوالى ٧٠٪ من الملكيات الزراعية .

---

(١) A. Albaydany, op. cit. p. 54.

(٢) Ibid, p. 55.

(٣) Horst dequin, das landwirtschaftspotential des jemen und gegenwartige agrarpolitische Entwicklungslinien. F A O / World Bank Cooperative Programe, Rom 1973, p. 55.

وبالاضافة الى عامل طبيعة العلاقات الانتاجية المتحكمة فى الريف اليمنى .. هناك فى الواقع عامل آخر أشد قوة فى استمرارية نزيف الهجرة الى الخارج فى الوقت الحاضر ، وهذا العامل مرتبط بطبيعة الحال بالعلاقات القبلية التى تسود المجتمع اليمنى . وهذا العامل يتمثل فى ارتفاع المهر فى المناطق الريفية ، تبعا لمراتب القبائل حتى يصل الى نحو ١٠٠٫٠٠٠ ريال . وهكذا يكدح شباب العائلات الفلاحية المعدمة سنينا طوالا فى مهجرهم لأجل توفير تلك المبالغ دون طائل ..

فالمهر أيا كان مقداره ونوعه فانه يعتبر الوسيلة الوحيدة لقيام علاقة زوجية شرعية يعترف بها المجتمع .. كما أنه هو الذى يعطى الأبناء مركزهم الاجتماعى نتيجة لتلك الرابطة الشرعية .

ويختلف المهر كما وفقا لعدد من المتغيرات أهمها المرتبة الاجتماعية ودرجة الثراء . فالمهر يزداد كلما ارتفعت الطبقة الاجتماعية وازدادت درجة الثراء(١) ..

٢ — أساليب الزراعة :

لازالت الزراعة فى اليمن الشمالى تقوم على الأساليب التقليدية توارثها الفلاحون عن أجدادهم .. وان كانت الفترة الأخيرة قد شهدت تطورا ملحوظا فى الأساليب المستخدمة فى الزراعة ، والحقيقة أن تخلف الأساليب المتبعة فى النشاط الزراعى فى هذا البلد يعود الى :

١ — التخلف العام فى مجالات الحياة كلها والذى عانى منه هذا البلد لأجيال طويلة من الزمن والى ما قبل الانفتاح الحضارى المفاجىء على العالم فى الفترة التى تلت ثورة سبتمبر عام ١٩٦٢ ..

٢ — طبيعة الأراضى القابلة للزراعة فى العديد من مناطق البلاد وبخاصة فى منطقة المرتفعات حيث يقف صغر مساحة المدرجات التى يتم زراعتها عائقا أمام استخدام الآلات .

وفيما يلى عرض لبعض الجوانب الأساسية للأساليب المستخدمة فى القطاع الزراعى ، لعلها تساعد القارىء على القاء الضوء على طبيعة ونمط الأساليب المستخدمة فى الزراعة اليمنية ..

---

(١) محمد مصطفى الشعبينى ، اليمن ، الدولة والمجتمع ، القاهرة ١٩٧٥ ، ص ٨٤

انماط الانتاج الزراعى :

يسود فى اليمن الشمالى أنماط عديدة من الانتاج الزراعى ، تبعا لاختلاف المنطقة وتوافر المياه وفيما يلى أهم هذه الأنماط :

١ — الزراعة البصلية أو الجافة :

ويسود هذا النمط من الانتاج الزراعى فى المناطق التى تستلم كميات كافية من الأمطار دون أن توجد فيها أنهار جارية طوال العام .

٢ — الزراعة الشتوية :

وهى التى تعتمد على مياه الأمطار والمياه الجوفية ، وباستثناء منطقة تهامة فان الزراعة تتم فى أغلب بقاع اليمن على المدرجات . ولا تستخدم الدورة الزراعية . ونسبة كبيرة من الأراضى لا تزرع أكثر من مرة واحدة فى السنة .

أما عن طرق الرى المستخدمة فأهمها الرى من مجارى الأودية ، والرى عن طريق رفع مياه الآبار باستخدام المضخات وكذلك تستخدم طريقة الرى بواسطة الثقالة(١) .

أدوات الانتاج الزراعى :

ان الأدوات التى يستخدمها الفلاح اليمنى فى الانتاج الزراعى لا تخرج عن تلك التى عرفها الانسان واستخدمها قديم الزمان وهى تتألف فى أغلبها من المحراث الخشبى والمنجل والفأس كما تستخدم الحيوانات (الثيران والحمير) على نطاق واسع وبخاصة فى عمليات حرث الأرض وتسويتها وتمهيدها للزراعة .

ولكننا نلاحظ اتجاها فى السنوات الأخيرة لاستخدام وسائل وأدوات انتاج حديثة مثل الجرارات ومضخات المياه وأسمدة كيماوية ومبيدات الحشرات . كما يبدو ذلك من تطور استيرادات الدولة من تلك الأدوات الانتاجية .

---

(١) وتعتمد هذه الطريقة على سحب جزء من مياه واد أو نبع أو حتى سدود صغيرة وجمعها ثم توزيعها بواسطة القنوات .

جدول (٦) : تطور استيراد بعض المستلزمات الزراعية (١٩٦٦ — ١٩٧٥)

النوع	وحدة القياس	١٩٦٦	١٩٦٩	١٩٧٣	١٩٧٥
مبيدات الحشرات	طن		١١٨	٣٤٥	١ر٨٣٤
أسمدة كيماوية	طن	٥٠	١٧٩٧	١٦٩٩	٣ر٣٦٣
مضخات المياه	عدد	٢٣	٤٦٢	٣٩٢٨	٢٣٨
جرارات	عدد	١٠٤	١٤٥	٣١	

المصدر : البيانات الخاصة بعامى ١٩٦٦ ، ١٩٦٩ استخرجت من تقرير عن المسح الصناعى الشامل وفرص التنمية الصناعية بالجمهورية العربية اليمنية ، الجزء الأول ، مركز التنمية الصناعية للدول العربية ، صنعاء ١٩٧١ ، ص ١٧٧

أما البيانات الخاصة بعامى ٧٢ و ١٩٧٥ فقد أخذت من كتاب الاحصـــاء لعام ١٩٧٧/٧٦ . مصدر سابق ، ص ٧٧ .

ومع التسليم بضرورة مضاعفة الأعداد المذكورة من الآلات الزراعية ، لاحداث تطور حقيقى فى المجال الزراعى فى اليمن الشمالى ، الا انه لابد من تسجيل بعض التحفظات حول استخدام المكنكة بصفة خاصة . ومن هـــذه التحفظات ما يتعلق بطبيعة الأراضى المستغلة للانتاج الزراعى فى كثير من المناطق،كالزراعة على المدرجات وصغر مساحة الملكيات الزراعية وضعف سمك التربة مما لا يلائم الحرث العميق الذى تحققه الآلات .

الثروة الحيوانيـــة :

تمتلك الجمهورية العربية اليمنية ثروة حيوانية ضخمة . اذ تشـــير الاحصاءات الرسمية للدولة ، الى أن هذه الثروة تضمنت عام ١٩٧٦(١)

حوالى ١١ مليون رأس من الغنم والماعز .
٨٠٠ الف رأس من البقر .
١١٠ الف رأس من الجمال .

(١) كتاب الاحصاء لعام ١٩٧٧/٧٦ مصدر سابق ، ص ٧٦ ، جدول (٢٥)

وعليه كان من الممكن أن تسهم الثروة الحيوانية بنصيب كبير فى تكوين الناتج المحلى الاجمالى . كما كان من الممكن أن تلعب هذه الثروة دورا كبيرا فى اقتصاديات هذا البلد . ولكن الواقع هو عكس ما تصورها البيانات المذكورة أعلاه . اذ لا يزال قطاع الثروة الحيوانية جزأ لا يتجزأ من القطاع الزراعى المتخلف الآنف الذكر ، غير قادر على تلبية متطلبات الاقتصاد الوطنى . فعلى سبيل المثال نذكر أن اليمن الشمالى قد استورد فى عام ١٩٧٦ من اللحوم ما قيمته ٣ر٨ مليون ريال ومن الحيوانات الحية ما قيمته ٥ر٩ مليون ريال ومن منتجات الألبان والبيض ما قيمته ٦ر٣٤ مليون ريال(١) .

ومما يؤسف له عدم توفر بيانات رسمية أو غير رسمية للمقارنة بين قيمة الانتاج المحلى من المنتجات الحيوانية وقيمة المستورد منها ، لأجل اعطاء القارىء صورة متكاملة عن دور قطاع الثروة الحيوانية فى اقتصاديات البلاد ونسبة مساهمتها فى سد حاجة السوق المحلى . ومع ذلك نستطيع — اعتمادا على بعض البيانات — ان نقول ان هذا القطاع عاجز أيضا عن تأدية دوره فى مجمل الاقتصاد الوطنى . وهذا الوضع يعود دون شك الى تدنى انتاجية الثروة الحيوانية فى القطر اليمنى الشمالى .

ولكى نوضح هذه الحقيقة نورد بعض البيانات التى تم احتسابها اعتمادا على كتاب الاحصاء لعام ١٩٧٧/٧٦ والصادر عن الجهاز المركزى للتخطيط فى مدينة صنعاء . واستنادا الى هذا المصدر ، يبلغ انتاج الرأس الواحد من الغنم من الصوف كيلو غرام واحد فى السنة فقط ، فى حين يعطى الرأس الواحد من بعض أصناف الأغنام فى المملكة المتحدة ما بين ٥ر٤ — ٥ كغم من الصوف سنويا فى الجزة الواحدة(٢) .

ويبلغ متوسط وزن البقرة بعد الذبح فى اليمن الشمالى ٦٥ كلغ(٣) . مقابل ٨٠٠ — ١٠٠ كغم فى العراق و٢٢٦ فى سويسرا و٢٠٠ كغم فى لبنان(٤) .

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٣٠ ، (جدول ١٤٢) .
(٢) انظر : مصطفى كمال عمر حمادة ، انتاج الضأن والصوف ، الاسكندرية ، ١٩٧٦ ص ٢٠٠ — ٢١٠ .
(٣) التطور الاقتصادى والاجتماعى فى الجمهورية العربية اليمنية ، الجهاز المركزى للتخطيط ، صنعاء ١٩٧٦ ، ص ٣٠
(٤) محمد عبد الغنى سعودى ، الوطن العربى ، القاهرة ١٩٧٥ ، ص ١٠٤

كما يبلغ معدل انتاجية البقرة الواحدة من الحليب فى اليمن الشمالى ٤٠٠ كغم فى العام(١) . بينما تدر البقرة الواحدة فى هولندا أكثر من ٤٠٠٠ كغم فى العام وفى الدنمارك ٣٧٥٠ كغم وفى الباكستان ٩٣٠ كغم وفى استرالية ٢٨٠٠ كغم(٢). ومما يزيد فى قلة ادرار الحليب أن الماشية فى اليمن الشمالى ، هى فى انواقع حيوان العمل الزراعى ، مما يؤدى الى انهاكها المتواصل . هذا فضلا عن سوء تغذيتها . ان هذه الانتاجية الهزيلة للثروة الحيوانية فى القطر اليمنى الشمالى تعود لعوامل كثيرة نذكر منها :

١ — سوء تغذية الحيوانات بحكم ارتفاع أسعار العلف الأخضر وضعف المراعى الطبيعية .

٢ — عدم توافر الرعايةالبيطرية بشكلمناسب ، اذ لا يزيد مجموع أطباء البياطرة فى اليمن الشمالى عن طبيبين اثنين فقط . وعليه يبلغ نصيب كل خمسة ملايين أو أكثر من الحيوانات طبيبا واحدا . بينما المعدل فى سويسرا ٤٠٠٠ رأس لكل طبيب . لهذا تنتشر الأمراض بين الحيوانات وكثيرا ما تظهر بشكل أوبئة ، مما يؤدى الى اضعاف الرغبة فى نفوس مربى الحيوانات والى خلق أضرار اقتصادية جسيمة للبلاد . ومما يؤسف له عدم توافر البيانات التى توضح حقيقة الخسائر السنوية التى تسببها هذه الأوبئة ، ولكن البيانات الرسمية تشير الى تناقص مستمر فى عدد الأبقار حيث انخفض العدد من حوالى ١ر٢٠٠ر٠٠٠ رأس عام ١٩٦٧ الى ٨٠٠ ألف رأس عام ١٩٧٦ . وعلى انرغم من كل ذلك فان تربية الحيوان وخاصة الأغنام والماعز يعتبر أكبر مردودا من الانتاج الزراعى الذى يكاد لا يسد انتاجه حاجة العاملين فيه . وذلك لصغر مساحة الوحدات الزراعية المستغلة وانخفاض انتاجيتهما كما بينا ، وعليه نجد أن أغلب المزارعين يعمدون الى تربية الأغنام والماعز لسد النقص الحاصل فى متطلبات حياتهم . ولذلك يولون جهدا ورعاية أكبر لتربية حيواناتهم . وقد لاحظنا ذلك بكل جلاء فى أثناء قيامنا بدراسة ميدانية فى منطقة ذمار فى السنة المنصرفة ، حيث أوضح المزارعون لنا أن الدخل المتأتى من تربية الرأس الواحد من الغنم

---

(١) التطور الاقتصادى والاجتماعى ، الجمهورية العربية اليمنية ، مصدر سابق ص ٣٠

(٢) محمد توفيق رجب وعسكر أحمد عسكر ، انتاج اللبن من الابقار والجاموس ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٢٢

سنويا يزيد على ما يحصل عليه المزارع من استغلال قطعة الأرض التى يقوم بزراعتها . وذلك بسبب ارتفاع سعر اللحم البلدى الذى يبلغ سعره أكثر من أربعة أضعاف سعر اللحم المستورد .

وقبل أن ننهى حديثنا عن الثروة الحيوانية لابد من الاشارة الى أن انتاج الجمهورية العربية اليمنية من الأسماك لا يتناسب اطلاقا مع طول سواحلها البالغ (٢٢٠) ميل بحرى ، حيث بلغت جملة الانتاج السنوى من الأسماك فى عام ١٩٧٦/٧٥ نحو ٦٣٢٠ طنا . وهنا يتم صيد الأسماك بطرق بدائية ولاتتوفر وسائل نقل ملائمة تبدو واضحة أكثر اذا ما علمنا أن مناطق صيد الأسماك فى اليمن الشمالى ، تتميز بارتفاع درجات الحرارة والرطوبة طوال أيام السنة ، مما يتطلب ضرورة توفر وسائل حديثة لنقل الأسماك بعد صيدها مباشرة تجنبا لفسادها . وتشير التقارير الخاصة بمشروع تطوير الأسماك فى الحديدة الى انه قد تم اتلاف حوالى (٥) أطنان من الأسماك فى الحديدة عام ١٩٧٥ لعدم صلاحيتها للتسويق(١) . وأن هذه الخسارة فى الثروة السمكية تتكرر باستمرار خلال موسم الصيف نتيجة لعدم توفر مخازن مبردة لخزن الأسماك بعد صيدها .

---

(١) صوت الصياد ، نشرة اخبارية يصدرها مشروع تطوير الأسماك فى فى الحديدة ، العدد الاول ، ٢٠ مايو ١٩٧٥ ، ص ٥ .

آفاق التطور الزراعى فى الجمهورية العربية اليمنية
فى اطار الخطة الخمسية الأولى
١٩٧٦ / ١٩٧٧ — ١٩٨٠ / ١٩٨١

انطلاقا من الاهداف العامة للتنمية الاقتصادية ومن تحليل واقع القطاع الزراعى المتخلف فى الجمهورية العربية اليمنية كما وجدنا ، فان الخطة الخمسية الاولى للسنوات (١٩٧٧/٧٦ — ١٩٨١/٨٠) وضعت اهدافا واستراتيجيات أساسية على مستوى مجموع القطاع الزراعى وقطاع الثروة الحيوانية من أجل القيام بتنمية سريعة فى هذا المجال .

ان الخطة الخمسية اليمنية تسعى فى مجال القطاع الزراعى والثروة الحيوانية الى تحقيق الاهداف الاساسية التالية(١) :

١ — السير فى الطريق الاكتفاء الذاتى من منتجات الزراعية الغذائية ضمن الحدود الاقتصادية مع الاخذ بعين الاعتبار زيادة السكان ورفع المستوى الغذائى للمواطنين .

٢ — تأمين احتياجات المشاريع الصناعية القائمة والمقترحة من المواد الخام والاولية الزراعية .

٣ — التخفيف من عجز الميزان التجارى فى المواد الزراعية وذلك بتخفيض حجم المستوردات وزيادة حجم وأنواع الصادرات لاهم المنتجات الزراعية .

٤ — تحسين نوعية المنتجات الزراعية وزيادة أصنافها .

٥ — اشاعة الخضرة فى البلاد بالاشجار المثمرة والحراجية والمروج .

٦ — دعم المنتج الصغير ماديا والعمل على تحقيق العدالة والاستقرار فى العلاقات الزراعية .

ومن أجل الوصول الى تحقيق الاهداف المذكورة ، فان الخطة قد حددت الاستراتيجيات التالية :

---

(١) الخطة الخمسية الأولى (١٩٧٧/٧٦ — ١٩٨١/٨٠) ، الكتاب الثالث ، الأهداف والاستراتيجيات العامة ، مصدر سابق ، ص ١٩

١ ــ استكمال بناء المؤسسات الزراعية القيادية والتنفيذية ، عن طريق برامج مكثفة لتأهيل وتدريب الكوادر الزراعية المطلوبة .

٢ ــ استكمال الدراسات والتوسع فى تطبيق مبدأ التنمية الريفية المتكاملة لتغطية الريف اليمنى .

٣ ــ اجراء مسح شامل للتربة ولثروات البلاد المائية السطحيةوالجوفية من أجل تنظيم استغلالها وحفظها على أسس علمية واقتصادية مقننة وذلك من أجل زيادة رقعة المساحات المروية والاسراع بتنفيذ مشاريع الرى فور انجاز الدراسات الفنية والاقتصادية لهذه المشاريع .

٤ ــ تطوير واشاعة وتكثيف الارشاد الزراعى فى مختلف المجالات من أجل تحسين آداء العمل الزراعى .

٥ ــ ربط خطة البحث الزراعى واحتياجات التنمية الزراعية بحيث تكون لهذه البحوث طبيعة تطبيقية تتيح الوصول الى نتائج محددة . وفى أقرب وقت مستطاع وادخال المحاصيل الجديدة التى يتطلبهـا الاقتصـاد اليمنى والوصول الى الدورات الزراعية الملائمة والمكثفة .

٦ ــ العمل على رفع مردود وحدة المساحة وتحسين نوعية الانتاج وتنويع الحاصلات الزراعية وتحقيق نسب نمو متزايدة فى مجال التشـجير الحراجى والمثمر ، والحد من انتشار شجرة القات . والعمل على وضـع سياسات محددة لتطوير انتاجية المحاصيل الرئيسية التى تتميز بالاهميـة الاقتصادية الكبرى والاثر الفعال على مستوى التغذية والميزان التجارى .

٧ ــ العمل على توفير العدالة والاستقرار فى العلاقات بين المالـكين والعاملين فى الانتاج الزراعى وتطوير صيغ للتنظيمات التعاونية الزراعية تتلاءم وظروف الريف اليمنى ، وخاصة فى مجال الاقتراض والتسويق المشترك وملكية الآليات الزراعية .

٨ ــ اقامة الطرق والطاقة الشحنية اللازمة لنقل المحاصيل الزراعيـة وحسن تسويقها محليا ودوليا .

٩ ــ توفير القدرة التخزينية للمحاصيل لتأمين الطلب خارج المواسم ومواجهة سنوات الجفاف من محاصيل الحبوب والاعلاف .

١٠ ــ تحقيق تطوير سريع فى الانتاج الحيوانى والثروة السمكية وذلك عن طريق اتاحة وتوسيع الرعاية البيطرية وتأمين الاعلاف وتحسين السلالات

والعروق والبدء بالاستثمار التجارى للثروة السمكية وتطوير أساليب الصيد التقليدية .

١١ ــ الحد من نزيف الهجرة داخل وخارج الجمهورية حدا يحول دون التدهور فى كم ونوعيـــة العمالة والتشغيل والأداء .

وان الخطـة الخمسية الأولى فى الجمهورية العربيـة اليمنية لهى خطـــة طموحة بالنسبة للامكانات المادية والبشرية المتاحة سواءا فيما يختص بتحقيق بنسبة قدرها ٨ر٢ ٪ فى مجمل الناتج المحلى (كما حددت الخطة) أو فيمـــا يخص حجم الاستثمارات المخصصة للخطة والبالغ حوالى ١٦ر٦ مليار ريال باسعار عام ١٩٧٥ / ١٩٧٦ . وأكثر من هذا نلاحظ أن حوالى ٣٨ ٪ من جملة استثمارات الخطة قد اعتمدت على المساعدات والقروض الخارجية . وهى تتألف فى جملتها من قروض ومنح مؤكدة وقروض قيد المفاوضة . بينما تمثل المساهمات من الموارد الداخلية ٧ر٦١٪ من الاستثمارات الخطـــة ، توزعت بين التمويل الحكومى والتمويل الذاتى والاقتراض المحلى .

جـــدول رقم (٧)

توزيع استثمارات الخطة الخمسية بحسب القطاعات

القطاع	المبلغ المخصص بمليون ريال	نسبته المئوية
الزراعة	٢٦٤٣ر٥	١٤ر٤
المناجم والمحاجر	٢٠٢ر٧	١ر١
الصناعات التحويلية	٢٠٤٧ر٤	١١ر٢
الكهرباء والماء	١٤٣٢ر٧	٧ر٨
البناء والتشييد	٤٥٨٠ر٣	٢٥ر٠
التجـــارة	٩٣٨ر٤	٥ر١
النقل والمواصلات	٢٤٦١ر٤	١٣ر٤
المال والمصارف	٦٠٤ر٦	٣ر٣
ملكية المساكن	١٧٢٠ر٠٠	٩ر٤
الخدمات الحكومية وغير الحكومية	١٧١٦ر١	٩ر٣
	١٨٣٤٦ر٩	١٠٠ر٠٠
ناقصا : هامش التحفيز ونفقات ائتمانية أخرى	٢٣٥ر٧	
فيكون رأس المال الثابت	٥٩٧١ر٢	
+ الزيادة فى المخزون	٥٧٩ر٠٠	
جملة استثمارات الخطة	١٦٥٥٠ر٢	

المصدر : الخطة الخمســـية الاولى (٧٦ / ١٩٧٧ — ٨٠ / ١٩٨١) الكتاب الرابع ، الاهداف العينية ، ص ١٠

من الجدول (٧) يتضح :

١ — ان تخصيصات القطاع الزراعى تمثل ١٤ ٪ من جملة تخصيصات الخطة ، فى حين ان الزراعة تسهم بحوالى ٤٥ ٪ من الناتج المحلى الاجمالى ، يعمل فيها حوالى ٧٣ ٪ من جملة القوى العاملة فى البلاد .

٢ — بلغت نسبة تخصيصات القطاع الصناعى حوالى ٢٠ ٪ من جملة تخصيصات الخطة . فى حين ان الصناعة لا تسهم بأكثر من ٥ ٪ من اجمالى الناتج المحلى ولا تشغل أكثر من ١ ٪ من جملة القوى العاملة فى البلاد .

٣ — ان الاستثمارات المخصصة للهيكل السفلى تقدر بحوالى ٣١ ٪ من جملة استثمارات الخطة الخمسية . ولكن يلاحظ أن أكثر مشاريع الهيكل السفلى تخدم القطاع الزراعى بشكل مباشر او غير مباشر .

مشاريع القطاع الزراعى والثروة الحيوانية :

ان القطاع الزراعى والثروة الحيوانية قد تضمن ٦١ مشروعا جملة تخصيصاتها حوالى ١٤٤٥ مليون ريال . ولكن يلاحظ بأن المشاريع الاروائية نالت النصيب الاكبر من هذه التخصيصات ، حيث استحوذت على حوالى ٦١ ٪ من جملة الاستثمارات المخصصة لقطاع الزراعة والثروة الحيوانية .

(أ) مشاريع القطاع الزراعى :

يشمل هذا القطاع ٤٨ مشروعا ، عشرون منها مشاريع اروائية وفقط ٨ منها هى مشاريع زراعية انتاجية . والباقى يتألف من مشاريع خدمات تهدف الى تطوير الارشاد والخدمات الزراعية ومشاريع لتدريب الكوادر الزراعية وأخرى لتطوير الاحصاء الزراعي .

اما المشاريع الزراعية الانتاجية فهى :

١ — مشروع تطوير زراعة البن :

يهدف هذا المشروع الى تطوير انتاج البن فى البلاد بتوسيع زراعته وبتحسين الزراعات القائمة حاليا عن طريق تقديم الغراس الجيدة والخدمات الارشادية .

٢ ــ مشروع تحسين زراعة الذرة والدخن :

ويهدف هذا المشروع الى المساهمة فى تحسين انتاج الذرة والدخن عن طريق ادخال أصناف جديدة تتميز بزيادة الانتاج وجودة النوعية .

٣ ــ مشروع اكثار بذار البطاطا :

وهذا المشروع يهدف الى التوسع فى زراعة البطاطا فى المناطق المطرية وفى السهول الجبلية (القليعان) .

٤ ــ مشروع الاهجر الزراعى :

ويهدف هذا المشروع الى القضاء على أساليب الزراعة التقليدية فى هذا الوادي وذلك عن طريق احلال زراعة الخضروات والفاكهة التى ثبت نجاحها فى هذه المنطقة محل زراعة أشجار القات .

٥ ــ مشروع مشاتل اشجار الفاكهة :

يهدف هذا المشروع الى زيادة انتاج أغراس اشجار الفاكهة للمساهمة فى توسيع وتطوير انتاج الفاكهة وذلك فى كل من تعز واب ووادى سردود . ومن المؤمل ان تنتج هذه المشاتل الثلاثة حوالى نصف مليون غرسة من غراس أشجار الفاكهة، هذا اضافة الى انتاج الخضر وشتلات الخضر وبعض المحاصيل ضمن الدورة الزراعية .

(ب) الرى :

نظرا لاعتماد الزراعة بشكل كبير فى الجمهورية العربية اليمنية على الامطار (شكل ٤) حيث يعتمد حوالى ٨٥ ٪ من المساحات المستغلة للانتاج الزراعى على الامطار . وبسبب تباين كمية الامطار الساقطة من سنة الى أخرى . نجد ان الخطة الخمسية ركزت على مشروعات الرى لغرض توفير المياه اللازمة لتوسيع رقعة الاراضى الزراعية يبلغ عدد هذه المشاريع عشرون مشروعا نصيبها حوالى ٦١ ٪ من جملة الاستثمارات المخصصة لقطاع الزراعة والثروة الحيوانية ، تركزت نحو ٤٠ ٪ من هذه الاستثمارات فى منطقة تهامة لوحدها . وتهدف هذه المشاريع المروية الى زيادة مساحة الأراضى المروية بالفيضانات من ١٢٠ الف هكتار الى ١٣٦ الف هكتار وزيادة مساحة الاراضى

المروية ريا دائما من ٧٣ الف هكتار الى ٧٩ ألف هكتار. كما تهدف هذه المشاريع الى زيادة مساحة الاراضي المروية بالآبار من ٤٥ الف هكتار الى ٨٣ الف هكتار وذلك خلال سنى تنفيذ الخطة الخمسية(١) .

وفى هذا الصدد لابد من الاشارة الى ضرورة وضع سياسة لاعادة النظر فى مسألة العلاقات الانتاجية فى الريف اليمنى . وذلك لان تنفيذ مشاريع الارواء ومشاريع الهيكل السفلى ستؤديان حتما الى ارتفاع قيمة واسعار وايجارات الاراضى فى المناطق التى تنفذ فيها هذه المشاريع . وذلك دون ان يسهم مالكو الاراضى بأى جهد أو مال فى هذا المجال . وعليه فان تنفيذ تلك المشاريع ستخدم بالتالى أصحاب الاراضى أو الملاك الغائبون الذين يسكنون اغلبهم المدن الكبيرة ويمارسون حرفة التجارة . وبذلك يزداد البن اتساعا بين مالكى الاراضى والفلاحون أو المزارعون الذين يؤلفون القوى الحقيقية المنتجة فى الريف اليمنى .

وان تنفيذ مشاريع الخطة الخمسية فى مجال الزراعة من شأنها أن تعمل على زيادة الانتاج الزراعى وبخاصة فى مجال المحاصيل الزراعية الغذائية والمحاصيل النقدية كما يوضح الجدول (٩) .

الا انه من الملاحظ من الجدول المذكور ان نسبة الزيادة المتوقعة فى انتاج المحاصيل الزراعية تتراوح ما بين حوالى ١١ ٪ (الشعير) و ٢١ ٪ (الذرة الرفيعة والدخن) وحوالى ٣٧٤ ٪ (البطاطا) و ١٤٦ ٪ (القمح) .

وان أسباب انخفاض نسبة الزيادة فى انتاج الذرة الرفيعة والدخن والشعير خلال سنين الخطة ، نابع من الاهداف البعيدة المدى للقطاع الزراعى فى الجمهورية العربية اليمنية .

حيث ان الخطة الخمسية الاولى تهدف الى تقليص المساحات المزروعة بالذرة الرفيعة والدخن بسبب التناقص التدريجى فى الاعتماد على حبوب الذرة الرفيعة والدخن لصنع الخبز والتحول السريع الى استخدام القمح كمادة غذائية اساسية للسكان .

---

(١) الخطة الخمسية الأولى ١٩٧٦/١٩٧٧ — ١٩٨٠/١٩٨١ ، الكتاب الرابع ، الأهداف العينية ص ٩٩ — ١٠٢ .

اما بالنسبة للشعير فان الخطة تهدف الي تقليص المساحات المشغوله بزراعة الشعير حتى نهاية سنين الخطة بمقدار خمسة الف هكتار لتحل محل الشعير ، الاصناف المبكرة من القمح . وفى نفس الوقت تهدف الخطة الـــى الاقتصار على زراعة الاصناف الجيدة من الشعير والذى يمتاز بجودة نوعيته وارتفاع انتاجيته .

كما نلاحظ من ناحية ثانية ان الزيادة المتوقعة بالنسبة للمحاصـــين الغذائية الاساسية للسكان هى زيادة ليست بالزيادة الطموحة فعلى ذكر المثال، نقول انه من المقدر أن يرتفع انتاج القمح من ٥٢ الف طن الى ١٢٨ الف طن خلال سنين الخطة (١٩٧٦ / ١٩٧٧ ــ ١٩٨٠ / ١٩٨١) ، علما بأن استهلاك اليمن الشمالى من القمح من المتوقع ان يرتفع من حوالى ١٨٧ الف طن الى ٢٦٥(١) الف طن خلال الفترة نفسها . وعليه فان الدولة لابد ان تستورد فى نهاية سنين الخطة الخمسية المذكورة أكثر من نصف حاجة الاستهلاك المحلى من المحصول المذكور .

---

(١) نفس المصدر ، ص ١١٣

شكل(١٢) مشاريع الخطة الخمسية (١٩٧٧/٧٦-١٩٨١/٨٠) الاروائية

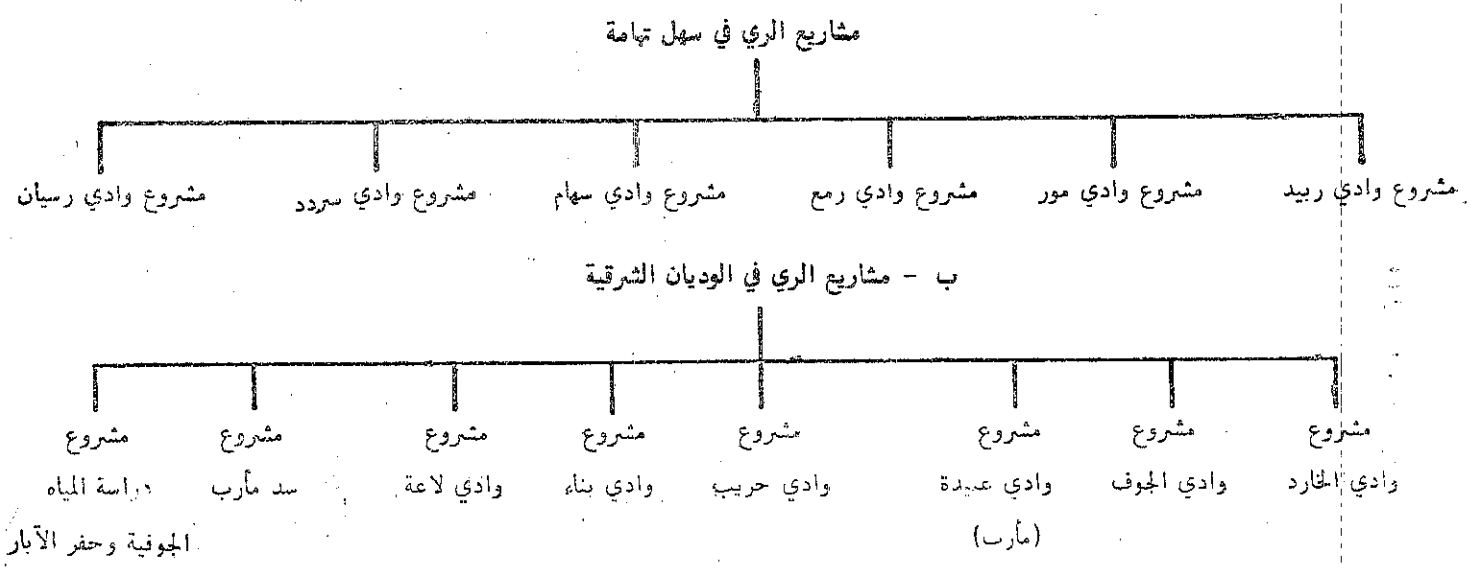

جدول (٨)

الاهداف الانتاجية لقطاع الزراعة والثروة الحيوانية

فى الخطة الخمسية الاولى (بالالف طن)

المحصول	سنة الأساس	السنة الاولى من الخطة ١٩٧٧/٧٦	السنة الأخيرة ١٩٨١/٨٠	نسبة الزيادة
الذرة الرفيعة والدخن	٨٥٩	٨٦٩	١٠٤٢	٢١ر٣ ٪
الذرة الشامية	٧٢	٧٥	١١	٥٢ر٨ ٪
الشعير	٧٥	٧٥	٨٣ر٢	١٠ر٩ ٪
القمح	٥٢	٥٨ر٣	١٢٨	١٤٦ر٢ ٪
التبغ	٥ر٦	٥ر٨	٨ر٤	٥٠ ٪
القطن	١٣	٧ر٦	٣٢ر٥	١٥٠ ٪
البن	٣ر٠	٣ر١	٤ر٠	٣٣ر٣ ٪
البطاطا	٧٦	٩٦	٣٦٠	٣٧٣ر٧ ٪
الحليب ومنتجات الألبان	٣٣١	٣٣١	٣٦٧	١٠ر٩ ٪
البيض (مليون بيضة)		٢١٠	٢٣٥	١١ر٩ ٪
اللحوم ولحوم الدواجن		٣٧ر٧	٤٦ر٨	١٧ر٩ ٪
الاسماك		١١ر٥	١٧ر٣	٥٠ ٪
الجلود (طن)		٧٢٣٠	٧٩٥٣	١٠ ٪

المصدر :

الخطة الخمسية الاولى ١٩٧٦ / ١٩٧٧ — ١٩٨٠ / ١٩٨١ ، الكتاب الرابع ، الاهداف العينية ، ص ٧٩ — ٩٥ ، ص ١٠٢ ، ص ٢٥٨ — ٢٦٥ .

(ج) الثروة الحيوانيـــة :

فى مجال الثروة الحيوانية تضمنت الخطة ١٣ مشروعا ، عشر منهـــا انتاجية والباقى مشاريع خدمات ادارية تهـــدف الى المساهمة فى تقديم خدمات أفضل لتطوير الثروة الحيوانية .. وهم المشاريع الانتاجية :

١ — مشاريع الدواجن :

اشتملت الخطة ثلاثة مشاريع لانتاج الدواجن . الاول فى منطقة الروضة فى ضواحى العاصمة صنعاء والثانى فى المنطقة الوسطى والثالث فى منطقة عمران وهذه المشاريع تهدف الى انتاج لحوم الدواجن والبيض لمواجهة الطلبـــات المتزايدة على هذه المنتجات من ناحية .. وتخفيف العبء على الميزان التجارى وذلك بتقليص حجم الاستيرادات من ناحية أخرى .

٢ — مشروع انتاج الاعلاف المركزة من أجل تغذية الحيوانات بهدف تطوير انتاجها وتمكينها من مقاومة الامراض التى تعانى منها .

٣ — مشروع تطوير الخدمات البيطرية . وهذا المشروع يهدف الى تطوير وتوسيع الخدمات البيطرية فى كل من صنعاء وتعز والحديدة ..

٤ — مشروع لانتاج الاعلاف المركزة : وهذا المشروع يهدف الى انتاج الاعلاف المركزة ذات القيمة الغذائية العالية من أجل تغذية الحيوانات لزيادة انتاجها ورفع مقاومتها للامراض والآفات .

٥ — مشروع تطوير الصيد التقليدى .

٦ — مشروع تأسيس صناعة وتصدير الجمبرى .

٧ — مشروع لانتاج مسحوق الاسماك : وهذا المشروع يشمل انشـــاء مصنع صغير لانتاج ١٠ أطنان من مسحوق الاسماك يوميا لتأمين جزء من الاعلاف الضرورية لتنمية الثروة الحيوانية عن طريق مخلفات الاســـماك البحرية .

هذا وتهدف الخطة الخمسية فى قطاع الثروة الحيوانية الـــى زيادة الانتاج بنسب تتراوح ما بين ١٠ ٪ الى حوالى ٥٠ ٪ كما يوضح الجدول(٨).

* * *

المراجع العربية :

١ ــ عدنان ترسيسى اليمن وحضارة العرب ، بيروت (بدون تاريخ) .

٢ ــ محمد سعيد العطار ، التخلف الاقتصادى والاجتماعى فى اليمن ، ابعاد الثورة اليمنية ، الطبعة الاولى ، بيروت ١٩٦٥ .

٣ ــ محمد انعم غالب ، اليمن ، دار الكتاب العربى ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٦٦ .

٤ ــ راشد البراوى ، اقتصاديات الوطن العربى من المحيط الى الخليج ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٧٣ .

٥ ــ محمد سلمان حسن ، دراسات الاقتصاد العراقى ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٦٦ .

٦ ــ محمد عبد الغنى سعودى ، الوطن العربى ، القاهرة ١٩٧٥ .

٧ ــ محمد توفيق رجب وعسكر احمد عسكر ، انتاج اللبن من الابقار والجاموس ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٨ .

٨ ــ محمد مصطفى الشعبينى : اليمن ، الدولة والمجتمع ، القاهرة ١٩٧٥ .

٩ ــ مصطفى كمال عمر حمادة ، انتاج الضأن والصوف ، الاسكندرية ١٩٧٦ .

النشرات والتقارير :

١ ــ الجهاز المركزى للتخطيط ، التطور الاقتصادى والاجتماعى فى الجمهورية العربية اليمنية ، صنعاء ١٩٧٦ .

٢ ــ الجهاز المركزى للتخطيط ، الجمهورية العربية اليمنية :

الخطة الخمسية الأولى ٧٦ / ١٩٧٧ ــ ٨٠ / ١٩٨١ دار الكتاب . دمشق ١٩٧٧ .

الكتاب الاول : تقييم فترة الانماء الثلاثى

الكتاب الثانى ، تحليل الوضع الراهن

الكتاب الثالث ، الاهداف والاستراتيجية العامة

الكتاب الخامس ، توظيف المشروعات

٣ — الجهاز المركزى للتخطيط ، الجمهورية العربية اليمنية ، كتاب الاحصاء لعام ٧٦ / ١٩٧٧ صنعاء .

٤ — الجهاز المركزى للتخطيط ، الجمهورية العربية اليمنية ، ادارة الاحصاء ، كتاب الاحصاء عام ١٩٧٢ صنعاء .

٥ — الجهاز المركزى للتخطيط ، الجمهورية العربية اليمنية ، النتائج الاولية للتعداد العام للمساكن والسكان فى فبراير ١٩٧٥ ، الطبعة الثانية ، صنعاء .

٦ — الجهاز المركزى للتخطيط ، الجمهورية العربية اليمنية ، الاوضاع السكانية فى الجمهورية العربية اليمنية ، صنعاء ١٩٧٦ .

٧ — المجلس الاعلى للتخطيط ، الجمهورية العربية اليمنية ، كتاب الاحصاء لعام ١٩٧١ صنعاء .

٨ — تقرير عن المسح الصناعى وفرص التنمية الصناعية ، الجمهورية العربية اليمنية الجزء الاول ، مركز التنمية الصناعية للدول العربية (تقرير غير منشور) صنعاء ١٩٧١ .

٩ — تقرير عن زراعة البن فى اليمن عام ١٩٧٥ ، منظمة الاغذية والزراعة الدولية (غير منشور) صنعاء ١٩٧٥ .

---

1. **Akil Eisa Akil.**
Community Profile of Hojjuriya District, Taiz Province, Yemen Arab Republic, M. Sc. Thesis, American University, Beirut, 1971.

2. **A. Albydany,**
Die Wahrungsreform in Yemen, Diss., Bonn 1961.

3 Armin Schöpen,
Das Qat, Geschichte und Gebrauch des Genussmittels Cathe Edulis Forsk., In der Arabischen A Republic Yemen, Arbeiten aus dem Seminar fur Volkerkunde der Johnn Wolfang Geothe-Universitat, Frankfurt am Main, Wiesbadeb 1978.

4. Horts dequin,

Das-Landwirtschaftspotential des Yemen und gegenwartige agrapolitische Entwicklungslinien, F. A. O. World Bank Co-operative Program, Rom 1973.

5. Yemen Report,
Informationen der Deutsch-Yemenitischen Gesellschaft, Nr. 5—9 und Nr. 7/1976, Nurnberg.

6. Yemen Arab Republic, Development of Traditional Economic, A world Bank Country Study, Waschington 1979.

ثلاثة نقوش صفوية من عرعر وبدنة [1]

الدكتور يوسف محمد عبد الله

النقش الاول :

(فى ملك عبد الحافظ كمـــال بالظهران وينسبه الى الحـــدود الشمالية للمملكة العربية السعودية ناحية عرعر(٢) .

النص بالحرف العربى :

لوتر فتى أخ بن قدم ذى آل بلقى وتشوق الى أراش بنت أخته وآل حنن ودشر سلم وقبلل ذأل بلقى .

نقل المعنى :

لوتر فتى أخ ابن قدم ذى آل بلقى وتشوق الى أراش بنت أخته وآلى حنان . فيالات ويادثر سلاما وقبولا .

---

(١) هذه النقوش الصفوية الثلاثة بعض ثمار رحلة قام بها الأســـتاذ الدكتور محمود على الغول نائب رئيس جامعة اليرموك حاليا ، عام ١٩٦٦ الى الحدود الشمالية من المملكة العربية السعودية بتكليف من جامعة الرياض واليه وحده يعود فضل اكتشاف هذه النقوش وفضل النشر . وهى أيضا ثلاثة من مائة وعشرين نقشا جديدا قمت بقراءتها كجزء من دراستى للحصول على درجـــة الماجستير من الجامعة الأمريكية فى بيروت عام (١٩٧٠) ، وتنشر النقوش الثلاثة هنا لأول مرة بعد اعادة كتابة المادة واستكمالها واستيفاء مصادرها وتضـــمينها وجهات نظر جديدة .

وكان الدافع المباشر لنشرها هو نبأ وفاة العالم البريطانى (لانكســـتر هاردنج) رئيس دائرة الآثار الأردنية سابقا من خيرة المشتغلين بالآثار العربية والنقوش الصفوية . وكان قد توفى فى ١١ فبراير ١٩٧٩ م بانجلترا . والســـطور التالية فى ذكرى (لانكستر هاردنج) . اعترافا بفضله وتجلة لعلمه . (راجـــع قائمة الكتب فى آخر البحث) .

(٢) تقع مدينة عرعر فى شمال المملكة العربية السعودية (٣٠° ٥٩° ، شمالا ، ٤٠ ، ٢ ، شرقا) قرب محطة ضخ التابلاين . وقد زار المنطقة من العلماء أيضا (ألبرت جام) فى مارس ١٩٦٩ ونشر نصوصا جديدة تحت عنوان نقوش صفوية من منطقة عرعر ، وتقع بدنة على مقربة من عرعر . ومن المواقع الأثرية حول عرعر وبدنة ، العويصى ، والشاطئ شمالا وغدير بدينة « والموقع الأثرى» جنـــوبا .

الحاشـــية :

لوتر : اللام المفردة عاملة للجر بمعنى الاختصاص ، وتقدير المعنى هذا الحجر المنقوش لوتر ، أو كتبه وتر ... (أنظر مناقشة « جريمه » فى نصوص وابحاث ٢٦ — ٢٩) ، وتار بفتح الواو (أنظر الاكليل ج ١ ص ٧٣) ، بنو وتار (المصدر نفسه ص ٩) ، وتير (المصدر نفسه ج ١٠ ص ٥٥) .وفى اللغة الوتر = الفرد ، الوتر = الذحل بمعنى الثأر ، والوتر واحد أوتار القوس وفى (جام ١٣٨) يقترح واتر .

فتى :مقابل فتى ومثله بلقى وبلقاء ، (أنظر ليتمن ٣٥١ = لسعد أل هفتى) هذا الفتى لسعد ايل أى خادمة . والهاء أداة التعريف فى الصفوية . أنظر علما ١٦١٥ أ ، ١٦٤١ أ : لفتى بن روض وبيت بهارض لفتى بن روض ونصب خيمته على هذه الأرض (هاردنج — وينت) .

اخ : هنا علم ربما مثل عم وأب فى « النقوش اليمنية (أنظر هاردنج) و (هاردنج — وينت ٣٦٢) .

قدم : علم (أنظر قدم وقدام ، ابن دريد ص ٤١٩) ، وقدم (ابن الكلبى ص ٤٥٤) وأنظر صفوى : قدم (ليتمن ٢٨ ، وينت ٣٥ ، كوربس ٥٥) .نبطى= قدمو . ويقترح جام قدم (جام ٨٥) .

وتشوق ال : بمعنى اشتاق الى . ويرد الفعل مرارا متبوعا بالى فى النقوش الصفوية (أنظر وينت ٣٥٢ ، ليتمن ٢٥٣) .

أرش : علم جديد مؤنث ورد مذكرا (هاردنج — وينت ٢٩٨١ ، ٣٠٥٨) . وفى الصفوية وورد مؤنثا = أرشت (هاردنج) . أش = لحيانى وثمودى (هاردنج) . بلميرى = أراش أنظر (شتارك) .. أراش = علم (أنظر ابن الكلبى ٣٥٨ ، ابن حزم ٣٨٧) وفى اللغة الأرش الدية .

حنن : أنظر (كوربس ١٧ ، ليتمن ٥٢ ، هانى ١٩٦) ويرد العلم مذكورا (أنظر جام ٧٧ ، ١٣٤ ، ١٧١) .

عم : العم أخو الاب معروف ، والعميون من يسمى بعم ، ورجل عم أى طويل (التاج) . صفوى اسم علم مذكر : أنظر (وينت ١١٥ ، ليتمن ١٨٩ ،

كوربس ٨٣) . وورد أيضا عمتله على وزن عبد له أى عبد ألله عبد الله (جام ١٦٦ ، ٤٨) .

فهلت : أنظر (كوربس ٨) الفاء استئنافية ، والهاء أداة التعريف لت هى اللات اله عربى شمالى معروف (القرآن ، النجم ١٩) .

دشر : أنظر (كوربس ٢٩٤٧ ، ليتمن ٣٤٢) . ذشر : كوربس ٥٧ ، وينت ١٢٧ ، وهو على الارجح ذو الشرى . صنم قيل كان لبنى الحارث بن يشكر بن بشر من الازد (الاصنام لابن الكلبى ٢٤) . دشر ، ذشر ، ذو الشرى (أنظر معجم الآلهة مادة ذوى الشرى) .

سلم : أنظر (كوربس ٨ ، معجم ليتمن ، قائمة هانى) . اعتبر اللفظ مصدرا ليعطى معنى الدعاء وليس فعلا . وفى القرآن الكريم — سلام على المرسلين (الصافات ١٨) وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا (مريم ١٥) .

قبل : أنظر (هانى ٤٢ — ٤٤) و (المجموعة) ويبدو أن قبل مصدر لفعل مزيد لم يذكر فى المعاجم . والمعنى قبول أن تقبل العفو والعافية ، وهو اسم للمصدر وقد أميت فعله (التاج) . وفى القرآن : فتقبلها ربها بقبول حسن (آل عمران ١٣٧) أنظر (جام ٧١) .

ذال بلقى : ذ هى ذو العربية التى تضاف الى اسم الجنس مثل رجل ذو مال ، أو الرجل ذو المال . وهى هنا من باب الاضافة الى المعرفة . ونقل صاحب التاج قول الكميت : اليكم ذى آل النبى تطلعت / نوازع قلبى من ظماء والبب / أى اليكم يا أصحاب هذا الاسم . والقضية فيها خلاف اذ أن العادة فى العربية أن لا تضاف ذو الى مضمر أو علم : وفى النقوش اليمنية القديمة تعتبر الاعلام التى تسبقها ذو أسماء بطون وقبائل وان كان الهمدانى يعتبرها أعلاما . ففى الجزء الثانى من الاكليل (ص ٤٥٥) يفرد بابا اسمه باب من نلب عليه الاذوائية من حمير ، وفيه يقول مثلا ذو ثابت اسم ملك وذوبيح هو ابن قيفان ، ثم يفسر ذلك أحيانا فيقول : معنى « ذوبيح » ذو خيرة القوم وشرفهم » . والواقع أن « ذو » يقصد بها عندما تسبق الاعلام اليمنية معنى

الذى ينمى الى قبيلة كذا ، كما يقال اليوم مثلا هذا من ذى محمد ، ويغـــوب ذلك عن النسب . فذويزن تقابل اليزنى وذو جدن تقابل الجدنى اذ ليس هناك شخص واحد اسمه ذويزن أو اسمه ذو وجدن أو ذو محمد وانما اسم بطن أو قبيلة (أنظر يوسف ص ١٠٠ ــ ١١) . بلقى . (اسم قبيلة) يـــرد المرة الثانية فى النقوش الصفوية (أنظر هاردنج) . وورد فى (المجموعة) زهفى وزهنى ، يقابل ذلك زهفاءورهناء . ويجوز ان تكون بلقى ذات صلة باســـم البلقاء . وجاء فى (التاج) وفى سيرة الشامى انها مقصورة ، أى بلقى . ويمكن القول أن ذأل بلقى تعود على صاحب النقش وتر ، ويتعذر أن تعود على سلم وقبل حيث ينتظر أن يكون النص آنذاك لآل بلقى وليس ذأل بلقـــى . وفى (جام ١٥٧) ورد النعم مذكرا . بلقت بن بجت بن جشم .

النقش الثانى :

(من بيت / صالح الحسين الغنام عثر عليه فى بدنة) .
النص بالحرف العربى :

لوتر بن كم بن برء ذال تم ووجم على أخه .

نقل المعنى :

لوتر بن كيم بن براء ذى آل تيم ووضع حجرا على قبر أخيه .

الحـــاشية :

كم : أنظر (وينت ٨٢٥) (هاردنج ـــ وينت ٨٢٧ ، والعـــلم لحيانى وثمودى (أنظر ريكمنز ١١٥) . والكيم الصاحب حميرية (التاج) . وأنظر كيمة (ابن حزم ١٨٤) ، كيوم (ابن دريد ٥١١) . وفى اللغة كام الفرس الحجر اذا نزا عليها . ويقترح جام كم (أنظر جام ١٢٨) .

برء : أنظر (ليتمن ١١٣ ، كوربس ١٣١) . ثمودى (ريكمنز ٥٥) . براء علم (ابن الكلبى ٢٢٤ ،ابن حزم ٣٥١) . وفى اللغة البراء أول ليلة من الشهر . وبروء نقه من النقاهة والصحة . برء ـــ ثمودى (هاردنج ـــ ليتمن ٥٨ ، ٢٢٥) .

تم : (أنظر ريكمنز ٢١٤ ، هانى ٢١ ، وينت ٤٣ ـــ ٤٥ ، ليتمن ٨ ، كوربس ٨٥ ـــ ٨٧) . وفى اللغة الكيم العبد . أنظر أيضا (جام ٥٦) ذال تم .

وجم : دأب الدارسون على اعطاء هذا الفعل معنيين : الاول : حزن ، استنادا الى معنى وجم الشائع فى العربية (أنظر وينت ٥) ومقالا بهـــذا الخصوص (جام ، أورينت ٣٦ / ٢) و (جام ص ٤٢) حيث يستبعد أن يكون الوجم قبرا .

والثانى : وضع حجرا (أو حجارة على قبر (أو قبور) استنادا الى معنى الوجم فى العربية) وهى حجارة مركومة بعضها فوق بعض أو الى عادة قديمة عرفت عند الامم القديمة ولاسيما العرب وهى وضع حجارة على القبور (أنظر ليتمن ٢٠ ، هاردنج ٥)(١) ورغم وجاهة الرأى الاول من حيث اعتماده

---

(١) فى لهجات اليمن اليوم : وجم (بالتضعيف) جمع حزم سيقان الذرة بعد الحصاد وكومها الميجام هو الكومة المكونة من الحزم . وسمعتها بنفسى فى مناطق الحجرية .

على المعنى المباشر البسيط للفعل وجم ومن ثم توسيع معناه ليشمل البكاء على الاطلال كما عرف لدى شعراء الجاهلية ، الا أنه يبدو أن وراء الفعل طقسا من الطقوس قد يذكر الباحث بتلك المئات من الحجارة المنقوشة التى عثر عليها فى معبد أو ام (محرم بلقيس)(١) بصرف النظر عن اختلاف الغرض (حيث قدمت تلك النقوش من باب الحمد والثناء على أن وهبهم الاله النصر والعودة بسلام والرزق العميم والولد الصالح ... الخ) . وهناك نص ورد فى تاج العروس (مادة وجم) يدعم بجلاء الرأى الثانى : « الوجم حجارة مركومة بعضها فوق بعض على رؤوس القور والآكام هى أغلظ وأطول فى السماء من الأروم وحجارتها عظام كحجارة الصبرة والآمر لو اجتمع على حجر ألف رجل لم يحركوه وهى أيضا من صنعة عاد(٢) ... قال رؤبة (ابن العجاج ١٤٥ هـ) :

وهامة كالصمد بين الاصماد أو وجم العادى بين الأجماد .

وفى نص آخر وقيل الأروم قبور عاد (التاج ، مادة أرم)

ويستفاد من النص المذكور ما يلى :

ـ الوجم حجارة مركومة بعضها فوق بعض :

ـ الوجم كالأروم . وفى (مادة أرم) ، الاروم هو الوجم وفق بعض الأقوال ، والأروم قبور عاد وفى معنى الاروم أيضا يرد : وذ وأرأم حزم به آرام جمعتها عاد (التاج) .

ـ الوجم من صنعة عاد . وقد تضخم الخبر فى النص كعادة الاخباريين لدى ذكرهم قوم عاد ، ومثال ذلك سرد هم لقصة عاد ارم ذات العماد التى أخبر بها القرآن الكريم(سورة الفجر . وفى اللغة أرم جمـــع أروم ، وأروم كما تقدم ، تعنى وجم .

ـ الوجم قيل هى قبور عاد .

ـ الوجم هى أعلام تنصب فى المفاوز يهتدى بها ... وكان من عادة

---

(١) جام محرم .

(٢) الحجر هو أهم ما يميز وثنية عرب الجاهلية وهو النصب والجمع انصاب ويكون رمزا للمعبود . وحجارتهم ضخمة ولا ينقلونها معهم وبعضـــها تكون صخورا كالفلس والجلد والسعد (ص ١٠١ ـــ ١٠٢ فلهوزن) .

الجاهلية اذا وجدوا شيئا فى طريقهم لا يمكنهم استصحابه تركوا عليه حجارة يعرفونه بها حتى اذا عادوا أخذوه (مادة أرم التاج) .

واستنادا الى ما سبق يمكن تقديم التصور التالى :

الوجم عادة قديمة كانت معروفة لدى قوم عاد ، وهى حجارة مركومة تنصب ليعرف بها قبورهم ويكون معنى الفعل وجم ، وفق ذلك ، وضع حجرا أو حجارة على قبر أو قبور . وهو المعنى الارجح فيما نعتقد(١) .

ان ترجيح المعنى السابق بنـــاء على القرينة « صنعة قوم عاد » يقتضى الاشارة الى التسمية الجارية لأصحاب هذه النقوش . فالنقوش الصفوية كما هو معلوم نسبة الى جبال الصفا الواقعة على مقربة من منطقة الحرة(٢) الى الجنوب الشرقى من دمشق حيث شاهد بعضها (سيريل جراهام) ونقل ذكرها الى المهتمين من العلماء وذلك عام ١٨٥٧ . وعرفت من بعد ذلك بالنقوش الصفوية ويطلق البعض على أصحابها « الصفويون » . أو عرب الصفا ، ويشبه ذلك اصطلاح العلماء على تسمية النقوش الكثيرة التى عثر عليها فى انحاء متفرقة من الجزيرة وخاصة قرب مدائن صالح فى الحجر ، شمال غربى العربية السعودية حاليا ، حيث أطلق عليها اسم النقوش الثمودية نسبة الى ما هو معروف فى الاخبار ان ثمود هم أصحاب الحجر .

وعاد وثمود فى عرف أكثر أهل الاخبار من العرب البائدة واعتبروا من نسل عوض بن أرم وذلك موافق لأخبار التوراة (سفر التكوين الاصحاح العشر)، **وثمود من نسل غاثر** بن أروم (راجع جواد على ج ١ ص ٢٩٥ ــ ٢٩٦) . وقد ذهب العلماء مذاهب فى تفسير المراد من قوله تعالى « ألم تر كيف فعـــل ربك بعاد أرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد (ســـورة الفجر الآيات ٦ ، ٨ فما بعـــدها) كما تباينت آراؤهم

---

(١) كان العرب فى القديم يضعون على القبر كومة من الحجارة ثم يأتى آخرون بعد ذلك يقومون بالعمل نفسه ويدعى ذلك الوجم كما هو معلوم فى النقوش الصفوية (معجم الآلهة) .

(٢) ذكر لى صديقى الدكتور رضوان السيد قول ربيعة بن مكرم : نفرت قلوصى من حجارة حرة وضعت على طلق اليدين وهوب ــ والبيت كما يفهم يشير الى « صنعة قوم عاد » وهى هنا وضع الحجارة على قبور الكرماء .

فى تفسير الاحقاف فى قوله تعالى «واذكر أخا عاد اذ انذر قومه بالاحقاف(سورة الاحقاف أية ٢١) . فمنهم من قال انها الرمل بين اليمن وعمان الى حضرموت والشحر (الربع الخالى) وذهب بعضهم الى أن ارم ذات العماد مدينة فى تيه ابين بين عدن وحضرموت ، وذهب آخرون الى انها دمشق أو الاسكندرية (جواد على جـ ١ / ص ٣٠٢ — ٣٠٣) ، ومنهم من قال انها جبل بالشـــام (راجع الاتقان ص ١٤٣) و (ومعجم البلدان مادة الاحقاف) والقول الأخير يذكرنا بجبل الصفا والحرات حوله . ولما كانت الاحقاف فى اللغة جمع حقف وهو الكثيب من الرمل يعوج وينقوس ، وكل شىء اعوج فقد احقوقف (الجمهرة مادة حقف) فان أكثر الاخباريين اندفعوا يلتمسون مواضع قوم عاد فى الصحارى ووضعوا من أجل ذلك قصصا كثيرا فى البحث عن مواطن عاد وقبور عـــاد (جواد على حـ ١ ص ٣٠٥) و (معجم البلدان مادة الاحقاف) .

ولقد جاء اسم عاد مقترنا باسم ثمود فى مواضع عديدة من القرآن الكريم كقوله تعالى : « وعادا وثمودا وقد تبين لكم من مساكنهم » (سورة العنكبوت آية ٣٨) . ويظهر من الآيات ان مواضع ثمود كانت فى مناطق جبلية أو فى هضاب ذات صخور وهذا ما ذهب اليه المفسرون فى معنى « جابوا الصـــخر بالواد » و « اصحاب الحجر » فى قوله تعالى « ولقد كذب اصحاب الحجـــر المرسلين » الى قوله تعالى « وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين (سورة الحجر الآيات ٨٠ — ٨٢) . واذا ما أخذنا بالقول ان الاحقاف جبل بالشام كما أشار أهل الاخبار فى جملة ما قالوه عن مواطن عاد أو ما ورد فى معجم البلدان مادة (جشن ارم) انه جبل عند أجا أحد جبلى طىء فى ذروته مساكن لعاد وارم فيه صور منحوته من الصخر ، وكذلك ما يظهر من جغرافية بطليموس أن ديار ثمود كانت غير بعيدة من ديار عاد وذلك فى اشارته الى Oaditae على أنهم قوم عاد فى رأى بعض العلماء (انظر دائرة المعارف الاسلامية مادة عاد) وانظر أيضا (شبرنجر ص ١٩٩) . أى فى اعالى الحجاز فى المنطقة الجبلية التى يخترقها الطريق التجارى الذى يوصل الشام ومصر بالحجاز واليمن حيث بئر أرم بحسمى وهى من مناهل العرب (الصفة ص ٢٧٢) ، واذا كانت الحجر فى وادى القرى واسمها باق الى اليوم هناك ، وأن مساكن عوض بن ارم أبى عاد وعم ثمود على رأى بعض العلماء ينبغى أن تكون فى تخوم العربية الشمالية أو منطقة حوران أنظر (خارطة بطليموس فى كتاب شبرنجر) . (وراجـــع

جواد على جـ ١ ص ٢٩٧ ، ٣٢٧) وهى مناطق الجوف حاليا فى السعودية وجنوب سوريا أى جنوب صحراء النفوذ وشمالها من الحرات ، واستنادا الى كون النقوش الصفوية التى عثر عليها الى الان فى تلك المناطق ممتدة من حوران الى بدنة وعرعر فانه بالامكان ان يستدل ان ما يطلق عليه اصطلاحا (الصفويون) هم قوم عاد أو بعض من عاد(١) وكما اطلق على النقوش التى عثر على معظمها فى مناطق وادى القرى فى الحجر أو مدائن صالح اسم النقوش الثمودية يمكن ان يقترح اسم النقوش العادية بدلا من مصطلح النقوش الصفوية والذى كما سلف نسبة الى المكان الذى عثر فيه على النقوش وليس نسبة الى القوم الذين كتبوها ، وبذلك يكون مصدر تاريخ العرب السائدة ، عاد الاولى أو الثانية وثمود هى تلك الآلاف من النقوش العادية والثمودية ، ولا يضير فى ذلك أن تكون النقوش الثمودية والعادية منتشرة فى بقاع أخرى من الجزيرة فهناك كانت مساكنهم اذ كان من بينهم البدو الرحل كما يظهر جليا من طبيعة نقوشهم مصداقا لقوله تعالى « ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد وثمود الذين جابوا الصخرة بالواد » وعلى رأى من فسر عاد ارم على الاضافة وذات العماد وصف بمعنى أعمدة الخيام (راجع كتب التفسير) ، اما تفسيرها الشائع بمعنى المدينة المفقودة فيجوز حمله على بعض عاد الأولى أو الثانية ويتضح من قراءة محتوى النقوش الصفوية ومراجعة الرسوم الصخرية فى تلك المنطقة ان اصحابها كانوا بدوا أو شبه بدو وخير دليل على ذلك هو ذكر المضارب ثم تكرار الجمل ثم ورود عادات قص الاثر والشوق الى الخلان ووضع الحجر على القبور وكلها تذكر بالصور الشائعة فى الشعر الجاهلى وهى البكاء على الاطلال الخ (وهو فنر ص ٥٦) . كما أن انتشارهم بين حرات الشام ومناطق الجوف قرب بدنة يعكس حبهم للتنقل أهم خاصة لدى البدو . على أن زمن الصفويين أو قوم عاد أقدم من زمن شعراء الشعر الجاهلى بل وأقدم من زمن نقش النمارة (٣٢٨ م) الذى يعتبر عادة حلقة الوصل بين الخط النبطى والخط العربى ، حيث كان « الصفويون » يكتبون بخط قريب من الخط اليمنى

---

(١) وقد ذهب الاخباريون الى وجود طبقتين لقوم عاد وهم عاد الأولى وعاد الثانية وهاجرت احداها من اليمن .. وفى القرآن الكريم « وانه أهلك عادا الأولى وثمودا فما أبقى » (النجم الآية ٥٠) . وفى النقوش الصفوية يتكرر العلم (عد) أى عاد عشيرات المرات (انظر هاردنج) و (هاردنج ــ وينت) . مثال ذلك : لجهم بن زهران بن ثملة بن عاد ووجم على أبجر دال ضيف .

القديم (خط المسند) مثلهم فى ذلك مثل الثموديين والديدانيين . ان علمـــاء النقوش الصفوية يرجعون تاريخ هذه الكتابات الى فترة تمتد ما بين القرن الاول قبل الميلاد والقرون الثلاثة بعده . وهذه فترة تلى استيطان المعينين لمنطقة ددان (العلا اليوم (وعلى مقربة من ديار ثمود الاصلية (١) . كما انها فترة تعاصر فى بعضها ازدهار الانباط فى منطقة وادى موسى جنوب الاردن البتراء) والذين امتدت دولتهم الى الحجر . وقد اثبت بعض الدارسين استنادا الى بعض النقوش الصفوية المؤرخة معاصرة بعض أصحاب النقوش الصفوية لدولة الانباط فى القرن الاول الميلادى (انظر مقال وينت وانظر أوكستبى نقش ٥٧) ، وبعضها معاصرة للفترة الرومانية فى بلاد الشام أيام تراجان وهدريان أى فى القرن الثانى بعد الميلاد (انظر ثمود وصفا ١٠٤)(١) . وفى نقشين نشرا حديثا وهما (هاردنج ــ وينت ٣٧٩٢ أ ، ٣٧٩٢ ج) ما قد يشير الى معاصرة أصحاب النقوش الصفوية للثموديين وكذلك الى تجاورهما . ونص النقش الاول : « لنتن بن أدم بن أقدم بن قعصن وورد ثلثت أشهر سنت حرب جشم آل ثمـــد» أى لانتان بن آدم بن أقدم بن قعصان وورد فترة أشهر سنة حاربت جشم ثمودا . ونص النقش الثامن يؤكد الحادثة نفسها . فاذا كان كاتب النقش الصفوى هذا من الصفويين واشترك فى حرب جشم ضد ثمود فان ذلك يدل على معاصرة الصفويين لزمن الثموديين . كما أن الحرب ربما كانت على غرار ما عرف بأيام العرب وتحدث عادة بين قبائل متجاورة . فيجوز الافتراض أيضـــا أن الصفويين والثموديين كانوا متجاورين . ان معاصرة « الصفويين لفترات ازدهار الحضارة اليمنية فى جنوب الجزيرة وازدهار الحضارة العربية فى واحات شمالى الجزيرة كالانباط والتدمرين والثموديين ، ووقوع مناطقهم فى الحرات والصحراء جعل منهم واسطة العقد بين القبائل البدوية فى جنوب الجزيرة مفازة صيهد مثلا ووسطها (كالدهناء) من ناحية وقبائل شمال الجزيرة من

---

(١) مزج الاخباريون العرب بين مواطن الآراميين والعرب وان كانوا يفرقون أحيانا ارم وآرام (انظروا دائرة المعارف الاسلامية مادة ارم) . ارم مرادف لعاد وكذلك أطلق ارام على ثمود (م . نفسه) ويذكر بطليموس أرض عاد فى منطقة أرميا . كما يقرن القرآن الكريم عاد بارم فى قوله تعالى : ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد (سورة الفجر) .

ناحية أخرى ضمن تأثير الحضارة الآرامية التى غلبت على بلاد الشام آنذاك(١). ففى دول الواحات الحجر وتيماء وتدمر والحضر نجد نقوشا مكتوبة بالخط الارامى وفى الحران والصحراء حيث لا سلطة مباشرة لتلك الدول نجد امتداد خط المسند وهو المسيطر . وربما من هنا انطلق علماء الانساب فى تصنيفهم لقبائل عاد (من ارم أو من آرام)(٢) . وفى الحالتين هم قبائل مهاجرة من جنوب الجزيرة يكتبون بما يشبه خط المسند ، وعلى علاقة بالآراميين غالبية سكان شمال الجزيرة (بلاد الشام) ، ومن المفيد أن يذكر هنا أن أرض « الصفويين » وخاصة جنوب صحراء النفود هى نفسها مناطق قبيلة كلب القضاعية بعد ذلك والتى يعتبرها بعض النسابين من حمير والبها ينتمى النسابة المشهور ابن الكلبى . وقد عثر على نقوش صفوية من المنطقة نفسها وفيها ذكر للعلم كلب وكذلك اسما لقبيلة(٣) . ان هلاك عاد لا يعنى انقضاء ذكرهم فقد خلده القرآن الكريم وربما أيضا تلك العاديات المنقوشة التى يعثر عليها بين الحين والآخر فى ارجاء شمال الجزيرة .

(١ ، ٣) يذكر صاحب أنساب الاشراف أن عادا كانوا قد ملأوا ما بين الشام واليمن ، من دلنى على رجل من آل عاد فله ما شاء . راجع القول فى حديث البلاذرى عن عاد فى (أنساب الأشراف) .

(٢) انظر (المجموعة) ، راجع الصفة ص ٢٧٢ . ويذكر صاحب (نشوة الطرب ٦٠) ان كلب هو ابن وبرة من قضاعة وقضاعة على رأى الهمدانى (راجع الاكليل ج ١) هو ابن مالك بن حمير ، تديرت فى الجاهلية دومة الجندل وتيماء وتبوك وأطراف الشام .

النقش الثالث :

(من بيت سليمان الرشودى وعثر عليه فى بدنة)

النص بالحرف العربى :

لعمر بن كدد ذأل غمت ووجم على تم وعل عيذ وعل كدد أبه ورغم منى

نقل المعنى :

لعمرو بن كداد ذى آل غمت ووضع حجرا على قبر تيم وعلى قبر عياذ وعلى قبر أبيه كداد والموت غلب .

الحاشـــية :

عمر : أنظر (هانى ٨ ، وينت ١٧٥ ، ليتمن ٧٥ ، كوربس ١٢٩ ديرتوار ١٦٧) ، وورد فعله (أنظر جا ٥٦ : لهذمت بن عكم وعمر وتشوق) ، أى استقر ، وربما كانت هذه من أقدم الاشارات المكتوبة على ورود هذا الفعل . وسمى الرجل عمرا تفاؤلا أن يبقى . والمراد بالعمر عمارة البدن بالحياة (ابن دريد ١٣ — ١٥) ويجوز أن يكون العلم عامرا وعمارا .

كدد : علم جديد فى النقوش الصفوية أنظـــر كددت (هاردنج) كددن (ريين‌توار ٣٠٠) . وكداد بطن من مراد . والكداد اسم فحل تنسب اليـــه الحمر ، يقال بنات كداد ، واصل الكد الالحاح فى طلب الشىء (التاج) ، والكدادى نسبة يمنية حديثة معروفة .

غمت : علم جديد ، وأنظر غم (كوربس ٢٠٩٦) ، غمت مصدرا (ليتمن ٢٥٧) ، وأنظر غمة وغمت ، علمان (التاج) .

عيذ : انظر (ليتمن ١٤٥ ، كوربس ٢١٩٠ ، ريبرتوار ١٦٠) ، جام ١٥٠ : عذ = عوذ وأنظر عائذ (ابن الكلبى ١٤٨ ، ابن دريد ٣٤) عياذ : (التاج مادة عود) .

رغم منى : ورد هذا التعبير فى النقوش الصفوية بالصور التالية :

رغم منى عل (جام ٩٠) ، ورغم منى علهم (هانى ٣٤) ، رغمت منى (كوربس ٣٠٤) ألم رغم (وينت ٥١٦) ، لمن رغم منى (جام ١٧٣) . وكان (ليتمن) قد فسر التعبير بمعنى رغما عنه (ليتمن ٣٥٤) ولكنه عـــدل عن رأيه

واعتمد المعنـــى « كاره للموت » (ليتمن ، الذيل ص ٣٤٨ ، ٣٥٥) واقترح (وينت) أن يكون المعنى رغيما فى الموت خاضعا للموت (وينت ٣١٩) .. ويعتقد (رود نسون) ان معنى رغم كامن فى الاصل السريانى (رعم) ومعناه : حدب على ، رحم أى عطفا يا موت (جلكس ٥٣ ــ ٥٦) . ويرى (بيستن) أن المعنى يقترب من قولهم باللغة الانجليزية تبا للموت (مقالة فى أفو) ..

ومن حيث اشتقاق اللفظ رغم فقد اعتبر اما فعلا أو اسم مفعول (على صيغة فعيل) : أو فاعلا : رغم دغيم راغم .ففى الحال الاولى يكون الفاعل صاحب النقش وفى الثانية يكون اسم المفعول صفة مشبهة للميت وفى الثالثة يكون صاحب النقش هو صاحب الحال (راغما) ..

وفى معاجم اللغة يضبط اللفظ رغم هكذا (رغم) مصدر بمعنى الكره او القسر أو الذل أو التراب .. (رغم) على وزن فعـــل أى قال رغما رغما ، (راغم) أى غاضب وفى الحديث الشريف : بعثت مرغمة أى هوانا وذلا للمشركين، وفى حديث السقط ان السقط ليراغم ربه ان أدخل أبويه النار (أى يغاضبه). وفى حديث سجدتى السهو : وان صلى اتماما لأربع كانتا ترغيما للشيطان (معجم الحديث ج ٢ ص ٢٧٧) .

وبمراجعة نصوص النقوش السالفة الذكر يلاحظ ما يلى :

ــ يرد الفعل وجم (وأحيانا بنى أيضا) مع التعبير رغم منى فى النقش نفسه ، ممايدل على أن التعبير يتعلق بالقبر (أو قل الموت) .. وقد يرد معهما اللفظ ترح بمعنى حزن (فعل)أو حزن (مصدر) (راجع هانى ٥٤) .

ــ ان رغم سواء كان اسما مشتقا أو فعلا يؤدى معنى الغلبة (خضوع وذل) .

ــ ان منى تعنى المنية (الموت) ولا ريب ، وصيغة منى (مقصورة) فى اللغة ترد مرادفة منية (التاج) .. وتقابل صيغة منى (منقوصة) فى النقوش الصفوية .. (أنظر أكستبى ١٥ : منى اسم علم أيضا) .

ــ ان الرغم أو الترغيم أو المراغمة كما وردت فى اللغة مصادر لفعل متعد وفى النقوش الصفوية ما يؤيد ذلك مثل ورغم منى علهم (هانى ٣٤) .

ـــ أن اللفظ رغم يرد متبوعا بلفظ منى (وفى حال واحدة فقط ورد مسبوقا باللفظ الم ويمكن اعتبار ألم فى الحال هذه مفعولا مقدما) .

ـــ ان ورود حرف العطف . الواو قبل رغم فى النقش الذى هو محور هذا الحديث . يفيد بالضرورة نسق العطف لما يليه أى أن التابع فعل .

ـــ غير أنه فى نقش) كوربس ٣٠٤ (ورد اللفظ ملحقا به تاء التأنيث : ووجم عل أذنت حبيته رغمت منى : وكذلك فى نقش (كوربس ٣٠٥) ووجم على ذعر حبيته رغمت منى ، مما قد يوحى بأن رغمت صفة مشبهة أى رغبة الموت ولكن ذلك قد يكون موافقا لما فى الذهن حيث أن العرب تؤنث معنى الموت فى قولهم المنية . وليس بالضرورة أن تعود التاء على الميت (فى النقشين الميت امرأة) .

ـــ وخير دليل على أن رغم ينبغى أن تعتبر فعلا هو النقش (حام ١٧٣) : لعقرب بن منعت ووجم على أشيعه (فى نسخة غير منشورة مع الدكتور الغول : أشيعن) فهلت غرت (فى نسخة الغول المذكورة سعرت) لمن رغم منى ، حيث ان اسم الموصول قبل رغم مباشرة يرجح كون اللفظ التالى فعلا .

ـــ وبعد ان أمكن اثبات صيغة الفعل للفظ رغم يجوز الآن سرد النصوص التالية من الاكليل الجزء الثامن :

ـــ فى خبر عن قبر هود فى وادى الأحقاف : ورأيت عند رأسه (صاحب القبر) كتابا بالعربية : « أنا هود الذى آمنت بالله وأسفت على عاد وكفرها وما كان لأمر الله من مرد » (الاكليل ج ٨ ص ١٣١ ـــ ١٣٣) .

ـــ وفى لوح بقيلة بن عبد المدان : « عشت خمسمائة عام وتطعت البلاد ظاهرها وباطنها فلم يكن ينجينى من الموت شىء (الاكليل ج ٨ ص ١٦٤) .

وفى لوح مضاض بن عبد المسيح : « عشت ثلاثمائة عام وأخذت مصر وبيت المقدس وهزمت الروم بالدرب ولم يكن لى بد من الموت (الاكليل ج ٨ ص ١٦٥) .

ـــ وفى أخبار عن قبور فى أصفهان : أنا رستم ملك هذه المدينة أعطيت بطش الجبابرة ونعمت نعمة لم تجتمع لملك قبلى ودوخت الجنود وفللت الحديد ولم أجد للموت دواء (الاكليل ج ٨ ص ١٧١) .

— انا بهرام ابن الملك ، « الموت حتم » (الاكليل ج ٨ ص ١٧١) .

— ووجد قبر بالقرب من ذلك فاذا فيه رجل ميت وعلى رأســـه كتاب لمسند فى صفيحة من ذهب فيها اسمه ونسبه وفيها : بسم الله ، كل شىء احتلنا له والموت غلبنا (الاكليل . ج ٨ ص ١٢٧) .

هذه القبوريات كما سماها الهمدانى وان كانت تبدو من صنع الاخباريين الا أنها تعكس ما كان يكتب قديما على شواهد القبور وتشترك جميعها بكونها تنتهى بذكر الموت والاقرار بحتميته وان لا مهرب منه . وفى النص الأخير تبدو الفكرة جلية ويكاد يكون التعبير « والموت غلبنا » هو نفس التعبير « ورغم منى » رغم تأخير الفعل . ومن معانى رغم كما سبقت الاشارة أيضا غلب . واستنادا الى ما تقدم يمكن القول ان « ورغم منى » تعنى والموت غلب وهى كما أزعم وجهة نظر جديدة مؤيدة قد تنهى الجدل الطويل الذى دار حول معنى التعبير بين العلماء .

فهرس الاختصارات (الكتب والمقالات)

القرآن الكريم :

ابن حزم :
ابو محمد علي ، جمهرة انساب العرب ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار المعارف القاهرة ١٩٦٢ .

ابن دريد :
محمد بن الحسن بن دريد ، الاشتقاق — تحقيق عبد السلام هارون ، مؤسسة الخانجي بمصر ١٩٥٨ .

ابن الكلبي : هشام بن محمد ، جمهرة النسب ، تحقيق كاسكل ، ليدن ١٩٦٦ جزآن .

الاتقان : جلال الدين السيوطي ، الاتقان في علوم القرآن ، توزيع دار الفكر ، بيروت لبنان طبعة المطبعة الحجازية المصرية ١٣٦٨ هـ .

الاصنام : هشام بن محمد ، كتاب الاصنام ، تحقيق أحمد زكي ، ليبزيج ١٩٤١ .

أفــوة :

A. F. L. Beeston, in Archivfuer orientsforschung 79 (1960) PP. 184 — 5.

الاكليل : ابو محمد الحسن بن احمد الهمذاني ، الاكليل ج ١ تحقيق محمد علي الاكوع ، القاهرة ١٩٦٣ . ج ٢ محمد علي الاكوع ، القاهرة ١٩٦٧ . ج ٨ تحقيق انستاس الكرملي بغداد ١٩٣١ وتحقيق نبيه فارس / تصوير دار العودة بيروت بدون تاريخ (وأعلم انه صور عام ١٩٧٩) .

اكتسبي :

W. G. Oxtoby : Some in scriptions of the safaitic beduin. American oriental : series, Vol. 50, new haven, connecticut, 1978.

انساب الاشراف : احمد بن يحيى المعروف بالبلاذري ، انساب الاشراف ج ١ تحقيق محمد حميد الله معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ، دار المعارف بمصر ١٩٥٩ القاهرة .

التاج : محمد المرتضى الزبيدى ، تاج العروس ج (١ — ١٠) ، دار ليبيا للنشر والتوزيع، بنغازى (طبعه مصوره من الطبعة ،الاولى بالمطبعة الخيرية القاهرة ١٣٠٦ هـ) .

ثمـود وصفـا :

E. Littmann : Thamud und Saf. a. Abhandiungen Für die kunde des Morgenlandes, Bd. 25 Nr. 1, Leipzig 1940.

جام أورينت :

A. Jamme, the Safaitic verb Wgm, in orientalia, Institute Biblique Pontifical, Rome, XXXVI, pp. 159ff.

جـــــام :

A Jamme, Safaitic Inscriptions from the Country of «Ar «ar and Ras» : al-Ananiyah, in Altheim-Stiehl, Christentum am Roten Meer I und II Bd., Berlin, 1971 & 1973.

جـام محرم :

A. Jamme : Sabaean Inscriptions from Mahram Bilqis (marib), Baltimore, 1962

جريمة نصوص وابحاث :

H. Grimme : Texte und Untersuchungen zur safatenisch — arabischen Religion, paderborn, 1929.

جلكس :

M. Rodinson, note sur une expression safaitique, comptes rendus, du groupe : linguistique d'études chanito - semitiques, (Paris), VIII (1957 — 1960).

الجمهرة : محمد بن الحسن بن دريد ، جمهرة اللغة ط ١ ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد ، ١٣٤٥ هـ (تصوير مكتبة المثنى بغداد).

جواد على : جواد على ، المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ج ١ ، دار العلم للملايين بيروت مكتبة النهضة بغداد ، ط ٢ بيروت ١٩٧٦ .

معجم الالهـــة :

H. W. Haussing : wörterbuch der mythologie Götter und mythen im vordeyen orient. E. Klett vertag, stuttgarl 1965.

معجم الحديث :

A. J. Wensinck : concordance et indices de la tradition musulmane, II, Leiden (1943).

نشوة الطـــرب فى تاريخ جاهليـــة العـــرب لابن ســـعيد المغـــربى ، حقق قسما منه وترجمه الى الالمانية ما نفرد كرب كرسالة علمية ، هايدلبرج ١٩٧٥ .

معجم البلدان : ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، توزيع دار الـــكتاب العربى ، بيروت ـــ لبنان (تصوير بدون تاريخ) .

هاردنج :

G. L. Harding : An index and concordance of the pre — islamic arbian names and Inscriptions. University of Toronto press. 1971.

هاردنج ـــ ليتمن :

G. L. Harding and E. Littmann : some thamudic inscriptions from the hashemite kingdom of Jordan iden, 1952.

هاردنج ـــ وينت :

F. V. Winnett and G. L. Harding : Inscriptions from fifty safaitic cairns. University of Toronto press. 1978.

هانى :

G. L. Harding, the Cairn of Hani, in Annual of the Department of Antiquities of Jordan, vol. 2, 1953, pp. 8 — 56.

هوفنـــر :

Maria Hoefner, die Beduinen in den Vorislanischen arabischen Inschritten (l'antica societa, beduina, studi semitici, university di roma, 1959.

وينت :

F. V. Winnett : Safaitic Inscriptions from Jordan, Uniiersity of Tornto Press 1967.

وينت ــ ريد :

F. V. Winnett and W. L. Reed : Ancient Records from north Arabia. University Toronto Press, 1970 .

يوســف :

Yusuf abdallah die persomennamen in al - hamadan is, al Iklil und Ihre parallelen in den altsudarabischen Inschriften, Tubingen, 1975.

دائرة المعارف الاسلامية :

H. A. R. Gibb and G. H. Kramers : Shorter Encyclopaedia of Islam, E. J. Brill, Leiden 1965.

ريكمنز :

G. Ryskmans : Les Noms Propres sud - semitiques, I—III, Lovrain, 1934—35.

شبر نجــر :

A. Sprenger : Die alt Geographic Arabien (Nachdruck der Ausgabe Berlin 1875).

شتارك :

J. K. Stark : Personal Names in Palmyrene Inscriptions, Oxford at the Clarendon Press. 1971.

فلهوزن :

J. Wellhausen : Reste Arabischen Heiden tums, Beriln, 1897.

الكتاب المقدس :

كوربس :

Corpus inscriptionum Semiticarum, Pars V, fasc. I, Paris, 1950.

ليتمن :

E. Littmann : Safaitic Inscriptions, Publication of the Princeton University, Archaeological Expeditions to syria 1904—1905 and 1909, Division IV, semitic Inscriptions, Section c; Leyden-E. J. Brill 1943.

المجموعة : يوسف محمد عبد الله :

النقوش الصفوية فى مجموعة جامعة الرياض عام ١٩٦٦ رسالة ماجستير قدمت الى دائرة اللغة العربية ولغات الشرق الادنى كلية الآداب فى العلوم ، الجامعة الامريكية فى بيروت ١٩٧٠.

مقال وينت :

F. V. Winett, The Revolt of Damasi : Safaitic and Nabatean Evidence. Bulletin of the American Schools of Oriental Research, Number 211. October 1973.

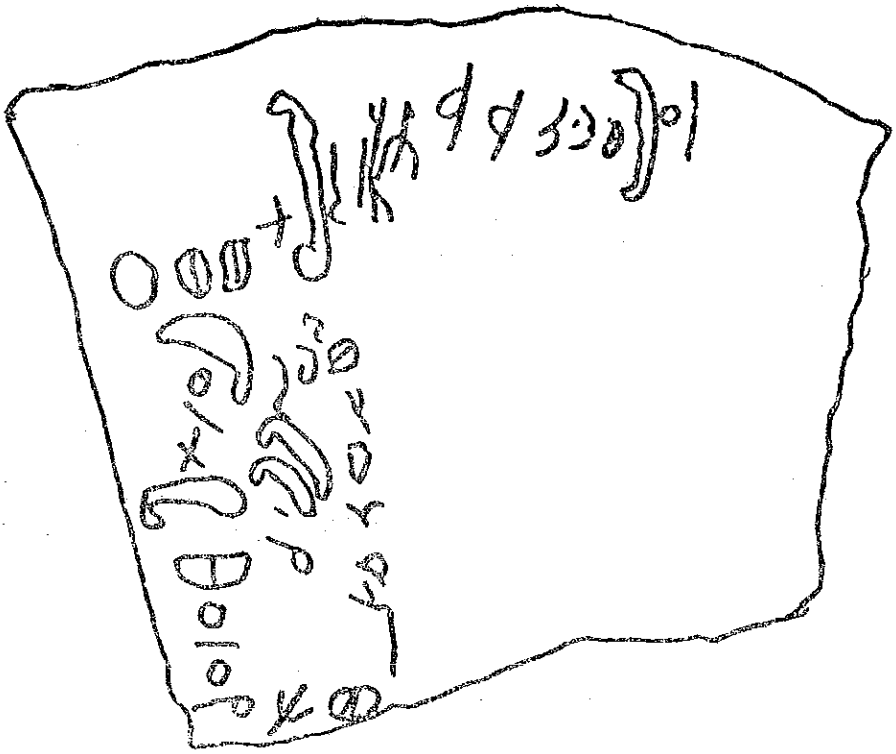

النقش رقم ١

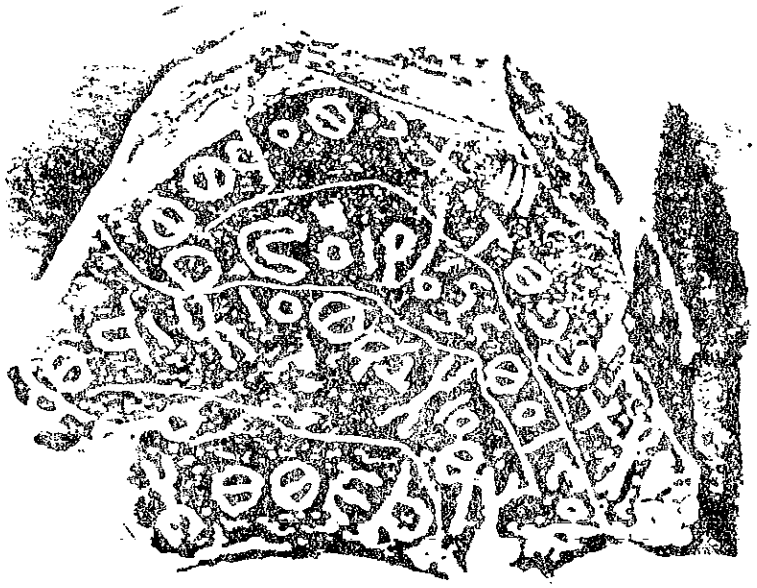

صورة لحجر عليه نقش صفوى :

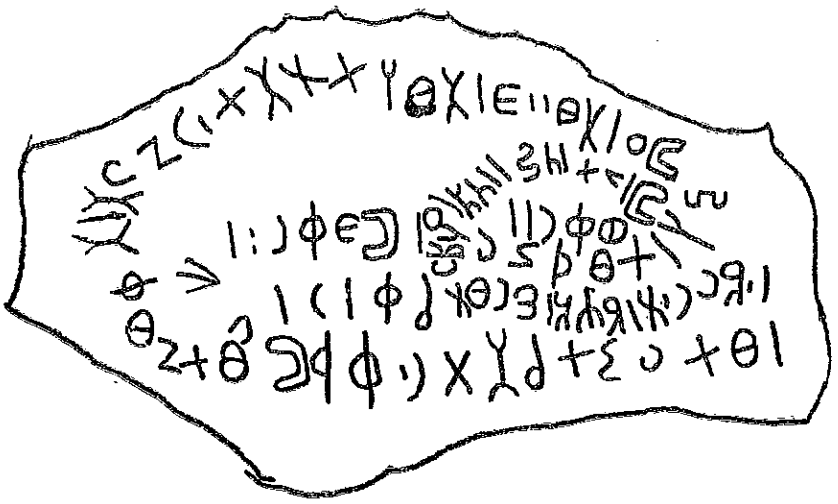

النقش رقم ٢

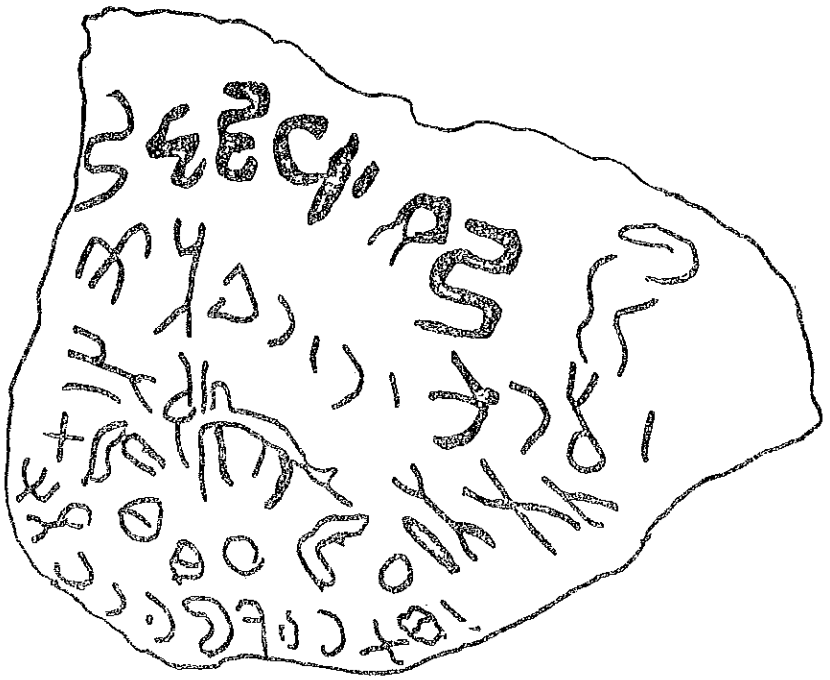

النقش رقم ٣

« الخطاب السابع لأفلاطون »

الدكتور عبد الغفار مكاوى

تمهيـــد :

تتضمن كتابات أفلاطون ثلاثة عشر خطابا بالاضافة الى محاوراته المعروفة وبعض المقطوعات الشعرية القصيرة (الابيجرامات) المنسوبة اليه . وقد ضمت هذه الخطابات الى مجموع مؤلفاته منذ القرن الثالث بعد الميلاد ، ولعلها كانت جزءا لا يتجزأ منها منذ القرن الأول قبل الميلاد .

والخطاب السابع هو أهم هذه الخطابات وأشهرها ، اذ يعد ترجمة ذاتية سجل فيها الفيلسوف جانبا من حياته الشخصية ، وقدم لنا وثيقة لا غنى عنها لمعرفة اهتمامه بالشئون العامة ، وتطور موقفه من السياسة والحكم ، وكفاحه فى سبيل تطبيق نظرياته المثالية على الواقع العملى فى صقلية ، واعترافه بما أصابه من خيبة وإخفاق ، ودفاعه عن فلسفته دفاعا مفعما بالعاطفة الممزوجة بالألم والمرارة .

والخطاب طويل ، يعادل فى طوله سائر الخطابات الأخرى مجتمعة ، أو احدى المحاورات القصيرة التى تسمى محاورات الشباب . وهو وحده الذى نجا من الشك فى نسبة الخطابات الى أفلاطون ، وربما شاركه الخطابان الثالث والثامن فى اجماع العلماء على صحته اجماعا يكاد أن يكون عاما . فقد كثرت الخطابات المزيفة فى أواخر العصور القديمة ، واستهوى هذا الشكل الأدبى عددا كبيرا من أصحاب البلاغة الذين استغلوه لاظهار قدرتهم البيانية ، وحشوه بالمحسنات اللفظية والاشارات المستفيضة للحوادث التاريخية ، ونسبوا هذه الخطابات الى كثير من الشخصيات المشهورة . ولا يتسع المقـــام للتعرض للمناقشات الطويلة التى دارت حول أصالة خطابات أفلاطون أو زيفها . فقـــد استقر الرأى فى العصر القديم على أصالة الخطاب السابع ، وأصبح الاجمـــاع

اليوم تاما أو شبه تام على صحة نسبته لأفلاطون(١) . أشار اليه شيشرون ووصفه فى « المجادلات التوسكولانية » (٥ — ١٠٠) بأنه « ذلك الخطاب الشهير » ، وأفاد منه المؤرخ الشهير « بلوتارك » فى الفصل الذى كتبه عن حياة « ديون » صديق أفلاطون وتلميذه الذى أغراه بزيارة صقلية أكثر من مرة كما سنرى . ومهما يكن من أمر الاعتراضات التى لا تزال توجه اليه ، فليس فى أسلوب كتابته ولا فى سياق أفكاره شىء يخالف أسلوب المحاورات المتأخرة وأفكارها ، كما أنه يخلو من التصنع والحشو وبراعة الصقل والتأنق التى اتسمت بها الخطابات المنحولة التى اخترعها البلاغيون المتأخرون . فهو فى مجموعه مضطرب غير متوازن ، متقطع ثقيل الخطى ، حافل فى بعض أجزائه بأسرار يصعب سبرها وادراك غورها ، وفى أجزاء أخرى بالغضب والندم والانفعال الذى يرتفع مع ذلك فوق التعريض والتشفى والسخرية — أى أن فيه كل مميزات الكتابة الحية التى تتدفق مع تيار الاعتراف الجارف ، ويسرى فيها نبض الحكمة السمحة الطيبة .

والخطاب يستحق منا أن نقرأه بعناية واهتمام . فليس مجرد اعتراف شخصى أو ترجمة ذاتية أو سيرة حياة تلقى الضوء على طموح أفلاطون لتحقيق أفكاره وأحلامه ، والأخطار التى تعرض لها فى فترة من أهم فترات حياته ، ومحاولته « انقاذ » البشر من بؤسهم ومتاعبهم على يد « الملك الفيلسوف » الذى يجمع القوة والحكمة فى شخصه ، ويقيم الدستور الأمثل ، ويدعم سيادة القانون على الحاكم والمحكوم جميعا — وانما هو بجانب ذلك كله نافذة نطل منها على قلبه الذى وقف دائما وراء فكره ، ونتعرف على معالم فلسفته المتأخرة التى فصلها فى محاورات الشيخوخة ، ولكنه لم يستطع أن يعبر عنها هذا التعبير العاطفى الحى الدقيق الذى نجده فى الخطاب السابع .

---

(١) أقول شبه تام لأن الهجوم تجدد أخيرا على الخطابات بوجه عام والخطاب السابع بوجه خاص ، وذلك فى كتاب ل. ايدلشتاين الذى ظهر سنة ١٩٦٦ فى ليدن عن خطاب أفلاطون السابع

Edelslein, L., Plato's seventh letter, Leyden, 1966

ويمكن الرجوع الى ملخص المناقشات حول هذا الموضوع كله فى كتاب ج. أ. رافن عن تطور تفكير أفلاطون ، ١٩٦٥ ، ص ١٩ — ٢٦
Raven, J. E. Plato's thought in the making. 1965, pp. 19 — 26.

يبدو الخطاب فى ظاهره رسالة سياسية موجهة من أفلاطون الى حلفاء صديقه ديون فى سيراقوزه (أو سراقسطة كما كان العرب يسمونها) على أثر اغتيال هذا الأخير مباشرة . ولكنه كذلك تبرير شخصى للدور الذى قام به — أو تورط فيه — فى الأحداث التى جرت فى هذه العاصمة الصقلية والمحن التى ألمت بها ، بل تبرير لفلسفته ومدرسته (الأكاديمية) أمام الرأى العام الاغريقى وأمام العالم كله . والملاحظ أن هذه الرغبة الملحة فى التبرير تتكرر فى الخطـــاب بصورة صريحة (راجع الفقرات ٣٣٠ ج ، ٣٣٧ د ، ٣٣٩ أ والعبارة الأخيرة التى تأتى فى ختامه ٣٥٢ آ) كما أن النصائح التى يوجهها لحلفاء ديون وأصدقائه تلبية لطلبهم تختلط بهذا التبرير المستمر الذى يوشك فى بعض الأحيان أن يطغى عليها . وتتغلغل العاطفة فى هذين الموضوعين الأساسيين اللذين يدور حولهما الخطاب ، فهو يلح على الاصدقاء بالنصيحة ويستحثهم على الاقتداء بسيرة زعيمهم ، ولكنه لا يعلق عليهم الأمل ولا يتوقع منهم الاستجابة . وهو يدافع عن نفسه وفلسفته وسمعة مدرسته وبلده ، ولكنه دفاع لا تخطىء فيه الأذن نغمة الكبرياء الجريحة ومرارة الاحساس بالاهانة وشدة السخط على أعدائه الذين تمكن الشر منهم حتى يئس من هدايتهم الى طريق الخير والحق والفضيلة . والواقع أن هذا الدفاع أو التبرير هو الهدف الأساسى من كتابة الخطاب ، مهما أوحى الينا بأنه مجرد هدف ثانوى بجانب الرد على حلفاء ديون . ولن نقدر هذا حتى نعرف شيئا يسيرا عن الأحوال السياسية فى صقلية ، والأسباب التى أدت بالفيلسوف الى زيارتها والوقوع فى شبكتها المعقدة .

زار أفلاطون صقلية ثلاث مرات ، كانت زيارته الأولى لها سنة ٣٨٨ ق.م وهو فى حوالى الأربعين من عمره . ولم تكن زيارة صقلية هى غرضه الأول ، اذ انتهى به المطاف اليها بعد رحلة دراسية حل فيها ضـــيفا على صـــديقه النبيل « أرخيتاس » حاكم « تارنت » فى جنوب ايطاليا ورأس المدرسة الفيثاغورية فيها . ولسنا نعرف فى الحقيقة ما الذى دفعه الى زيارة سراقوزة ، ولا ندرى أيضا ان كان قد اتصل بالطاغية ديونيزيوس الأول الذى كان يحكمها فى ذلك الحين(١) . ولكن القدر أتاح له أن يكسب صديقا سيظل يذكره ويعتز طـــوال

(١) كان ديونيزيوس الأول قد تمكن من السيطرة على صقلية ومعظم الجزر اليونانية فى جنوب ايطاليا وأقام فيها حكما مستبدا لم تشهد له مثيلا فى الظلم والطغيان ، واستطاع بمساعدة المرتزقة الأجانب أن يوقف زحف القرطاجيين

حياته بوفائه وتضحياته وسيرته « الفلسفية » الحقة . ذلك هو « ديون » صهر الطاغية وشقيق احدى زوجتيه ، وكان يبلغ من العمر زهاء اثنتين وعشرين عاما . اشترك الصديقان فى حوار فلسفى أثر على ديون وحول شخصيته الى درب الفلسفة تحويلا تاما . ولمست عصا المربى الساحرة أعماق الصديق الشـــاب فانطوى على نفسه فى البلاط الذى كان يموج بالدسائس والمؤامرات ، وعكف على الحياة فى عالم المثل الذى جذبه اليه المعلم الاثينى الكبير ..

وانطوت عشرون سنة . مات ديونيزيوس الأول سنة ٣٦٧ ق.م وخلفه فى الحكم ابنه ديونيزيوس الثانى الذى كان الأب قد فرض عليه الجهل والحياة فى الظل . ولم يكن الملك الشاب مجردا من الموهبة والاستعداد الفطرى ، ولكنه كان فى نفس الوقت انسانا ضعيفا عاجزا عن الاستقلال بنفسه ، سهل الانقياد لكل همسة فى أذنه . وتصور ديون أن الفرصة قد جاءت ليصنع منه الحاكم الفيلسوف الذى حلم به تحت تأثير أفلاطون . ويبدو أنه نجح فى اقناع ابن شقيقته بأفكار أفلاطون السياسية ، وسرعان ما تحمس لها الملك الشاب ، ورحب بدعـــوة أفلاطون الذى استجاب لتوسلات صديقه الشاب بعد تردد ، وحضر الى صقلية سنة ٣٦٦ ق.م ليساعده فى تحقيق حلمه « وترويض » الطاغية الجديد الذى لم يكن يحسن الظن به كثيرا . واستقبل الفيلسوف بالحفاوة والتقدير . ولم تمض ثلاثة شهور على وجوده فى صقلية حتى آتت دسائس البلاط ثمرتها المرة . فقد نشب الخلاف بين ديون وديونيزيوس ، وفوجىء أفلاطون بنفى صديقه وتلميذه من صقلية . وبقى بعد ذلك فترة قصيرة على أمل أن يتمكن من التأثير على الملك الشاب ، ولكن الشر الذى استشرى فى نفسه وفى البلاط كانا أقوى منه ، وتكسرت سهام الحكمة والاقناع على جدران الاستبداد والفساد . ولما يئس الفيلسوف من اصلاحه وتأكد من فشله فى مهمته اقتنع بضرورة الرحيل . ولم يكن ذلك بالأمر اليسير على طاغية يخشى على سمعته من اتهام الرأى العـــام

الذين احتلوا الشريط الغربى من الجزيرة ولم تنقطع محاولاتهم بعد ذلك للاستيلاء عليها . ومع أن ديونيزيوس حافظ على الشكل الديمقراطى للحكم ، فقد كان من أبشع الطغاة الذين عرفهم التاريخ القديم أو الحديث . وبلغ من استبداده أن خربت مدن الجزيرة وهجرها معظم ســـكانها . ولعل شخصيته أن تكون وراء الهجوم الضارى الذى يشنه أفلاطون على الطاغية والطغيان فى الجمهـــورية (خصوصا فى الباب التاسع) وغيرها من محاوراته .

اليونانى بسوء معاملة الفيلسوف . ولهذا وعده أفلاطون بالعودة الى سيراقوزة حالما تتغير الظروف السياسية وتعقد معاهدة السلام مع القرطاجيين . ووافق ديونيزيوس الذى كانت لا تزال لديه بقية من الوفاء والعرفان . وتمكن أفلاطون من مغادرة الجزيرة والرجوع سالما الى بيته ..

وتجددت الدعوة سنة ٣٦١ ق.م واستجاب لها الفيلسوف على الرغم من سوء ظنه بالطاغية الشاب واكتشافه أنه أخلف وعده بالموافقة على حضور ديون من منفاه . ويبدو أن أفلاطون لم يشأ أن يضيع على نفسه الفرصة الأخيرة لتحويل ديونيزيوس الى طريق الفلسفة ، ولم يفقد الأمل فى مساعدة ديون والوقوف بجانبه ، ولم يقطع كل رجاء فى « انقاذ » سكان الجزيرة والعمل على سيادة القانون واقامة دستور عادل يحل محل الحكم المستبد ويساعد على النهوض بمستوى الأخلاق واعادة تعمير المدن المخربة . غير أن الزيارة الأخيرة تحولت الى كارثة . فلم يف ديونيزيوس بشىء من وعوده ، ولم يدخل فى حوار مع الفيلسوف الا مرة واحدة . ووجد أفلاطون نفسه سجينا كالطائر الحبيس فى قفصه . وتأزم الموقف حتى تعرضت حياته للخطر ، وحاصره التهديد بالقتل فى كل لحظة . ولولا مسارعة صديقه أرخيتاس بالتوسط له عند الطاغية لما قدرت له النجاة من الموت .

هكذا رجع أفلاطون فى سنة ٣٦٠ ق.م الى بلده وهو يطوى فى صدره الشعور المرير بخيبة الأمل . فقد كان من الطبيعى أن تثير المغامرة الفاشلة أحاديث الناس وتفتح عيونهم على الحقيقة المؤلمة التى أبرزتها حوادث صقلية ، وتقنعهم آخر الأمر بغرابة الأفكار السياسية التى ينادى بها الفيلسوف وبعدها عن الواقع . وكان من الطبيعى أيضا أن يكون هذا الفشل ضربة قاسية للمعلم ومدرسته . وزاد من مرارة الصدمة أن الطاغية الشاب لم يقتصر على اساءة معاملته ، بل حاول كذلك أن يحشر نفسه فى ثياب فلسفته ويدعى شرف الاحاطة بها ! فلم تكد تمضى شهور قليلة على رحيل أفلاطون حتى ذاع بين الناس أنه نشر كتابا فلسفيا من تأليفه . صحيح أنه لم يزعم فيه أنه يعرض مذهب أفلاطون، ولكنه كان يطمح على أقل تقدير أن يكون شاهدا على قدرته على فهمه واستيعابه . ويتناول الخطاب السابع هذه القضية بأسلوب لا يخفى معه غضب الفيلسوف واستنكاره . ويزيد من هذا الغضب والاستنكار ما يؤكده عن نفسه

من تهيب الكتابة عن الأمور المتصلة بالحقيقة ، وايمانه بأن القضايا الأساسية فى الفلسفة تستعصى على التدوين فى الكلمات الجامدة والحروف الصماء ، لأن شرارتها الحية لا تتقد الا اذا احتك رأى برأى ، واتصل حوار بحوار .

والتقى أفلاطون بصديقه وتلميذه ديون فى الألعاب الأوليمبية وروى له القصة بأكملها . وصمم ديون على الثأر للظلم الذى حاق بمعلمه وبالفلسفة . لم يحبذ المعلم فكرة اللجوء الى العنف ، ولكنه لم يستطع أن يمنع نفرا من الشباب ومن بينهم عدد من تلاميذه فى الأكاديمية من الالتفاف حول ديون والانضمام الى صفوف الحملة الصغيرة التى بلغت شواطىء صقلية سنة ٣٥٧ ق.م ونجحت نجاحا لم يتوقعه لها أحد . واستقبله سكان سراقوزة بالفرح والهتاف ، وتمكن من السيطرة على المدينة دون مقاومة تذكر . وتحصن ديونيزيوس فترة فى قلعة « أورتيجيا » ، ولكن ديون تمكن بمساعدة المرتزقة من طرده من الجزيرة ، فلجأ الى أملاكه فى جنوب ايطاليا . واستمر ديون فى حكم الجزيرة أربع سنوات . غير أنه فشل فشلا ذريعا فى تحقيق برنامجه الاصلاحى الذى يشيد به الخطاب ، وأثبت عجزه عن استرضاء الناس وادارة شئون الحكم . واضطر محرر الجزيرة أن يتحول الى أقسى طاغية عرفته . وكانت النتيجة أن أقصاه عن السلطة أحد قواد الجنود المرتزقة الذين مكنوه منها ! وانتهى الأمر باغتياله سنة ٣٥٣ / ٣٥٤ ق.م بيد أحد قوادهم ، وهو صديقه الأثينى « كاليبوس » الذى وضع ثقته فيه . ولم يكن القاتل لحسن الحظ من تلاميذ أفلاطون فى الأكاديمية ، ولهذا نجد الفيلسوف يتبرأ منه ويبرىء مدينته من جريمته . ولجأ حلفاء ديون الى مدينة « ليونتينى » وأرسلوا الى أفلاطون يسألونه النصح والمشورة فكان رده هو هذا الخطاب السابع . لم يكن فى امكانه أن يكتفى بالنصح والارشاد . فقد أثارت المناسبة كوامن أحزانه وفتحت جروح ذكرياته . ولم يستطع القلم أن يسيطر على آلامه فاندفع مع تيار الكتابة على هذا النحو الذى لا يخلو من التعثر والغموض ، وترك لنا معضلات لا يسهل فهمها أو حلها ...

ولابد لنا قبل الكلام عن الخطاب نفسه من تتبع أحداث صقلية الى نهايتها . فقد انضم « هيبارينوس » — وهو ابن ديونيزيوس الأول من شقيقة ديون وأخو ديونيزيوس الثانى غير الشقيق — الى صف حلفاء ديون ، وتمكن من طرد « كاليبوس » من سراقوزة والاستيلاء على الحكم. غير أن الأمور ظلت مضطربة،

ولم يستطع أحد أن يثبت أقدامه فى الجزيرة . ويقع الخطاب الثامن فى هـذه الفترة الحرجة بين انضمام « هيبارينوس » الى حلفاء ديون وسقوطه بعد ذلك بسنتين على أثر اغتياله بيد شقيقه « نيزايوس » . ويبدو أن أتباع ديون توجهوا مرة أخرى الى أفلاطون طلبا للنصح والمعونة . ولهذا نجده فى الخطاب الأخير يقترح عليهم أن يقدموا تضحية « أفلاطونية » أصيلة ! كان خطر تدخل القرطاجيين يهددهم من ناحية ، وأخبار الهجوم المتوقع من ديونيزيوس تؤرقهم من ناحية أخرى .. ولهذا اقترح عليهم أفلاطون أن يستدعوا ديونيزيوس لتولى الملك فى سيراقوزه . وحاول أن يخفف عنهم وقع المفاجأة فأشار عليهم بأن يتولاه بالاشتراك مع ملكين آخرين أحدهما هو هيبارينوس نفسه (قبل اغتياله) والآخر هو أحد أبناء ديون الذى لم يذكر اسمه ويبدو أنه ولد فى السجن بعد موت أبيه . غير أن اقتراح المصالحة كان أبعد ما يكون عن واقع الجزيرة التى تحولت الى ساحة صراع وحشى على السلطة . فلم يلبث ديونيزيوس أن غزا الجزيرة ونشر عليها ظلال استبداده .. ولم يدم هذا الاستبداد طويلا ، اذ توجه أهالى سيراقوزة سنة ٣٤٥ ق.م — أى بعد موت أفلاطون بسنتين — الى مدينتهم الأم كورنثة طالبين النجدة ، فسيرت اليهم حملة بقيادة « تيموليون »(١) المشهور . ونجح هذا القائد الشجاع فى اقرار السلام والأمن فى ربوع الجزيرة التى مزقتها الحروب .. أما ديونيزيوس فقد عاش بعد ذلك حياة رجل عادى ، وان كانت الحكايات الشعبية قد جعلت منه فى النهاية معلما أو ناظر مدرسة !

يبدأ أفلاطون باعلان استعداده لمساندة حلفاء ديون وأتباعه ، وذلك بشرط أن تكون آراؤهم وأهدافهم متفقة مع الآراء والأهداف التى آمن بها ديون وسعى لتحقيقها .. فقد قامت خطته السياسية على الأحاديث التى جرت بينهما أثناء زيارته الأولى لصقلية . وهو لذلك أقدر من غيره على الحكم عليها . ويستغل

---

(١) تيموليون (مات حوالى سنة ٣٣٧ ق.م) قائد وسياسى يونانى من مدينة « كورنثة » ، خلص سكان صقلية من طغيان ديونيزيوس الثانى ومن القرطاجيين الذين كانوا يحتلون غرب الجزيرة . وقد تمكن من احتلال سيراقوزة سنة ٣٤٣ ق.م وأقام فيها دستورا يحميها من الطغيان ، وانهارت النظم الفردية المطلقة فى الجزيرة تحت تأثير حكمه العادل . تخلى عن السلطة ورجع الى حياته الخاصة سنة ٣٣٧/٣٣٦ ق.م وأصيب بالعمى قبل موته ، وقام أهل سراقوزه بتوديعه الى قبره .

الفيلسوف هذه المناسبة للحديث عن تطور أفكاره السياسية ، واهتمامه في صدر شبابه بالمشاركة في شئون الحكم ، ثم عزوفه عنها بعدما رآه من تخبط نظم الحكم الفردية والشعبية على السواء ، والجريمة التي ارتكبتها باعدام أستاذه وحبيبه سقراط . وفي هذا الجزء من الخطاب نجد العبارة المشهورة التي يسجل فيها يأسه من الأحوال السياسية التي توالت على بلده ، واتجاهه الى الفلسفة التي أصبحت أمله الوحيد في « انقاذ » البشر ، وتحوله بعد ذلك الى التعليم والتربية : « وهكذا وجدتني مدفوعا الى الاعتراف بقيمة الفلسفة الحقة والتأكد من أنها هي وحدها التي تمكن الانسان من معرفة العدل (والصواب) الذي تصلح به الدولة والحياة الخاصة ، وأن الجنس البشري لن يتخلص من البؤس حتى يصل الفلاسفة الأصلاء الى السلطة ، أو يصبح حكام المدن — بفضل معجزة الهية — فلاسفة أصلاء » .

ويعود للحديث عن ديون : عن الآمال التي عقدها على ديونيزيوس الذي تولى الحكم بعد موت أبيه ، ودعوته لأفلاطون الذي استجاب لندائه حبا له وأملا في تحقيق أفكاره النظرية في الواقع . وتتم الزيارة الثانية ، وتتتابع الأحداث المفاجئة فينفى ديون ، ويكتشف الفيلسوف أن السبب الحقيقي وراء نفيه هو خوف الطاغية الشاب من تأثير أحاديثه عليه ، وخشيته — أو بالأحرى خشية رجال حاشيته — من أن يوقعه في سحره ويلهيه عن مهام الحكم . وتنقطع الحكاية فجأة لتفسح مكانا للنصيحة التي سيقدمها لاتباع ديون . ولكن ما جدوى النصح اذا لم تتوفر نية اتباعه وتغيير الحياة والسلوك على أساسه ؟ ألم يشترك هو وديون في توجيه نصائحهما الى ديونيزيوس ؟! ويتذكر الظلم الذي وقع على ديون . وتأخذه الحسرة على موته . ويحتد في سخطه على الذين حاولوا القاء تهمة اغتياله على أثينا والأكاديمية . ولا يكاد يخلص نفسه من هذه الذكرى الأليمة ليعود لنصائحه حتى يندفع القلم للكتابة عن فكرة سيادة القانون التي حاول أن يقنع بها ديون وديونيزيوس ورجع اليها بعد ذلك في محاورة «السياسي» المتأخرة ليؤكد ضرورتها واستحالة الاستغناء عنها ، لأن الحاكم « الحكيم » الذي يستند الى الدستور والقانون هو في الواقع مثل أعلى لا وجود له . ثم تعاوده ذكرى اغتيال صديقه وتلميذه ديون ، والخسارة التي أصابت البشرية على يد القاتل الذي أزهق نفسا أحبت العدل وصممت على نشره بين الناس ، والخسارة

التى أصابتها أيضا عندما أضاع ديونيزيوس الفرصة التى أتيحت له ليجمع فى شخصه بين القوة والحكمة .

ويخلص أفلاطون نفسه من متاهة الذكريات المؤلمة ويكرهها أخيرا على تقديم النصيحة المطلوبة . ولا تخرج هذه النصيحة عن الخضوع للقوانين : لأن خضوع الحزب المنتصر للقوانين أكثر من الحزب المهزوم هو الذى يضمن السعادة والنجاة . وينتهى أمر النصيحة عند هذا الحد . ويرجع بعد أن تخفف من العبء الثقيل الى الموضوع الأساسى الذى يشغله ، وهو تبرير زياراته لصقلية . انه الآن يتجه بحديثه الى الرأى العام الاغريقى كله ، لا الى أصدقاء ديون وأقربائه وحدهم . وتصبح الزيارة الثالثة محور الحديث . كان من مبررات هذه الزيارة ما تردد عن تحمس ديونيزيوس للفلسفة بصورة مفاجئة (وربما كان أصدقاؤه الفيثاغوريون هم المسئولين عن هذه الاشاعة !) ولكن هل صدق هذا ببساطة ؟ لقد طالما جرب مع أمثاله تجربة لا تخيب ، فاخضعهم لامتحان يثبت صدق استعدادهم للسير على درب الفلسفة . ولا يوضح أفلاطون طبيعة هذه التجربة ، بل يكتفى بالاشارة الى مشقة الطريق ، وحاجة الممتحن الى تغيير حياته من أساسها ليصبح أهلا للتفلسف . وقد أخفق ديونيزيوس فى هذا الامتحان وظهر عجزه الواضح من الحوار الوحيد الذى أجراه معه ! ويتطرق الحديث الى الكتاب الذى سمع بأن ديونيزيوس وضعه عن مذهبه . وعبثا يحاول أفلاطون الاستخفاف بهذه المسألة ، فنغمة السخط والاحتقار تتردد فى كل كلمة يقولها عنها : « وبعد ذلك بلغنى أنه كتب رسالة عما سمعه فى ذلك الحين ، وأنه صور الأمر كأنها رسالة من تأليفه وتعبر عن مذهبه لا عما سمعه . ولكننى لا أعرف شيئا مؤكدا فى هذا الشأن » . هل أراد هذا المؤلف الصغير أن يستغل ماشاع بين اليونانيين عن المودةالتى بينهما لكى يشوه صورته لديهم ويثير سخريتهم على مذهبه ؟ أليس هذا عذرا لا نظير له من تلميذ دعى لم يستمع الى المعلم الا مرة واحدة ، ومع ذلك وانته الجرأة على تقديم آرائه للناس فى ثوب بال مسكين ؟ وترتفع أمواج الغضب فى قلب الفيلسوف المهان فيصرخ باعترافات جديدة من فوق مركبه المحطم . لم تكن هذه أول مرة تصيبه فيها مثل هذه المصيبة . ولكن الكتب التى نشرها هؤلاء المؤلفون المزعومون تشهد بأنهم لا يفهمون شيئا من الفلسفة . والدليل على هذا — وهو دليل يفاجأ به القارىء — أنه لم ينشر طوال حياته شيئا عنها . صحيح انه لا ينكر محاوراته ، ولكن هذه المحاورات لا تتناول شيئا

عنها . وهو للأسف لا يوضح لنا ما يقصده بذلك . فهل نزه « المشكلات الأولى والأخيرة » عن لعنة الكتابة ؟ هل أراد أن يحميها من الالتفاف فى أكفان الكلمات الجامدة وتوابيت الحروف الباردة ؟ أكان كل مادونه من محاورات مجرد لعب وتسلية ؟ حقا ، ذلك كان مراده . فالفلسفة تتأبى على الكلمة المدونة التى تتسع لغيرها من العلوم ، لأن حقيقتها « تنبثق فى النفس فجأة بعد مشاركة طويلة وتعاون مستمر فى العكوف عليها كما ينبثق نور بقدحة نبض شرارة ، وهنـــالك ينمو فى أعماق النفس ويحيا » . ولو تصور أن نشر مؤلفاته يمكن أن ينفع الناس ، فهل كان يتردد عن تقديم مذهب ينقذهم من تعاستهم ويبين لهم حقائق الأشياء ؟ وهل كان يمكن أن يقوم فى حياته بعمل أجمل من هذا العمل ؟ ولكنـــه مقتنع بأن هذالن يجديهم شيئا ، بل ربما جر عليهم الأذى والاضطراب ، لأن القلة القليلة منهم هى التى ستفهمه على الوجه الصحيح .

ولعل أفلاطون لم يتصور أن الناس ستقتنع بهذه الحجة ، أو لعله هو نفسه لم يقتنع بها ! فهو يقدم الآن « حجة لا يمكن دحضها » . وهى حجة تستغرق الفصل العسير المشهور عن نظريته فى المعرفة . ويبدو هذا الفصل غريبا فى خطاب موجه الى أناس يطلبون منه الرأى والمشورة فى موقفهم العسكرى الحرج ، كما يبدو غريبا لانقطاع السياق والتحول الى مسألة فلسفية لا مكان لها فيه . وقد ذهب الى هذا الرأى معظم المتشككين فى أصالة الخطاب ، ولم يتردد بعض المؤيدين لصحته من نسبة هذا الجزء الى كاتب متأخر أراد أن يثبت اطلاعه على نظرية المثل . ولكن الذى يعرف هدف أفلاطون الحقيقى من كتابة الخطاب ـــ وهو كما قلت تبرير زيارته لصقلية والدفاع عن فلسفته ـــ لن يستبعد عليه أن يتطرق الى نظرية المثل التى ظلت شغله الشاغل فى أواخر حياته ، ولم يتوقف عن شرحها واثباتها والدفاع عنها فى محاوراته المتأخرة . لقد كانت أساس فلسفته وقمتها العالية فى وقت واحد . ولهذا ليس غريبا أن تحتوى على جانب « مقدس » يحميه من تطفل الكثرة الجاهلة . وليس غريبا أن يشهد أنبغ تلاميذه (أرسطو) بأنها كانت تزداد غموضا على غموض ، وتلتف فى دروسه الشفهية الأخيرة فى ثوب رياضى عسير . .

يؤكد أفلاطون أنه أعلن من قبل عن هذا « اللوجوس الحق » . ولابد أنه يقصد بذلك محاضراته الشفهية ، لأن كل تفاصيل هذا الجزء المتعلق بنظـــرية

المعرفة مثبتة فى محاوراته المكتوبة . ومع ذلك فان هذه التفاصيل لا تغنى عنه . لأنه فى مجموعه شىء نادر وفريد . ولابد أن أفلاطون وجد مشقة فى تدوينه ، اذ يصفه فى النهايةبأنه « أسطورة » « وتحسس للطريق » ، وكأنه لحن وقعه العازف الماهر فجأة وخرج به عن مجرى النهر المتدفق بالألحان !

تحيرنا العبارات الأولى من هذا الفصل . فهى تضع أدوات المعرفة أو سبلها المختلفة فى صف واحد مع موضوع المعرفة نفسه . انه سلم من الكيفيات المتفاوتة الدرجة . فأدناها وأقلها قيمة هو الاسم ، يتلوه التعريف ، وبعدهما تأتى النسخة (التمثل أو النموذج) ثم المعرفة ، وفى نهاية السلم يشمخ المثال الذى نتطلع الى معرفته . واذا كان التعريف فى محاورات أفلاطون المبكرة هو الذى يفتح لنا طريق المعرفة ، فان وضعه له هنا تحت النسخة أو التمثل لا يعنى أنه يحط من شأنه .

وينتقل أفلاطون الى مثال يبين ما يقصده بالأدوات الثلاث الأولى للمعرفة . أما الاداة الرابعة فيقول انها تتعلق بهذه الأمور ، أى بالدرجات الدنيـــا التى يوضحها المثل المضروب . ونحس فى هذا الموضع أن تجربة المعلم تفرض نفسها عليه ، وكأنه يتحدث عن خبرته مع تلاميذه فى الأكاديمية ومدى استيعابهم لأدوات المعرفة الثلاث . وينقسم المستوى الرابع الى مستويات أخرى تندرج تحته . وهى بدورها مستويات متفاوتة ، ولكنها جميعا تدور داخل النفس . ويقدم لنا مثلا جديدا يعلق عليه بقوله « واذا لم يتيسر فهم الأمور الأربعة الاولى مجتمعة فلن يتمكن الانسان أبدا من معرفة الخامس معرفة تامة . ومعنى هذا بعبارة أخرى أن المعرفة بجانب الأدوات الثلاث الاخرى هى التى تتيح معرفة الموضوع الخامس ، ان صح ان المثال موضوع ، أو ان طريقة معرفتنا له يمكن أن تسمى معرفة (فهى لعمرى شىء غير محدد ، لا يمكن أن تنقله الكلمة أو تصـــفه ، شىء أقرب للنظر أو الرؤية ...) لا بل ان من شأنه أنه لايكاد يرى (الجمهورية ـــ ٥١٧ ب ، ٧) . والحق أن أفلاطون لا يقدم لنا معنى محددا لمفهومه عن المعرفة . فهناك المعرفة التى تدل على تمثل النفس الأدوات « المعرفة » الثلاث ، وان تكن فى نفس الوقت مجرد اعداد لمعرفة الخامسة . أى أن فعل المعرفة ينقسم فى واقع الأمر الى فعلين : أحدهما تمهيدى والآخر نهائى . والأهم من هذا كله أن أدوات المعرفة الأربع تعانى من ضعف مشترك . وهذا يذكرنا بمحاورات الشباب

التى يعتب فيها سقراط على محدثيه لأنهم يبحثون دائما عن الكيفية (الخـــير) بدلا من أن يبحثوا عن المثال (الخير) . ويخرج أفلاطون عن دور الناقد للمعرفة ليتحدث عن الكتاب المزعوم الذى أفضى به الى الاستطراد فى كلامه عن المعرفة ، فيؤكد ما سبق أن قرره من سوء الظن بالكلمة والحرف المكتوب ، وايمانه بأن « المشكلات الأخيرة » تستعصى على التعبير والتدوين ، وكل ما يكتبه الكاتب عنها لا يعدو أن يكون ظلا باهتا للتجربة الحيـــة الكامنـــة فى أجمل مكان من أعماقه :

« ولهذا فلن يخاطر عاقل بوضع أفكاره فى ثوب هذه اللغة الضعيفة ، والأولى من ذلك الا يخاطر بوضعها فى ذلك الشكل الجامد الذى يميز كل ما يكتب بالحروف » .

ويوضح أفلاطون قوله بمثال الدائرة . فكل الدوائر المحسوسة ظلال ونسخ باهتة من الدائرة فى ذاتها . وكل أدوات المعرفة بما فيها المعرفة نفسها ـــ لاتقدم للنفس المتطلعة للحقيقة الا الصفات والكيفيات ، سواء فى صورة كلمات ـــ بالاسم والتعريف ـــ أو فى صورة مادية محسوسة ـــ بالتمثل أو النسخة ـــ ومعنى هذا أنها لا تقدم للنفس الا ما لاتريده ! ومن السهل اثبات الخداع والضلال فى مثل هذه المعرفة . وليس هذا بالأمر الخطير حين نكون بصدد موضـــوعات عادية لا نلتمس فيها الحقيقة المطلقة : « عندئذ لا نضع أنفسنا موضع سخرية السائلين ، حتى ولو كانت لدى هؤلاء القدرة على نقد أدوات المعرفة الأربع واثبات خطئها » . أما اذا أصر السائل على الحصول على جواب شاف عن « الخامس » أى عن المثال لا عن الصفة والكيفية ـــ فسوف يخرج من الحلبة منتصرا بعد أن يكتشف عجزنا عن تقديم مثل هذا الجواب . فليس الطريق الى المثال سهلا ولا معبدا ، ولا التفلسف ـــ وهو الطريق الصاعد اليه ـــ ميســـورا لكل انسان . لابد اذا من محاولة الأدوات الأربع ومعاودة المحاولة ـــ عندئذ يمكنها أن تهيىء « للخير معرفة الخير » (ولن يتيسر هذا أيضا بغير الجهـــد والصبر والعناء !) لأن النفس الالهية هى وحدها التى يمكن أن تقترب من المثال الالهى . والشرط الأكبر هو هذا الخير . فاذا غاب عن انسان ـــ كما هو حال الكثرة من الناس ـــ فلن يقدر « لينكويس » نفسه أن يعلمه الرؤية (ولينكويس هو زرقاء اليمامة عند الاغريق !) هذه « الخيرية » تقوم على الطبع الخير

والموهبة . فاذا توفرا لانسان أمكنه أن يتفلسف . ولاشك أن هذا الانسان نادر الوجود ، فمعظم الناس قد تلفت نفوسهم وامتلأت باللؤم والحسد والغباء . وقد يتعلم هؤلاء شيئا عن أدوات المعرفة الأربع ، وقد يقرأون عنها أو يكتبون فيهـــا آلاف الصفحات . ولكن هذا لن يغير من الحقيقة شيئا : والحقيقة أنهم أبعد الناس عن روح الفلسفة ، لأنها لا تمد جذورها فى طباع غريبة عنها ، كما أن النفس التى تخلو من الخير والجمال لن تشعر بصلة القرابة بمثال الخير والجمال . ولن يزيد الذكاء وقوة الذاكرة أصحاب النفوس المطبوعة على الشر الا قدرة على الشر . ولهذا كان أحد تعريفات الفلسفة عند أفلاطون هو هذا التعـــريف المشهور : التشبه بالله بقدر الطاقة . وهل يسعى الى الشبيه الا الشبيه ؟ هل يحس صلة القرابة بالخير الا خير ؟ يكفى أن تتلفت حولك لتتأكد من صدق أفلاطون : فكم من مشتغل بالفلسفة أو العلم لم يزده ذلك الا قدرة على الشر والايذاء !

ولكن ماذا يريد أفلاطون على وجه التحديد « بالأمور الحاسمة » أو المسائل الأولى والأخيرة التى تحتاج للجهد المشترك المتجدد ، وتتطلب الاستعانة بأدوات المعرفة جميعا حتى يمكن بلوغ الهدف ؟ وما هو هذا الهدف الذى يقصده ؟

انه المعرفة الممكنة بحقيقة الخير والشر . وأفلاطون يضيف الشر صراحة ليؤكد أن العلم به ضرورة لا غنى عنها . ولكنه لا يكتفى بهذا ، بل يزيد عليهما ضرورة العلم « بالمظهر والحقيقة فى الطبيعة كلها » . فهل يعنى هذا أن الهدف من الفلسفة الطبيعية لايقل أهمية عن الهدف الأخلاقى ؟ الواقع أن هذه مسألة غامضة محيرة . وهى تقف بنا على أبواب منطقة مجهولة فى فلسفته المتأخرة لا يساعدنا هو نفسه على الدخول اليها . ومع ذلك فقد يخفف من حيرتنا أن أفلاطون يهتم دائما بالطريق أكثر من اهتمامه بالهدف . وهو يفعل هذا فى خطابه السابع وفى سائر محاوراته (لأن الفلسفة طريق ، والحوار الحر السمح هو ايقاع الخطوات الجدلية على هذا الطريق !) ومن الطبيعى أن يؤكد مشقة الجهد والوقت اللازم للسير عليه .. وعندما يتم « احتكاك » أدوات المعرفة الثلاث بعضـــها ببعض ، عندما تخضع لبحث « سمح » من أناس يتحاورون ويتبادلون الأسئلة والأجوبة « بلا حسد أو لؤم » ـــ عندئذ يمكن أن يسطع فى أنفسنا نور الفهم . ولاشك أن عودة أفلاطون الى استخدام صورة النور لا يخلو من دلالة ، ولابد

أنه يحمل نصيبا من خبرته فى التعليم وتجربته مع الحياة والناس . فالنور لا ينبثق الا بالجهد المتصل والتعاون السمح المشترك (الذى حرص عليه فى أكاديميته !) .. وشرارة الفهم والمعرفة لا تنقدح الا بالحوار ، لا بالكلمة المكتوبة والحرف الجامد . ولو بعث بيننا اليوم لفر مذعورا الى قبره بمجرد أن يرى ملايين الصفحات المكتوبة ولا يرى شعاعا واحدا من النور ، وآلاف الادعيـــاء والحاسدين ولا خير عندهم ولافضل ! ومن يدرى ؟ فربما صرخ بعبارته التى يختم بها حديثه فى هذا الموضع من خطابه قبل أن يغلق عليه باب القبر : « ولهذا لن يفكر أى انسان جاد فى الكتابة عن الموضوعات الجادة حتى لايجعل الحقيقة نهبا لحسد الناس وغبائهم » . وتسأل نفسك ماذا يفعل اذن بالحقيقة ان لم يكتب عنها ؟ ماذا يفعل اذا كانت الكتابة لا تجدى واذا كانت الظروف لا تسمح بالجهر برأيه ؟ ـــ ربما كان الجواب هو ما قاله أفلاطون : يحفظها فى ركن ناء من أعماق القلب !

ما الذى يسترعى انتباهنا فى تحذير أفلاطون من الكتابة والمكتوب ؟ انه شىء « لا عقلى » ، قد نحسه ونتذوقه ، ولكنه يستعصى على الفهم والتحديد . ومن الصعب أن ندرجه فى الظواهر اللاعقلية المعروفة . فليس تصوفا صريحا ، لأنه ينطوى على هدف عقلى واضح للمعرفة العلمية . ولا هو مجرد تعبير عن فعل المعرفة الخالصة الذى يكون فيه طريق البحث عن الحقيقة أهم من الحقيقة نفسها كما حاولنا أن نفسره . ومع ذلك ففيه شىء من التصوف وشىءمن مشقة الطريق وعناء الفعل . والأمر المؤكد على كل حال أن اللغة ـــ وهى وسيلة التعبير المألوفة عن المعرفة والحقيقة ـــ تعجز عن توصيله . بل ان أفلاطون يقرر عجزها وقصورها ، كما ينهى كل انسان جاد من أن تحدثه نفسه بالكتابة عن « حقائق الأشياء » . أهو تبرير لمنهج الحوار الذى سار عليه ؟ أم تنبيه الى جدية الموضوع وصون له عن طموح المتعجلين الذين يسارعون للكتابة فى كل شىء ، ويتوهمون أنهم فهموه وانتهوا منه بمجرد تقييده فى الحروف الميتة ؟ أم هو فى النهاية درس استخلصه من تجربته مع تلاميذه فى الأكاديمية ؟ لن نستطيع أن نقطع بشىء فى هذه المسألة . ويكفى أن نشعر بالتحذير ونخشع لرهبة النذير . فلعل هذا أن يمنعنا على أقل تقدير من الاسراف فى الكتابة التى استشرى وباؤها فى هذا العصر !

لا يكاد أفلاطون ينتهى من هذا الفصل الخاص بنظرية المعرفة حتى يرجع للكلام عن ديونيزيوس ، وكأن ما جاء فيه لم يكن الا محاولة لاقناعنا بأن كل من يكتب عن حقائق الطبيعة لا يفهم عنها شيئا ، سواء أكان هو هذا الطاغية أم غيره ! ولو حاولنا الاعتذار بأنه أراد بتأليف كتابه أن يساعده على التذكر ، فلن يكون ذلك الا السخف بعينه . فالغرور هو الذى دفعه لما فعل ، والتمسح فى الفيلسوف أمام الرأى العام هو الذى جعله يقع فيما وقع فيه . وهل يكفى اللقاء الواحد الذى تم بينهما لتلقى العلم ؟ ولماذا اكتفى بهذا اللقاء الوحيد لو كانت نيته خالصة له ؟ الواقع أنه وجد نفسه عاجزا عن تغيير حياته وسلوكه بما يتفق مع الحكمة وواجباتها المضنية . ولو كان مخلصا فى زعمه لما أمكنه أن يهين الرجل الذى هو الدليل والحجة فى هذا الأمر .

وهكذا يستطرد أفلاطون فى الرواية عن رحلته الثالثة الى صقلية . ولا يحتاج هذا الجزء الى شرح أو تفسير ، فسيرى القارىء أن الخطر كان يهدده من كل ناحية ، وأن تدخل أصدقائه الفيثاغوريين كان ضرورة ملحة . ثم يأتى الحديث عن لقائه بديون فى أوليمبيا ، ولا يستطيع الفيلسوف أن يحول بين ديون وحلفائه وبين اللجوء للقوة . ولكنه يمتنع عن تقديم أية مساعدة ايجابية . لقد جروا على أنفسهم كل الكوارث التى أصابتهم منذ ذلك الحين . بل ان الجناية لتعود فى النهاية على ديونيزيوس ، لأن ديون لم يكن يستحق المصير الذى انتهى اليه . كانت مقاصده نبيلة ، ولم يكن مجرد مثالى أعمى . ولكنه أساء تقدير الواقع ، واستهان بالأخطار المحدقة به : « لقد كان يعرف أن الذين تسببوا فى سقوطه أشرار ، أما مدى فظاظتهم وخستهم وجشعهم فذلك هو الذى غاب عنه » . وهكذا راح ديون شهيد الفلسفة . حاول أن ينقذ البشر ، لكنهم عجزوا عن انقاذ أنفسهم ..

وتأتى الخاتمة فتحاول أن تبرر اقحام تجاربه فى النصيحة الموجهة الى أتباع ديون . ومع أنها نصيحة بلا أمل ، فان الأمل الوحيد الذى يعبر عنه فى النهاية هو أن تكون مبررات « الورطة » كلها مقنعة ..

هكذا ينتهى الخطاب السابع المشهور . فهل ينتهى معه الأمل فى «الانقاذ»؟ هل كتب على الفلسفة أن تحصد المر من صراعها الدائم مع الواقع؟ أم علينا

أن نجرب المحاولة دون ان يخذلنا اليأس ؟ هل نظل ننتظر « المنقذ » ام يجب علينا أن نبدأبانقاذ انفسنا ؟ وكيف ننقذها ان لم نتعلم كيف نغيرها ونحولها ونربيها على مشقة التفلسف وواجباته ؟ الم تكن هذه هى رسالة المربى اليونانى الكبير وغيره من المربين العظام ؟

وأخيرا فقد اعتمدت فى هذا النص على الترجمتين الانجليزية والالمانية اللتين قام بهما والتر هاملتون(١) وارنست هوفالد(٢) وأشرت الى الفروق الطفيفة بينهما ، كما افدت من شروحهما وتعليقاتهما اعظم فائدة .. وتجد النسخة الانجليزية مرموزا اليها فى الهامش بالحرف « ب » والألمانية بالحرف « أ » .. وأما الأرقام المسلسلة المثبتة على هامش النص فتتبع ترقيم طبعة هنرى اتيين (هنريكوس استيفانوس) التى يرجع اليها عادة فى نصوص أفلاطون .

---

(١) Platos Phaedrus and the seventh and eighth letters. Translated with introductions by Walter Hamilton. London, Penguin Books,1973.

(٢) Platon; der siebente Brief. Ubersetzung und Nachwort von Erns Howald. Stuttgart. Reclam, 1971.

الخطـــاب الســـابع لأفلاطـــون

١ ـــ من أفلاطون الى أقارب ديون وأصدقائه

٣٢٣ هـ كتبتم الى فى خطابكم تقولون ان على أن أقتنع بأن آراءكم تتفق مع آراء ديون ، ولهذا تحثوننى على التعاون معكم بالقول والفعل بقـــدر ما أستطيع .

٣٢٤ أ فاذا كانت آراؤكم وأهدافكم هى نفس آرائه وأهدافه فاننى أعـــدكم بالتعاون معكم ، والا فاننى سأضطر الى التروى والتدبر فى الأمر . أما عن طبيعة معتقداته وغاياته فاننى آنس فى نفسى القدرة على الحديث عنها حديثا يعتمد على المعرفة الواضحة لأعلى الظن والتخمين(١) . فعندما وصلت لأول مرة الى « سيرا قوزة » ـــ وكنت أبلغ من العمر حوالى الأربعين ـــ كان ديون فى نفس سن « هيبارينوس » الآن ، وقد احتفظ منذ ذلك الحين وحتى يوم مماته بالعقيدة التى آمن بها ، وهى أن أهل « سيرا قوزة » يجب أن يعيشوا أحرارا فى ظل .

٣٢٤ ب أفضل حكومة ممكنة ، ولهذا فليس من المستغرب أن تنعم مشيئة الهية(٢) على « هيبارينوس » باعتناق نفس الآراء التى اعتنقها ديون . أما عن نشأة هذه الآراء فلاشك انها قصة تستحق اهتمام الشـــباب والشيوخ ، ولهذا فسوف أحاول أن أرويها من بدايتها ، لثقتى من أن هذه هى اللحظة المناسبة لذلك .

كنت لا أزال فى ريعان الشـــباب عندما حدث لى ما يحـــدث عادة للكثيرين : فقد تطلعت الى الالقاء بنفسى فى أحضان السياسة بمجـــرد بلوغى سن الرشد .

٣٢٤ جـ وكانت هذه هى صورة الأحوال السياسية العجيبة التى سادت مسقط رأسى : فقد كان الناس ناقمين على الدستور القائم ، وتمت ثورة نتـــج

---

(١) أ : يعتمد على المعرفة الحميمة .
(٢) أ : ان يسوق اله هيبارينوس الى ...
(٣) ب : بمجرد أن أكون سيد نفسى ...

عنها تركيز السلطة فى أيدى واحد وخمسين رجلا ، كلف منهم احد عشر رجلا (بتولى الوظائف العليا) فى المدينة ، وعين عشرة آخرون فى بيرايوس (وقد عهد الى هذين المجلسين بالاشراف على مراقبة الأسواق وغيرها من الشئون الادارية العامة) أما الثلاثون الباقون فقد تولوا زمام السلطة المطلقة . وكان بعض هؤلاء يمتون الى بصلة القرابة ، وبعضهم الآخر من معارفى .

٣٢٤ د ولهذا دعونى على الفور الى التعاون معهم ، وكأن اشتغالى بالسياسة أمر مفروغ منه . ولم يكن من المستغرب من شاب مثلى أن يتوقع منهم أن يحكموا المدينة حكما ينقلها من الظلم الى العدل(١) ، ولهذا رحت أرقب ما يفعلونه بعناية واهتمام بالغين . وسرعان ما اكتشفت أن هؤلاء الرجال قد استطاعوا فى أقصر وقت ممكن أن يجعلوا الحكم السابق عليهم يبدو فى صورة عصر ذهبى(٢) . فقد كان مما فعلوه أن أمروا بتكليف صديق شيخ عزيز — وهو سقراط الذى لا أتردد عن وصفه بأنه كان أعدل الناس فى ذلك الزمان — مع نفر آخر من الرجال بالقبض على أحد المواطنين واحضاره بالقوة لتنفيذ حكم الاعدام فيه .

٣٢٥ أ ولم يكن لهم غرض من ذلك بطبيعة الحال سوى اقحام سقراط فى أعمالهم ، سواء رضى عن ذلك أو لم يرض . غير أنه لم يخضع لأمرهم ، وفضل أن يخاطر بكل شىء على المشاركة فى جرائمهم . فلما رأيت هذا كله وما شابهه من أعمال لا تقل عنه بشاعة أصابنى الاشمئزاز وابتعدت بنفسى عن تلك الأوضاع المشينة(٣) ، ولم يمض وقت طويل حتى انهار حكم الثلاثين وانهار معهم نظام الدولة القديم كله . وما هو الا أن عاودنى الشوق الى المشاركة فى الحياة السياسية ،

---

(١) ب : توقعت من هذه الحكومة أن تأتى معها بالتحول من الادارة الفاسدة الى الادارة السليمة .

(٢) أ : استطاعوا أن يجعلوا الدستور السابق يبدو كالجنة (بالقياس الى حكمهم) .

(٣) ب : ابتعدت بنفسى عن ذلك الشر السائد .

٣٢٥ ب وان كنت قد شعرت به فى هذه المرة شعورا أضعف . لم تكن الأمور قد استقرت بعد(١) . وحدثت أيضا فى تلك الفترة — التى جاءت فى أعقاب ثورة شاملة — أشياء لا يملك الانسان نفسه من السخط عليها ، ولم يكن من الغريب فى هذا العالم المضطرب أن يستغل بعض الناس الفرصة للثأر من أعدائهم على أبشع صورة . ومع ذلك فقد كان سلوك الحزب العائد (من المنفى) يتسم بقدر كبير من الاعتدال . ثم شاء سوء الحظ مرة أخرى أن يقوم بعض رجال السلطة فى ذلك الحين بتقديم صديقى سقراط الى المحاكمة وأن يوجهوا اليه تهمة خسيسة هو أبعد الناس عنها .

٣٢٥ جـ فقد اتهموه بالتجديف فى حق الآلهة(٢) ، وأدانته المحكمة وقضت عليه بالاعدام ، وهو الذى رفض قبل ذلك الاشتراك فى جريمة القبض على واحد من أنصار الحزب الحاكم الذى وجه اليه التهمة ، فى الوقت الذى كان فيه رجال هذا الحزب يقاسون الاضطهاد ويعيشون فى المنفى . لما رأيت ذلك وتبينت نوع الرجال العاملين فى السياسة واخذت فى ملاحظة القوانين والأخلاق السائدة ،

٣٢٥ د اقتنعت فى النهاية بصعوبة الاشتراك فى الحكم(٣) . وازداد هذا الاقتناع قوة مع تزايد الملاحظة والتقدم فى العمر . فقد بدا لى هذا الأمر مستحيلا بغير أصدقاء وحلفاء أوفياء — والعثور على أمثال هؤلاء من بين المعارف القدامى لم يكن بالأمر السهل ، لأن مدينتنا لم تكن تعيش على المبادىء التى عاش عليها أجدادنا . كما أن الحصول على أصدقاء جدد لم يكن ليتم بغير صعوبات جمة — ثم ان فساد التشريع والأخلاق العامة قد استفحل من ناحية أخرى بصورة مخيفة ، بحيث أصابنى الدوار فى النهاية أمام هذا الاضطراب الشامل ، وأنا الذى كنت فى البداية مفعم النفس بالتحمس للحياة السياسية .

---

(١) زيادة من (ب) وهى اشارة الى نظام الحكم الديمقراطى الذى أطاح بحكومة الثلاثين .

(٢) أ : بعدم الورع وانكار الالهة .

(٣) أ : بصعوبة حكم الدولة حكما صحيحا .

٣٢٥ هـ صحيح أننى لم أتوقف عن التفكير فى طريقة اصـــلاح هذا الميـــدان
٣٢٦ أ بوجه خاص واصلاح الاحوال السياسية بوجه عام(١) . ولكننى ظللت أترقب الفرصة المواتية للعمل . حتى انتهيت أخيرا الى الاقتناع بأن حالة الدول الحاضرة كلها سيئة ، وانها تحكم حكما يدعو الى الرثاء(٢) ، وأن دساتيرها المريضة لا يمكن أن يشفيها الا اصلاح يتم بمعجزة يؤيدها حسن الحظ . وهكذا وجدتنى مدفوعا الى الاعتراف بقيمة الفلســـفة الحقة والتأكد من أنها هى وحدها التى تمكن الانسان من معرفة العدل (والصواب) الذى تصلح به الدولة والحياة الخاصة .

٣٢٦ ب وأن الجنس البشرى لن يتخلص من البؤس(٣) حتى يصل الفلاسفة الحقيقيون الأصلاء الى السلطة . أو يصبح حكام المدن — بفضـــل معجزة الهية — فلاسفة أصلاء(٤) .

---

(١) أ : إصلاح نظام الدولة بوجه عام .

(٢) أ : زيادة فى « أ » .

(٣) ب : ان متاعب البشرية لن تتوقف .

(٤) أ : أو يبدأ حكام المدن فى التفلسف الجاد .

٢ ــ زيارة أفلاطون الأولى لصقلية وصداقته لديون الذى دعاه لزيارة ديونيزيوس الثــانى بعد توليه الحكم فى ســنة ٣٦٧ ق٠م

كانت هذه هى آرائى وأفكارى(١) عندما زرت ايطاليا وصقلية لأول مرة . وما كدت أصل الى هناك حتى شعرت بنفور شديد من الحيــاة التى يعيشها قوم يوصفون هناك بأنهم سعداء ، وهى حياة تقوم على ألوان الملذات(٢) « الايطالية » و « السيراقوزية » ، لم يرق لى أن يعيش الانسان لكى يملأ بطنه مرتين فى اليوم ، ولا ينام وحده أبدا

٣٢٦ ج بالليل ، الى غير ذلك من أمور تتفق مع هذا الأسلوب فى العيش . فمن المستحيل على أى انسان فان نشأ منذ حداثته فى هذه البيئة أن يصبح حكيما ــ اذ لا يوجد انسان بهذا التكوين العجيب ــ ولن يكون فى امكانه أن يبلغ الاعتدال والتدبر أو غيرهما من الفضائل . وكذلك لن تتمتع أية دولة بالطمأنينة (والسلام) ــ مهما يكن لديها من قــوانين رائعة ــ اذا كان أهلها يؤمنون بأن عليهم أن ينفقوا كل ما يملكون

٣٢٦ د على (الترف) والملذات ، وأن يدخروا كل جهودهم للمأكل والمشرب والعشق . بل ان أمثال هذه الدول لابد أن تقع دائما تحت ســطوة طاغية فرد ، أو بعض الأسر أو حكم الغوغاء(٣) ، ولن تتحمل الدوائر الحاكمة فيها مجرد سماع كلمة « نظام الحكم العادل والديموقراطى ».

هكذا توجهت الى سيراقوزة حاملا هذه الأفكار فى رأسى ، بالاضــافة

٣٢٦ هـ الى الاعتبارات الأساسية التى ذكرتها من قبل . ربما كانت الصدفة البحتة (هى المسئولة عن هذا) ، والأرجح فيما يبدو أن يكون أحــد

---

(١) كانت هذه هى حالتى العقلية .

(٢) أ : لم ترق لى أذواق مجتمع عاكف على ألوان الطهى والطعــام « السيراقوزى » .

(٣) ب : ستتعرض مثل هذه الدولة لثورات لا تنتهى ، فتقع على الترتيب تحت حكم الاستبداد والاوليجاركية ، والديمقراطية .

الالهة هو الذى حرك فى ذلك الحين تلك الأحداث التى ألمت أخيرا بديون وسكان سيراقوزة ، وربما يتسبب فى وقوع أحداث أخرى اذا لم تستمعوا الى نصيحتى التى أوجهها اليكم للمرة الثانية .

٣٢٧ أ ما الذى أقصده من قولى بأن فترة اقامتى تلك فى صقلية كانت وراء كل هذه الأمور(١) ؟ يبدو أننى عندما التقيت بديون فى ذلك الحين — وكان لايزال شابا صغيرا — قد عملت دون قصد منى على انهيار الطغيان(٢)، وذلك عندما أفضيت اليه بآرائى عن أفضل الأمور للبشرية وحثثته على اتباعها بصورة عملية . فقد تحمس ديون — الذى كان بطبعه سريع الفهم ، وبخاصة لما قلته له آنذاك — تحمسا شديدا فاق ما عرفته

٣٢٧ ب من كل الشبان الذين قابلتهم فى حياتى ، وقرر أن يعيش حياته الباقية بطريقة مختلفة عن أغلبية الايطاليين والصقليين ، اذ كانت الفضيلة عنده أسمى من الملذات والمباهج الحسية . ولهذا عاش حياة أثارت عليه حقد حاشية ديونيزيوس(٣) . وظل الأمر على هذا الحال حتى مماته (أى ديونيزيوس الأب) . وعندما وقع هذا الحادث داخله الاعتقاد بأن الآراء التى اكتسبها من الفلسفة الحقة قد لا تقتصر عليه

٣٢٧ جـ وحده ، كما تأكد له بالفعل أنها قد انتقلت الى الآخرين . صحيح ان هؤلاء لم يكن عددهم كبيرا ، ولكنهم كانوا مجموعة من الناس على كل حال ، وقد كان من رأيه أن ديونيزيوس الشاب يمكن أن يصبح بمعونة الآلهة واحدا منهم ، وعندئذ تنعم حياته وحياة سكان سيراقوزة بسعادة تجل عن الوصف . ولهذا كان من رأيه أن أحضر الى سيراقوزة بأى ثمن لأشارك فى تحقيق هذا الهدف ، اذ لم يكن قد نسى بعد أن لقائى معه قد بث فى نفسه الحنين الى أجمل وأنبل حياة ممكنة . ولقد عقد

٣٢٧ د أكبر الآمال على نجاحه فى التأثير على ديونيزيوس ، وأعتقد أنه لو وفق فى مسعاه لاستطاع أن ينشر فى ربوع البلاد حياة سعيدة تستحق أن تشرف اسمه(٤) ، وذلك دون حاجة للقتل وسفك الدماء وغيرهما من

---

(١) أ : الى أى حد يمكننى الزعم بأن فترة اقامتى تلك ... الخ .
(٢) ب : على الاطاحة بحكم استبدادى كان على وشك الوقوع .
(٣) ب : ولهذا كان منذ ذلك الحين وحتى موت ديونيزيوس الأب شوكة فى لحم أولئك الذين كانوا فى خدمة الحكومة الاستبدادية .
(٤) العبارة الأخيرة زائدة فى أ .

أعمال العنف التى جرت بالفعل . هكذا تمكن بفضل هذه الأفكار الصحيحة من اقناع ديونيزيوس بأن يرسل فى طلبى ، كما توسل الى فى رسائله بأن أبادر الى الحضور بغير ابطاء ، وذلك قبل أن يقع
٣٢٧ هـ ديونيزيوس تحت تأثير بعض العناصر التى تنفره من الحياة الفاضلة وتغريه بالتحول عن هذا المثل الأعلى الى حياة أخرى (فاسدة) . وقد كانت هذه هى كلماته التى أجتزىء بذكر بعضها حتى لا تشغل حيزا كبيرا : « هل هناك فرصة أخرى أنسب من هذه الفرصة التى هيأتها العناية الالهية ؟ » هكذا تساءل (فى خطابه) ، ثم استطرد فى الحديث عن ضخامة المنطقة المحكومة(١) فى ايطاليا وصقلية ، وعن وضعه هو نفسه فى هذه المملكة ، وعن شباب ديونيزيوس وشغفه
٣٢٨ أ بالمعرفة ، كما أسهب فى تأكيد استعداده للفلسفة والعلم وأضاف الى ذلك أن أولاد خئولته وعمومته(٢) وبقية أقاربه يمكن كسبهم بسهولة فى صف المذهب الذى أعلنته واتباعه فى الحياة العملية ، وانهم يصلحون أيضا على خير وجه لكسب ديونيزيوس نفسه الى جانبه . عندئذ يمكن الآن أن يتحقق الأمل فى الجمع بين الفيلسوف وحاكم دولة كبرى فى شخص واحد .

٣٢٨ ب هكذا أخذ ديون يلح على بمثل هذه الحجج (والمزاعم المغرية)(٣) ، وكنت أشعر من ناحية بالتخوف من الشباب وعواقب الأمور التى يتصدى لها — فسرعان ما تشتعل ميول الشباب للاقدام على عمل ، وسرعان ما تخبو وتتجه الى عمل آخر معارض له — وكنت أعرف من ناحية أخرى أن ديون خير بطبيعته(٤) ، كما أنه كان يتمتع فى ذلك الحين بمزايا العمر الناضج . ومع أننى ترددت بين قبول الدعوة أو عدم قبولها وأخذت أقلب الأمر من كل ناحية ، فقد بدا لى فى النهاية أن هناك أسبابا كثيرة ترجح أمامى الآن وجود حالة يتحتم فيها الاقدام على

---

(١) ب : عن الامبراطورية القائمة فى ايطاليا . .

(٢) المقصود هنا هم أقارب ديون وأولاد أخواله وأعمامه .

(٣) زائد فى أ .

(٤) ب : أن ديون جاد بطبيعته .

٣٢٨ جـ المخاطرة ، هذا اذا شاء أحد على الاطلاق أن يحاول وضع آرائه عن القانون ودستور الحكم موضع التنفيذ فى الواقع الملموس . فقد كنت الآن بحاجة الى اقناع انسان واحد بآرائى لكى أحقق كل الخير الذى قصدت اليه .

هكذا غادرت وطنى بعد أن شجعتنى هذه الأفكار على الاقدام على المخاطرة . ولم تكن الدوافع التى حركتنى الى ذلك كما تصور بعض الناس ، بل كان الدافع الأساسى هو خوفى من الشعور بالخجل من نفسى(١) ، وخشيتى من أن أبدو فى عينى مجرد رجل نظرى(٢) ، عاجز عن انجاز فعل واحد ، وأن أقع فى شبهة الخيانة لوفاء ديون وكرم ضيافته ، وذلك فى وقت كان فيه يتعرض لخطر لا يقل (عن الخطر الذى
٣٢٨ د يمكن أن أتعرض له) . ولو فرض أنه وقع فى محنة أو اضطره ديونيزيوس وسائر أعدائه الى مغادرة بلاده فجاء الى وقال لى : « أفلاطون ، ها أنت ترانى منفيا ، لا لأن (قوات) المشاة والفرسان كانت تعوزنى لصد أعدائى ، بل لأننى كنت أفتقر الى الكلمات والحجج المقنعة التى كنت أعلم أنك أقدر الناس على استخدامها لهداية الشباب الى الخير والعدل وتوثيق روابط الحب والصداقة بينهم فى كل الاحوال .

٣٢٨ هـ ان الذنب يقع عليك لأنك لم تسد حاجتى اليها ، ولذلك اضطررت لمغادرة سيراقوزة لتجدنى الآن أمامك . وليس ما فعلته فى حقى هو الذى يجلب العار ، ولكن الفلسفة التى لا تكف عن ذكرها على لسانك ولا عن القول بأن بقية الناس تستهين بشأنها ، هل تنكر أنك خنتها
٣٢٩ أ الآن بخيانتك لى ؟ لو كنت من سكان « ميجارا » لاستجبت بالتأكيد لدعوتى اياك بمساعدتى والوقوف بجانبى ، والا اعتبرت نفسك انسانا نكص عن أداء واجبه . أما الآن فانك تتصور فيما يبدو أن طول الرحلة ومشقة السفر بالبحر يمكن أن تكون عذرا لك ، وانك ستتمكن بذلك من الهرب من تهمة نسيان الواجب(٣) . ولكن هذا شىء مستحيل » .

---

(١) ب : هو خوفى من أن أفقد احترامى لنفسى .
(٢) ب : أن أبدو رجلا من هواة الكلام .
(٣) أ : من سمعة الجبن .

لو أنه خاطبنى بمثل هذا الـكلام فهل سأجد عندى ما أرد به عليه ؟ لا ، لن أجد شيئا . هكذا قررت أن أطيع دواعى العقل والعدل بقـدر ما فى طاقة الانسان ومضـيت الى هناك ، وكان ما ذكرته هو الذى جعلنى أتخلى عن عملى فى التعليم الذى كان أحب شىء الى نفسى ، وأن أحيا فى بلد يسوده الطغيان الذى لم يكن يبدو أنه يتفق مع آرائى أو
٣٢٩ ب يوافق طبعى . وبهذا أديت واجبى نحو « زيوس » حامى الصداقة(١) وصنت الفلسفة من كل عيب(٢) يمكن أن يلصق بها لو أنى جررت العار على نفسى بجبنى وايثارى الراحة .

وعندما وصلت الى هناك ـ وهذه هى خلاصة قصة طويلة ـ وجدت بلاط ديونيزيوس يموج بالدسائس ، وكل من فيه يفترى على « ديون » عند الطاغية الفرد . وقد دافعت عنه بقدر ما استطعت ، ولكـن
٣٢٩ جـ قدرتى كانت محدودة . وبعد حوالى ثلاثة شهور(٣) من وصـولى نفاه ديونيزيوس على أبشع صورة مخجلة ، وأمر بوضعه على ظهر سفينة صغيرة بتهمة التآمر والطمع فى الحكم . وخفنا ـ نحن أصدقاء ديون ـ أن يتهم الواحد منا أو الآخر بالتحالف معه (فى مؤامرته) وأن ينتقم منا أيضا . بل لقد انتشرت فى ذلك الوقت فى سيراقوزة اشـاعة
٣٢٩ د بأن ديونيزيوس أمر بقتلى بحجة أننى كنت السبب فى كل ما جـرى . ولكن ديونيزيوس لاحظ الحالة التى كنا فيها ، وأحس بالقلق من أن تسوقنا مخاوفنا الى اللجوء لعمل من أعمال العنف ، ولهذا أذن لنا بمقابلته وتحدث معنا حديثا وديا ، واختصنى بمواساته وتشجيعه ، وألح على أن أبقى لأن سـمعته ـ فيما زعم ـ مرهـونة ببقائى ، ولو هربت ،نه لا استفاد من ذلك شيئا(٤) ، ولهذا تظاهر بالالحاح على فى الرجاء ، وان كنا نعلم علم اليقين أن توسلات الطغاة تقترن دائما

---

(١) لم ترد هذه العبارة فى الترجمة الانجليزية .

(٢) ب : وصنت نفسى من لوم الفلسفة .

(٣) ب : بعد حوالى أربعة شهور .

(٤) أ : لأنه لن يكسب من هروبى شيئا ، وانما سيكسب من بقائى .

٣٢٩ هـ بالتهديد . وهكذا حال دون سفرى لكى يحقق غرضه ؛ وأمر باسكانى فى البرج(١) الذى لم يكن قبطان سفينة ليجرؤ على أن يأخذنى منه بغير ارادة ديونيزيوس ، ولم أكن لأخرج منه الا باذن صريح منه . وكذلك لم يكن فى استطاعة أى تاجر أو ضابط من حرس الحدود أن يتركنى أغادر البلاد لو صادفنى سائرا وحدى ، بل كان الأولى أن يقبض على ويسلمنى لديونيزيوس ، وخصوصا بعد أن تردد — خلافا للاشاعة السابقة — أن ديونيزيوس يعامل أفلاطون معاملة ودية للغاية(٢) .

٣٣٠ أ ولكن هل كانت هذه هى الحقيقة ؟ ان مودته كانت تزداد مع مضى الزمن كلما ازداد قربا منى والفا لطبعى . ولكنه طلب منى أن أقدره أكثر مما كنت أقدر ديون ، وان يكون منى بمنزلة الصديق العزيز الذى كانه ؛ وتلهف على بلوغ هذه الغاية تلهفا يفوق الوصف . غير انه أجفل من سلوك السبيل الذى يكفل تحقيقها ، ان كان الى تحقيقها من سبيل ؛

٣٣٠ ب وهو أن يتتلمذ على ويشارك فى محاوراتى الفلسفية ليزداد قربا منى ، وذلك خوفا مما حذره منه الوشاة والمجترفون ، وهو أن يحاط به وتتعطل حريته ، وبذلك يتحقق ما أراده ديون . وقد صبرت على هذا كله ، مخلصا لهدفى الذى جئت من أجله ، على أمل أن تخالجه الرغبة فى الحياة الفلسفية — ولكنه ظل يقاوم الى النهاية .

---

(١) ب : فى القلعة .

(٢) ب : ان ديونيزيوس مغرم بأفلاطون (أو معجب به) غراما شديدا .

٣ — « نصيحة لحلفاء ديون »

٣٣٠ ج تلك كانت أسباب(١) زيارتى الأولى لصقلية وفترة اقامتى فيها .. بعد ذلك رحلت الى وطنى ثم رجعت اليها مرة أخرى تحت الحاح ديونيزيوس. أما لماذا حدث هذا ، وكيف يشهد كل ما فعلته على الحق والاستقامة ، فسوف أقص عليكم قصته فيما بعد ، لكى أشبع رغبة المتطلعين الى معرفة قصدى من العودة الى هناك . وسأبدأ بتقديم نصيحتى اليكم فيما ينبغى عليكم أن تفعلوه فى الظروف الراهنة ، حتى لا يشغلنى موضوع جانبى عن الموضوع الأصلى . واليكم ما أريد قوله :

٣٣٠ د اذا جاز لانسان أن ينصح مريضا يحيا حياة مؤذية لصحته ، فان أول ما ينبغى عليه القيام به هو تغيير أسلوب حياته ، والتأكد من استعداده لاطاعة تعليماته قبل المضى فى تقديم النصح اليه .. فاذا تبين له أن المريض لا يريد أن يطيعه ، فسوف أصف الطبيب الذى يرفض الاستمرار فى معالجته بأنه طبيب أصيل وانسان مستقيم الخلق ، اما الذى يرضى بذلك الوضع (ويستمر فى تقديم نصائحه) فسيكون فى رأيى انسانا ضعيفا وطبيبا سيئا . ونفس الشىء ينطبق على الدولة ، سواء أكان على رأسها رجل واحد أو عدة رجال . فاذا كانت شئون الحكم(٢) فيها تسير على الطريق الصحيح وسألت النصح والمشورة فى أمر يمس
٣٣٠ هـ مصلحتها ، فان من العقل فى هذه الحالة أن يقدم النصح الى أمثال هؤلاء الناس . أما اذا كانوا قد تنكبوا سبل الحكم الصحيحة وأصروا على عدم الرجوع اليها وطالبوا ناصحهم (والمشير عليهم) صراحة بألا يمس دستورهم ، بل هددوه بالموت ان حاول أن يفعل ، وفرضوا
٣٣١ أ عليه أن يشير عليهم بأسرع وأيسر طريقة تمكنهم من الاستمرار فى اشباع رغباتهم وشهواتهم — اذا حدث أن قبل أحد تقييد نصيحته على هذه الصورة فسوف أصفه بالجبن ، أما من يرفض قبولها فسوف أعده

---

(١) أ : تلك كانت كل الأحداث التى جرت فى صقلية .. الخ ..

(٢) ب : فاذا كان دستور الحكم فيها يتمشى مع الطريق الصحيح .

رجلا شجاعا . هذه هى عقيدتى ، وكلما سألنى أحد عن رأيى فى مسألة هامة تتصل بحياته الخاصة ، كأن تكون مسألة مالية أو موضوعا يتعلق بسلامة جسمه أو نفسه ، قدمت اليه النصيحة عن طيب خاطر ولم أكتف بأداء الواجب شكليا(١) ، وذلك اذا رأيت أنه يسير فى حياته
٣٣١ ب اليومية على مبادىء معينة أو ظهر لى على الأقل أنه على استعداد لسماع نصيحتى . أما اذا لم يسألنى النصح على الاطلاق أو اتضح لى أنه لا ينوى الاستجابة لمشورتى ، فلن أفكر أبدا فى أن أفرض عليه نصيحتى ، بل لن أحاول أن أفرض رأيى حتى على ابنى . ربما وجهت النصح لعبد ما ، وربما لجأت الى فرضه عليه اذا رفض أن يأخذ به . ولكننى أعتقد أن من الخطأ اللجوء الى ذلك مع الأب والأم ، اللهم الا
٣٣١ جـ اذا كانا مريضين مرضا عقليا . أما اذا كانا يعيشان عيشة تعجبهما ولا تعجبنى ، فليس من الصواب أن أدفعهما الى كراهيتى بتوجيه النصائح التى لن تجدى معهما ، وليس من الصواب أيضا أن أتملقهما بمساعدتهما على اشباع شهوات أوثر أنا نفسى الموت على الجرى وراءها . وينبغى على الحكيم أن يسلك نفس المسلك من مدينته ، فاذا بدا له أنها تحكم حكما سيئا فعليه ألا يرفع صوته الا اذا رأى أن كلماته لن تضيع سدى ولن تؤدى به الى الموت ، ولا ينبغى عليه أبدا أن يحاول اللجوء الى القوة لتغيير الدستور . واذا استحال اصلاحه
٣٣١ د (أى الدستور) بغير توقيع عقوبة النفى أو الموت على بعض مواطنيه ، فمن الواجب عليه فى هذه الحالة أن يلزم الهدوء ويفوض أمره وأمر مدينته للالهة .

أريد الآن وفقا لهذه المبادىء أن أوجه اليكم النصيحة على نحو ما فعلت عندما اشتركت مع ديون فى تقديم النصح لديونيزيوس . فقد أشرنا عليه بأن يبدأ بتنظيم حياته اليومية بحيث يتمكن من السيطرة
٣٣١ هـ على نفسه الى أقصى حد ممكن ويكتسب أصدقاء أوفياء لكى لا يصيبه ما أصاب أباه . فقد عجز هذا — بعد استيلائه على مدن كثيرة سبق أن دمرها البرابرة تدميرا تاما — عن تعميرها واقامة حكومات موالية فيها ، ولم يستطع أن يجد الحلفاء الذين يديرون أمورها ، لا من

(١) أ : العبارة الأخيرة زائدة فى « أ » .

٣٣٢ أ الأجانب ولا من بين اخوته الصغار الذين قام بنفسه على تربيتهم وبوأهم مقاعد الحكم وحولهم من الفقر الى الغنى الفاحش . ولم يتمكن كذلك — على الرغم من كل الجهود التى بذلها — من اشراكهم معه فى الحكم ، لا بالاقناع والتوجيه ، ولا بالصلات وروابط الدم . وهكذا أثبت أنه كان أسوأ سبع مرات من « داريوس »(١) ، الذى لم يكن لديه من يعتمد عليهم من أصدقاء أو أشقاء تولى بنفسه تربيتهم ، وانما اعتمد على الرغم من ذلك على أولئك الذين ساندوه فى الاطاحة بالخصى الميدى وقسم مملكته بينهم الى سبعة أقسام ، كل قسم منها أكبر من صقلية
٣٣٢ ب بأسرها ، وأثبت هؤلاء الحلفاء ولاءهم له فلم يهاجمه واحد منهم ولم يعتد أحد منهم على الآخر . وهكذا قدم « داريوس » النموذج الأمثل لما ينبغى أن يكون عليه المشرع والملك . ووضع القوانين التى حافظت على الامبراطورية الفارسية حتى يومنا الحاضر . ونفس الشىء يمكن أن يقال عن الأثينيين الذين وضعوا أيديهم على عدد كبير من المدن الاغريقية التى كان البرابرة (أى الفرس) قد غزوها من قبل ، ولكنها كانت لاتزال آهلة بالسكان . ومع أنهم لم يؤسسوها بأنفسهم(٢) ،
٣٣٢ جـ فقد استطاعوا أن يحافظوا على سيطرتهم عليها سبعين سنة كاملة ، اذ كان لهم فى كل مدينة أصدقاء أوفياء يتولون حكمها . أما ديونيزيوس(٣) الذى لم يكن يثق بأحد فلم يستطع أن يثبت حكمه ، على الرغم من أنه قام بتوحيد صقلية كلها فى (ظل) مدينة واحدة . لقد كان يفتقر الى الأصدقاء الأوفياء الخلصاء ، وامتلاك المرء لهؤلاء أو افتقاره اليهم هو أقوى دليل على قيمة الشخصية أو عدم قيمتها(٤) .

تلك كانت النصيحة التى قدمناها — ديون وأنا — الى «ديونيزيوس»،
٣٣٢ د بعد أن رأينا أن أباه جنى عليه وتركه يعيش بغير تربية صحيحة

---

(١) أ : انه كان يقل سبع مرات فى موهبته عن « داريوس » .

(٢) هذه العبارة زائدة فى «ب» .

(٣) لا يزال الكلام عن ديونيزيوس الأب .

(٤) ب : هو أقوى دليل على الطبع الخير أو السىء .

ولا أصدقاء مخلصين ، الححنا عليه أن يبدأ باصلاح حياته الخاصة(١)، وأن يفتش بعد ذلك بين أقاربه ومعاصريه عن أصدقاء يشاركونه السعى على طريق الخير والفضيلة ، وأن يهتم قبل كل شيء بأن يصادق نفسه ، اذ كان يعوزه هذا الى حد يدعو للدهشة . لم نقل له ذلك بطبيعة الحال بمثل هذا الوضوح — اذ لم نكن نأمن على أنفسنا من التعرض للخطر — وانما اكتفينا بالاشارة اليه مؤكدين أنه هو الطريق الذى ينبغى أن يسلكه كل من يتولى الحكم ليحفظ نفسه ويحمى رعاياه ،

٣٣٢ هـ وان كل طريق آخر لابد أن يؤدى الى الخراب التام(٢) ، أما اذا اتبع الطريق الذى وصفناه له واهتدى بنفسه الى التبصر والتدبر(٣) فسوف يتمكن من اعادة تعمير المدن المهجورة (فى صقلية) والربط بينها بقوانين ودساتير تجعلها قادرة على مساندته والصمود لغارات البرابرة (أى

٣٣٣ أ القرطاجيين) وبهذا يمكنه أن يوسع مملكة أبيه لا الى الضعف بل أضعافا مضاعفة . ولو تيسر له هذا لأمكنه أيضا أن يخضع القرطاجيين لنير أثقل من ذلك الذى ناءوا به تحت حكم « جيلون » ، وذلك بدلا من الاستمرار فى دفع الاتاوة التى التزم بها أبوه نحوهم . كانت هذه هى الاقتراحات التى أوصينا بها ديونيزيوس ، وأولتها الاشاعات والهمسات من كل ناحية بأننا نتآمر على حياته ، حتى تمكنت من نفسه فى النهاية وتسببت فى نفى ديون وألقت بنا فى حالة من الرعب والفزع . وأحب

٣٣٣ ب الآن أن أختم روايتى للاحداث الكثيرة التى تمت فى فترة بالغة القصر فأقول : لقد رجع ديون من (شبه جزيرة) البيلوبينيز(٤) ومن أثينا ولقن ديونيزيوس درسا أبعد ما يكون عن الدروس النظرية(٥) . وبعد أن تم له تحرير المدينة مرتين وتسليمها لأهل سيراقوزة ، وقف منه

---

(١) النص الأصلى لا يذكر غير كلمة « أول شيء » ويترك ما بعدها ناقصا، ويتبعه المترجم الالمانى فى ذلك ، وقد أصلحها المترجم الانجليزى بطريقة تتفق مع السياق .

(٢) أ : لابد أن يؤدى به الى النتيجة المضادة .

(٤) ب : وجعل من نفسه شخصا ذكيا منظما .

(٤) وهى الآن شبه جزيرة المورة .

(٥) أ : وقدم لديونيزيوس نصيحة ملموسة .

هؤلاء نفس موقفهم السابق من ديونيزيوس . فقد حاول ديون أن يتدخل
في توجيه حياته كلها وأن يجعل منه حاكما جديرا بعرشه ، ولكنه فضل
أن ينضم الى صفوف أعدائه(١) الذين أوجوا اليه أن ديون لم يفعل
٣٣٣ ج كل ما فعله الا لرغبته في الانفراد بالحكم(٢) ، وأن هدفه من تعليمه هو
أن يوقعه في سحر الفلسفة فيهمل شئون الحكم ويعهد بها الى ديون
الذي يتمكن عندئذ من السيطرة عليها وحرمان ديونيزيوس من ملكه
بحيلة لئيمة . انتصرت هذه الاشاعات في ذلك الحين ، ثم انتصرت مرة
أخرى عندما انتشرت في سيراقوزة . غير أنه كان انتصارا بشعا ومخجلا
لأولئك الذين تحملوا وزره ، وينبغي أن يوضح أمره لهؤلاء الذين
يسألونني النصح في الظروف الحاضرة :
٣٣٣ د لقد حضرت من موطني أثينا الى بلاط الطاغية كصديق وحليف لديون
رغبة مني في اقرار المودة والصداقة بينهما بدلا من الشقاق والعداء ،
غير انني انهزمت في صراعي مع الوشاة والمرجفين . وحاول ديونيزيوس
بالهدايا والصلات وأسباب التكريم المختلفة أن يكسبني الى جانبه وان
يقنعني بالشهادة (أمام الرأي العام) بأنه كان على حق عندما نفى
ديون ولكنه أخفق في محاولته اخفاقا ذريعا . وعندما رجع ديون بعد
٣٣٣ هـ ذلك بفترة الى سيراقوزة أحضر معه من أثينا (نفسها) أخوين(٣) كان
قد كسب صداقتهما لا عن طريق الاهتمامات الفلسفية المشتركة بل عن
طريق التعارف المألوف الذي تقوم عليه معظم الصداقات ويتم عادة من
خلال الزيارات المتبادلة والاشتراك في طقوس الأسرار الصغيرة أو
الكبيرة ، وأصبح هذان الاخوان صديقيه وحليفيه نتيجة الأسباب التي
٣٣٤ أ ذكرتها ولمساعدتهم له عند عودته . وعندما حضرا الى صقلية ولاحظا
أن أهلها الذين حررهم يشيعون عنه أنه يطمع في الحكم المستبد لم
يكتفيا بخيانة الصديق الذي أسبغ عليهما كرم ضيافته ، بل عمدا الى
اغتياله بأيديهما ، وذلك عندما وقفا بجانب القتلة وأسلحتهم في أيديهم .

---

(١) أ : أعداء ديون من المرجفين .
(٢) ب : الا جزءا من مؤامراته للوصول الى الحكم الفردي (ثيرانيس) .
(٣) وهما كاليبوس ، وفيلوستراتوس اللذان اشتركا بعد ذلك في اغتيال ديون (راجع تاريخ بلوتارك ، ديون ٥٤) .

ولست بحاجة الى التعقيب على هذا الفعل البشع الخسيس ، فهناك كثيرون غيرى سيجعلون مهمتهم الآن وفى المستقبل أن يغنوا على هذا الوتر . ولكننى سأكتفى بالرد على نقطة واحدة لا يمكن السكوت
٣٢٤ ب عليها ، وهى الزعم بأن مسلك هذين الرجلين قد لوث سمعة أثينا . وحسبى أن أشير الى أن الرجل الذى رفض أن يخون ديون كان كذلك أثينيا ، (وقد أبى أن يفعل ذلك) على الرغم من الثروة الطائلة والتكريم الذى كان يمكن أن يحصل عليه . فلم تكن الصداقة التى ألفت بينه وبين ديون صداقة عادية ، وانما قامت على المشاركة فى الاهتمامات العقلية ، ومثل هذه الصداقة هى التى ينبغى أن يعول عليها الانسان العاقل ، أكثر من أى صداقة قائمة على قرابة الروح(١) والجسم . ولهذا فليس من الانصاف أن يقال ان قاتلى ديون قد لوثا سمعة أثينا ، ومن يقول بذلك فانما ينسب اليهما دورا لم
٣٢٤ جـ يقوما به أبدا(٢) .

لقد قلت هذا كله لكى أقدم النصح لأصدقاء ديون وأقاربه . فماذا بقى عندى لأنصحهم به ؟ انها نفس النصيحة ونفس الكلمات التى وجهتها لغيرهم فى مناسبتين سابقتين . لا يجوز لصقلية — ولا لغيرها من المدن — أن تخضع للسلطة المطلقة(٣) ، بل يجب — فى رأيى على الأقل — أن تخضع لحكم القانون . فالسلطة المطلقة مضرة بالحكام
٣٢٤ د والمحكومين ، وهى (مؤذية) لهم ولأبنائهم وأبناء أبنائهم ، لأن مثل هذه التجربة لابد أن تؤدى الى الخراب . فالنفوس الصغيرة والطباع الدنيئة(٤) هى وحدها التى تنقض على منافعها العاجلة(٥) ، وهى نفوس لا تعرف شيئا عن الأمور الالهية والبشرية التى هى عدل وخير فى الحاضر وعلى مدى المستقبل(٦) . هذه هى الحقيقة التى سعيت أولا

---

(١) لعل المقصود بالقرابة الروحية هو الدخول فى عبادات الأسرار وطقوسها .
(٢) ب : أو يضفى عليهما أهمية لا يستحقانها .
(٣) ب : لطغيان الأفراد .
(٤) أ : الطباع الصغيرة الذليلة (غير الحرة) .
(٥) ب : على الجوائز التى تكفلها .
(٦) ب : وهى نفوس صغيرة ودنيئة لا تعرف شيئا عما هو خير وعدل سواء هنا أو فى العالم الآخر ، فى الأرض أو فى السماء .

لاقناع ديون بها ، ثم ديونيزيوس من بعده ، وها أنذا أحاول أن اقنعكم
بها ، فاستمعوا الى حبا فى زيوس المنقذ الذى يشرب النخب الثالث
تكريما له(١) ، واعتبروا بمصير ديونيزيوس وديون ، فالأول لم يستمع
٣٣٤ ه الى ، وهو ان كان لا يزال حيا ، فانه يحيا حياة شقية(٢) . أما الآخر
الذى استجاب لتعليمى فقد مات . ولكنه مات ميتة رائعة ، وانه لشىء
جميل وجدير بالسعى اليه فى كل الأحوال أن يتحمل المرء كل مايصيبه
به القدر من شقاء ، مهما تكن وطأته ثقيلة ، فى كفاحه لبلوغ أسمى
الخيرات لنفسه ووطنه . فما من أحد منا خالد . ولو قدر الخلود لأحد
لما شعر بالسعادة كما يظن عامة الناس . ذلك أن الأجسام التى
٣٣٥ أ بلا نفوس لا تشعر بمعنى الخير والشر(٣) ، وانما تشعر بهما النفس
وحدها ، سواء كانت متصلة بالجسم أو منفصلة عنه . (أما فيما يتعلق
بهذه النفس) فيجب علينا دائما أن نصدق تلك الأخبار القديمة المقدسة
التى تؤكد لنا ان النفس خالدة وانها ستخضع للحساب وتتحمل أقصى
ألوان العقاب بعد انفصالها عن الجسد . ولهذا السبب ينبغى علينا
أن نعتبر تحمل الأذى والظلم الفادح أهون شرا من اقترافه . غير أن هذا
شىء لا يكترث به الانسان الذى يعدل جشعه (الى الثروة) فقره
٣٣٥ ب الروحى ، واذا اكترث به تصور ان من حقه أن يهزأ به ، بينما ينهش
بصورة مخجلة ، كالحيوان ، كل ما يعتقد أنه يمكن أن يشبع شهيته
للطعام أو الشراب أو لتلك اللذة القبيحة المهينة التى نسميها ظلما
باسم أفروديت . لقد غشيه العمى فلم يعد يبصر ألوان العذاب المترتبة
على نهمه الكريه ، (ولم يعد يحس) أن كل جريمة(٤) تزيد من حمل الشر
٣٣٥ ج الذى لابد أن يجره المذنب وراءه سواء طوال فترة تجواله على الأرض
أو أثناء عودته المخجلة البائسة الى العالم السفلى .

---

(١) ــ اشارة الى النخب الثالث والاخير الذى كان من عادة الاغريق فى مآدبهم أن يشربوه على شرف زيوس المنقذ . والترجمة الالمانية تضع بدلا من هذه العبارة عبارة أخرى هى : فاستمعوا الى أن كل الاشياء الطيبة ثلاثة .

(٢) ــ ب حياة مخجلة غير مشرفة .

(٣) ــ أ : لا تشعر باللذة الحقيقية ولا الالم الحقيقى .

(٤) ــ أ : ان كل فعل من أفعاله ارتبط بالجريمة لا بد أن يجره المذنب وراءه .

بهذه الأحاديث وأمثالها استطعت أن أؤثر على ديون ، ولدى كل الأسباب التى تحملنى على السخط على قاتليه وكذلك على ديونيزيوس. فقد أصابنى كلاهما ، ويمكننى القول بأنهما أصابا سائر البشر جميعا ، بأفدح الضرر ، أما القتلة فباغتيالهم الرجل الذى كانت لديه الرغبة الحارة فى تحقيق العدالة ، وأما ديونيزيوس فلأنه لم يشعر بهذه الرغبة لحظة واحدة أثناء حكمه الطويل ، وهو الذى كان يقبض بيديه
٣٣٥ د على زمام السلطة الجبارة(١) . ولو استطاع حقا أن يجمع الفلسفة والسلطة السياسية فى شخص واحد لأثار اهتمام الناس جميعا من اغريق وبرابرة(٢) ، وبين لكل انسان حقيقة(٣) أنه لن يتيسر لدولة أو فرد أن (يذوق طعم السعادة) ما لم يقض حياته بحكمة (وتدبر) على هدى العدالة(٤) ، سواء كافح بنفسه فى سبيل الوصول اليها أو نشأ على مبادىء الحق والعدل التى رباه عليها الصالحون . هذا
٣٣٥ هـ هو الضرر الحقيقى الذى سببه ديونيزيوس ، وكل ماعداه من ألوان الأذى التى قاسيتها منه تعد تافهة بالقياس اليه ، أما قاتل ديون فقد فعل نفس ما فعله ديونيزيوس دون أن يشعر . فأنا أعلم عن ديون — وذلك بقدر ما يسع الانسان أن يؤكد عن انسان آخر — أنه لو تمكن من تدعيم حكمه لبدأ على الفور — بعد اتمام تحرير مدينته سيراقوزة
٣٣٦ أ من نير العبودية وتطهيرها من ادرانها وخلع ثوب الحرية عليها — بتزويد مواطنيها بأفضل وأنسب ما يستطيع من قوانين ، ولبادر بعدئذ بالقيام بما يتصل بذلك من تعمير صقلية كلها وتحريرها من البرابرة ، وذلك بطرد بعضهم واخضاع بقيتهم ، ولوفق فى ذلك توفيقا لم يبلغه هيرون
٣٣٦ ب فى الزمن القديم . ولو قدر لهذا أن يتحقق بفضل رجل على حظ من العدل والشجاعة وضبط النفس ، بجانب كونه فيلسوفا ، لاستقر بين

---

(١) — ب : وأما الثانى (أى ديونيريوس) فبرفضه تحقيق العدالة فى ربوع ملكة على الرغم من أنه كان يملك القوة التى تمكنه من ذلك .

(٢) ب : لامكنه ان يهب بصيصا من النور للعالم كله ، سواء فى ذلك الاغريق أو البرابرة .

(٣) — أ : ولقن كل انسان المعرفة الصحيحة بأن .

(٤) — أ : تحت حكم العدالة .

الناس احترام الفضيلة ولأمكن ــ لو قد كتب لى النجاح أيضا فى اقناع ديونيزيوس ــ ان تعم الجنس البشرى بأسره (وتضمن انقاذه)(١) . ولكن يبدو ــ بعد أن تحولت الأمور على هذه الصورة ــ ان روحا شريرا (أو ربة من ربات الثأر)(٢) قد هاجمنا(٣) واستطاع (بما جبل عليه) من احتقار للقانون والدين وبما هو أسوأ منهما من رعونة الغباء ــ وهو التربة التى تمتد فيها جذور الشر كله وتظل تنمو وتترعرع حتى تخرج فى النهاية مر الثمر لغارسيه ــ أقول استطاع هذا الروح الشرير أن يقلب كل خططنا ويفسدها للمرة الثانية . فلنقدم الآن على المحاولة الثانية ،

٣٣٦ جـ ولنسكت عن كل كلام يمكن أن يجلب سوء الحظ عليها . على الرغم من كل ما حدث فانى أنصحكم ، يا أصدقاء ديون ، بأن تحذوا حذوه فى حب الوطن وتقتدوا بحياته التى اتسمت بالبساطة(٤) وضبط النفس ، وتحاولوا تحقيق أهدافه فى ظل ظروف أنسب . أما طبيعة هذه الأهداف فقد شرحتها لكم الآن بوضوح . وأما عن حلفائكم فيجب عليكم أن تستبعدوا منهم كل من يخرج على (أسلوب) الحياة « الدورية » التى عاشها آباؤنا(٥) ، مؤثرا عليها حياة البدع الصقلية التى سار عليها قتلة ديون .

٣٣٦ د ولا تنتظروا من مثله أن يحقق عملا نافعا أو يخلص فى شىء . فاذا تصديتم لاعادة تعمير صقلية كلها ووضع تشريع عادل يكفل الحقوق المتساوية للجميع) فعليكم أن تستدعوا لهذا الغرض رجالا من صقلية نفسها ومن (شبه جزيرة) البيلوبينيز كلها ، بل لا تخشوا أن تلجأوا فى ذلك لأثينا نفسها ، فستجدون هناك رجالا ممتازين (يفوقون

---

(١) ــ ما بين قوسين زيادة فى « ب » .

(٢) مابين قوسين زيادة فى « أ » .

(٣) أ : يبدو أن روحا شريرا قد وضع الأمر فى قبضته وتحكم فى مصيره .

(٤) زائدة فى (ب) .

(٥) ب : التى عاشها آباؤكم .

مواطنيهم همة ونشاطا) ويستبشعون اعمال العنف التى تدفع البعض الى قتل الصديق(١) . ولكن اذا كنتم ستنظرون فى تنفيذ هذه الخطط فى المستقبل ، وكنتم تضيقون فى الوقت الحاضر

٣٣٦ هـ بتلك الصراعات المستمرة المتنوعة التى تنشب عادة فى فترات ثورة كل يوم ، فيجب على كل من أنعمت عليه العناية الالهية ولو بشرارة واحدة من العقل أن يدرك بوضوح أن فظائع الحرب الاهلية لن تنتهى(٢) حتى يكف المنتصرون عن رد الظلم الذى حاق بهم من قبل بنفى خصومهم واغتيالهم ، ويتخلوا عن فكرة الانتقام من أعدائهم

٣٣٧ أ (وشفاء أحقادهم القديمة عليهم) ، ويلتزموا بدلا من ذلك بضبط النفس ، ووضع نظام من القوانين يكفل الخير للجميع ولا يصيف الى مصلحتهم الشخصية مقدار شعرة واحدة أكثر من الفريق المهزوم ، وأن يحملوا خصومهم السابقين على طاعة القوانين (واحترامها) بوسيلتين (لا ثالث لهما) وهما الحياء والخوف — أما الخوف فلأنهم قد أثبتوا أنهم يفوقونهم قوة ، وأما الحياء فلأنهم أقدر على ضبط أنفسهم (والتحكم فى انفعالاتهم) كما أنهم أقدر من غيرهم وأكثر استعدادا للخضوع للقانون . هذه هى الوسيلة الوحيدة التى لا يتسنى بغيرها أن تهدأ مدينة (أو دولة) مزقتها الحرب الأهلية(٣) ، (واذا لم تلجأ الى هذه الوسيلة) فستظل عرضة للتمرد والعداوات الشخصية والحقد والخيانة . وهكذا

٣٣٧ ب يتحتم على أولئك الذين استولوا على السلطة ، ان ارادوا تحقيق الأمن (والاصلاح) ، أن يتبادلوا المشورة فيما بينهم وينتخبوا رجالا يعلمون عنهم أنهم أفضل الرجال بين الاغريق ، ويتوخوا فيهم قبل كل شىء أن يكونوا متقدمين فى العمر ، وتكون لكل منهم زوجة وأطفال ، وأسلاف ماجدون مشهورون بقدر الامكان ، وثروة كافية معقولة — وفى مدينة يبلغ تعداد سكانها عشرة آلاف يكفى أن

---

(١) ب : الى قتل مضيفهم والاشارة الى قتلة ديون واضحة .
(٢) أ : ان الشر الذى ينشأ فى ظل ثورة من الثورات لا ينتهى حتى ...
(٣) أ : اشتعلت فيها الثورات الداخلية .

٣٣٧ ج يكون عددهم خمسين رجلا — وعليهم أن يتوسلوا اليهم ويغروهم بأسمى آيات التكريم حتى يتركوا بيوتهم ، فاذا حضروا تضرعوا اليهم أن يضعوا القوانين ، وذلك بعد أن يأخذوا عليهم العهد (والقسم) بألا يحابوا فيها منتصرا ولا مهزوما ، وأن يلتزموا فيها بالمصلحة العامة المدينة كلها . فاذا وضعت القوانين فسوف يتوقف رخاء (المدينة) على استعداد الفريق المنتصر للخضوع للقانون أكثر من الفريق المنهزم ، وعندئذ يتحقق الانقاذ والهناء ،

٣٣٧ د ويتم الخلاص من كل شقاء(١) . أما ان حدث عكس ذلك فلا يلجأ أحد الى أو الى غيرى لمساعدة أولئك الذين لم يلتزموا بالمبادىء التى أوصيت بها ، اذ أنها هى نفس المبادىء التى حاولنا ، ديون وأنا ، تحقيقها معا ، مدفوعين بالحب لأهل « سيراقوزة » . لقد كانت هذه هى محاولتنا الثانية . أما الأولى فكانت تلك التى قمنا بها مع ديونيزيوس وأملنا من ورائها توفير السعادة للجميع . غير أن قدرا يفوق قدرة البشر حال دون نجاح خطتنا . وعليكم الآن أن تبذلوا ما فى وسعكم ، لعل المزيد من التوفيق أن يكون

٣٣٧ هـ حليفكم ، وأن تحظوا بعون من الله وتأييد من القدر .

---

(١) ب : عندئذ يسود الأمن والرخاء ، وتتخلص الدولة من كل متاعبها .

٤ — « زيارة أفلاطون الثانية لديونيزيوس الثانى »

بهذا أختم النصيحة التى أردت أن أوجهها اليكم ، كما اختم قصة زيارتى الاولى لديونيزيوس . أما عن رحلتى الثانية فيستطيع كل من يهمه الأمر أن يرى (مما سأرويه الآن) أنهـا تمت بصورة طبيعية ومعقولة ، وانني قمت بهـا مدفوعا بدوافع مثالية(١) .

٣٣٨ أ مرت فترة اقامتى الاولى فى صقلية على النحـو الذى وصـفته قبل أن أقـدم نصيحتي لأصدقاء ديون وأقاربه . وقد بذلت كل ما فى طاقتى لاقنـاع ديونيزيوس باطلاق سراحى ، ثم وصلنا فى النهـاية الى اتفـاق يقضى بأن يقـوم باستدعائنا — ديون وأنا — مرة أخرى بعد أن تنتهى الحرب الدائرة آنذاك فى صقلية (بعقد معاهدة سلام)(٢) ويتم له تثبيت حـكمه وتدعيمه . وقد طلب فى نفس الوقت من ديون أن يعتبر أن ما حـدث له لم يكن يقصد به نفيـه بل تشيير اقامته .
٣٣٨ ب وعلى أساس هذه الشروط وعدته بالرجوع .

ولمـا استتب السلام أرسل ديونيزيوس يدعونى لزيارته ، ولكنـه طلب من ديون أن يؤجل حضوره سنة أخرى ، بينما أخـذ يلح على فى زيارته الحاحا شديدا . كذلك حثنى ديون على السفر ، اذ أفادت التقارير العديدة الواردة منه بأن ديونيزيوس قـد تملكه من جـديد حماس غير عادى للفلسفة ، ولهذا السبب توسل الى ديون أن أقبل
٣٣٨ جـ الدعوة ، وكنت من ناحيتى أعلم أن الفلسفة كثيرا ما تحـدث هـذا التأثير فى الشباب ، ومع ذلك فقـد بدا لى من الأضمن — على الأقل فى اللحظة الراهنة — أن أتغاضى عن ديون وديونيزيوس ، وتسببت فى سخطهما على عندما أجبت الاخير بأننى قد أصبحت شـيخا متقدما فى السن ، وان ما يجرى الآن يتعارض كل التعارض مع ما اتفقنـا عليـه .

---

(١) جمعت فى هذه العبارة الاخيرة بين الترجمتين .
(٢) زائدة فى « أ » .

ولكن يبدو أن أرخيتاس (التارنتى) زار ديونيزيوس بعد ذلك مباشرة (وكنت قبل رجوعى الى الوطن قد توسطت فى اقامة علاقات ودية بين أرخيتاس وحكومته(١) فى تارنت من ناحية وبين ديونيزيوس من ناحية أخرى) . وكان فى سيراقوزة أيضا عدد
٣٣٨ د من الناس الذين تلقوا شيئا من العلم من ديون ، وعدد آخر أخذوه عن هؤلاء ، ويبدو أن هؤلاء الناس الذين حشدوا رؤوسهم بمعلومات فلسفية دارجة(٢) قد حاولوا أن يناقشوا مع ديونيزيوس حول هذه الموضوعات ، اعتقادا منهم بأنهم على دراية تامة بكل آرائى(٣) . والواقع أن ديونيزيوس — بجانب استعداده للتعلم — ليس خلوا من الموهبة ، كما أنه يتميز بطموحه الشديد ، وربما سره ما قيل عنه فخجل أن يلاحظ عليه احد
٣٣٨ هـ انه لم يتعلم منى شيئا أثناء اقامتى فى بلاطه(٤) . ولهذا أحس فى نفسه الرغبة فى استيضاح هذه الأمور ، كما دفعه فى نفس الوقت طموحه الشديد الى ذلك ، أما السبب الذى جعله لا يتعلم منى شيئا أثناء فترة اقامتى الأولى فقد شرحته منذ قليل بالتفصيل .

وبعد أن رجعت سالما الى وطنى وبعثت اليه برفضى لدعوته الثانية — كما سبق أن قلت — شعر فيما يبدو بالقلق الشديد من أن يتصور بعض الناس أن رأيى فى طبعه ومواهبه رأى سيء — خصوصا بعد أن عرفت طريقة حياته عن قرب — وان
٣٣٩ أ اشمئزازى منه هو الذى صدنى عن زيارته .

انى أرى من واجبى الآن أن أروى الحقيقة وأتحمل أيضا ما يمكن ان يترتب عليها لو سمع أحد بما حدث فحاول أن يحتقر فلسفتى ويشيد بذكاء الطاغية . فقد بعث ديونيزيوس فى طلبى للمرة الثالثة، وأرسل الى أركيناى بحريا (بثلاثة صفوف من المجاديف) لكى ييسر على مشقة السفر بقدر الامكان . وجاء معها « ارخيديموس »

---

(١) ب : ومدرسته فى تارنت .
(٢) ب : أو من الدرجة الثانية .
(٣) أ : اعتقادا منهم بأنه سمع منى كل آرائى أو نظرياتى .
(٤) أ : فى بلاده .

— وهو أحد تلاميـــذ ارخيتاس — وبصحبته عدد آخر من معـــارفى الصقليين ، وقد أرسله ديونيزيوس لاعتقاده بأننى اقـــدره أكثر من أى انسان آخر فى صقلية(١) . وقد أخبرنا هؤلاء جميعـــا نفس الخبر، وهـــو أن ديونيزيوس قـــد حقق تقـــدما ملحوظا فى الفلســـفة . كذلك أرسل الى خطابا مطولا ، اذ كان يعلم مدى حبى لديون ، كما يعـــلم مدى لهفتـــه على سفرى وعودتى لسيراقوزة . وقـــد دار الخطاب كلـــه حـــول هذه النقطة ، وبـــدأ بهذه الكلمات تقريبـــا :

٣٣٩ ج « ديونيزيوس يحيى أفلاطون » وبعد التحيـــة التقليدية انتقـــل بغير تمهيد الى هذه العبـــارات : « اذا لبيت دعوتى ورجعت الى صقلية، فسوف تسوى مسألة ديون على الوجه الذى يرضيك ، (وأنـــا متأكد أن مطالبك ستكون معقولة ، ولهـــذا فلن أتردد فى الاستجابة لهـــا) ، أما اذا رفضت فلن يتم أى شأن من شئونه ، وبخاصـــة شئونه الشـــخصية ، على الصورة التى تحبها » . كانت هذه هى كلماته . والاستطراد فى ذكر عبـــاراته يستغرق وقتـــا طويـــلا ولا يفيدنا فيما نحن بصدده . وجاءتنى كذلك خطابات أخرى من ارخيتاس

٣٣٩ د والأصـــدقاء فى تارنت وكلهـــا تشيد بتقـــدم ديونيزيوس فى الفلسفة، وتشير الى أننى ان لم أحضر على الفـــور فسوف أعرض للخطر الشديد علاقات الصداقة التى أقمتها بنفسى بينهم وبين ديونيزيوس ، وهى فى نظرهم علاقات ذات أهميـــة ســـياسية قصوى . فلمـــا جاءت دعوة ديونيزيوس على هذه الصورة ، ووجدت أن أصدقائى فى صقلية وتارنت يشدوننى من جهـــة ، بينما يكاد أصدقائى فى أثينا يتعجلون خروجى من البلاد بالحاحهم ، واجهتنى نفس الحجة التى

٣٣٩ هـ واجهتها من قبـــل ، وهى انه لا يحـــق لى أن أتخلى عن « ديون » أو أخون الاصـــدقاء والحلفـــاء فى تارنت . وشعرت فضلا عن ذلك بأنه لا يستغرب من شاب(٢) التقط بعض الأحاديث الجـــادة التى سمعها من هنـــا أو هنـــاك أن تشتاق نفسه الى اتبـــاع أفضل سبل الحيـــاة . وهكذا رأيت من واجبى أن أفحص الامر من كل نواحيه

---

(١) أ : أكثر من أى صديق آخر فى صقلية .
(٢) ب : من شاب ذى استعداد طبيعى حسن .

بعنـــاية شديدة ، ورأيت الا أرفضه منذ البداية لكى لا استحق اللوم الذى سيوجه الى لو صحت الأنبـــاء التى وصلتنى(١) . ومن ثم قمت
٣٤٠ أ برحلتى متسترا وراء الحجة التى ذكرتها(٢) ، ولكن قلبى كان مفعما بالقلق والهم ، ولم يكن لدى ـــ كما يمكن أن تتوقعـــوا ذلك بسهولة ـــ أى أمل فى النجـــاح : وعندما وصلت الى هنـــاك اكتشفت أن هـــذه الـــكلمة المـــأثورة تنطبـــق على : الثالثة ثابتة(٣) : اذ كان من حسن حظى أن أنجو مرة أخرى (وأرجع سالمـــا الى وطنى) . وأنا مدين بالفضل فى هذا ـــ بعد الله ـــ لديونيزيوس الذى أحبط محاولات الكثيرين للقضاء على وأظهر فى موقفـــه منى أنه لم يكن مجـــردا من الحياء .

٣٤٠ ب وعندما وصلت (الى صقلية) جعلت مهمتى الاولى هى التحقـــق من أن ديونيزيوس قد تملكه لهيب الحماس للفلسفة ، وذلك كمـــا أفادت الاخبار الكثيرة التى وردت الى أثينا ، أو أنه كان مجرد زعم لا أساس له من الصـــحة . وهناك طريقـــة للتأكد من هـــذا وليس فيهـــا أى جرح للكرامة ، وهى طريقـــة تناسب الطغاة ، خصوصا اذا كانت رؤوسهم محشوة بالشعارات الفلسفية(٤) ، وهـــو الامر الذى لاحظـــت بمجرد وصولى انه ينطبـــق على ديونيزيوس . والطريقـــة هى أن نبين لامثال هؤلاء الناس طبيعـــة الموضـــوع
٣٤٠ ج بوجه عام ، والصـــعوبات المرتبطة به (والمراحل المختلفـــة التى عليهم أن يجتازوها)(٥) ، والجهـــد والمشقة اللذين يتطلبهما . فاذا استمع واحـــد منهم الى هـــذا وكانت لديه الشرارة الالهيـــة التى

---

(١) أى الأنباء التى جاءته عن تقدم ديونيزيوس فى دراسة الفلسفة .

(٢) أ : قمت برحلتى وأنا أغمض عينى بالحجة التى ذكرتها .

(٣) هذا هو المعنى كما يعبر عنه المثل العامى ، ولكن الترجمـــة الالمانية تذكرها على هذا النحو : المرة الثالثة للمنقذ (أى زيوس) أى التجربة الثالثة هى التى يحالفها الحظ .

(٤) ب : خصوصا اذا كانت رؤوسهم مملوءة بالافكار الدارجة (من الدرجة الثانيـــة) .

(٥) ما بين قوسين عن (ب) .

تجعله جديرا بالفلسفة بدا له الطريق من الروعة بحيث يصمم على السير عليه بكل ما أوتى من قوة والا استحال عليه أن يعيش بعد ذلك • وعندئذ يحشد كل ما فى طاقته وطاقة مرشده على هذا الطريق ، ولا يتخلى عنه حتى يبلغ هدفه أو يأنس فى نفسه القدرة على سلوك الطريق بنفسه بغير مرشد أو دليل . فى مثل
٣٤٠ د هذه الأفكار وحدها يعيش الموهوب للفلسفة . صحيح أنه يواصل نشاطه اليومى المعتاد ، ولكنه يحرص بجانب ذلك على التمسك بالفلسفة وبأسلوب الحياة الذى يزيد قدرته على التذكر والتحصيل والتفكير ، ويمكنه من التخلق بالقصد والاعتدال ، أما الطريق المخالف لذلك فيكرهه كراهية تلازمه مدى الحياة .

غير أن أولئك الذين لا يملكون الموهبة والاستعداد الحقيقى للفلسفة(١) ، ولا يصيبون منها الا حظا ضئيلا من المعرفة السطحية التى تشبه الاحمرار الذى يصيب جلود بعض الناس عندما يتعرضون لأشعة الشمس — فهم لا يلبثون أن يدركوا صعوبة المهمة واستحالتها بالنسبة لهم وذلك بمجرد أن يعرفوا مقدار ما يجب عليهم تعلمه ،
٣٤٠ هـ ومدى ما يتطلبه منهم من مشقة ، والاستقامة التى ينبغى عليهم أن
٣٤١ أ يلتزموا بها فى حياتهم . انهم فى الواقع عاجزون عن تنفيذ ما يطلب منهم(٢) ، ويحاول بعضهم مع ذلك أن يقنع نفسه بأنه قد سمع ما فيه الكفاية عن الموضوع كله ، وأنهم ليسوا بحاجة الى مزيد من الجهد والعناء . هذا هو الاختيار الأكيد (المأمون) الذى يمكن تطبيقه على أولئك الذين يميلون الى حياة اللذة والدعة ، ولا يجدون فى أنفسهم القدرة على العمل الشاق . وليس لأحدهم أن يلوم الا نفسه اذا عجز عن النهوض بما يتطلبه منه الموضوع ، ولابد فى هذه الحالة أن يعفى المرشد من المسئولية .

هذه هى الأفكار التى كنت أحملها فى ذهنى عندما قلت ما قلته لديونيزيوس . لم أتحدث اليه فى كل شىء ، ولم يسألنى هو نفسه عن ذلك .

---

(١) ب : غير أن أولئك الذين لا يحبون الحكمة حبا أصيلا .

(٢) ب : عاجزون عن ممارسة الفلسفة .

٣٤١ ب فقد أدعى أن ما سمعه من الآخرين(١) قد أعطاه فكرة كافية عن الموضوع وجعله يحيط بأهم جوانبه . وقد بلغنى بعد ذلك أنه كتب رسالة عما سمعه فى ذلك الحين ، وأنه صور الأمر كأنه رسالة من تأليفه وتعبر عن مذهبه لا عما سمعه . ولكنى لا أعرف شيئا مؤكدا فى هـذا الشأن . صحيح أننى أعلم أن هناك عددا آخر كتب فى نفس هذه الموضوعات . ولكن كل الذين فعلوا ذلك لم ينتحلوا لأنفسهم صفة المؤلفين(٢) . بيد أنى أستطيع على كل حال أن أحكم على أولئك الذين كتبوا بالفعل

٣٤١ جـ أو سيكتبون فى المستقبل مدعين معرفة الأمور التى أوليها اهتمامى سواء زعموا أنهم أخذوا العلم عنى أو عن غيرى أو وصلوا الى الحقيقة بأنفسهم — بأن من المستحيل فى رأيى أن يكونوا قد فهموا شيئا عن الموضوع . فلا يوجد عنه كتاب(٣) من تأليفى ولن يوجد أبدا ، لأنه ليس شيئا يمكن التعبير عنه بالكلمات كما هى الحال مع العلوم الأخرى • وانما تنبثق حقيقته فى النفس فجأة بعد معايشة طويلة وتعاون مستمر

٣٤١ د فى العكوف عليه كما ينبثق نور قدحته شرارة واثبة . وهناك يتغذى وينمو نموا مطردا . ثم انى أعلم علم اليقين أنه لو تسنى أن يوجد شىء مكتوب أو شفهى عن هذا الموضوع فان من الأفضل أن أكون أنا صاحبه ، كما أعلم أيضا أنه لو عرض عرضا سيئا فلن يضار من وراء ذلك أحد غيرى . ولو دار بخلدى أن من الواجب أن يبلغ للرأى العام(٤) بطريقة وافية فى صورة شفهية أو مكتوبة ، فهل كان يمكن أن أحقق فى حياتى عملا أروع من هذا ، وهل هناك أجمل من أن أقدم للبشرية مذهبا

---

(١) أ : أن المعارف التى التقطها من الآخرين .

(٢) ب : ولكن مثل هؤلاء الناس يجهلون حتى أنفسهم . ويشير المترجم الانجليزى الى غموض العبارة الأصلية ، ويرجح أن تكون اشارة الى أهمية معرفة النفس والحكمة المعروفة التى كتبت على معبد دلفى « اعرف نفسك » على أساس أن هذه المعرفة هى شرط كل تقدم فى الفلسفة . قارن أيضا محاورة فايدروس ، ٢٢٩

(٣) ب : بحث أو رسالة .

(٤) ب : ان من الممكن ان يبلغ للعالم بأسره ...

عظيما يصف لهم طريقة الخلاص والانقاذ(١) ويظهر حقيقة الأشياء ليراها الجميع ؟ ولكننى لا أعتقد أن محاولة وضع هذه الأمور (البحوث)
٣٤١ هـ فى كلمات يمكن أن تنفع الناس ، اللهم الا فئة قليلة جدا لن يستعصى عليها أن تجد الحقيقة بنفسها مع شيء قليل من التوجيه والارشاد . أما بقية الناس فسوف توقر صدورهم على الفلسفة وتملأها بالازدراء لها ، أو تولد فيهم الغرور الأحمق الباطل الذى يصور لهم أنهم اطلعوا على سر رائع .

(١) ب أن أقدم للبشرية خدمة عظيمة .

٥ ــ عجز الكلمات عن التعبير عن الواقع

٣٤٢ أ أود الآن أن أتحدث عن هذه المسألة بشيء من التفصيل ، فقد يزداد المعنى الذى أريده وضوحا . هناك حجة لا يمكن دحضها تقف فى طريق كل من يتجرأ على كتابة أى شيء عن هذه الأمور ، وهى حجة طالما استخدمتها فى الماضى ، ويبدو أن الضرورة تقتضى تكرارها فى هذه المناسبة .

هناك ثلاث أدوات لابد من توافرها لمعرفة أى شيء ، تضاف اليها المعرفة نفسها كأداة رابعة(١) ، أما الخامسة فهى الموجود الحق وموضوع المعرفة نفسه . فأولها هو الاسم ، وثانيها هو التعريف .

٣٤٢ ب وثالثها هو التمثل(٢) ، ورابعها هو المعرفة . خذ لذلك مثلا واحدا اذا أردت أن تفهم ما أقول ، ثم طبقه بعد ذلك على كل شيء . فهناك موضوع يسمى « الدائرة » واسمه هو الكلمة التى ذكرناها الآن . ثم يأتى تعريفه الذى يتكون من أسماء وأفعال . فالعبارة التى تقول : « الشيء الذى يتساوى بعد أطرافه فى كل اتجاه عن المركز » ستكون هى تعريف الموضوع الذى نصفه بأنه مستدير ومتساوى الانحناء

٣٤٢ جـ ودائرة . ثم يأتى التمثل فى المقام الثالث ، ويمكن أن يرسم ويمحى ، وأن يخرط بالمخرطة ويدمر بعد ذلك . ولكن هذه الأمور الثلاثة التى تتعلق بالدائرة لا تؤثر على الدائرة الحقيقية ذاتها التى تختلف عنها كل الاختلاف • وفى المقام الرابع تأتى المعرفة والفهم والرأى الصادق(٣) عن هذه الأمور ، ويجب أن تضم هذه الثلاثة فى فئة واحدة ، لأنها لا توجد فى الاصوات (اللغوية) أو الأشكال المكانية وانما توجد فى النفس ،

---

(١) ب : أو طرف رابع فى المجموعة .

(٢) أ : النسخة (أو الصورة المتمثلة عن الأصل) ويلاحظ أن هذه بداية شرح جديد لنظرية المثل (راجع التعليقات) .

(٣) أ : تأتى المعرفة والرؤية (أو البصيرة) والاعتقاد الصادق .

ومن الواضح أنها مختلفة(١) عن ماهية الدائرة الحقيقية فى ذاتها وعن
٢٤٢ د الأدوات الثلاث التى ذكرناها فى البداية . والفهم هو أقرب هذه الأدوات
الثلاث الى الموضوع الخامس ، لما يربطه به من قرابة وتشابه ، أما
الأداتان الأخريان فهما أكثر بعدا عنه .

ويصدق نفس الشىء على الأشكال المستقيمة والأشكال والسطوح(٢)
المنحنية ، وعلى اللون والخير والجمال والعدالة ، وعلى كل الأجسام
الطبيعية أو المصنوعة ، وعلى النار والماء وماشابههما (من العناصر)
وعلى كل الكائنات الحية والطباع الخلقية ، وكل ما يفعله البشر أو
٣٤٢ هـ ينفعلون به . واذا لم يتيسر فهم الأمور الأربعة الاولى مجتمعة ، فلن
يتمكن الانسان أبدا من معرفة الخامس معرفة تامة . أضف الى هذا أن
هذه الأمور الأربعة — بسبب قصور اللغة وعجزها — تهتم ببيان
خصائص أى موضوع معين بقدر ما تهتم بالكشف عن ماهيته الحقة .
٣٤٣ أ ولهذا فلن يخاطر عاقل بوضع أفكاره فى ثوب هذه اللغة الضعيفة ،
والأولى من ذلك الا يخاطر بوضعها فى تلك الصورة الجامدة التى تميز
كل ما يكتب بالحروف .

ان ما قلناه الآن يحتاج الى مزيد من الشرح والتوضيح . فكل دائرة
ترسم أو تخرط تمتلىء فى الواقع بضد الحقيقة التى جعلناها الخامسة
فى الترتيب . فهى فى كل نقطة منها تشارك فى المستقيم ، بينما الدائرة
ذاتها — وهذا هو الذى نؤكده — لا تتضمن أى عنصر صغر أو كبر
من طبيعة ذلك الشىء المضاد لها(٣) . وفضلا عن هذا فليس لأى شىء
اسم ثابت . فما من شىء يمنع ان يطلق على ما يسمى الآن « دائريا »
٣٤٣ ب اسم « مستقيم » ، أو على العكس من ذلك ان يسمى « المستقيم »
دائريا ، ولن يتأثر ثبات الأشياء (أو بقاؤها على طبيعتها الواقعية)
ان غيرنا أسماءها وأطلقنا عليها أسماء مضادة . ونفس الشىء ينطبق
على التعريف ، فهو مؤلف من أسماء وأفعال ، وتبعا لذلك فهو أبعد

---

(١) ب : من الواضح أنه يجب تمييزها عن ... الخ ... .
(٢) زيادة فى (ب) .
(٣) المعنى أن أى مماس لدائرة مرسومة سيتلاقى معها لمسافة معينة ، لأن أى دائرة محسوسة لا يمكن أن تكون دائرية بشكل مطلق .

ما يكون عن الثبات * ويمكننا أن نستخدم حججا لا حصر لها(١) لاثبات أن كل واحد من الأمور (أو الأدوات) الاربعة السابقة بعيد عن الدقة .
ولكن أقوى هذه الحجج هو أن النفس ، كما قلنا ، تسعى الى معرفة الوجود الحقيقى للشىء ولا تكتفى بمعرفة صفاته وخصائصه . بيد أن ما يقدمه لها كل واحد من الأمور الأربعة السابقة — سواء فى صورة كلمات أو فى صورة مادية (مرئية) — ليس هو الذى تبحث عنه ، بل
٣٤٣ جـ هو شىء يمكن بسهولة أن تدحضه شهادة الحواس ، ولهذا يمكن أن يخلق الحيرة (والارتباك) والغموض فى (عقل) كل انسان . وعندما نكون بصدد موضوعات لم نألف — نتيجة التعود السىء — أن نبحث فيها عن الحقيقة ، بل نقنع منها بالنسخ التى تمثلها ، فاننا (فى هذه
٣٤٣ د الحال) لا نضع أنفسنا موضع سخرية السائلين ، حتى ولو كانت لدى هؤلاء القدرة على نقد أدوات المعرفة الاربع واثبات خطئها . أما حين يتعلق الأمر بموضوعات نتطلب فيها الدليل الواضح على الوجود الحقيقى الذى يشغل المكان الخامس ، فان أى انسان بارع فى الحجاج والتفنيد سيخرج منتصرا ، وسيجعل المتحدث (الذى يعرض المذهب) — سواء لجأ الى الكلام المتسق أو الكتابة أو صيغة السؤال والجواب — (سيجعله) يبدو فى أعين جمهور المستمعين جاهلا جهلا تاما بالموضوع الذى يحاول أن يكتب فيه أو يتكلم عنه . قد يحدث أحيانا ألا يفطن الجمهور الى أن الخطأ لا يرجع لنفس الكاتب أو المتحدث بقدر ما يرجع
٣٤٣ هـ لكل أداة من أدوات المعرفة الاربع الناقصة بطبيعتها . ولكن التعمق المستمر فيها جميعا(٢) بالتحرك صعودا وهبوطا من أحدها للآخر ، هو السبيل الوحيد لتوليد المعرفة بما هو بطبيعته خير فى نفس هى بطبيعتها خيرة ، مع العلم بأن هذا أيضا يستلزم أكبر قدر من الجهد والعناء . أما اذا كان الانسان سيىء التكوين ، وكذلك أغلب الناس من الناحيتين العقلية والخلقية — وكم من نفس طيبة أصابها التلف — فان
٣٤٤ أ « لينكويس »(٣) نفسه لن يستطيع أن يهبه القدرة على البصر . وصفوة

---

(١) أ : كلمات لا حصر لها .
(٢) أى فى أدوات المعرفة الأربع التى سبق ذكرها .
(٣) كان يضرب به المثل فى حدة البصر .

القول أن من لا يشعر نحو الموضوع بصلة القرابة الحميمة لن تقربه منه سهولة التعلم ولا قوة الذاكرة ، لأنه (أى الموضوع) لا يمد جذوره أبدا فى طبائع غريبة عنه(١) . ولهذا فان الذين لا تربطهم صلة القرابة أو الشبه بالعدالة والجمال بكل صوره وأشكاله — مهما يبدوا من موهبة وقوة ذاكرة فى أمور أخرى — والذين تتوفر لهم القرابة الطبيعية (بالموضوع) ولكن تنقصهم الموهبة وقوة الذاكرة — كلا الفريقين لن يستطيع أحد منهما أن يتوصل الى المعرفة الممكنة بحقيقة الخير والشر(٢) .

(وقد أضفت الشر)(٣) لأنه يجب عليهم أن يعرفوهما معا كما يعرفوا

٣٤٤ ب المظهر والحقيقة فى الطبيعة كلها ، ويبذلوا فى سبيل ذلك من الجهد والوقت بقدر ما ذكرت فى بداية حديثى . وعندما يتم احتكاك الأسماء والتعريفات والتمثلات والانطباعات الحسية بعضها ببعض(٤) وتخضع جميعها لبحث تسوده السماحة وتبادل الأسئلة والاجوبة بغير حسد (أو لؤم) — عندئذ فقط تسطع شرارة الفهم والبصيرة لتضىء الموضوع قيد البحث ، ويتوهج ضوؤها بقدر ما فى طاقة الانسان . ولهذا السبب لن يفكر أى انسان جاد فى الكتابة عن الموضوعات الجادة حتى لا يجعل

٣٤٤ جـ الحقيقة نهبا لحسد الناس وغبائهم . والنتيجة التى نستخلصها مما سبق هى أننا اذا رأينا مؤلفا دونت فيه أفكار أحد الناس ، سواء أكان مؤلفا فى القانون لأحد المشرعين أو فى أى موضوع آخر ، فيجب أن نعلم — اذا كان الكاتب انسانا جادا — ان هذا الذى دونه لا يعبر عن أفكاره الجادة بحق ، وانما تظل (هذه الأفكار) كامنة فى أجمل مكان فى أعماقه(٥) .

٣٤٤ د واذا صح أنه كان جادا بحق فى تدوين فكره ، فلابد فى هذه الحالة أن يكون الناس ، لا الآلهة ، هم الذين سلبوه عقله(٦) .

---

(١) ب : وصفوة القول انه لاسهولة التعلم ولا قوة الذاكرة يمكن أن يجعلا الانسان قادرا على الرؤية اذا لم تكن طبيعته قريبة من الموضوع .

(٢) ب : الفضيلة والرذيلة .

(٣) زيادة فى « ب » وان كان يستبدل الرذيلة بالشر .

(٤) تتكرر صورة الاحتكاك الذى يولد الشرارة فى الجمهورية (٤٣٥ أ) حيث « تحك » النتائج المترتبة على تحقيق العدالة فى الدولة وفى الفرد ببعضها لقدح الشرارة التى تضىء ماهية العدالة .

(٥) ب : وانما تبقى مختزنة فى أنبل منطقة من شخصيته .

(٦) نص مقتبس من الياذة هوميرس (٧ ، ٤٦٠) .

يتضح اذا لكل من تتبع بعناية هذا الحديث المتأنى(١) أنه لو كان ديونيزيوس أو غيره — عظم شأنه أو قل — قد دون شيئا من الحقائق الأساسية للطبيعة(٢) ، فلا يمكن فى اعتقادى أن يكون قد حصل أية معرفة سليمة عن الموضوع الذى كتب عنه ، ولو تيسر له ذلك لشعر بنفس الاجلال الذى أشعر به نحو الحقيقة(٣) ، ولاستحال أن يعرضها للمهانة فى عالم لا يلائمها ولا يليق بها(٤) . ولا يمكن أيضا أن يقال انه كتب ما كتب ليعين ذاكرته (على الحفظ) ، فمن المستحيل أن ينسى الانسان

٣٤٤ ه الحقيقة بعد ما استوعبتها نفسه ، لانها تكمن (هناك) فى حيز صغير جدا(٥) . والواقع أنه لو كان قد كتب شيئا على الاطلاق فانما فعل ما فعله عن طموح فاسد (ملتو) ، اما لادعاء أن هذه الأفكار هى أفكاره الخاصة أو الظهور بمظهر المشاركة فى ثقافة(٦) لم يكن جديرا بها ، لأن هدفه منها لم يكن غير الشهرة التى تصور أنه سيحصل عليها عندما

٣٤٥ أ يذاع عنه أنه شارك فيها . أجل لو كان ديونيزيوس قد توصل الى هذه المعرفة من اللقاء الوحيد (الذى تم بيننا)(٧) لما كان فى الأمر ما يستغرب ، ولكن كيف كان من الممكن أن يحدث هذا ، هذا ما يعلمه الله كما يقول أهل « ثيبه » . ذلك لاننى تناقشت معه فى الأمر — على نحو ما وصفت — مرة واحدة ، ثم لم يدر أى حوار بينى وبينه بعد ذلك أبدا . وكل من يهمه أن يعرف كيف حدثت هذه الأمور ينبغى عليه أن يتدبر الأسباب

---

(١) أ : هذه الأسطورة (أو الحكاية) أو هذا الحديث الذى يتحسس طريقه ...

(٢) ب : عن أول مبادىء الطبيعة وأسماها .

(٣) أ : لشعر بنفس التقديس نحو هذه الأمور .

(٤) أ : لما طاوع نفسه أن يقدمها لرأى عام غير مناسب لها ولا جدير بها ...

(٥) أ : لأنها وضعت فى صيغة (أو شكل) تفوق فى ايجازها أى شىء آخر .

(٦) أ : فى تعليم .

(٧) ب : من حوار وحيد معى ...

التى منعتنا من تكرار الحوار(١) بعد ذلك مرة وثانية وثالثة أو أكثر من ذلك أيضا . هل تصور ديونيزيوس ، بعد ذلك اللقاء الوحيد(٢) ، أنه قد عرف ما فيه الكفاية ، وهل كان يعرف بالفعل ما يكفيه ، اما لأنه قد اكتشف الموضوع بنفسه أو تعلمه قبل ذلك من غيرى ، أم تراه
٣٤٥ ب رأى أن مذهبى لا قيمة له ، أم ثبت له — وهذا هو الاحتمال الثالث — أنه يفوق قدراته وأنه لن يستطيع أن يحيا حياة الحكمة والفضيلة ؟ ان كان قد تصور ان ما قلته له شىء تافه ، فسيكون عليه أن يستمع الى شهادة كثيرين يؤمنون برأى يخالف رأيه ويصلحون أن يكونوا حكاما أكفأ منه فى هذا الأمر . وان كان قد اعتقد ، من جهة أخرى ، أنه قد اكتشف بنفسه أو تعلم من قبل شيئا يصلح فى ذاته لتربية انسان يسعى الى الحرية ، فكيف تسنى له — بغير أن يكون انسانا ملتويا(٣) الى أقصى حد — أن يهين الرجل الذى هو الدليل والحجة فى هذا الأمر ؟ لقد كان هذا
٣٤٥ جـ على التحقيق هو الذى فعله . أما كيف أهانه فسوف أروى لكم قصة ذلك .

---

(١) ب : تكرار الدرس .
(٢) أ : بعد أن استمع الى مرة واحدة .
(٣) ب : انسانا غير عادى . ولعل الأقرب الى السياق انه انسان شاذ .

٦ ــ « آخر أخبار أفلاطون مع ديونيزيوس ورحيله عن سيراقوزة »

لم يمض وقت طويل على الحادث الذى وصفته حتى أصدر ديونيزيوس ــ الذى كان قد سمح قبل ذلك لديون بالتصرف فى أملاكه والتمتع بدخلها(١) أوامره فجأة الى المشرفين على ادارتها (أى الأملاك) بألا يرسلوا منه (أى من الدخل) شيئا الى البيلوبينيز ، وكأنه نسى تماما ماسبق أن قاله فى خطابه . وزعم أن أملاك(٢) ديون لم تعد من حقه ، بل أصبحت من حق ابنه الذى هو فى نفس الوقت ابن شقيقته ، ولذلك فهو الوصى عليه . كانت هذه هى الحالة التى وصلت اليها الأمور حتى
٣٤٥ د ذلك الحين ، ومنها عرفت مدى تحمس ديونيزيوس للفلسفة معرفة كافية، فلم يستعنى ألا الغضب (والاشمئزاز) . وكان فصل الصيف قد أقبل ومعه موسم اقلاع السفن . وبدا لى أنه ليس من حقى أن أسخط على ديونيزيوس لأننى أولى منه بالسخط على نفسى وعلى أولئك الذين اضطرونى لعبور مضيق « سكيلا » « للمرة الثالثة » وشق طريقى من
٣٤٥ هـ جديد فى هاوية خاريبديس المخيفة (٣) ،ولهذا قررت على كل حال أن أعلن ديونيزيوس باستحالة بقائى بعد تصرفه المخجل مع ديون . وحاول ديونيزيوس أن يهدىء غضبى وتوسل الى أن أبقى ، وصارحنى بأنه تدبر

---

(١) أ : بفوائدها .

(٢) ب : ضيعة ديون .

(٣) عن أوديسة هوميروس ١٢ ، ٤٢٨ ــ ويلاحظ أن بلوتارك ــ فى الفصل الذى عقده فى تاريخه عن ديون ــ يقتبس هذا البيت نفسه وينسبه لأفلاطون . ومضيق سكيلا هو مضيق مسينا الحالى ويسمى من ناحية الشاطىء الايطالى سكيلا ، ومن جهة الشاطىء الصقلى خاريبديس . وتصورهما الاسطورة القديمة فى صورة وحش خرافى كان يسد مجارى الأنهار فى وجه أوديسيوس أثناء رحلة العودة الى وطنه « ايثاكا » ، وقد تجسدت الأولى فى شكل صخرة ، والثانية فى شكل دوامة ، وكلاهما تعبير شعرى عن المخاطر التى تعرض لها البحارة الاغريق فى غرب البحر الابيض المتوسط .

الأمر ووجد أن موقفه سيزداد حرجا لو سافرت فجأة ومعى تلك الأخبـــار .

٣٤٦ أ ولمـــا عجز عن اقناعى وعدنى أن يتولى بنفسه ترتيب سفرى . كنت فى الحقيقة قد عزمت على الرحيل مع أول سفينة تقلع من الميناء ، اذ كان الغضب قد استبد بى وصممت على مواجهة أى شىء يمنعنى (من تنفيذ ما عزمت عليه) ، كما كان من الواضح للناس جميعا اننى الجانب المجنى عليه . ولمـــا لم يجد عندى أقل رغبة فى البقاء ، لجأ الى هذه الفكرة لكى يحتجزنى لما بعد موسم اقلاع السفن ، فقد جاءنى فى اليوم التالى لذلك الحديث ومعه هذا الاقتراح المغرى : « فلنحاول أن نتخلص من
٣٤٦ ب الخلافات التى يسببها لنا ديون وشئونه المادية » . وسوف أتصرف معه بهذه الطريقة ارضاء لك : سأسمح له باسترداد ثروته على أن يبقى مقيما فى البيلوبينيز ، لا باعتباره منفيا ، بل باعتبار أن من حقـــه الرجوع الى سيراقوزة اذا تم الاتفاق بيننا جميعا على ذلك(١) . وشرطى الوحيد هو ألا يتآمر علي ، وأن تضمن لي ذلك أنت وأصدقاؤك وأصدقاء ديون(٢) الموجودون هنا ، وان يلتزم نحوكم بهذا الوعد . أما كل المبالغ التى يستحقها من ثروته فسوف تودع فى البيلوبينيز أو فى أثينا عنـــد
٣٤٦ جـ أشخاص تثقون فى أمانتهم وتختارونهم بأنفسكم • سيكون من حق ديون أن يأخذ نصيبه من الفوائد ، ولكن لا يجوز له أن يسحب شيئا من رأس المال بدون موافقتكم . ذلك لأننى لا أضمن سلامة تصرفه نحوى لو وضعت هذه المبالغ الضخمة تحت يده ، أما أنت وأصدقاؤك فاننى أثق بكم أكثر منه . فكر فى هذا الاقتراح ، فان أعجبك فابق معنا هـــذه السنة ، ثم سافر فى الربيع ومعك المبالغ المذكورة . وأنا واثق من أن
٣٤٦ د ديون سيعترف لك بالجميل لو رتبت أموره على هذه الصورة .

انتابنى الحنق والغضب عند سماع هذه الكلمات ، ولكننى أجبتـــه بأننى سأفكر فى الأمر ، وأخبره فى الغد بما استقر عليه رأى . كان هذا هو الذى اتفقنا عليه .

---

(١) أى بين ديون وأصدقائه من ناحية وبين ديونيزيوس من ناحية أخرى .

(٢) أ : وأقارب ديون .

واختليت بنفسى وأنا فى أشد حالات الاضطراب . وتزاحمت على الأفكار وعلى رأسها هذه الفكرة : « ألا يمكن أن يحنث ديونيزيوس بكل
٣٤٦ هـ عهوده ، فيحاول بعد رحيلى أن يكتب لديون ويسر اليه بالاقتراح الذى قدمه لى (وذلك فى خطاب باسمه أو خطابات أخرى يأمر أصدقاءه بارسالها اليه) ويصور له أننى — على الرغم من حسن نيته — لم أبد أى استعداد لمناقشة هذا الاقتراح ولم أكترث بمصالحه على الاطلاق ؟

٣٤٧ أ ألا يحتمل أيضا أن يرفض السماح باطلاق سراحى ويشيع بين قباطنة السفن أنه يعارض سفرى — وهو يملك أن يفعل هذا بغير حاجة لاصدار أمر صريح — وعندئذ لا يمكن أن يجرؤ أحد منهم على أخذى من بيته (وقد كنت لسوء حظى أسكن فى الحديقة المحيطة بالقصر ، ولم يكن فى استطاعة البواب أن يسمح لى بالخروج بغير أمر صريح من ديونيزيوس نفسه) . ولو أقمت طوال هذه السنة لاستطعت من ناحية أخرى أن أعرف
٣٤٧ ب ديونيزيوس بموقفى وسلوكى . ولو حافظ ديونيزيوس على كلمته فسأكون قد حققت شيئا لا يستهان به(١) لأن ثروة ديون لن تقل — اذا قيمت تقييما صحيحا — عن مائة تالنت(٢) . أما اذا تحققت مخاوفى وسارت الأمور سيرها المحتمل ، فلا أدرى عندئذ ماذا سيكون مصيرى ، وان كان من الضرورى أن أصبر عاما آخر لاكتشف نوايا ديونيزيوس السيئة (وأختبرها على ضوء التجربة العملية) .

لما انتهيت الى هذه النتيجة قابلت ديونيزيوس فى اليوم التالى وقلت له : « لقد قررت البقاء . ولكننى أرجوك ألا تعتبرنى مفوضا من قبل ديون لضمان مصالحه ، بل يجب علينا معا أن نبعث اليه كتابا
٣٤٧ جـ نبلغه فيه بما اتفقنا عليه ونسأله ان كان راضيا عنه . فاذا لم يحز رضاه وكان لديه بديل آخر أو مطالب أخرى فعليه أن يكتب الينا بذلك على الفور . أما أنت فتلتزم بألا تتخذ أى اجراء يمس شئونه حتى يصلنا رده » .

---

(١) أ : فلن يبدو سلوكى غامضا أو غير مفهوم .

(٢) التالنت وزن أو عملة قديمة كانت معروفة عند الاشوريين والبابليين والاغريق والرومان وغيرهم من الشعوب القديمة .

كان هذا هو ما قلته له وما اتفقنا عليه بنفس هذه الكلمات تقريبا .
وحدث بعد ذلك أن أبحرت السفن ، ولم يعد فى امكانى أن أرحل . وجاء
الى ديونيزيوس وأثار الموضوع مرة أخرى وادعى أن نصف الثروة فقط
من حق ديون والنصف الآخر من حق ابنه . كما أبلغنى بعزمه على بيع
٣٤٧ د الأملاك كلها واعطائى نصف ثمنها لتسليمه لديون والاحتفاظ بالنصف
الثانى لولده ، زاعما أن ذلك هو الحل الأمثل . أفزعتنى هذه الكلمات
فزعا شديدا ، ولكننى وجدت من السخرية أن أعلق عليها بشىء . ومع
ذلك فقد قلت له علينا ان ننتظر رد ديون ثم نبلغه بهذا الاقتراح
الجديد . (فوجئت) بعد هذا اللقاء مباشرة بأن ديونيزيوس باع أملاك
٣٤٧ هـ ديون كلها بطريقة طائشة ، وذلك بالشروط التى راقت له وللمشترين
الذين اختارهم بنفسه دون أن يقول لى عن ذلك كلمة واحدة . وقد
رأيت من جانبى ألا أطرق الموضوع معه مرة أخرى ، لاننى اقتنعت بأن
ذلك لن يجدى شيئا .

هكذا حاولت أن أمد يد العون للفلسفة والأصدقائى ، ومنذ ذلك
الحين سارت حياتنا ، ديونيزيوس وأنا ، على هذه الصورة : كنت أشبه
٣٤٨ أ بطائر يطل من قفصه ويتوق للفرار بينما راح هو يلتمس كل وسيلة
لتخويفى(١) وابعادى عن شئون ديون والاحتفاظ بأملاكه . ومع ذلك فقد
ظهرنا أمام صقلية كلها بمظهر الصداقة (والتجانس فى الآراء)(٢) .

وحاول ديونيزيوس أن يخفض أجور قدامى المرتزقة (العاملين فى
جيشه) ، وذلك على عكس السياسة التى كان يتبعها أبوه . وتظاهر
الجنود الغاضبون معلنين عن سخطهم . وأراد ديونيزيوس أن يؤدبهم
٣٤٨ ب فأمر باغلاق أبواب القلعة(٣) ، ولكنهم هجموا على الأسوار وهم
يتصايحون بصيحات الحرب ويرددون أناشيدهم البربرية . واستولى
الرعب على ديونيزيوس الذى رضخ لمطالب المتظاهرين بل وافق على
اعطائهم أكثر مما طلبوا . وسرعان ما انتشرت اشاعة بأن «هيراكليديس»
هو المسئول عن هذا التمرد ، ولما شعر بأنه سينقلب عليه نجا بنفسه
واختفى بعيدا عن الأنظار . وبذل ديونيزيوس كل ما فى وسعه لالقاء

(١ ، ٢) زيادة فى « أ » .
(٣) أ : البرج .

٣٤٨ ج القبض عليه ، ولكنه أخفق . ولذلك استدعى « تيودوتيس » لمقابلته
في حديقة القصر التي تصادف أن كنت في ذلك الوقت أتجول فيها .
لا أدري ما الذي كانا يتحدثان عنه لاننى لم استمع اليه ولم أفهم كذلك
منه شيئا . ولكننى لا زلت أذكر ما قاله ثيودوتيس لديونيزيوس على
مشهد منى : « أفلاطون ، أننى أحاول أن أقنع صديقنا ديونيزيوس بأن
يسمح لهيراكليدس — اذا نجحت فى احضاره للمثول بين يديه والاجابة على
التهم الموجه اليه ، واذا قرر ابعاده عن صقلية — (أن يسمح له) بأخذ
زوجته وابنه معه ليعيشوا فى البيلوبينيز والحصول على ثروته كاملة
٣٤٨ د بشرط ألا يقوم بأى اجراء من شأنه أن يضر بديونيزيوس . لقد أرسلت
منذ قليل فى طلبه ، وسأبعث اليه مرة أخرى لعله يستجب لدعوتى
الاولى أو الثانية . ولكننى أستحلف ديونيزيوس وأتوسل اليه ، فى حالة
٣٤٨ هـ العثور على هيراكليدس هنا أو فى الريف ، ألا يعاقبه بغير النفى خارج
البلاد ، وذلك الى أن يتدبر أمره ويتخذ قرارا آخر بشأنه » . ثم
التفت الى ديونيزيوس قائلا « هل تتعهد بهذا ؟ » أجاب ديونيزيوس
« نعم . وحتى لو وجد فى بيتك فلن يحدث له شيء يخالف ما تعاهدنا
عليه » .

وفى مساء اليوم التالى هرع الى ثيودوتيس واويريبيوس وهما فى
حالة شديدة من الانفعال والاضطراب . وبدأ ثيودوتيس قائلا :
« أفلاطون ، لقد كنت بالأمس شاهدا على التعهد الذى قطعه ديونيزيوس
على نفسه بشأن هيراكليدس » . قلت : « أجل . كنت شاهدا عليه »
استطرد ثيودوتيس قائلا : والآن يفتش الجنود المنطقة بحثا عن
٣٤٩ أ هيراكليدس ، ويبدو أنه موجود فى مكان قريب — تعال معنا بسرعة الى
ديونيزيوس لكى لا نضيع لحظة واحدة . هكذا انطلقنا معا ، وعندما
مثلنا بين يديه أخذا يبكيان فى صمت فبدأت الكلام قائلا : ان صديقى
يخشيان أن تؤذى هيراكليدس خلافا لما اتفقنا عليه أمس ، اذ يبدو
أنه قد لوحظ وجوده هنا وأنه يختفى فى هذه الناحية . ولما سمع
ديونيزيوس ذلك ثار ثورة شديدة وتغير لون وجهه كما هى عادة من
٣٤٩ ب يستبد به الغضب . أما ثيودوتيس فركع عند قدميه وتناول يده وابتهل
اليه والدموع فى عينيه بألا يفعل شيئا من ذلك . وحاولت أن أواسيه

فقاطعته قائلا : تشجع ياثيودوتيس ، فلن يحنث ديونيزيوس بالوعد الذى اتفقنا عليه أمس » . وعند ذلك نظر ديونيزيوس الى نظرة طاغية أصيل وهتف قائلا : «أنا لم أعدك بشيء ، لم أعدك بشيء على الاطلاق». قلت : « بلى . الله يعلم أنك فعلت . لقد وعدت بألا تتخذ الاجراء الذى يتوسل اليك ثيودوتيس الآن بألا تقدم عليه » . ثم استدرت وغادرت المكان .

٣٤٩ ج وبعد ذلك واصل مطاردته لهيراكليديس . ولكن ثيودوتيس بعث اليه رسولا يحذره ويلح عليه بالهرب . وأرسل ديونيزيوس تيزياس على رأس قوة للبحث عنه ، غير أن هيراكليدس تمكن من اللجوء للقرطاجيين قبل وصولهم بساعات قليلة .

تذرع ديونيزيوس بهذه الحادثة للتنصل من وعده برد ثروة ديون اليه كما وجد فيها مبررا كافيا لاظهار العداء لى . وبدأ بابعادى من القلعة ، بحجة أن الحديقة التى كنت أسكن فيها سيقام فيها حفل دينى نسائى(١) يستمر عشرة أيام . وأمر بأن أقيم فى هذه الفترة خارج القلعة مع

٣٤٩ د أرخيد يموس . وأثناء اقامتى الأخيرة دعانى ثيودوتيس لزيارته وأخذ يبدى استياءه من الأحداث التى وقعت ويصب شكواه المرة على ديونيزيوس . وبلغ ديونيزيوس أننى زرت ثيودوتيس فاتخذ من ذلك

٣٤٩ هـ ذريعة أخرى لتبرير أسباب القطيعة معى ، وبعث يسألنى ان كنت قد لبيت دعوة ثيودوتيس . قلت للرسول : « هذا صحيح » فأجاب بقوله : « لقد أمرنى أن أبلغك بأن تصرفك هذا تصرف غير لائق ، لأنه يدل على أنك تقدر ديون وأصدقاءه أكثر مما تقدره » . كانت هذه هى الرسالة التى أبلغها الى ، ولم يستدعنى بعد ذلك أبدا الى قصره ، كأنما لم يبق لديه شك فى صداقتى لثيودوتيس وهيراكليديس وعداوتى له . وفضلا عن هذا فقد سلم بأنه لم تعد لدى نية الحديث معه بعد أن تبددت ثروة ديون بأكملها . وهكذا عشت منذ ذلك الحين خارج القلعة بين الجنود المرتزقة . وسعى لزيارتى عدد كبير من الناس وبينهم بعض

(١) أ : حفل نسائى تقدم فيه الاضاحى والقرابين .

٣٥٠ أ مواطنى (الاثينيين) من أفراد الحاشية (وملاحى السفن(١) وأبلغونى أن المشاة يفترون على(٢)ويهددون بقتلى ان تمكنوا من وضع أيديهم على . وأخذت أبحث عن مخرج لتأمين حياتى حتى وصلت الى هذه الفكرة . بعثت برسالة الى أرخيتاس وسائر أصدقائى فى « تارنت » أبلغهم
٣٥٠ ب فيها بالخطر المحدق بى . وما هو الا أن وجدوا ذريعة لارسال بعثة دبلوماسية من مدينتهم ومعها مركب بثلاثين مجدافا بقيادة واحد منهم يدعى « لامسكوس » . وعندما وصل الى (سيراقوزة) مثل بين يدى ديونيزيوس وتشفع لى عنده وأبلغه برغبتى فى الرحيل ورجاه ألا يقف عقبة فى طريقى . وقبل ديونيزيوس رجاءه . ووافق على أن أغادر البلاد مع المـــال اللازم للسفر . أما عن ثروة ديون فلم أسأل عنها ولا حاول أحد أن يسلمنى شيئا منها .

وعندما وصلت الى « أوليمبيا » فى شبه جزيرة البيلوبينيز قابلت ديون الذى كان يزور احتفالات الألعاب الأولمبية ورويت عليه ما حدث . أقسم بزيوس أن ينتقم ، ودعانى وأقربائى وأصدقائى أن نســتعد
٣٥٠ جـ لعقاب ديونيزيوس على ما اقترفه ، سواء بالتفريط فى واجب الضيافة نحوى ـــ وهذا هو الذى تصوره ديون وقاله ـــ أو بالاجراء الظـــالم الذى اتخذه نحوه بطرده ونفيه . ولما سمعت هذا منه قلت له : انه حر فى أن يدعو أصدقائى اذا شاءوا الاستجابة له . « أما من ناحيتى فقد أجبرتنى أنت والآخرون على مشاركة ديونيزيوس فى مائدته وبيتـــه وطقوسه الدينية . ولقد صدق فيما يبدو تلك المزاعم والافتراءات التى
٣٥٠ د جاءته من كل ناحية وصورت له أننى اشتركت معك فى التآمر عليـــه وعلى حكمه المطلق ، ومع ذلك فانه لم يأمر بقتلى بل تهيب من الاقدام على ذلك(٣) . أضف الى هذا أننى تقدمت فى السن ولم تعد لدى القدرة على مساعدة أحد فى أى عمل حربى ، وان كنت مع ذلك على أتم الاستعداد لأن أضع نفسى فى خدمتكما اذا أردتما أن تكونا أصدقاء وتقدما الخـــير

---

(١) زيادة فى « ب » .

(٢) ب : ان سمعتى سيئة بين المشاة الخفيفة .

(٣) أ : ومع ذلك فان ضميره منعه من قتلى .

لبعضكما . أما اذا أصررتم على الايذاء (والعدوان) فعليكم أن تبحثوا عن غيرى(١) » . قلت هذا وأنا أشعر بالاشمئزاز من مغامراتى فى صقلية والاخفاق الذى أصبت به . غير أنهم لم يستجيبوا لى ولم يتأثروا بعروض الصلح والتوسط التى تقدمت بها ، ولهذا جروا على أنفسهم
٣٥٠ هـ كل المصائب التى ألمت بهم . ولو أن ديونيزيوس رد لديون ثروته أو تصالح معه لما حدث شىء من ذلك كله — وذلك بقدر ما يسع الانسان من قدرة على التنبؤ بمصائر الأمور — فقد كان فى استطاعتى أن أمنع ديون (عن اللجوء الى القوة) ، وكانت لدى الارادة الطيبة والقوة التى تمكننى من التأثير فيه . غير أن الأمور سارت فى طريق آخر فشن كلاهما الهجوم على الآخر وجلبا الشقاء والخراب على كل شىء .
٣٥١ أ وعلى الرغم من ذلك كله يمكننى القول بأن آراء ديون(٢) كانت هى الآراء التى يفترض فى أى انسان عاقل (مستقيم) أن يعتنقها ، فمثل هذا الانسان يضع نصب عينيه عندما يتعلق الأمر بالحياة السياسية التى سيسير عليها هو وأصدقاؤه أو يتعلق بوطنه — أن يصل الى السلطة والى أسمى الوظائف عن طريق التفانى فى خدمة الصالح العام . وليس من خدمة الصالح العام فى شىء(٣) أن يعمد الانسان الى اثراء نفسه واثراء أصدقائه(٤)ومدينته عن طريق الخبث وتدبير المؤامرات ، لأنه فى هذه الحالة انسان مجدب(٥) عاجز عن التحكم فى شهواته ، يقتل
٣٥١ ب أصحاب الثروة ويصفهم بأنهم أعداؤه ، ويصادر ممتلكاتهم ويشجع حلفاءه واتباعه على الاقتداء به حتى لا يتهمه أحد بأنه هو المسئول عن فقرهم(٦) . وليس من الشرف أيضا أن يمتدح انسان من (سكان) مدينته لانه وزع ثروة القلة على الكثرة بحجة تنفيذ القرارات الشعبية ، أو لأنه ضم أملاك المدن الصغيرة الى مدينته ، وذلك اذا كان على رأس

---

(١) ب : فعليكم أن تمدوا أبصاركم فى اتجاه آخر .
(٢) ب : بأن سياسة ديون .. الخ ...
(٣) أ : التفانى فى خدمة الغير ...
(٤) ب : واثراء حزبه .
(٥) حرفيا : انسان فقير ، ولكن المراد هو الفقر والجدب الباطنى والروحى .
(٦) أ : حتى لا يتهمه أحد بأنه بقى فقيرا .

٣٥١ جـ مدينة كبيرة تمد نفوذها وسلطانها على مدن أخرى أصغر منها . ولايمكن أن يسعى ديون أو أى انسان آخر لديه القدرة على السيطرة على نفسه الى الاستيلاء بمثل هذه الطريقة على سلطة يمكن أن تجلب اللعنة الأبدية عليه وعلى عائلته ، بل الأولى أن يجعل هدفه وضع دستور حقيقى واقامة قوانين طيبة وعادلة تنفذ بغير قتل أو اعدام أو نفى(١) على الاطلاق . كان هذا هو المثل الأعلى الذى وضعه ديون لنفسه ، مؤثرا تحمل الظلم على اقترافه . ومع أنه قد احتاط لنفسه (من تحمل الظلم بغير داع) فقد سقط فى نفس الوقت الذى حقق فيه

٣٥١ د هدفه من الانتصار على أعدائه . وليس القدر الذى أصابه بالأمر المستغرب . فقد يستبعد على رجل خير مثله يتمتع بحظ كاف من الذكاء والاتزان — أن ينخدع تماما فى طبيعة الأشرار الذين يتعامل معهم ، ولكن لا يستبعد عليه أن يتعرض لنفس المصير الذى يتعرض له ملاح بارع يعلم تمام العلم أن العاصفة آتية ، ومع ذلك تداهمه بقوتها وعنفها المفاجىء فتغرقه .

كان هذا هو السبب فى سقوط ديون . فقد كان يعرف أن الذين تسببوا فى سقوطه أشرار ، أما المدى الذى وصلت اليه فظاظتهم وخستهم وجشعهم فذلك هو الذى غاب عنه . وهكذا راح ضحية انخداعه فيهم وجلب على صقلية الحزن والشقاء الذى لاحد له .

٣٥٢ أ لقد قدمت النصيحة التى كان على أن أوجهها اليكم فى أعقاب الحوادث التى وصفتها . ولهذا أكتفى بما قلت . ولقد رويت قصة زيارتى الثانية لصقلية لأن الحوادث الغريبة غير المتوقعة التى ارتبطت بها فرضت على ذلك . فاذا وجد أى انسان أن الوصف الذى قدمته يجعل هذه الحوادث أقرب الى الفهم ويبرر الظروف التى تحدثت عنها تبريرا كافيا، فقد تحقق الغرض من هذا العرض على أكمل وجه .

---

(١) بغير أحكام الاعدام أو النفى : زيادة فى (ب) .

« تعليقـــات »

٣٢٤ ب تتضارب الآراء منذ العصور القديمة حول اسم «هيبارينوس» ومصيره. وهناك اثنان يحملان نفس الاسم ، الأول هو ابن ديون ، والثانى ابن ديونيزيوس الاول من زوجته « أرستوماخية » شقيقة ديون ، وبهذا يكون الاخ غير الشقيق لديونيزيوس الثانى . والارجح أن يكون المقصود من هذه العبارة ومن المقارنة بين الاعمار هو ابن ديون لا ابن ديونيزيوس الاول الذى ورد ذكره فى الخطاب الثامن ، واشترك مع أتباع ديون وحلفائه فى اقصاء كاليبوس عن الحكم الذى استولى عليه فى ســـنة ٣٥٤ ق.م. بعد اغتيال ديون (وكاليبوس هذا هو صديق ديون الذى صحبه من أثينا ، ثم غدر به ، وهو الذى يتبرأ أفلاطون من خيانتـــه ويحاول أن يبرىء منها مدينته) . ومن العلماء من يؤكد من ناحيـــة أخرى أن هيبارينوس المقصود لا يمكن أن يكون ابن ديون ، وذلك استنادا الى ما يقوله بلوتارك فى تاريخه (ديون ٥٥) من أنه مات قبل أبيه . ويبدو أن هذا الاضطراب فى تحديد شخصيته كان احدى الحجج التى اعتمد عليها المتشككون فى أصالة الخطابين السابع والثامن ، على الرغم من تسليم جمهور العلمـــاء بصحة نسبتها الى أفلاطون ، وذلك منذ أن قدم العالم فيلاموفيتس الادلة الكافية على أصالة الخطـــاب السابع بوجه خاص .

٣٢٤ جـ ولد أفلاطون فى سنة ٤٢٧ ق.م. وتمت الثورة التى تسلم بها الثلاثون مقاليد السلطة فى صيف سنة ٤٠٤ ق.م. والغريب فى وصف هذه الثورة هو تقديم سلطتى الأمن والادارة ـــ اللتين عهد بهما الى أحد عشر رجلا فى أثينا وعشرة رجال فى بيرايوس ـــ على السلطة العليا التى كانت فى يد الثلاثين . والاغرب من ذلك نسبة الرقابة على الاسواق الى الاحد عشر الذين لم تكن هذه الرقابة تمثل مهامهم الحقيقية . ومع ذلك فربما ينطبق هذا على العشرة فى بيرايوس أكثر مما ينطبق على الاحد عشر .

٣٢٤ د كلف الثلاثون سقراط وأربعة آخرين بالقاء القبض على شخص من جزيرة سالاميس يدعى « ليون » .. ولكن سقراط تجاهل الأمر . وقد وردت هذه الحادثة فى (الدفاع ، ٣٢ حـ) حيث نجد أفلاطون يذكر على لسان سقراط « أنهم — أى الثلاثين — كلفوا عددا كبيرا من الناس بمثل هذه المهمة لالقـاء الذنب على أكبر عدد ممكن » ..

٣٢٦ ب يعبر أفـلاطون فى الجمهـورية (٣٧٣ جـ — د ، ٤٩٩ د) عن رأيه المعروف بهذه الصيغة الشهيرة : « اذا لم يصبح الفلاسفة ملوكا على المدن أو لم يبدأ أولئك الذين يسمون الآن بالملوك والحـكام فى التفلسف الحقيقى ... » ..

ولكن هل كان يؤمن حقا عندما كتب هذه العبارة بامكان تحقيق هذا المثل الأعلى ؟ وهل يتصور امكان الجمع بين الحاكم والفيلسوف فى شخص واحد كما تخيل ديون عندما كتب اليه يتعجل زيارته لاغتنام الفرصة النادرة بعد تولى ديونيزيوس الثانى زمام الحكم ، أم اقتصرت كل جهوده مع الملك الجديد على اقناعه باصلاح الدستور والتمسك بسيادة القانون كما عبر عن ذلك فى محاورته المتأخرة « السياسى » ؟ يبدو على كل حال أن أفلاطون كان يتصور عنـد زيارته الأولى لصقلية ان الحكم الدكتاتورى المطلق يمكن ان يصلح أساسا لنظام الحكم العادل ، نظرا لما يملكه المستبد « العادل » من قدرة علـى الاصلاح والتغيير . ولعل صورة ديونيزيوس كانت فى باله عنـدما تصور هذا وعبر عنه ، وذلك قبل أن تثبت له التجربة فداحة خطئه (راجع كذلك « القوانين » ٧٩٩ وما بعدها) . أما عن زيارته الاولى لايطاليا فقد تعرف فيها سنة ٣٨٨ ق.م. على صديقه أرخيتـاس حاكم تارنت — فى جنوب ايطاليا — وفيلسوفها ورأس المدرسة الفيثاغورية فيها .. وقد كان لهذا الملك الفيلسوف أثر كبير علـى التجارب التى مر بها أفلاطون فى صقلية ، وهو الذى توسط لـدى ديونيزيوس الثانى لانقاذه من الأسر وخطر الموت المحقق (راجع أيضا فى هذا الخطاب ٣٢٨ جـ ، ٣٥٠ ب) وأما عن لذات الطعـام والشراب السيراقوزية فيبدو أنها كانت مضرب الامثال فى بلاد الاغريق ..

(٤٠٤ حـ) وجورجياس (٥١٨ ب) ويلاحظ أن أفلاطون يذكرها أيضا فى محاورتى الجمهورية .

٣٢٦ جـ يقول أفلاطون انه يقدم نصيحته للمرة الثانية . وربما كانت المرة الاولى عندما حاول التأثير فى ديونيزيوس الثانى . وهو يذكر فى هذا الخطاب نفسه ٣٣٤ د انه قدم نفس النصيحة فى ثلاث مناسبات مختلفة، لديون أولا ، ثم لديونيزيوس الثانى ، وأخيرا هذه النصيحة التى يقدمها فى الخطاب السابع لأصدقاء ديون وأتباعه .

٣٢٧ جـ لم يقف أفلاطون وديون وحدهما فى محاولة اقامة نظام الحكم العادل الذى يسعد أهل صقلية ويقر بينهم الخير والفضيلة . فقد استطاع ديون أن يكسب الى صفه عددا من أفراد البيت الحاكم نفسه وهم أخوة ديونيزيوس الثانى غير الاشقاء (من أبيه ديونيزيوس الاول وزوجته أخت ديون) وفى مقدمتهم هيباريتوس الذى سبق ذكره .

٣٢٩ أ « لو كنت أعيش فى ميجارا لاسرعت بمساعدتى » . لان مدينةميجارا — التى تقع على خليج كورنثة — شديدة القرب من أثينا .

٣٣١ جـ يتكرر هذا المعنى فى محاورة كريتون ٥١ جـ (أقريطون) التى نجد فيها هذه العبارة : « لا يصح أن يفرض المرء شيئا بالاكراه على أبيه أو أمه ، وأقل من ذلك ان يفرضه على بلده » — وأفلاطون ينصح للفيلسوف بأن يلتزم الهدوء ولا يرفع صوته اذا لم تسمح الظروف بأن يسمعه أحد،كما ينصحه بالبعد عن استخدام العنفلتغيير دستور الحكم اذا كان سيؤدى الى تعرضه هو أو غيره من المواطنين للموت أو النفى .ونجد هذه النصيحة نفسها فى محاورة الجمهورية (٤٩٦) فينبغى على الفيلسوف أن يلزم السكينه والهدوء « كرجل يأوى الى جدار يحميه من العاصفة » .

٣٣٢ أ لا تفهم هذه العبارة الا اذا وازنا بين وضع صقلية فى عهد ديونيزيوس الاول وبين وضع أثينا التى كانت فى ظروف أسوأ منها . فالأثنيون يحتلون مدنا آهلة بالسكان لا مدنا خربها البرابرة ، مما يزيد من صعوبة حكمها والسيطرة عليها . أما داريوس فقد كانت ظروفه كذلك أصعب من ظروف ديونيزيوس الذىعجز عن حكم تلك المدن على

الرغم من استناده الى أخوته الأصغر منه ، بينما نجح داريوس الذى اعتمد على تأييد المشتركين معه فى قلب « الميدى » على الرغم من أنه لم يقم بتربيتهم ولم تربطه بهم علاقـــة الدم . ولو رجعنا الى تاريخ هيرودوت (٣ ، ٦١ وما بعدها) لوجدنا أن داريوس قضى على أحد الحكام الميديين الذى كان يدعى « سميرديس » بمساعدة ستة من حلفائه وبذلك أصبح ملكا على بلاد الفرس . ويـــذكر هيرودوت ان داريوس قسم مملكته الى عشرين ولاية ، بينما يؤكد نقش وجد فى مدينة «بير سيبوليس» انه قسمها الى أربعة وعشرين ولاية.وقد اتخذ بعض الباحثين من هذه الاختلافات التاريخية حجة على عدم أصالة الخطاب السابع . ولكننا نجد أفلاطون يذكر فى القوانين (٦٩٥ ج) عدد الولايات التى يذكرها فى هذا الموضع من الخطاب . اذ يقـــول ان داريوس قسم ملكه الى سبع ولايات ، كما يصف الحاكم الميدى بنفس التسمية التى يصفه بها هنا وهى الخصى . وغنى عن الذكر ان الفيلسوف ليس مؤرخا دقيقا ولا يقلل من شأنه غياب بعض الحقائق التاريخية عنه ، كما لا ينهض دليلا على زيف الخطاب الذى نحن بصدده ...

٣٣٢ ب المقصود بالبرابرة — فى كلام اليونانيين بوجه عام — هم الفرس . وقد دامت الامبراطورية الاثينية ما يقرب من سبعين عاما وانتهت سنة ٤٠٤ ق.م.

٣٣٣ أ جيلون هو طاغيـــة ســـيراقوزه الذى هزم القرطاجيين فى معـــركة « هيميرا » سنة ٤٨٠ ق.م. وفرض عليهم الاتاوة . ويبدو أن تعبير أفلاطون عن خضوعهم لنيره فيه نوع من المبالغة ، كما أن الكلام عن الاتاوة التى فرضها القرطاجيون على ديونيزيوس لم يرد الا فى هذا الخطاب .

٣٣٣ ب كانت المرة الاولى عندما حرر ديون المدينة من طغيان ديونيزيوس الثانى بعد رجوعه من بلاد الاغريق ، أما فى المرة الثانية فقد استدعى من مدينة ليونيتنى ليحميها من نيبسيوس أحد قواد ديونيزيوس .

٣٣٣ هـ الاخوان اللذان صاحبا ديون عند عودته الى صقلية هما كاليبوس وفيلوستراتوس . (راجع تاريخ بلوتارك ، الفصل الخاص عن ديون، ٥٤) ويلاحظ ان الاول يرد ذكره أكثر من مرة ، وهو الذى قام باغتيال ديون أو على الاقل حمى قاتليه وتستر عليهم ، وتبرؤ أفلاطون من القتلة ومن نسبتهم الى وطنه أثينا يفيد اشتراك الاخوين فى الجريمة .

٣٣٦ ب هبرون هو شقيق جيلون — الذى سبق ذكره فى تعليق سابق — وخليفته فى حكم سيراقوزه .

٣٣٧ جـ يرجح بعض الباحثين أن تكون هذه العبارة اضافة متأخرة الى النص ، كما يبدو أن هذا الرقم الكبير لا يتناسب مع عدد السكان . فنحن نجد فى الخطاب الثامن أن عدد أعضاء هذه « اللجنة » المنتخبة يترك للاتفاق عليه . كما أن القوانين ٧٠٤ جـ تحدد عددهم بعشرة أعضاء فحسب .

٣٤٢ ب تذكر القوانين ٨٩٥د ثلاثة أشياء تنطوى عليها المعرفة بأى موضوع ، وهى الموضوع نفسه ، وتعريفه ، واسمه . ولما كانت « القوانين » تناقش فى ذلك الموضع حقيقة النفس ، لم يرد فيه ذكر « التمثل » او « النسخة » المذكور هنا لعدم ملاءمته له كما هو الحال هنا حيث اختار أفلاطون مثال الدائرة الذى يمكن أن يمثل له بدائرة مرسومة. وقد أخذ استعمال أفلاطون لفعل الامر بضمير المخاطب « خذ لذلك مثلا..» الخ..على انه اضافة كاتب أراد ان يبين علمه بنظرية المثل فأقحم على النص شاهدا ورد فى سياق أفلاطونى آخر . وعلى الرغم من ان كل التفاصيل الواردة فى الخطاب السابع عن نظرية المثل او غيرها من نظريات افلاطون وآرائه موجودة ومثبتة بتفاصيلها فى مواضع أخرى من محاوراته فلا شىء يمنع من تكرارها فى هذا الخطاب الذى يحاول فيه أن يدافع عن فلسفته ويبررها فى وجه المفترين عليه. ولا ضرورة أيضا لتصور اقحام هذا الجزء العسير منه بيد كاتب متأخر ...

٣٤٣ أ يتكرر سوء الظن بالكلمات والحروف الجامدة وعجزها عن احتواء الافكار والاحاديث الحية فى محاورة فايدروس ٢٧٥ د اذ يبدأ سقراط

ـ فى حديثه العذب مع فايدروس ـ فى رواية اسطورة مصرية قديمة تحكى عن « توت » ـ كاتب الالهة ـ الذى ينسب اليه اختراع الكتابة والحساب والارقام والهندسه والفلك . ويذهب «توت» ليعرض اختراعاته على رب الأرباب آمون، مؤكدا أن أهمها هو اختراع الكتابة الذى توت ليس هو أفضل حكم على نفعه أو ضرره للذين سيمارسونه . وكذلك الشأن فى هذه الحالة . فغرامك بالكتابة وأنت أبوها ، قد جعلك تنسب اليها عكس وظيفتها الحقيقة تماما . فالذين سيتعلمونها سيكفون عن استعمال ذاكرتهم ويصابون بالنسيان ، وسيعتمدون على الكتابة لتذكر الاشياء عن طريق العلامات الخارجية بدلا من الاعتماد على مصادرهم الباطنة . أن ما اكتشفته يساعد الحفظ ولا يساعد الذاكرة . أما عن الحكمة فسيشتهر تلاميذك بها دون أن يكون لهم فى الواقع منها نصيب : سيتلقون قدرا من المعلومات بغير علم صحيح ، وسيظن نتيجة لذلك أنهم على حظ كبير من العلم فى الوقت الذى يكون فيه معظمهم جاهلين جهلا تاما ، ولأنهم سيمتلئون بالحكمة الزائفة بدلا من الحكمة الحقيقية سيصبحون عبئا على المجتمع ... » .

ويدلك أفلاطون ـ على لسان سقراط ـ على رأيه عن تقدم الحديث الحى (المنقوش على صفحة الروح !) على الكلمة المكتوبة بأن الشىء بمجرد تدوينه يطوف بين الذين يفهمون موضوعه والذين لا يكترثون به ، اذ لا تستطيع الكتابة ولا الكاتب أن يميز القراء الذين يناسبونه من القراء الذين لا يناسبونه وهى نفس الفكرة التى تتكرر فى هذا الخطاب ٣٤١ هـ واذا أسيئت معاملتها أو أسىء استخدامها فهى فى حاجة دائمة الى «أبيها» الذى يهب لنجدتها لأنها عاجزة عن الدفاع عن نفسها وليس كذلك الأمر مع الحديث الحى، لأنه يعرف كيف يدافع عن نفسه ، كما يمكنه أن يفرق بين أولئك الذين ينبغى ن يوجه اليهم وبين الذين ينبغى عليهم أن يلزم الصمت فى حضورهم ... ولهذا كانت الكتابة من الحديث الحى بمثابة الظل من الاصل . ولهذا أيضا كان صاحب المعرفة الاصيلة بما هو حق وخير وجمال أشبه بالفلاح الجاد الذى يغرس بذوره فى التربة المناسبة (لا فى حدائق ادونيس أو الأوعية الضحلة التى كان الناس فى الاحتفال بذكرى هذا البطل الجميل تصير

العمر يغرسون فيها البذور لتزدهر سريعا قبل ان تمتد جذورها فى التربة) ثم يفرح بجمع الحصاد بعد ثمانية شهور من غرسها . ولهذا لن يفكر صاحب علم أو معرفة حقة فى اللجوء للقلم للكتابة على الماء أو غرس بذور الحق والخير والجمال فى السائل الاسود الذى يسمى بالحبر ... ربما يسلى نفسه بتضييع الوقت فى الكتابة والتدوين ليغرس «حدائق الأدب» .. ويحمى نفسه ومن يجىء بعده من عوادى الزمن حين يهاجم النسيان الشيخوخة ويتلف ملكة الحفظ والتذكر . فاذا سأل القارىء : ولماذا كتب افلاطون كل ما كتب من محاورات مادام هذا هو رأيه فى الكتابة ! ؟ هل نوجه اليه نفس اللوم الذى وجهه الى « ليزياس » فى هذه المحاورة لأنه كان يدون أحاديثه وخطبه ، كما وجهه الى كل كاتب فى الماضى أو المستقبل فكر أو سيفكر ان الحقيقة يمكن أن توجد فى شىء مكتوب ؟ — لو سأل القارىء هذا السؤال لكان الجواب عليه هو نفس الجواب الذى قدمه منذ قليل .. لقد كانت الكتابة فى رأيه مجرد « تسلية » و « لعب » ، كما كانت عونا لذاكرة الأحياء فى عصره أو بعد موته على تذكر الحقيقة ... أما الحقيقة نفسها فلابد أنها كانت « شرارة حية » تتقدح وتنبض فى حواره الحى السمح مع تلاميذه وزواره فى «الاكاديمية» أو فى حوار معلمه سقراط مع تلاميذه ، سواء فى حياته وهو يجوب شوارع أثينا « حامى القدمين » أو وهو يتحدث بعد موته فى محاورات أفلاطون ... ولا يصح أن ننسى أبدا أنها « محاورات » وليست بحوثا ولا رسائل عن الحقيقة ، وأنه كان صادقا عندما قال فى هذا الخطاب انه لم يفكر أبدا ولا ينبغى كذلك لأى انسان جاد أن يفكر فى تدوين الحقيقة أو اضفاء ثياب الكلمات الجامدة عليها ... والدليل على هذا أنه لم يستطع أن يتكلم مثلا عن الخير الاسمى الا عن طريق تشبيهه بالشمس ، وأنه يردد كثيرا فى الجمهورية (٥٠٦ وما بعدها) وغيرها أن الفهم الكامل لمثال الخير لا يمكن توصيله للغير . لأنه أقرب الى الرؤية أو التجربة الصوفية التى لا يمكن نقلها للآخرين ... والدليل على ذلك أخيرا أن أرسطو عند حديثه عن آراء أستاذه التى لم تكتب (الطبيعة ، ٢٥٩ ب ، ١٥)

يذكر أن نظرية المثل اكتسبت صورة رياضية شديدة التعقيد ، وأنها تطورت فى أحاديثه مع تلاميذه فى الاكاديمية (وبخاصة مع أرسطو نفسه) تطورا تجاوز كل ما نعرفه عنها من المحاورات ...

٣٤٤ ب عن المواهب الطبيعية التى يجب أن يتحلى بها الفيلسوف راجع كذلك الجمهورية (٤٨٤ وما بعدها ، وكذلك ٤٨٦ د) .

٣٤٥ أ هذا ما يعلمه الله كما يقول أهل « ثيبه » . ويرد نفس التعبير فى محاورة « فايدون » (٦٢ أ) على لسان كيبيس أحد سكان ثيبه أيضا . ويبدو أن أفلاطون قد تعلم هذا المثل بلهجته الشعبية من بعض تلاميذه الذين ينحدر أصلهم من تلك المدينة .

٣٤٦ ب توحى هذه الفقرة — لأول مرة فى الخطاب — بأن أفلاطون حضر الى سيراقوزه فى صحبة بعض أقربائه الذين يشير اليهم ديونيزيوس فى حديثه معه . ولعل أول من يخطر منهم على البال هو ابن شقيقته « سيوسيبوس » الذى خلفه فى رئاسة الأكاديمية .

٣٤٨ ب كان هيراكليس قائدا فى جيش ديونيزيوس ، وبعد فراره انضم الى ديون الذى كان مقيما فى بلاد اليونان ، ورجع الى صقلية على رأس قوة عسكرية بعد استيلاء ديون على سيراقوزه . ويروى أنه اشترك بعد ذلك فى المؤامرات التى دبرت لديون وانتهت نهاية فاجعة باغتيالهما (راجع فى ذلك الفصل الخامس عن ديون فى تاريخ بلوتارك). أما ثيودوتيس فكان عم هيراكليدس .

ميخـــائيل بسللوس
من خـــلال كتـــابه
التـــــاريخ الزمنى

الدكتور .. رأفت عبد الحميد

كتب نيقتاس الخونياتى(١) Nicetas Choniates يقول : « يعـــد التاريخ أعظم ابداع خلفـــه الاغريـــق » ، واذا كان هـــذا القـــول يصدق لحقيقة على المؤرخين الكلاسيك وعلى رأسهم هرودوت Herodotus وثوكيديدس Thucydidesواكسنوفون Xenophon وغيرهم ، فانه ينسحب أيضا دون ريب على العصر البيزنطى نتيجة أمرين رئيسيين : فالمؤرخون البيزنطيون حاولوا جهـــد فكرهم أن يحاكوا تماما كتابات أولئك المؤرخين الاغريـــق ، واذا كانوا لم يحققوا فى ذلك النجـــــاح كله ، الا أنهم فى الوقت ذاته تركوا عـــددا من الاعمال يرقى الى الدرجـــــة الأولى بين الكتابات التاريخيـــة ، تـــدل دلالة واضـــحة على مجتمع بلغ مرتبـــة عاليـــة من الثقافة والرقى الفكرى . الأمر الثانى ، أن الله ـــ حسب التصـــور الكنسى ـــ عنـــدما ارتضى أن يظهر نفسه متجسدا فى الزمان والمكان ، قدس مسرى التاريخ ، واســـتطاع العـــــالم المسيحى أن يصبح انعكاسا على أرض « مدينـــة السماء »(٢) Civitas Caelestis

---

(١) هو نيقتاس أكومينـاتس N. Acominatus عرف باسم الخونياتى نسبة الى مدينة خوناى Chonae فى فريجيا Phrygiaبآسيا الصغرى ، وهو يحتل مكانة مرموقة بين مؤرخى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . وضع مؤلفا باسم « التاريخ » Historia فى عشرين كتابا يتناول الفترة الممتدة من اعتلاء يوحنـــا كومننوس العرش حتى الايام الاولى للامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية (١١١٨ ـــ ١٢٠٦) ويعتبر « تاريخ » نيقتاس عملا فريدا لا يدانيه آخر فى المعلومات التى يقدمها عن عهدى مانويل وأندرونيكوس وأسرة أنجلوس والحملة الصليبية الرابعة واحتلال القسطنطينية . وقد مات فى مدينة نيقية سنة ١٢١٠ . انظر : العالم البيزنطى تأليف ج.م. هسى ، ترجمة الباحث ، حاشية ٢ ص ١٩٠ ـــ ١٩١

(٢) انظر المصدر السابق ص ٣٨١

ومن هذا المفهوم ، ولما كان البيزنطيون على معرفة تامة بماضيهم البعيد ، وتأثر تفكيرهم بهذه المعرفة عن الاستمرار التاريخى ، فقد برعوا دون جدال فى ميدان الكتابة التاريخية ، ومن ثم فانه خلال الامتداد الطويل للعصر البيزنطى طوال ما يقرب من أحد عشر قرنا من الزمان ، من الرابع حتى الخامس عشر ، بما فى ذلك العصر البيزنطى المتقدم (من الرابع الى السابع) ، لا يكاد يخلو قرن من هذه القرون من واحد أو أكثر من المؤرخين أو كتاب التاريخ الزمنى ، الذين دونوا أحداث هذه الحقبة التاريخية ، بقدر كبير من الدقة والموضوعية(١) ، واتساقا مع الأمر الثانى، نجد أن عددا ليس بالقليل من المؤرخين البيزنطيين ، كانوا اما من بين

---

(١) من أشهر هؤلاء المؤرخين وكتاب المزمنات : يوسباب Eusebius القيسارى والمؤرخ الوثنى أميانوس ماركلينوس A. Marcellinus فى القرن الرابع ، وسقراط Socrates وسوزومين Sozomenos وثيودوريت Theodoretus والمؤرخ الوثنى زوسيم Zosimus فى القرن الخامس . بينما يشهد القرن السادس مؤرخين أمثال بروكوبيوس Procopius القيسارى وأجاثياس Agathias ومناندر Menander ثم نجد ثيوفيلاكيت Theophylactus فى أواخر القرن السادس وأوائل السابع وكذا افاجريوس Evagrius السورى ويوحنا مالالاس Malalas ويوحنا الافسوسى . وفى القرن السابع كان هناك جورج البسيدى ويوحنا الانطاكى . على حين نجد جورج سينكللوس Syncellus وثيوفانس المعترف Theophanes خلال الفترة اللايقونية زمن الايزوريين والعموريين (٧١٧ — ٨٦٧) . أما على عهد المقدونيين فقد ظهر يواصف جنسيوس Josephus Genesius وقسطنطين الرودسى وقسطنطين كفالاس C. Kephalas وليو الشماس وليو النحوى وثيودوسيوس المليتينى ، بينما سجلت أحداث الفترة الواقعة بين وفاة باسل الثانى سنة ١٠٢٥ وقبيل اعتلاء الكسيوس كومننوس العرش سنة ١٠٨١ ، على يد المؤرخ ميخائيل بسللوس Psellus وفى القرن الثانى عشر تميزت انا كومننا Anna Comnena وزوجها نيقفور بريانيوس N. Bryennius ويوحنا كيناموس Cinnamus ونيقتاس الخونياتى . وحتى الفترة التى شهدت قيام الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية (١٢٠٤ — ١٢٦١) لم تعدم بيزنطة مؤرخيها ، فظهر فى القرن الثالث عشر جورج القبرصى . وفى امبراطورية نيقية ذاع صيت نقفور بلميدس Blemmydes أما الفترة الاخيرة من عمر الامبراطورية وهى التى شغلتها أسرة باليولوجوس Palaeologus فقد حظيت الامبراطورية بعدد من المؤرخين مثل باخيمرس Pachymers ونيقفور كاللستوس N. Kallistus وثيقفور جريجور ويوحنا كانتاكوزينوس Cantacuzenus وفرانتز Phrantzes ودوكاس Ducas ولاونيكوس Laonikos

رجال الدين أو الرهبان . وقد اصطبغت كتابات بعضهم الى حد ما ، خاصة فى الفترة الأولى بالصبغة الدينية فى معالجة الأمور السياسية(١) ، وان كان الآخرون وبمرور الزمن قد راحوا يعالجون مادتهم التاريخية بمنهاج موضوعى جاد .

ولعله مما يثير الانتباه أن فترات الانحلال السياسى والتآكل التى كانت تتعرض لها الامبراطورية ، لم يكن يصحبها بالضرورة فى الوقت ذاته انحطاط ثقافى ، بل ربما على العكس من ذلك كانت هذه الفترات تشهد الى حد ليس بالقليل نهضات ثقافية فى مجال الفكر والأدب . ويتمثل هذا بصورة جلية خلال الأزمة الطاحنة التى أحدقت بالامبراطورية بعد أن اجتاحتها جيوش الفرس والآفار من الشرق والغرب فى أخريات القرن السادس وأوليات السابع ولم يبق من الامبراطورية الا القسطنطينية فقط . وحدث هذا أيضا خلال نصف القرن الذى أعقب وفاة باسل الثانى عام ١٠٢٥ . بل ان الكارثة التى حلت بالامبراطورية سنة ١٢٠٤ لم تحل دون قيام مثل هذه النهضة الثقافية فى امبراطورية نيقية على يد أسرة لاسكاريس Lascarids وقد عبر ثيودور الثانى لاسكاريس عن ذلك قائلا : « مهما تكن متطلبات الحرب والدفاع ، فانه من الأمور الحيوية أن نجد الوقت لنغرس بذور بستان العلم » ويعود هذا فى المقام الأول الى اعتزاز البيزنطيين بتراثهم اليونانى — الرومانى ، والى ادراكهم الواعى للدور الحضارى الذى يؤدونه فى عالم البحر المتوسط ، بالاضافة الى أنهم يجدون فى الابداع الفكرى والأدبى عوضا عن الضياع السياسى الذى يعانونه ابان تلك الفترات . فجامعة القسطنطينية

---

(١) من أوضح الأمثلة على ذلك ما كتبه لاكتانتيوس Lactantius فى رسالته عن « موت المضطهدين » De mortibus persecutorum ويوساب أسقف قيسارية فلسطين فى كتابيه « التاريخ الكنسى » Historia ecclesiastica و « حياة قسطنطين » Vita Constantini وعلى الرغم من أن المؤرخ سوزومين اشتغل بالمحاماة الا أن دراسته للقانون لم تمنعه من اضفاء الصبغة الدينية والتأثر بالأساطير والرؤى والمعجزات فى كتابه « التاريخ الكنسى » Historia Ecclesiastica انظر : Ante nicene fathers, ed. by A. Roberts &J. Donaldson (VII. 301 — 322) = (P.L. VII 2, 189 — 276) ; Eusebius : Historia ecclesiatica : Nicene Fathers, 1. 2., 73 — 387 (P.G. XX. 45—906) ; Eusebius; Vita Constantini, Nicene Fathers, 1.2. 473 — 580 P.G. xx. 905 — 1232) ; Sozomenos : Historia Ecclesiatica, Nicene Fathers, II. 2, 239 — 427 (P. G. LXVII 823 — 1630).

أعيد تنظيمها ثانيـــة عام ١٠٥٤ على يـــد قسطنطين التـــاسع مونوماخوس Constantinus Monomachos بينما حرصت اسرة لاسكاريس على أن تجذب الى نيقية ، التى أضحت عاصمة أقوى « الامبراطوريات البيزنطيـــة الثلاث »(١) بعد سنة ١٢٠٤ ، أكبر عـــدد من العلمـــاء والدارسين فى مختلف فروع المعرفة الانسانية .

ولقد تركت كل واحـــدة من هذه الفترات التى سقناها ، أثرها الواضح والمباشر على كتابات بل وشخصيات من أرخوا لهـــا ، فجورج البيســـيدى الذى عاش أوائل القرن السابع ، وكان من أشـــهر شـــعراء عصره ، جاءت كتاباته التاريخيـــة كلهـــا قصيدا نظم فى مدح الامبراطور هرقل Heraclius انذى استطاع أن يعيد الى الامبراطورية أقاليمها بعد ضياع . أما جـــورج القبرصى ونيقفور بلميدس اللذان عايشا تفكك الامبراطورية بعـــد ســـقوط القسطنطينية عام ١٢٠٤ ، فقـــد رفعـــا مملكة نيقية الى عليين ، وجعلا منهـــا « أثينا الجديدة » و « مدينة العـــلم »(٢) واذا كانت أزمـــة نهـــاية القـــرن السادس وأوائل السابع قد هزت أركان الامبراطورية وهى بعد فى عنفوان قوتها وشبابها ، واذا كانت جحافل اللاتين ، جند الحملة الصليبية الرابعـــة ، قد أطاحوا بهـــا فى أوائل القرن الثالث عشر وهى فى طريـــق هرمها ، فان الفترة التى تمتد الى نصف قرن وينيف بين عامى ١٠٢٥ — ١٠٨١ تمثل منعطفا خطيرا فى تاريخ الامبراطورية ، اذ كانت خاتمـــة عهـــد طويل زاهر فى جملته امتـــد حوالى سبعة قرون ، وبدايـــة النهـــاية فى طريق انحلال وسقوط استمر

---

(١) بسقوط القسطنطينية سنة ١٢٠٤ انقسمت الامبراطورية الى مملكتين هما ابيروس EPIRUS فى الشمال الغربى من بلاد اليونان ويحكمها أحد أفراد أسرة أنجلوس ، ومملكة نيقية فى الشمال الغربى من آسيا الصغرى وعلى عرشها ثيودور لاسكاريس، هذا بالاضافة الى مملكة طرابيزون Trebizonedes على الشواطىء الجنوبية الشرقية للبحر الاسود تحت سيادة أحد فروع أسرة كومنين . ومن الجدير بالذكر أن هذه المملكة الاخيرة قد قامت بمساعدة جورجيا قبل سقوط القسطنطينية .

(٢) أنظر :
Vasiliev : A history of the Byzantine empire, I. pp. 230 — 231 ; II 512, 548 — 551.

أربعة قرون ، اذا استثنينا تلك الفترة التى حكمت خـلالها الأسرة الكومننية (١٠٨١ — ١١٨٥) .

فقبل عام ١٠٢٥ ولمدة تقترب من مائة وخمسين عاما ، كانت الامبراطورية البيزنطية تعيش أزهى عصورها ، أو ما عرف بالعصر الذهبى ، تحت سيادة الأسرة المقدونية ، فامتدت حـدودها شـمالا لتضم جزءا كبيرا من الأراضى القوقازية وأرمينية ، ووصلت جيوشها فى الجنـوب الى تخوم بيت المقدس وأخضعت لسلطانها فى الغرب المملكة البلغارية لتجعل منهـا ولاية بيزنطية ، وتدعمت باستمرار سلطات الامبراطور السياسية ، وازدادت كفـاءة الجهاز الادارى ولعبت الدبلوماسية البيزنطية دورها كاملا بمهارة فائقـة ، ونشـطت الحركة الفكرية والأدبية والفنـون خاصة فى بدايـة عهـد هذه الأسرة ، وساهم بعض أباطرتها فى هـذا الميدان مثل ليو السادس . Leo VI الحـكيم وقسطنطين السابع Constantinus VII واسـتمر الاهتمام بالناحيـة التشريعية . وازدهر الاقتصاد البيزنطى واستقرت قيمة العملة الذهبية النوميزما والبيزنط ، وحطمت سطوة كبـار المـلاك خاصة من منطقة آسـيا الصغرى وأضحت الامبراطورية مرهوبة الجانب عنـد كل الجيران .

غير أنه بوفاة باسل الثانى ، تبدلت الأمور فجـأة فى الامبراطورية ، اذ اعتلى عرشها بين عامى ١٠٢٥ — ١٠٨١ أربعـة عشر امبراطورا ، افتقدوا فيما بينهم المقـدرة العسكرية والكفاية الادارية وقـوة الشخصية التى تمتع بهـا أباطرة المقدونيين أو الايزوريين من قبل ، وحرمت الامبراطورية من القادة العسكريين الأكفاء الذين حكموا كأباطرة شركاء أغلب فترات العصر المقدونى ، فأهمل الجيش واستنزفت الخزانـة وخفضت قيمـة العملة ، فاهتزت الثقـة فى الاقتصاد وأقفرت الولايات من سكانها ، وانتهز الأعـداء المحيطون بهـا فرصة هذا الضعف المفاجىء ، فراح النورمان يهددونها من الغرب ، والغز Usez والكومان Cumans والبشناق Patzinaks من الشمال ، والأتراك السلاجقة من الشرق ، وعادت من جـديد الى ازدياد سطوة المـلاك الكبار ، وقـوى نفوذ البيروقراطيـة المدنية فى العاصمة . خلاصة القـول كما يعبر عنه بدقة سوتر E. R. A. Sewter « ان عـددا كبيرا من مواطنى الامبراطورية لم يكونوا يدركون ما الذى يحـدث بالفعـل ، بل لم يكونوا يعلمون أن القرن الحادى عشر يمثل نقطة تحول خطيرة فى تاريخهم الطويل . ولكن من بين هؤلاء

جميعا كان هنـــاك رجل واحـــد استطاع أن يدرك بصورة جزئيـــة قســـمات الانحلال فى قدر الامبراطورية ، ذلـــكم هو ميخائيل بسللوس(١) .

من هنا ندرك الأهمية الحقيقية لهذه الفترة فى تاريخ الامبراطورية ، فمنذ وفاة باسل الثـــانى لم تستطع بيزنطة أن تعـــود ثانيـــة الى سابق قوتهـــا وازدهارها، ورغم ان الأسرة الكومنية قد أعادت اليهـــا شيئا من حيـــاة ، الا أن ذلك كان بريقـــا خادعا سرعان ما راحت الامبراطورية بعده تستحث الخطى كارهة الى الانحـــلال والسقوط . وكانت الأحـــداث التى وقعت على امتداد نصف القرن هـــذا ، وظاهرة الضـــعف العـــام الذى تردى فيه الأباطرة انذاك ، ارهاصا طبيعيا بما حـــدث عام ١٢٠٤ ثم عام ١٤٥٣ . ومن ثم أيضـــا ندرك الأهمية الكبيرة لهـــذا الكتاب الذى بين أيدينـــا الآن وهـــو « التـــاريخ الزمنى » Chronographia فهو يتناول أحـــداث هذه الفترة فيما يتعلق بالناحية الداخلية بصفة خاصة بالتفصيل الدقيـــق .

ويضاعف من هـــذه الأهميـــة أن مؤلفه وهـــو ميخـــائيل بسللوس Michael Psellus قد عايش هذه الأحـــداث بنفسه منذ بدايتها تقريبا ، ويعترف هو بذلك فى قوله : « ان باسل الثانى مات فى الوقت الذى كنت فيـــه طفلا (سبع ســـنوات) ، بينما أنهى قسطنطين الثامن حيـــاته (١٠٢٨) بعـــد أن بدأت دراستى الأولية مبـــاشرة ... وقـــد رأيت رومانوس (الثالث) Romanus III. فى آخر أيامه (١٠٣٤) وكنت حينئذ فى السادسة عشرة من عمرى »(٢) بل ان بسللوس قد شارك بنفسه فى صنع الكثير من أحداث هذه الفترة ، فقـــد كان على مقربة من القصر منذ حداثة سنه ، وعمـــل فى خـــدمة تسعة من الأباطرة الذين عاصرهم ابتـــداء بميخائيل الخامس وحتى ميخائيـــل السابع،وترقى فى المناصب حتى أصبح الوزير الأول المسئول فى الامبراطورية(٣) .

---

(١) انظر : Fourteen Byzantine rulers, introd. P. 12.

(٢) chron. III, 1, 25 ولد بسللوس عام ١٠١٨ .

(٣) يذكر بسللوس أنه شاهد بنفسه مراسم الدفن الخاصة برومانوس الثالث (١٠٣٤) ، ويقول أن وجه رومانوس كان شاحبا تماما بشبه الى حد كبير أولئك الذين يتجرعون السم Chron. IV. 4 رغم أنه يؤكد قبل ذلك انه لا يستطيع الجزم بصدق الشائعات التى كانت ذائعة آنذاك والقائلة بأن

ومما لا شك فيه أن استمرار بسللوس فى ممارسة العمل الادارى والسياسى قرابة أربعين سنة باستثناء تلك الفترة القصيرة جدا التى حاول أن يسلك فيها درب الرهبانية ، وسط الأخطار التى كانت تتهدد الدوله فى الداخل والخارج ، ومع اختلاف الأهواء وتضارب المصالح وتنافر الطبائع لدى هذا العدد من الأباطرة الذين عمل فى خدمتهم ، والذين يمتلكون السلطة الكاملة فى ظل المونارخية البيزنطية ، ليدل دلالة واضحة على شخصية بسللوس ، وتفهمه لطبيعة العصر الذى يعيشه ، وادراكه الواعى لمدى امكانيات وقدرات هؤلاء الحكام ، وفى الوقت ذاته يفصح عن ذكائه وفطنته . لقد راح يصف نفسه قائلا : « ... اذا كان النيل يهب المصريين الحياة فان لسانى للأرواح غذاء . فهناك من يدعونى « ضياء الحكمة » وآخر يرى فى « الكوكب الدرى » وثالث يخلع على أسمى آيات التمجيد والفخار » !

كان بسللوس يعيش فترة من التقلب والاضطراب والانحلال فى الامبراطورية ، مصحوبة بتغيرات واضحة وجوهرية فى العرش ، كانت تعنى بالضرورة تغييرا فى السياسة البيزنطية ، وقد نجح بسللوس فى أن يظهر

الامبراطورة زوى Zoe ابنة قسطنطين الثامن وزوج رومانوس قد دست له السم ليخلولها الجو مع عشيقها وزوجها المقبل ميخائيل الرابع Chron III. 26 ثم نجد بسللوس يدافع دفاعا مجيدا عن ميخائيل الرابع هذا ويقول انه لا سبيل الى الشك فيما يقول : « لأنى رأيت بعينى رأسى وسمعت بأذنى » ، وهذا يدل على صلته بالبلاط ولما يتجاوز العشرين من عمره . وليس ببعيد ان يكون بسللوس قد ارتبط بصورة ما بالقصر قبل أن يصبح سكرتيرا لميخائيل الخامس Chron V. 27 وهذا نقف عليه من وصفه الرائع للثورة العارمة التى اندلعت فى القسطنطينية عندما علم أهلوها بنبأ نفى زوى على يد ابنها بالتبنى الامبراطور ميخائيل الخامس (١٠٤١ — ١٠٤٢) ، ويذكر انه امتطى صهوة جواده وقصد الى قلب العاصمة ليشهد هذه الأحداث عن كثب Chron. V. 28 — 30 ، ثم صحب أحد القادة العسكريين الى حيث يختبىء ميخائيل وعمه فى دير ستوديوس بعد أن اضطرهما العامة الى الفرار ونصبوا ثيودورا الابنة الثانية لقسطنطين الثامن امبراطورة وكيف أنه (بسللوس) راح يؤنب الامبراطور وعمه على مسلكهما تجاه زوى Chron. V. 40 — 43 ثم يؤكد عند حديثه عن العهد المشترك لزوى وثيودورا أن روايته سوف تكون مصدرية تماما ونتيجة لمعرفة شخصية جدا Chron. V. 10.

مقدرة فائقة فى تكييف نفسه لتساير هذه الأحداث « ولم يتردد فى استخدام أساليب المداهنة والتملق والرشوة فى سبيل الحفاظ على مركزه وسلطاته ، ومن ثم فانه ليس بمقدورنا القول انه كان صاحب خلق لا تشوبه شائبة ، وان كان فى ذلك لا يختلف عن كثير من أبناء عصره ذاك المضطرب »(١) . ويكاد بسللوس يعفينا من اقامة الحجة عليه فيقدم الدليل على ذلك مبررا سلوك الأباطرة المتقلب ، مدافعا بذلك عن نفسه ضمنا بقوله :

« ان الكثيرين ممن نذروا أنفسهم لتدوين تاريخ الأباطرة قد وقفوا مشدوهين أمام تلك الظاهرة القائلة بأن أحدا من الأباطرة لم يحاول أن يحافظ على سمعته فى كل الأمور من أن تعتريها شائبة . فقد كسب بعضهم الكثير من الثناء لحسن مسلكهم فى بواكير حياتهم ، وآخرون نالوا ذلك فى أخريات سنى عمرهم ، وبينما آثر نفر منهم حياة الدعة والنعيم ، أقحم غيرهم نفسه على الفلسفة ، وحتى يتلمسوا فقط مبادئها ، فقد اختاروا أن يحيوا وأن يموتوا مشوشى الفكر مضطربى العقل . أما أنا فلا أجد فى هذا التقلب ما يدعو للغرابة أو يسترعى الانتباه ، بل على العكس من ذلك فانه لا شك يبدو شيئا نكرا أن يظل انسان ما على وتيرة واحدة . ربما نعثر على انسان يتبع طيلة حياته دربا واحدا لا يتغير منذ ولادته وحتى يدركه الموت ، وان كان عسيرا أن نجد الكثير على هذا النحو ... أرأيت الى البحر كم هى قصيرة لحظات السكينة التى تظلل صفحة وجهه ، سرعان ما تضربها الأمواج فتلهب ظهرها ، شأن رياح الشمال أو أية عاصفة مدمرة تبدد ذلك السكون . هذه أشياء اعتادتها مرارا عيناى »(٢) .

والحقيقة أن أية قراءة « للتاريخ الزمنى » حتى ولو كانت سريعة تعطينا صورة واضحة عن شخصية بسللوس السياسية ودوره فى الحياة العامة وفى تسيير أمور الدولة الى حد التدخل فى بعض الأحيان فى اختيار الأباطرة أو اقصاء آخرين عن العرش ، أو تدبير المؤامرات السياسية ضد نفر ثالث ... وهكذا .

---

(١) Vasiliev. op. cit. I. p. 368.

(٢) Chron. VI. 27

فهو قد عمل سكرتيرا للامبراطور ميخائيل الخامس وأمه بالتبنى الامبراطورة زوى ثم سرعان ما انقلب عليه عندما ثارت القسطنطينية ضده حال سماعها بنبأ نفى زوى ، ولا يبعد أن يكون بسللوس قد شارك الجموع سخطها وثورتها بعد أن أيقن أن الأمور قد أفلتت من يدى ميخائيل ، خاصة وأنه يتهمه بالتسلط والاستبداد والانصراف عن شئون الدولة الى الاهتمام بالتخلص من زوى(١) ، وبعد أن رأى الامبراطور وعمه يهربان الى دير ستوديوس للاحتماء به ، حرص على أن يحتفظ بمكانته لدى الحاكم الجديد ، ولهذا فانه بدلا من الاستجابة لتوسلات ميخائيل وعمه لانقاذهما من أيدى الجموع الغاضبة ، راح أمام هؤلاء الثائرين يؤنبهما على مسلكهما تجاه زوى ، وكيف أنهما تآمرا سويا لاقصائها. وقد صدقت توقعاته وحظى بالرضا من جانب الأختين زوى وثيودورا بعد أن اعتليتا العرش سنة ١٠٤٢ امبراطورتين شريكتين(٢) .

وهو قد وقف الجزء الأكبر من مؤلفه وهو الكتاب السادس للحديث عن « امبراطوره المفضل » و « بطل تاريخه » قسطنطين التاسع(٣) وخلع عليه آيات التمجيد والاطراء بشكل لم ينله امبراطور ممن أدوا للامبراطورية خدمات تنكسف الى جوارها شمس مونوماخوس هذا ، فهو كما يحدث عنه « الامبراطور الوحيد بين خلفاء باسل الذى حكم فترة طويلة (١٠٤٢ — ١٠٥٥) ولأن هناك الكثير فعلا مما يستحق أن يحكى عنه ... كان من الطبيعى أن تحدونى الرغبة فى أن يكون امبراطورى المفضل نموذجا يحتذى حتى ولو كان مثل هذا المديح والثناء مستحيلا بالنسبة للآخرين جميعهم »(٤) ويمضى بسللوس فى التدله بامبراطوره الى حد القول الصريح :

---

(١) Ibid. V. 17, 21 — 22.

(٢) حاشية ٣ ص ١٥٦ — ١٥٧ .. وقد تحدث بسللوس فى وصف دقيق يفيض بالتشفى عن النهاية المفجعة التى آل اليها كل من ميخائيل الخامس وعمه، حيث أطبقت عليهما الجموع وراحت تسخر منهما وتهزأ بعد اخراجهما من الدير، وكيف أقدم الثائرون على فقء عينى كل منهما. أنظر Chron. V. 38 — 50.

(٣) Chron VI. 28 — 71

(٤) Ibid. 14, 28, 30, 190.

« لم تكن رغبتى فى البداية أن أكتب تاريخـــا ، ولا أن أكتسب سمعة الصدق فى هـــذا الميدان ، كل ما كنت أريـــده فقط هو أن أنظم مديحـــا على شرف هذا الحـــاكم ، ولا ريب فأنا أستطيع أن أقـــدم العـــديد من الأســـباب التى تدفعنى الى ذلك ، فلقـــد قـــدم الامبراطور الكثير . والمـــادح — كما نعلم — يتغاضى فيمن يمتدحه عن كل نقيصة ويظهر للعيـــان فضائله ، فاذا كانت حيـــاة الممتدح غاية فى السوء ، بحث مادحه عن فضيلة واحـــدة فقط أقـــدم عليهـــا ليقرض فيها قصيدة ، بل ان كل مذمة فى يـــد الكاتب الحاذق يمكن أن تؤول بصورة ما لتصبح تبريرا لهذا المديح(١) . وبعد أن يؤكد ما يجب أن يكون عليـــه المؤرخ من نزاهة القاضى يتساءل : « ... هل هنـــاك من هو أحـــق منى بامتداح هذا الامبراطور بالذات ؟ ان الصـــعوبة التى تواجهنى فى كتابتى الآن هى كيف يمكن أن أعرض للتاريخ الحق ، وأعطيـــه (قسطنطين) فى ذات الوقت فضله الذى يستحق ؟ اذا لم أكن منصفا فى كتابة الحقيقـــة التاريخيـــه ، فانى قد حفظت على الأقل سمعته فى جانب واحـــد ، ذلك أنى اذا ما سعيت جاهدا ومحصت بدقـــة أعماله ، حتى وان كان ظاهر بعضها السوء ، واذا كنـــا مازلنـــا نرى ضوء فضله ينعكس على أعمـــاله الطيبة ، واذا ما وجـــدنا أن أعماله الخيرة ترجح كفة سيء الأعمـــال ، فان قسطنطين بالتالى يصبح بكل تأكيد انســـانا عظيما يفوق كل أولئك الأباطرة الذين يتطرق الشك الى كل ما قيل فى مدحهم ، يغرك ظاهر هذا المديح ، وحقيقته جوفاء . ترى ... هل هناك انسان فاق الجميع ، أو ترى هل هنـــاك امبراطور وضع على رأسه تاج الثناء على كل أعماله دون نقيصة واحدة(٢) . اننا اذا ما نظرنا الى العظماء من الرجـــال الذين ذاع صيتهم فى مجالى الكلمـــة أو العمل ، مثل الاسكندر المقدونى ويوليوس قيصر وأوكتـــافيانوس وبيروس Phrrhus الابيروسى(٣) وابا مينونـــداس

---

(١) Ibid. VI. 161

(٢) Ibid. VI. 162

(٣) هو ملك ابيروس (٣١٩ — ٢٧٢ ق.م.) جرت انتصاراته العسكرية مجرى الامثال بحيث شاع ما يعرف باسم « النصر البيروى » Pyrrhic victory ترك عددا من المذكرات والمؤلفات عن فن الحرب والخططالعسكرية كانت مصدرا للكثيرين من بعده ومن بينهم شيشرون نفسه .

Epaminondas الطيبى(١) واجسلاوس Agesilaus الاسبرطى ، ولن نتحدث عن أولئك الذين حققوا شهرة ضئيلة خلعها عليهم المعجبون بهم . عندما ننظر الى هؤلاء فاننا لا نجد فى حياتهم توازنا بين الفضيلة والرذيلة كما نعلم من ترجماتهم ولكنهم فى مجموعهم انحدروا بعض الشىء نحو الأسوأ . ماذا يمكن أن يقال اذن عن أولئك الذين يحاكونهم اذا ما بدوا أدنى منهم ؟ لا أعنى فى كل مفاهيم الفضيلة ، بل تلك الخلال والنواحى التى فاق فيها هؤلاء العظماء أقرانهم »(٢) .

ثم يتحدث بسلنوس من بعد عن قسطنطين ويقارن بينه وبينهم ويرفعه مكانا عليا ، ويتفوق به عليهم جميعا فى كثير من النواحى ، وان كان لا يستطيع انكار أنه كان أقل منهم شجاعة ، وهى فى هذه المقارنة يتحدث عن صفاته الخاصة دون الحديث عن منجزات له ، ويتغنى بجماله ويصفه بأنه يشبه فى الجمال آخيل Achilles بل ان جمال آخيل ، كان شيئا أضفته عليه الاسطورة ، أما جمال قسطنطين فهو ما حبته به الطبيعة حقا حتى وصلت به حد الكمال » ! ويطنب فى تبيان رقته ودماثة خلقه وكرمه وعذب حديثه وسماحته ازاء أعدائه وحلمه مع خصومه(٣) ، ويغض الطرف تماما عن معالجة أمور الدولة ، « ذلك انه فيما يتعلق بالشئون العامة فانى سوف أتركها لكثير من الكتاب الذين يرغبون فى تدوين هذه الأعمال »(٤) .

ولكن ما الذى يقوله التاريخ حقا عن قسطنطين التاسع ؟

لقد تمكن فى أوائل عهده من أن يضم للامبراطورية ما تبقى من أرمينية بما فيها عاصمتها آنى Ani لكن الامبراطورية سرعان ما فقدتها على يد

---

(١) أحد قادة طيبة العسكريين (٤١٨ — ٣٦٢ ق.م.) كان لخططه العسكرية اثرها الكبير فى انتصار طيبة على جيرانها فى موقعة ليوكترا Leuctra عام ٣٧١ ق.م. تدور شهرته أساسا حول براعته فى وضع الخطط العسكرية بالاضافة الى ثقافته الواسعة .

(٢) Chron. VI. 163

(٣) Ibid. VI. 164 — 176, 126

(٤) Ibid. 167

الأتراك السلاجقة عندما أقدم قسطنطين على سحب قواته منها ليواجه بها الثورة التى أشعلها ضده ليو التورنيقى(١) Leo Tornikios بينما سمح لعناصر البشناق Patzinaks بالاستقرار فى بعض الأراضى البلغارية ، وتنازل لهم عن ثلاث قلاع حربية على شاطىء الدانوب فى مقابل تعهدهم بالدفاع عن هذه المناطق ضد هجمات الأمراء الروس . غير أن البشناق أخذوا يتدفقون الى الداخل دون مقاومة حتى نزلوا بالقرب من ادرنة Hadrianopolis بينما وصل بعض منهم الى أسوار العاصمة . واذا كان قسطنطين قد تمكن فى البداية من انزال بعض الضربات القوية بهم ، الا أنهم أوقعوا بجيشه مذبحة مروعة فيما بعد ، اضطر الامبراطور ازاءها أن يبتاع السلام منهم بثمن باهظ ، وكان لهباته التى أغدقها عليهم والتى تفوق حد الوصف أثرها فى تعهدهم بحفظ السلام فى أقاليمهم التى يقيمون فيها شمالى البلقان(٢) ، وليس أدل على ما وصلت اليه أمور الدولة فى الخارج من التردى مما يذكره مؤرخنا من أن الامبراطور أرسل الى ملوك وحكام الدول المجاورة رسائل «تفيض وتنضح بالخضوع والتدنى بصورة لا يمكن أن تليق بامبراطور ، قاصدا بذلك كسب ودهم ، وكان من بين هؤلاء خليفة مصر ، وقد أمرنى بالكتابة اليه لما يعلمه عنى من حب للوطن والرومان ، وأوعز الى أن أضفى عليه (قسطنطين) صفات الاتضاع وأن أخلع على المصريين سمات المجد والرفعة »(٣) .

أما فى الداخل فقد أخذت الأمور تسير من سىء الى أسوأ ، فقد راح قسطنطين وزوجه زوى يستنزفان الخزانة العامة باسراف بالغ بلغ حد السفه ، ولعل أوضح الأمثلة على ذلك ما حدث عند بناء كنيسة سان جورج وهدمها واعادة بنائها مرة ثانية(٤) . وبسللوس يبدى من هذا استياءه معلقا

---

(١) Ibid. 98 — 124

(٢) Vasiliev, op. cit. I. pp. 325 — 326

(٣) Chron. VI. 189 — 190

(٤) يذكر بسللوس أن قسطنطين أقدم على هدم البناء الاصلى لكنيسة سان جورج وأقام على أطلاله أخرى جديدة ، ويضيف أنه سيطر عليه جنون العظمة والطموح فى أن يقيم بناء يفوق كل الابنية التى سبقت عهده بحيث لا يمكن

« ان أحمق تطرف أقدم عليه الامبراطور هو بناء كنيسة سان جورج الشهيد. لقد كان الذهب يتدفق من الخزانة العامة كتيار جارف هادر من منابع لا ينضب لها معين »(١) . بل أنه يستفتح تاريخه لقسطنطين بقوله : « انه لم يكن يعصى لزوى أمرا ركذا ثيودورا ، كان يعطيهما من الأموال كل ما تطلبانه ، حتى أصبح الانفاق والبذخ أمرا عاديا(٢) . ولا يخفى حسرته فيكتب بكل الألم « لقد اصبحت الثروة الطائلة التى خلفها باسل الثانى العوبة فى أيدى هؤلاء النسوة ... وهكذا فان ثروتنا كلها قد تبددت وبعثرت هباء ، بعضها داخل أسوار المدينة ، وبعضها حمل الى البرابرة ... لقد كانت السفن الرومانية تلقى بأى ميناء مراسيها ثم تعود محملة بالثروات التى تذهب بالألباب ، حتى أصبحت الامبراطورية الرومانية موضع حسد من الجميع ومحط أنظارهم ، أما الآن فياحسرتا بعد أن ضاعت أراضينا والثروات »(٣) ويصف الامبراطورية فى أوائل عهد قسطنطين بأنها « كانت مشرفة على الموت وان كانت أنفاسها مازالت تتردد ، وقد ترك الداء حتى استفحل واستشرى ، ولم يشغل الامبراطور نفسه كثيرا بهذه المسألة ، بل أخذ يبحث عن اعادة احياء الامبراطورية بالاغراق فى المسرات . لقد كان يعد جسم الامبراطورية لآلاف الأمراض التى كان حتما مقضيا أن تفتك بها فى سنوات آتية »(٤) .

وتمشيا مع هذه السياسة الخرقاء ، وفى محاولة لعلاج الأمور ، وجه قسطنطين ضربة قاصمة للاقتصاد البيزنطى عندما أقدم على تخفيض قيمة

لأى منها أن يدانيه . ويحدثنا عن عظمة البناء وروعة الزينة وما أنفق فى سبيل ذلك من أموال طائلة . غير أن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، فقد أمر قسطنطين بتسوية هذا البناء الفخم بالارض لانه وجده لا يتفق مع ما كان يطمح اليه . ومن ثم أعيد البناء مرة أخرى من جديد . ويعود بسللوس الى وصف هذا البناء الأخير فى صورة تذهب بالألباب . انظر : Chron. VI. 185—187

(١) Chron. VI. 185

(٢) Ibid. 49

(٣) Ibid. 63, 153 — 154

(٤) Ibid. 48

العملة « النوميزما » بصورة واضحة ، وذلك لمواجهة العجز المالى الكبير الناجم عن بذخ البلاط المتزايد والانفاق الحكومى ، بالاضافة الى نقص ايرادات الضرائب بسبب ضعف سلطان الحكومة المركزية وازدياد سطوة كبار الملاك . ولاشك أن اجراء على هذه الشاكلة كان كفيلا بتخريب الاقتصاد البيزنطى ، فقد كان من الأمور المعروفة أن المركز المرموق الذى بلغته القسطنطينية فى عالم التجـــارة الدولية يعود فى الدرجة الأولى الى الثقة فى قيمة عملتها الذهبية(١) .

لم يكن أى من هذه الأمور على بسللوس بخاف ، هذا على حد تعبيره(٢) ولكنه ظل حريصا على اكتساب رضا الامبراطور والفوز بثقته ، وقد سجل ذلك صراحة ودون مواربة بقوله : « حرصت بكل عناية على أن أكيف نفسى حسب مزاجه فى كل حين ، فلقد كان رجلا سريع التقلب ولا يستقر على أمر !! (٣) ورغم النقد اللاذع الذى يوجهه بسللوس للامبراطور قسطنطين ، فانه لابد للمرء أن يتساءل عن الدوافع التى حدت بمؤرخنا الى سلوك هذا السبيل التقريظى تجاه قسطنطين .

الذى لا مراء فيه أن بسللوس كان يدين لقسطنطين التاسع بفضل رفعه مكانا عليا ، حقيقة انه كان لديه من الأسباب ما يؤهله كى يتبوأ هـــذه المكانة المرموقة ، خاصة مقدرته البلاغية وفصاحته ورجاحة عقله ، وهذه أمور ســـوف نتناولها فى حينها ، ولكن هذا لا يمنع أن يعزى الى قسطنطين فضل السماح لهذه المواهب الكثيرة أن تصقل وأن تصل بصاحبها الى ما يبتغى . وبسللوس يقر هذه الحقيقة : « لقد التحقت بخدمة الامبراطور فور اعتلائه العرش ، وعملت معه طيلة عهده ، ورقيت الى مرتبة السناتور ، وعهد الى بمعظم الأعمال ذات الأهمية الخاصة . وهكذا فليس هناك شىء لم أعرفه ، ولم يخف على عمل علنى

---

(١) انظر للباحث الترجمة العربية لكتاب « العالم البيزنطى » ص ١٧٠ — ١٧١

(٢) Chron. VI, 14,46

(٣) Ibid 197

او دبلوماسية سرية »(١) فاذا أضفنا الى هذا أن بسللوس كان ينتمى لأب من بين التجار متوسطى الحال ، وان كان يعود فى أصله لجذور نبيلة يحمل بعض أفراد منها مرتبة القنصلية ولقب البطريق ، ويعيش حياة ميسورة معتدلة ، وان كان يسارها محدودا لدرجة لم تتح له أن يسير فى خطى التعلم بصورة منتظمة ، وأنه أفاد من موت أخته التى تكبره حيث استخدم صداقتها فى الانفاق على دراسته ، ولما كان هذا المبلغ ضئيلا الى حد كبير ، فقد اضطر أن يعمل لبعض الوقت قاضيا اكليروسيا فى أناطوليا Anatolia . ونتيجة لذلك كله كان محتملا أن يقتفى الابن أثر أبيه فى التجارة حيث كان من الممكن أن تذرى مواهبه الرياح . الا أن أمه التى تنتمى فى نفس الوقت لأصل متواضع ، بذلت فى سبيل مواصلة تعليمه كل ما تمتلك من جهد ومال(٢) ، اذا وضعنا هذا كله فى اعتبارنا أدركنا الى أى حد كان تقريب قسطنطين له وايثاره اياه وضمه الى بلاطه ، معروفا أسداه اليه ولم يكن من العسير عليه أن ينكره ، فقد كتب يقول : « لسوف تؤرقنى النفس اللوامة اذا لم أنتهز أية فرصة لامتداحه ، ولسوف أصبح للجميل منكرا وغير متوازن مع نفسى ، اذا لم أحدث ولو قليلا عن نعمه التى أسبغها على ظاهرة وباطنة . فقد مد يد العون لى فتحسنت منى الأحوال »(٣) . وبمقدورنا أن ندرك فى الوقت ذاته المغزى الحقيقى وراء الاحترام والتقدير الذى يخلعه بسللوس فى كتابه على الأباطرة الذين ينتمون لأصول نبيلة ، والاحتقار والازدراء الذى يسم به من هم الاصل دونهم(٤) .

على أنه من أهم الأمور التى أقدم عليها قسطنطين التاسع فى عهده هو اعادة تنظيم جامعة القسطنطينية فى عام ١٠٥٤ ، وكانت قد أدت دورها بكفاءة عالية منذ صدر قرار تنظيمها فى عهد الامبراطور ثيودوسيوس الثانى Theodosius II. عام ٤٢٥ ، وان كانت قد تعرضت لفترات من الاهتزاز الثقافى خاصة عندما كانت

---

(١) Ibid. 14

(٢) Fourteen Byzantine rulers, وأيضا C.M.H. IV. 2. P. 85

(٣) Chron. VI. 23

(٤) Ibid. IV. 9, 26, 27; V. 26; VI. 15; VII. 79; VII. CONST. X. 6; VII, Roman. IV. I.

الامبراطورية تولى جهودها شطر الاستعدادات العسكرية لمواجهة الأخطار الخارجية ، مما دفع بارداس Bardas خال الامبراطور ميخائيل الثالث (٨٤٢ — ٨٦٧) الى محاولة تنظيمها ثانية(١) . واذا كانت الجامعة قد أضحت فى عهد المقدونيين الاوائل مركزا جذب اليه خيرة العقول آنذاك (٢) ، الا أن الفترة التى تسلط فيها العسكريون مثل نيقفور فوقاس Nicephorus II. Phocas ويوحنا تزيمسكس John Tzimisces أودت بالثقافة الى الدرك الأدنى(٣) ، فلما جاء باسل الثانى الى السلطة أبدى ازدراءه للثقافة والمثقفين ، وصرف اهتمامه الى النواحى الحربية والادارية ، ولكن هذا لم يمنع وجود نشاط علمى خافت تمثل فى جهود فردية قام بهـا بعض الدارسين آنئذ(٤) ولهذا فان قسطنطين التاسع ، رغبة منه فى أن يضم بلاطه مجموعة من المساعدين الأذكياء ، قرر اعادة تنظيم جامعة القسطنطينية . ومما تجدر الاشارة اليه أن بسللوس انتهز فرصة قربه للامبراطور واعجاب هذا به ، فسعى لديه جاهدا من أجل الاقدام على ذلك العمل ، ولم يكن بسللوس وحده فى هذا ، بل شاركه صديقه يوحنا اكسيفيلينوس J. Xiphilinus ومن ثم فان الجامعة شهدت نهضة فكرية جديدة تمثلت فى كليتين للقانون والفلسفة أو الدراسات الانسانية ، ترأس الأولى اكسيفيلينوس واختير بسللوس للثانية رئيسا .

هذه ناحية أخرى من أيادى قسطنطين البيضاء على بسللوس ، كان لابد أن يعدها مكرمة لها اثرها ، خاصة وأنه كان يفضل دائما أن يعرف بين الجميع بأنه « الفيلسوف » أو « الحكيم »(٥) . ولكن الذى يدعو للدهشة حقا ، أنه خلال هذا الجزء الكبير من مؤلفه والذى وقفه على « امبراطوره المفضل » لم يشر بكلمة واحدة الى مسألة اعادة تنظيم الجامعة واختياره أستاذا لكرسى الفلسفة بها . وقد يكون ذلك مقبولا لو أنه لم يتحدث عن نفسه فى تاريخه هذا ، ولكنه كثيرا

---

(١) انظـر Baynes & Moss : Byzantium, pp. 216 — 217

(٢) انظـر Vasiliev, op. cit.I.p. 296

(٣) Baynes & moss. op. cit. p. 217

(٤) Chron. I. 29.

(٥) Ibid. VI. 197; VII. Michael. VI. 26, 81.

جدا ما كان يقطع تتابع الأحداث التاريخية ليحدث عن نفسه(١) ، وكل ما ذكره عن ذلك لا يتعدى السطور الثلاثة التي تقول : « على الرغم من أن قسطنطين لم يظهر فى يوم ما تقدما فى دراسة الأدب ، ولم يكن أبدا خطيبا مفوها ، الا أنه مع ذلك أظهر اعجابا كبيرا بذوى الفصاحة والبلاغة والذين كان جلهم قد بلغ من الكبر عتيا ، وأرسل يستقدمهم الى البلاط من جميع أنحاء الامبراطورية »(٢) والذى يزيد الأمر حيرة أن مؤلف بسللوس هذا يكاد يقتصر فقط على معالجة السياسة الداخلية والأمور الخاصة « جدا » بالبلاط ، ولا يعرج على الشئون الخارجية الا فيما ندر ، ولهذا كان متوقعا أن يمدنا بسللوس بوثيقة تاريخية تعد على جانب كبير من الأهمية وهى قرار اعادة تنظيم الجامعة خاصة كلية الفلسفة التى كان رئيسا لها(٣) .. وقد يكون ذلك راجعا الى أنه كان يريد دائما أن يحتفظ لنفسه فقط ، ودون الآخرين ، بفضل علو هامته الثقافية ومكانته الفكرية ، فى الوقت الذى لم يكن من السهل عليه اخفاء دور الأباطرة وفضلهم عليه فى الترقى فى مناصب الدولة الادارية والسياسية .. ومن ثم فانه عندما يتعلق الأمر بثقافته وعلمه فانه لم يكن متواضعا أبدا ، وهو يعبر عن ذلك بقوله : « لقد رضى الامبراطور (رومانوس الرابع) أن يكون تابعا لى فى الأمور المتعلقة بالأدب ، أما فيما يختص بالاستراتيجية العسكرية فقد كان طموحه يدفعه كى يتفوق على » ، ويضيف « ... لقد أكسبتنى ثقافتى مكانة مرموقة بين رجال العلم بغض النظر عن أية اعتبارات أخرى »(٤) .

ومع اعتلال صحة قسطنطين وقرب النهاية ، بدأ بسللوس يضع نصب عينيه تأمين مستقبله السياسى ، بعد أن بلغ هذه « المكانة المرموقة » فى كنف الامبراطور وبعد أن « توطدت أواصر الصداقة بينهما الى حد كبير جدا ، وانفتح له قلب الامبراطور على مصراعيه »(٥) ، وفى سبيل ذلك ابتكر أسلوبا « هلع له فؤاد الامبراطور وارتاعت من هوله نفسه »(٦) ، ذلك أنه اتفق وصديقه يوحنا

---

(١) Ibid. VII. 36 — 46

(٢) Ibid. VI. 35

(٣) انظر العالم البيزنطى ، ص ٣٤٠ — ٣٤١

(٤) Chron. VII. Roman. IV. 7; VI. 37.

(٥) Ibid. VI. 46.

(٦) Ibid. 197.

اكسيفيلينوس على ادعاء المرض والتظاهر بدنو الأجل والرغبة فى أن يختتما حياتهما بصالح الأعمال ، فيطلقا الى غير رجعة دنيا الناس بحثا عن دنيا الله ، متمثلة فى سلوكهما درب الرهبانية حياة . وكان على اكسيفيلينوس ، الذى كان يبدو صادقا مع نفسه ، أن يخطو الخطوة الأولى فى هذا السبيل . وقد فعل ، والتمس من الامبراطور اعفاءه من رئاسة كلية القانون ، فسمح له قسطنطين بذلك ، وان كان « قد تملكه الحزن لفقدان هذا الرجل صاحب المواهب المقتدرة والكفاءة العالية »(١) .

وجاء دور بسللوس ليحذو حذو صديقه ، فلزم فراش التمارض وأرسل يستأذن الامبراطور فى السماح له بأن يقضى بقية عمره زاهدا . ولعل قسطنطين أدرك أن الصديقين قد اتفقا فيما بينهما على اتخاذ هذا القرار ، ولابد أن يؤدى غيابهما عن الجامعة مرة واحدة الى ضياع جهوده التى بذلها فى سبيل اعادة تنظيمها ، بالاضافة الى أنه كان يضع فى بسللوس ثقته وعليه كل اعتماده فى تصريف الأمور السياسية ذات الأهمية ، خاصة وأن بسللوس كان بمثابة رئيس لديوان الانشاء لدى الامبراطور ، ومن ثم حرص بادىء الامر على أن يبقى عليه ، فكتب له مبينا أنه سوف يهيء له الوسائل الناجعة ليبرأ من مرضه ، ثم أرسل اليه مندوبين يستحثونه على العدول عن قراره . غير أن بسللوس ازداد تيها اذ وجد الامبراطور يمعن فى استرضائه « ويمنيه بمستقبل عريض ويدعوه : « يا قرة العين » .. « يا مهجة الروح » .. « يا قلبى وضياء حياتى » أتوسل اليك أن لا تدعنى أتخبط وسط دياجير الظلماء »(٢) .

ويبدو أن بسللوس قد أعجبته نغمة التدنى هذه من جانب الامبراطور ، فازداد صلفا واصرارا على عزمه ، معلنا بينه وبين نفسه أن « صديقه الذى سبقه الى الدير يعنى لديه أكثر بكثير مما تعنيه رسائل قسطنطين ومندوبوه » . عندها أدرك الامبراطور أن تآمرا حقيقيا يجرى ضده متواطئا مع مرضه ، ولا بد أنه قد لام نفسه على هذا الدرك الذى وصل اليه فى استعطافه لبسللوس ، فأقدم — حسب تعبير مؤرخنا — على « وضع الثعلب فى عرين الأسد ، وأنذر بشر مستطير ، فأقسم على أن يلقى بى وبزملائى الى النار ، وأن الضر لن يصيبنى وحدى بل

(١) Ibid. 195
(٢) Ibid. 198

سيمتد الى كل أفراد أسرتى »(١) غير أن بسللوس تمادى فى عناده وتلقى هذه التهديدات — على حد قوله — برباطة جأش معتبرا اياها بشيرا بأن يجد المأوى فى حماية الكنيسة ، وأقدم على حلق رأسه وارتداء لباس الرهبانية ، وحمل اسم ميخائيل وهو الاسم الرهبانى الذى عرف به فى التاريخ ، والذى توارى الى جواره اسمه الحقيقى قسطنطين .

ولما كان الامبراطور قد دخل المرحلة الأخيرة من حياته ، وأصبح عاجزا عن تنفيذ وعيده وكفت يداه عن التدخل الفعلى فى تصريف أمور الدولة ، خاصة بعد أن سيطرت الامبراطورة تيودورا ، آخر سلالة البيت المقدونى ، على القصر بمساعدة خاصتها ، وظهر سلطانها بشكل واضح عندما أقدمت على اعتقال حاكم بلغاريا الذى كان قسطنطين قد رشحه ليكون خليفة له على عرش الامبراطورية ، فقد تلقى بسللوس رسالة من الامبراطور والذى كان على فراش الموت « أشبه شىء بثور خامد يوشك أن يقدم للرب ذبيحة » ، تعلن عفوه عن بسللوس ورضاءه عن مسلكه وتهنئته له باختيار هذا السبيل(٢) . ولا يبعد أن يكون دافع قسطنطين الى ذلك أيضا أنه توهم صدق بسللوس فى عزمه ، فتراجع عن تنفيذ تهديده له ، مفضلا بذلك ابعاده عن التدخل من بعده فى أمور الدولة ، خاصة وأن الامبراطور كان قد وقف على عدة أمور أتاها بسللوس تعطيه الحق فى التخلص منه ، وكان من بينها أن بسللوس يتصرف فى بعض الشئون فيما يتعلق بسياسة الدولة دون الرجوع الى الامبراطور ، بل وعصيانا لرأيه فى بعض الاحيان (٣).

---

(١) Ibid. 198

(٢) Ibid. 199, 202

(٣) يذكر بسللوس أن قسطنطين كلفه بكتابة رسالة الى خليفة مصر وأوعز اليه أن يضفى عليه (قسطنطين) صفات الاتضاع وأن يخلع على المصريين سمات المجد . ولكن بسللوس حسب قوله لم يفعل ذلك ، « بل نفذت المظهر العكسى تماما فى تورية ماكرة وكان ما كتبته يحمل معنى معينا لقسطنطين ومعنى آخر لخليفة مصر ، وحطت من شأن الأخير دون أن أفصح عن ذلك » . ويبرر بسللوس تصرفه هذا بحبه للرومان والوطن . ثم يضيف « وكان هذا هو السبب الذى دفع الامبراطور الى أن يتولى بنفسه بعد ذلك كتابة الرسائل الموجهة الى مصر » . Chron. VI 191

وبسللوس فى معرض حديثه عن الأسباب التى دفعته الى اعلان عزمه على سلوك حياة الرهبانية يقول أن ذلك يعود الى رغبة دفينة فى نفسه لممارسة هذه الحياة ولانطواء نفسه على الحب العميق للتأمل(١) . غير أنه ليس صادقا فى ذلك تماما ، فهو لم يطق صبرا على هذه الحياة الخشنة بعد أن اعتاد حياة الدعة والنعيم أو الحياة « الرغدة » كما يصفها ، لهذا لم يلبث أن عاد الى دنيا الناس والحياة العامة فور وفاة قسطنطين ، فى الوقت الذى ظل فيه زميله يوحنا اكسيفيلينوس راهبا حتى اختير أسقفا للقسطنطينية كارها (١٠٦٣ — ١٠٧٥) حيث كان يفضل البقاء فى الدير . ولم يستطع بسللوس اخفاء الأسباب الحقيقية التى قادته الى ادعاء ذلك ، وهو فيها يلقى اللوم صراحة على الامبراطور ، حيث كان « تقلب الامبراطور هو ما دفعنى الى اختيار الحياة الرهبانية ، لقد كنا نخاف نزواته ، ومن أجل هذا فضلنا الرهبانية على حياة الدونية فى البلاط ، وآثرنا هدوء الكنيسة التام على الاضطراب والفوضى داخل القصر .. لقد كان الامبراطور يقود بنفسه عربة الدولة ، ومعظم الذين ركبوها معه ألقى بهم فى الطريق تحت عجلاتها ، وكان هناك أكثر من سبب يدفعنا الى الخوف من أن تهتز بنا العربة ، وعندها سوف يقذف بنا الى الأرض كغيرنا ، ذلك أننا لم نكن قد ثبتنا أقدامنا تماما .... لقد كانت المسألة كلها فى جوهرها مجرد مقامرة »)٢) .

---

(١) Chron. VI 191

(٢) Ibid. VI. 193 200

ويضرب المثل بما كان من أمر صديقه قسطنطين ليخودس ، الذى اختاره الامبراطور لذكائه وفصاحته وخبرته للادارة المدنية ، ويحدثنا عن تحمسه للبيان ، وكيف كان خطيبا مفوها يجيد الحديث بلهجة آتيكية خالصة . ويتمتع ببديهة حاضرة وشخصية جذابة . وكان عمق نبرات صوته مساعدا له على رقى مكانته . ولشد ما كان اعجاب الامبراطور بهذا الصوت وهو يذيع المراسيم الامبراطورية من شرفة القصر . ويقول بسللوس : « وسرعان ما حقق ليخودس مكانة راقية حيث كان يلعب الدور القيادى فى الادارة المدنية ، ولكن ذلك كان دافعا لغيرة الامبراطور منه وحقده عليه . لقد كان الامبراطور غير قادر على تقبل انتقال السلطة من يديه لشخص آخر . وكان يرغب فى السيطرة على الأمور بنفسه لا من أجل أن تدار عجلة الامبراطورية بكفاءة ، بل ليفعل هو ما يشاء . ان الامبراطور لا يعدو فى بعض الأحيان مجرد تمثال ، وحاول دائما أن يتبع سنة أسلافه ، ولكم أغاظه تفوق وزيره » Chron. VII. 179 ويضيف أنه كثيرا ما حذر ليخودس مما يدور فى نفس الامبراطور ، وانتهى الأمر بعزله ، وان كان قد رد اليه اعتباره بعد ذلك على يد الامبراطور اسحق كومنوس سنة ١٠٥٩ حيث اختير أسقفا للقسطنطينية . انظر : Chron. VI. 180 — 181

وهكذا يعترف بسللوس صراحة بأن هناك أسبابا كثيرة تدعوه للخوف من ان يلفظه الامبراطور خارج القصر والجامعة ، فقسطنطين يعلم جيدا موقفه من ميخائيل الخامس ، ويضع تحت يديه الدليل الكافى لادانته عند الضرورة ، وذلك من مخالفته لأوامره فيما يتعلق برسائل الامبراطور الى الخليفة الفاطمى فى مصر(١) ، ولا يغيب عن ذهنه صلفه وعناده أمام «توسلاته» له بأن يهجر ما اعتزم الاقدام عليه من الانقطاع للحياة الديرانية . من أجل هذا حسب بسللوس بدقة كاملة حساباته ، واختار الوقت المناسب لتنفيذ ما انتواه .

لكن آمال بسللوس سرعان ما تحققت بموت قسطنطين فى ١١ يناير ١٠٥٥ ، اذ تلقى وهو فى الدير دعوة عاجلة من الامبراطورة ثيودورا ترجوه ان يطرح من رأسه فكرة الرهبانية ، وأن يكون الى جوارها فى هذه الآونة ، وعلى الفور أسرع بسللوس يحقق للامبراطورة « رجاءها » . ومنذ هذه اللحظة ولمدة ربع قرن آت ، خطا بسللوس خطوات واسعة على سلم الترقى فى المناصب السياسية ، ونجح فى ذلك نجاحا يشهد له بالكفاءة والمقدرة والذكاء ، مستخدما نفس أسلوبه ومزيدا من دهاء . لقد أصبح المستشار الاول لثيودورا التى كانت لا تصدر عن رأى الا بعد استشارته ، كما عهد اليه « بكتابة رسائلها التى تعد على جانب كبير من الأهمية والسرية حتى وقسطنطين بعد حى »(٢) . ورغم هذه الثقة الكاملة التى أولتها ثيودورا اياه ، ولما كان يدرك أنها الى الفناء تصير ، حيثكانتتناهز الآن السادسة والسبعين من عمرها ، فانه راح ينهج نفس النهج الذى وطنّنفسه عليه ، فأدلى الى خاصته وأصدقائه المقربين بما يفيد عدم رضائه عن سياستها ، وتخبط سيرها فى تصريف أمور الدولة(٣) ، حتى يضمن لنفسه فى بلاط الحاكم الجديد مكانة .

استقر رأى أصدقاء ثيودورا والمقربين على اختيار ميخائيل (السادس) (١٠٥٦ — ١٠٥٧) ذلك الشيخ الفانى ليكون خليفة لها ، فقد رأوا فيه أفضل من يحقق لهم مصالحهم ، وكان بسللوس أحد حاضرى الاجتماع « وشاهد بعينى

(١) راجع حاشية ٣ ص ١٦٩

(٢) Chron. VI. Theod. 13

(٣) Ibid. 16

رأسه وسمع بأذنيه كل ما دار »(١) ، ولم يذكر أنه أبدى اعتراضه أو موافقتـــه وانما آثر الصمت التام ، ولكنه برز فجأة ليصبح على رأس خاصة الامبراطور « الذى كان ينظر اليه كما لو كان ابنا متبنى ، ويعتبره منذ زمن طويل أخلص ندمائه »(٢) ، اذ ما لبث الامبراطور أن عقد مؤتمرا ضم مستشاريه لبحث أمر الثورة التى أشعلها اسحق كومننوس فى آسيا الصغرى مطالبا بالعرش . وراح كل يعرض آراءه ، ولكن ميخائيل السادس لم يلتفت لأحد منهم . ثم قام بسللوس من بينهم ليسدى للامبراطور النصح الذى يتلخص فى التصدى لأسقف القسطنطينية العنيد ميخائيل كرولاريوس M. Cerularius حتى يتفادى نفوذه القوى ، وارسال سفارة الى خصمه للوقوف على قوته ومحاولة مد أجل المفاوضات حتى يمكن تحقيق الاقتراح الثالث الذى يتضمن انشاء قوة عسكرية ضخمة(٣) . ولمـــا كان الامبراطور لا يجرؤ على المساس بسلطان بطريرك القسطنطينية ، فقد رفض الشق الأول من الاقتراح وارتضى الشقين الآخرين . ويعلق بسللوس على ذلك بقوله : « ان هذا كان كفيلا بالاطاحة بعرشه »(٤) .

وحدث ما لم يكن يتوقعه بسللوس ، فقد وقع اختيار ميخائيل السادس عليه ليكون على رأس وفد المفاوضات الى اسحاق كومننوس ، لمـــا يعرفه عنه من « فصاحة وقدرة على المناقشة يمكنه بها استمالة ذلك الثائر واعلان ولائه للامبراطور » . وهنا أدرك — بسللوس أنه أوقع نفسه فى مأزق كان لابد أن يتخلص منه ، فهو قد وطن نفسه على أن يمسك العصا من وسطها ، فاذا ما نجح ميخائيل فى القضاء على خصمه ، فلابد أن الامبراطور سوف يحفظ له فضـــل نصحه ، واذا ما تغلب اسحق ، فقد حفظ لنفسه خط الرجعة عندما أدلى برأيه فى اختيار أسلوب المفاوضات بدلا من الحرب بين ميخائيل واسحق والتى أشار بها بعض خاصة ميخائيل . ويبدو أن بسللوس لم يكن صادقا فى نصـــحه للامبراطور مع كل هذا ، فقد أصدر عليه حكمه منذ اللحظة التى تم اختيـــاره فيها للعرش بقوله : « ان أقل ما يمكن أن يقال عنه أنه لا يصلح للحكم بقدر ما

---

(١) Ibid. 19 — 21

(٢) Ibid. VII. 9

(٣) Ibid. VII. 10

(٤) Ibid. II.

هو صالح لأن يكون محكوما »(١) ثم هو يقدر تماما أن النصر لن يكون من نصيب ميخائيل ، ويعلن ذلك فى وجهه دون مواربة : « ما الذى يمكن أن تجديه الفصاحة والقدرة على المناقشة مع شخص يشعر أنه أصبح قاب قوسين أو أدنى من أن يضحى حاكما للامبراطورية ؟ وكيف يقبل انسان أمسى النصر فى جيبه أن يكون مرؤوسا للامبراطور ؟ »(٢) .

وهاهى الأحداث تعيد نفسها من جديد ، فقد أخذ ميخائيل السادس يخاطب بسللوس قائلا : « كان الغرض الأساسى من دراساتك المستمرة أن تحقق النجاح فى البيان والبلاغة المقنعة ، غير أنه فى حالة صديق لك يعانى سوء الحظ ، أو بالأحرى سيدك(٣) فانك لا تبدى حراكا فى مساعدتنا ، وعندما أصبحت امبراطورا مضت علاقتى معك دون تغيير ، ورحت أتحدث اليك كما تعودت دائما ، وقد رحبت بك وتمثلتك أمامى دائما ، وكنت أظن أنك تبادلنى نفس الشعور ولسوف أسير فى طريقى الذى رسمته لى المقادير ، ولكن تأكد أن اليوم الذى تلام فيه لا ريب آت ، وسوف تلقى على تنكرك لسيدك وصديقك ما تستأهل من جزاء »(٤) .

لم يجد بسللوس مفرا من الامتثال لأمر خلقه بنفسه لنفسه ، ولم تجد محاولاته المتكررة للتخلص من هذا « الشرف » الذى خلعه عليه الامبراطور ، ولما لم يجد بدا من الانصياع لرغائب ميخائيل ، عمل على أن يحتفظ لنفسه بالأمان عند كل من المعسكرين ، فبين لميخائيل أنه لم يتردد فى قبول « شرف » هذه المهمة الا خشية الحقد الذي سوف يعتمل فى صدور الكثيرين ، والغيرة التى ستتملك عليهم نفوسهم ، وأعلن استعداده للقيام بالمهمة الملقاة على عاتقه اذا ما صحبه أحد أعضاء السناتو . وحتى يسد عليه الامبراطور كل منافذ التملص ترك له حرية الاختيار ، فاصطحب معه ثيودور ألوبس Theoodorus Alopus وصديقه الحميم قسطنطين ليخودس Constantinus Lichudes(٥) .

---

(١) Ibid. VI. Theod. 20

(٢) Ibid. VII. 15, 16

(٣) يعترض بسللوس على استخدام كلمة « سيدك » ويقول : « ألا فليغفر الله لى استخدام هذه الكلمة » .

(٤) Chron. VII. 16

(٥) Ibid. 17 19 راجع حاشية ٢ ص ١٧٠.

وقد لعب بسللوس فى هذه الأحداث دورا خطيرا لا نبالغ اذا قلنا انه بلغ حد التآمر ضد الجالس على العرش ، فقد اتفق مع زميليه على أن يقترحوا على اسحق كومننوس أن يضع على رأسه التـــاج ويستخدم الأشعرة الامبراطورية، على أن يدين بالولاء لميخائيل السادس . ويصور بسللوس مدى فرحة اسحق بهذا الاقتراح ومدى اعجابه بشخصيته لأنه هو الذى تحدث نيابة عن زميليـــه باعتباره « فيلسوفا وحكيما » . وكيف أن اسحق شيعهم بالاحترام والتقدير ، وخصه دونهم بأسمى آيات التكريم(١) . فلما حمل الوفد لميخائيل هذه الأنباء حمد لهم صنيعهم وان كان قد أمرهم بالعودة الى اسحق كى يطلبوا اليه أن لا يعلن هذا الاتفاق مخافة اثارة غضب السناتو وهياج الشعب(٢) وبينما هم فى معسكر اسحق فى نيقوميديا للمرة الثانية اذ جاءتهم الأنباء تترى بأن الثورة قد اندلعت فى العاصمة ، وأن السناتو قد أجبر ميخائيل السادس على الاعتزال واضطره أن يقضى بقية عمره راهبا ، وأنه (السناتو) قد أعلن اختيار اسحق كومننوس خليفة له على العرش وأرسل فى استدعائه ، وأن المدينة قد أخذت زخرفها وازينت انتظارا لمقدم العاهل الجديد(٣) ..

غير أنه لا يمكن قبول هذه الرواية على علاتها هكذا ودون مناقشة ؟ اذ كيف يمكن لبسللوس أن يقترح على اسحق أن يظل مواطنا عاديا تابعا للامبراطور مع الاحتفاظ بالتاج والأشعرة الامبراطورية ، فى الوقت الذى يصرح فيه أن « فصاحته لن تجدى نفعا مع شخص يعتبر نفسه قاب قوسين أو أدنى من العرش وأن النصر بات فى جانبه ؟ وكيف يمكن أن يسبغ اسحق على الوفد نعمه ظاهرة ، وقد جاءوا يجردونه من منصب كان يعتبره حقا له وأنه قد أصـــبح فى قبضة يده ؟ والذى نميل اليه أن بسللوس لابد وأن يكون قد دبر مع زميليـــه مؤامرة حيكت خيوطها بدقة للاطاحة بميخائيل واعلان اسحق امبراطورا . ودليلنا على ذلك نستقيه مما كتبه قلم بسللوس .

فهو يخلع على اسحق لقب « الامبراطور » ويناديه بذلك فى زيارتيه الاولى والثانية لمعسكره وقبل أن يصبح اسحق امبراطورا شرعيا . وهو قد اتفق مع

---

(١) Ibid. 19, 26, 31 — 32

(٢) Ibid. 33

(٣) Ibid. 33 — 37

زميليه — حسب روايته — أن يعلنوا مبايعتهم له ، على أن ينقلوا لميخائيل صورة التراضي أو « الحل الوسط » عند عودتهم ، حتى يمكنهم استكمال خيوط المؤامرة . فلما ألمح لهم ميخائيل بخوفه من السناتو والجماهير كان ذلك اشارة البدء لهم لانهاء مهمتهم خاصة وأن أحد ثلاثتهم وهو ثيودور ألوبس عضو السناتو ، وحتى يبعدوا أنفسهم عن مسرح الأحداث فقد ارتضوا العودة « بأسرع ما يمكن » الى اسحق ، وتم عزل ميخائيل أثناء غيابهم فى معسكر اسحق وبعد رحيلهم عن القسطنطينية بيوم واحد . ولقد كتب بسللوس يقول عندما أتتهم أنباء الثورة وهم فى كنف اسحق ، أن من قدم اليهم يحمل هذا النبأ أكد أنه ليس مجرد شائعات وأنه من الواضح أن بعض العناصر ، وذكر أسماءهم — وهنا يقول بسللوس ما نصه : « وهؤلاء نعرفهم جيدا » — قد اتفقوا مع السناتو على تنفيذ مخططهم(١) . ثم ان السناتو والمتمردين قد وقع اختيارهم على اسحق كومننوس بالذات دون غيره ، ولا يبرر ذلك تمرده على الامبراطور ، وكان يمكن اعلان أحد رجال السناتو ، أو أحد قادة الجيش أو أحد زعماء الثائرين امبراطورا ، ولكن اختيار اسحق بالذات هو فى حد ذاته دليل واضح يؤكد ما نذهب اليه . يضاف الى هذا أن بسللوس ورفيقيه ظلوا فى « رعاية » اسحق حتى دخل بهم العاصمة . وفوق هذا وذاك فان اسحق قد جزاهم على حسن صنيعهم معه خير الجزاء ، فما أن اعتلى العرش حتى راح يخاطب بسللوس بقوله : « انى أحمل لحديثكم كل الاعجاب والتقدير ، وانى لاعتبرك حقا أقرب أصدقائى الى قلبى ، وحتى أثبت لك صدق قولى ، فلسوف تحمل من الآن لقب « رئيس مجلس السناتو »(٢) . أما صديقه قسطنطين ليخودس فقد أنعم عليه اسحق من بعد ببطريركية القسطنطينية(٣) ولعل بسللوس كان يعرف أن ما أقدم عليه لابد وأن يعرفه الجميع يوما ما ، لهذا خط قلمه ما جرى على لسانه وهو يحاور ميخائيل السادس فى البدء عندما طلب اليه رئاسة سفارته : « ... لا شك أن الحاقدين وهم كثيرون سوف يتهموننى بالخيانة اذا ما فشلت مهمتى ، وهى لا محالة فاشلة »(٤) .

---

(١) Ibid. 36

(٢) Ibid. 42

(٣) Ibid. VI. 181 ; VII. 66.

(٤) Ibid. 17

هكذا ارتقى بسللوس مرتبة سامية ، وحظى بلقب رئيس شرف مجلس السناتو ، وأصبح من أشد المستشارين قربا للامبراطور والامبراطورة التى كانت تلجأ اليه دائما فى أدق المسائل وأكثرها تعقيدا ، خاصة بعد أن دهم المرض زوجها . ولم تخف احترامها له ، وتقديرها اياه باعتباره « فيلسوفا وحكيما »(١) حتى عن أقرب مستشاريها . ولم يجد بسللوس صعوبة فى مصادقة رئيس مجلس السناتو الذى وقع عليه اختيار اسحق ليكون خليفة له(٢) ، وهو الذى اعتلى العرش باسم قسطنطين العاشر (١٠٥٩ — ١٠٦٧) .

ولم يتخل بسللوس عن دوره القيادى فى رفع قسطنطين الى العرش ، فاسحق كومننوس حسب رواية بسللوس ، رفض ترشيح أخيه يوحنا الذى يعده مؤرخنا « أعظم نبيل لقيه طيلة عمره »(٣) ، أو ابنته أو زوجه كاترين Catherine البلغارية(٤) . فلما اختار قسطنطين خلفا له ، لم يجرؤ أحد من المستشارين — والرواية هنا لبسللوس — أو كبار القادة العسكريين أو رجال السناتو على تأييد هذا الاقتراح أو شجبه ، وأحجموا عن اتخاذ الاجراءات اللازمة لوضع هذا الاجراء موضع التنفيذ ، وعلى الفور أقدم بسللوس على التحدث بصراحة مباركا وجهة النظر الامبراطورية مثنيا عليها مبينا فضائل قسطنطين ، وتقدم اليه آخذا بيده « وأجلسه على العرش واضعا على كتفه العباءة الأرجوانية و « الصندل »

---

(١) Ibid. 81

(٢) Ibid. 89 ويعلق فازيلييف على اعتزال اسحق كومننوس العرش بعد فترة قصيرة من الحكم (١٠٥٧ — ١٠٥٩) بقوله انه ليس هناك أسباب واضحة لذلك اللهم الا القول بأنه كان ضحية مؤامرة واسعة دبرها كبار ملاك الأراضى ، حيث عرف عن اسحق اهتمامه بزيادة دخل الخزانة العامة بأية وسيلة. ولهذا وضع يده بصورة شرعية على ممتلكات كبار الملاك من العلمانيين . بالاضافة الى مساحات واسعة مما تسيطر عليه الكنيسة مما أثار سخط العلمانيين والاكليروس على السواء . ومن المحتمل أن يكون لدى بسللوس من الاسباب ما دفعه الى الاشتراك فى هذه المؤامرة . Vasiliev, op. cit. Ip. 352 وقد يتفق هذا القول الى حد كبير مع ما يذكره بسللوس من أن اسحق أقدم على الغاء كثير من المشروعات التى كان قد بدأها الاسلاف وراح ينفذ مشروعاته بشكل استفزازى أثار ضده كراهية الجموع وعددا ليس بالقليل من العسكريين الذين ساءهم تجريدهم من أملاكهم وثرواتهم . قارن Chron.VII. 60—65

(٣) Chron.VII. 71

(٤) Ibid. 89

الرومانى فى قدميه. عند ذلك أبدى السناتو بالاجماع رضاءه وموافقته. ساعتها لم يتمالك قسطنطين نفسه ، فنهض من فوق العرش معانقا ، والدموع تملأ عينيه ، بسللوس وعهد اليه لثقته التى لا حد لها فيه بالقاء خطبة العرش(١) .

من أجل هذا أضحى بسللوس لصيقا لقسطنطين ، وكيف لا وقد كتب أن « هذا الرجل استطاع أن ينال ثنائى وهو بعد مواطن عادى ، وان يحظى باعجابى وهو امبراطور . انه أحد القلائل الذين لم أزدريهم مطلقا . لقد حصلت فى كنفه بعد اعتلائه العرش على أعلى المراتب ، وكنت دائما أتجاذب واياه أطراف الحديث ... وأصبحنا على هذا النحو قريبين الى بعضنا البعض الى حد تبادل الزيارات . ان أحدا من الأباطرة الذين عاصرتهم لم يحفظ لى المكانة المرموقة التى أنا بها جدير كما أهوى ، مثلما فعل قسطنطين »(٢) ، لقد وجد الامبراطور فى صحبتى سعادة غامرة ، ولم يكن لأحد غيرى عليه مثل هذا التأثير المريح ، واذا ما حالت الظروف ذات يوم أن التقى به أكثر من مرة ، أبدى من ذلك سرورا وشكا . لقد كان يجلنى أكثر من أى انسان آخر »(٣) .

ويكاد بسللوس « يجزم » بأنه ليس هناك امبراطور عاش حياة مجيدة أكثر منه ، ولا مات أشد سرورا منه ، فقد انقضت حياته فى هدوء تام ، وخلف وراءه على العرش ابنا كان صورة حية لأبيه فى صفاته وأخلاقه(٤) . وعبارة بسللوس القائلة « بانقضاء حياته فى هدوء تام » تعبر عن الحقيقة التى لم يقصدها هو بالطبع ، فقد جاء اعتلاء قسطنطين العاشر العرش انتصارا للادارة المدنية البيروقراطية فى العاصمة ، ضد الأرستقراطية العسكرية والولايات والتى كانت ممثلة من قبل فى اسحق كومننوس . من أجل هذا صرف الرجل همه فى محاولة اعادة تنظيم الشئون المدنية والتشريعية ، واتساقا مع قدرته أهمل الجيش اهمالا تاما ، وتلقت الامبراطورية نتيجة لذلك

(١) Ibid. VII Const. X, 11 — 12

(٢) Ibid. I, 7 — 8

(٣) Ibid. 25

(٤) Ibid. 28

اللطمات من جانب السلاجقة فى الشرق ، والغز والبشناق من الشمال . وقد صدق بسللوس فيما ذكره عن ذرية قسطنطين باعتبارهم تجسيدا حيا لأبيهم، فقد كان ميخائيل السابع دوكاس حقا مثلا سيئا للحاكم البيزنطى ، وتلميذا « غبيا »(١) فى الوقت ذاته لأستاذه الذى كان بسللوس نفسه .

فلما توفى قسطنطين الموت وخلفته لفترة قصيرة جدا زوجه يودوسيا Eudocia كان لديها مقربا أثيرا كما كان بالنسبة للأمبراطور الراحل. غير أن العسكريين أرغموها على الزواج من أحد رجالهم وهو رومانوس الرابع ديوجينس Romanus, IV Diogenes واعلانه امبراطورا . وقد وقع هذا على رأس بسللوس كالصاعقة عندما أنبأته الامبراطورة به وهى تحاوره للوقوف على رأيه ، وليس أصدق على التعبير عن حال بسللوس آنئذ الا ما سجله قلمه : « لقد ملأت هذه الكلمات نفسى بالرعب والهلع ، ولم أكن فى حال تسمح لى بتصور ما سوف يحل بى » (٢) . وأخذ يحاول المراوغة فى ابداء رأيه طالبا التأجيل الى اليوم التالى حتى يتمكن من التوصل الى رأى يرتاح اليه فؤاده ، غير أن يودوسيا لم تدع له الى ذلك سبيلا ، فلما لم يجد بدا من الادلاء برأيه أمام حصار الامبراطورة له راح يسفه لها هذا الرأى ، ويزين لها المناداة بابنها ميخائيل امبراطورا حتى تقطع السبيل أمام هؤلاء المعارضين من الحزب العسكرى . وقد شكرت له يودوسيا بخبث ولماحية شعوره تجاه ولدها الذى فوجىء به بسللوس من بعد « يعانق رومانوس الرابع ديوجينس ويغدو أخلص أصدقائه »(٣) .

وأمام هذا السلوك من جانب الامبراطورة يودوسيا وميخائيل ، تلميذه ، وقبلهما العسكريون ، كان على بسللوس أن يتراجع عن موقفه بسرعة وذكاء حتى لا يكتسب عداء رومانوس الذى يبدو أنه لم يغفر هذه السقطة لبسللوس ،

---

(١) أنظر العالم البيزنطى ص ١٧١

(٢) Chron. VII. Eudocia 7

(٣) ID.

ولولا قربه من يودوسيا واعتزاز هذه به لقضى عليه . أما ما يرويه مؤرخنا عن أياديه البيضاء على الامبراطور قبل اعتلائه العرش ، ومحاولته التقرب اليه بكل مظاهر « المذلة والتدنى » ، فيمكن اعتباره شيئا أراد به بسللوس أن يحفظ ماء وجهه ، خاصة وأن الامبراطور قد غل يده عن التدخل فى شئون الدولة ، وهذا واضح من قوله : « ان الامبراطور كان يرغب فى ادارة دفة الأمور فى الامبراطورية منفردا ودون تدخل من جانب أى انسان »(١) . ويبدو أن بقاء بسللوس فى القصر كان مرتبطا فقط ببقائه أستاذا لميخائيل دوكاس.

ولا شك أن مجرى الأمور على هذا النحو كان له اثره البالغ على نفس مؤرخنا وبالتالى كتاباته ، ومن ثم لم يتعرض أى امبراطور من هذا الثبت الطويل الذى عايشهم بسللوس لسخريته اللاذعة أو نقده القدحى أو تهكمه البالغ ، كما عانى رومانوس الرابع ، رغم أنه كان يعد من أقدر أباطرة هذه الفترة باستثناء اسحق كومننوس . ولا يعدو الجزء الذى أوقفه بسللوس على رومانوس الرابع فى تاريخه هذا ، كونه قصيدة هجاء نظمها فى التعريض بهذا الامبراطور ، وان كان قد بدا له مستحيلا فى الوقت ذاته انكار شجاعته العسكرية فى حروبه ضد الأتراك السلاجقة(٢) .

وطوال أربع سنوات (١٠٦٧ — ١٠٧١) حكمها رومانوس الرابع ديوجينس لم يأل بسللوس جهدا فى سبيل الخلاص منه او اضمار الشر له، حتى لاحت له الفرصة فى الهزيمة الفادحة التى منى بها الامبراطور سنة ١٠٧١ . وكان رومانوس قد عهد الى بسللوس « بمهمة صغيرة » فى الحملة التى قادها ضد الأتراك سنة ١٠٦٩ ، ولم يحدثنا مؤرخنا بشىء عن طبيعة هذه المهمة ، وان كان يذكر أنه قبلها كارها أمام اصرار الامبراطور(٣). حتى اذا كانت سنة ١٠٧١ ولقى الامبراطور هذه الهزيمة الساحقة عند منزكرت فى آسيا الصغرى على يد الأتراك السلاجقة بزعامة سلطانهم ألب

---

(١) Ibid. Romanus IV, 2

(٢) Ibid. 2 — 12

(٣) Ibid. 6.

أرسلان ، ذهب عن بسللوس الروع وجاءته البشرى بأن رومانوس قد وقع أسيرا فى أيديهم ، فراح يجادل مع المستشارين الذين اجتمعوا ليروا فى هذه الأزمة رأيهم . وانقسم الحاضرون : بعضهم يرى أن ينفرد ميخائيل بادارة دفة الحكم ، وآخرون يفضلون أن تتركز السلطة فى يد يودوسيا دون ولدها. أما بسللوس فقد آثر كعادته دائما الطريق الوسط بين هؤلاء وأولئك، فاقترح أن يشترك ميخائيل وأمه فى الحكم ، ويرمى الفريقين بأن كلا منهما كان يسعى من وراء اقتراحه هذا الى تحقيق مصلحة معينة(١) .

ولكن الأحداث تتابعت من بعد سراعا بحيث تقطعت من جرائها أنفاس بسللوس ، فلقد تلقى القصر أنباء تفيد أن السلاجقة أطلقوا سراح رومانوس وأنه الآن فى نفر ليس بالقليل من أنصاره فى طريقهم الى القسطنطينية . فارتجت الأمور على الجميع عند سماعهم بهذا النبأ ، وأصيب القصر بحالة من الهلع ، وشخص بسللوس الى هناك وسط هذه الفوضى ، وأحيط به من الجميع يسأله الرأى ونصحه ، « واشترك محبوبى الامبراطور (ميخائيل) مع الآخرين فى الالحاح على للادلاء برأيي . فأعلنت بلا تردد أن زمن رومانوس قد ولى ، وأنه لم تعد هناك فرصة أو ضرورة لاستقباله بل يجب أن ينظر اليه من الآن باعتباره طريدا ، ولابد من أن ترسل التعليمات الى الولايات تخبرها بانقضاء عهده . وقد استصوب المعتدلون ذلك ، بينما تبنى المتطرفون رأيا مغايرا(٢) .

وليس من الصعب تمثل العوامل التى حدت ببسللوس الى اتخاذ هذا القرار ، فهو يعلم يقينا أن عودة رومانوس للعرش تعنى القضاء على آماله وطموحاته ان لم يكن حياته ، ومن ثم لم يتردد فى اعلان رأيه صراحة ، بل انه يذكر بعد اعلان رأيه على هذا النحو ، أن ميخائيل انفرد بالسلطة دون أمه معتمدا فى ذلك على تأييد ابنى عمه أندرونيكوس وقسطنطين دوكاس والحرس الامبراطورى الخاص الذى كان يعرف آنذاك

---

(١) Ibid. 15.

(٢) Ibid. 18.

بـ « الورنك »(١) Varangians وجماعة المتحمسين له(٢) ، ولا يشير الى قيامه بأى دور فى هذه الاجراءات ، بل على العكس من ذلك تماما يذكر أنه والامبراطورة والمقربين اليها سارعوا بالاختفاء فى الدروب السرية للقصر، حالة انفراد ميخائيل بالسلطة ، « بينما تملكه هو الخوف والجزع على حياته ولم يدر أى مصير ينتظره ، الى أن أنقذه من هذا الضياع تذكر (!!) الامبراطور له عرفانا بالجميل ، ذلك أن ميخائيل دوكاس بث رسله وأعوانه للبحث عنه واحضاره اليه على الفور ، فلما أدركه حرس الامبراطور حملوه على أعناقهم وجاءوا به الى سيدهم ، وقدموه كما لو كان هدية قيمة ... (لقد كنت أول انسان تذكره الامبراطور) !! »(٣) .

ويسللوس يبدو هنا فى حديثه غير مقنع على الاطلاق ، بل يظهر واضحا الاضطراب وعدم اتساق السياق . اذ لماذا يخشى الامبراطور على حياته وهو أقرب الناس اليه بل وأول من « تذكرهم » الامبراطور وبعث فى طلبهم بعد انفراده بالعرش مباشرة ؟ وأى « جميل » يعرفه له ميخائيل الا أن يكون يسللوس نفسه هو صاحب فكرة انفراد ميخائيل بالسلطة ، وعلى رأس المتحمسين لها ، محاجا بأن الأمور تستدعى الآن وجود رجل فرد على العرش فى مواجهة الخطر الذى يتهددهم جميعا ممثلا فى قرب عودة رومانوس

---

(١) اعتمد الاباطرة البيزنطيون خاصة فى القرن الحادى عشر على العناصر الأجنبية الاوروبية فى تكوين الجيش البيزنطى وبصفة خاصة بعد أن فقدت بيزنطة آسيا الصغرى على يد الأتراك السلاجقة . وكانت هذه العناصر تتكون فى مجموعها من الاسكندنافيين ثم الأنلجو سكسون من بعد ، وقد جعل منهم الاباطرة البيزنطيون فى القرن الثانى عشر حرسا خاصا لهم وشاعت تسميتهم باسم الورنك Varangians للمزيد من التفاصيل راجع

A short history of U.S.S.R. Vol. I. pp. 34 — 38.

وأيضا Brooke, Europe in the central Middle Ages, pp. 45 - 46

وكذلك Thomapson & Johnson, an introdiction to Medieval Europe, pp. 172 — 182

وكذلك Runciman, a history of the Crusades III. p. 118

وراجع : العالم البيزنطى ص ١٥٢ حاشية ١

(٢) Chron. VII. Romanus IV, 19 — 20 .

(٣) ID

ديوجينس الذى يعد من الناحية القانونية الامبراطور الشرعى وزوجا ليودوسيا ؟ وكيف ينسى ميخائيل موقف بسللوس الجرىء عندما عارض عودة رومانوس وطالب باعتباره خارجا على القانون ؟ بل كيف يتفق هذا مع ما يذكره بقلمه بعدما قدمه الجنود الى الامبراطور « كهدية ثمينة » ؟ فقد كتب ما نصه : « ما أن وقعت على عيناه حتى تنفس الصعداء وعهد الى على الفور باتخاذ كافة القرارات التى أرى أنها ضرورية »(١) .. ومن العجيب أنه كان فى مقدمة هذه القرارات ابعاد يودوسيا عن القصر ، وقد أصدر بسللوس ، الذىأصبح الوزير الأول فى الامبراطورية أوامره بترحيلها الى الدير الذى كانت قد أقامته باسم العذراء لتقضى فيه بقية عمرها ، وتم تنفيذ ذلك على الفور رغم رفض ميخائيل التصديق على القرار(٢) .

وهل يمكن أن نصدق بسللوس فى هذا الذى يذهب اليه من « الهلع والجزع » وهو الذى كتب يقول فى معرض حديثه عن علاقة ميخائيل السابع به : « ان أحدا من اخوته لم يحظ بثقته كما حظيت ، ولا النبلاء نالوها ولا حتى رجال الدين ، لقد تدفقت على الهبات والعطايا وتنزلت على النعم واحدة فى اثر الأخرى ، وزادت ثروتى التى كنت بالفعل أمتلكها . حقيقة لقد فعل الكثيرون قبله ذلك تجاهى ، لكن ما يميزه عنهم هو عمق احساسه نحوى ، لقد بدا سعيدا فى صحبتى مؤمنا بشموخ هامتى فى العلم . لقد كنت أضرع الى الله فى صلاتى أن لا تعرف الغيرة أو الحقد الى هذه المودة سبيلا »(٣) .

الذى يبدو لنا أن بسللوس بحديثه هذا يظهر نفسه بعيدا عن الأحداث الخاصة بتقلبات السياسة ونزوات الحكم ، وهو هنا يعيد نفس الدور الذى رسمه لنفسه من قبل عند الثورة على الامبراطور ميخائيل السادس ، وهو يقر هذه الحقيقة عندما يذكر أنه فى مثل هذه الأمور

---

(١) Ibid. 20

(٢) Ibid. 21

(٣) Ibid. VII. Michael VII. 8.

« نرى التاريخ يعيد نفسه ، فالأحداث تكاد تكون واحدة والأقوال نفسها لا تختلف »(١) .

على أن أخطر القرارات التى كان على بسللوس أن يتخذها الآن هو التخلص من رومانوس ديوجينس ، فهو مازال على قيد الحياة ، ووجوده يشكل خطرا بالغا على بسللوس بصفة خاصة . وقد ألمح اليه عندما ذكر أنه لا يستبعد احتمال تنازل ميخائيل عن العرش « لزوج أمه » ، ولا شك أن بسللوس كان أكثر الناس معرفة بجوانب شخصية تلميذه وسمات الضعف الكامنة فيه ، ومن ثم فقد جردت الحملات المتتالية لقتال رومانوس فى آسيا الصغرى حتى انتهى الأمر بالقبض عليه وسمل عينيه(٢) . ولا شك أن سعادة بسللوس عندئذ كانت غامرة ، فحتى منذ لقى رومانوس أول هزيمة له أمام قوات ميخائيل وقبل أن يقع فى قبضتهم كتب يقول . « للمرة الأولى نشعر الآن بالثقة فى المستقبل »(٣) .

هكذا حقق بسللوس طموحه كله والآمال ، فهو أستاذ الامبراطور الجالس على العرش ، ووزيره الأول ، بيده مقاليد الأمور كلها ، ولهذا لم يكن غريبا أن يكون الجزء الأخير من كتابه مظاهرة امتداح لميخائيل السابع الذى « بز كل من سبقوه على العرش فكرا ، بل فاق مؤرخه الذى يكتب عنه الآن . وباختصار .. لقد كان ميخائيل معجزة هذا الجيل »(٤) . لكن الذى يعرفه التاريخ عن ميخائيل السابع دوكاس غير هذا تماما ، وليس أدل على ذلك مما يرويه أحد كتاب « التاريخ الزمنى » آنذاك وهو

---

(١) يشير هنا الى ما كان من موقف ميخائيل الخامس ازاء أمه بالتبنى الامبراطورة زوى وما انتهى اليه أمر الامبراطورة الام يودوسيا ،
Chron. VII. Romanus IV, 22,

(٢) يتحدث بسللوس بالتفصيل عن الحملات التى جردت ضد رومانوس الرابع والمعارك التى دارت ، وما كان من أمر القبض عليه وسمل عينيه ودخوله الدير ليقضى فى الظلام بقية حياته التى لم تستمر بعد ذلك طويلا ، وينفى عن ميخائيل السابع معرفته بما وقع لرومانوس من فقء عينيه ، ويؤكد أن ذلك تم دون علمه .
Chron. VII. Romanus IV, 23 — 34

(٣) Ibid. 24

(٤) Ibid. Michael VII, 4

يوحنا سكيلتزس J. Sclitzes بقـــوله : « كان الامبراطور يقضى وقته ويبدد طاقته فى أمور تافهة ، فقـــاد امبراطوريته بالتالى الى الدمار ، ولقـــد أضله مستشاره وناصحه بسللوس . وبينما كان هذا يركز السلطة كلهـــا فى يديه ، وجد ميخائيل السابع لديه من الوقت ما يكفى لممارسة الألعـــاب الصبيانية التافهة . لقـــد جعله بسللوس رجلا لا يصلح مطلقا لهـــذا المنصب الذى يشغله(١) . بل ان بسللوس نفسه لم يستطع أن ينكر حقيقة هـــذه الأوضاع المتردية فذكر أن « الأمور فى الشرق والغرب على الســـواء قد وصلت الى الدرك الأســـفل من الحضيض(٢) » وكان لابـــد ازاء هـــذا الضـــعف العـــام الذى ألم بالحـــكومة الامبراطورية والامبراطورية ، أن تنشب الثورة ضد الجالس على العرش ســـنة ١٠٧٨ ، وقـــد تزعمها نيقفور بوتانياتس Nicephorus Botaniates الذى نودى به امبراطورا فى آسيا الصغرى(٣) ، وأكره ميخائيل السابع على الاعتزال والانسحاب الى أحـــد الأديرة ليبقى فيه ما بقى له من عمر . عنـــد هـــذا الحد يتوقف التاريخ ببسللوس ولا نسمع له من بعـــد ذكرا ، ويبدو أن الامبراطور نيقفور الثالث (١٠٧٨ — ١٠٨١) ، والذى يمثل عهـــده آخر سنى فترة الانحـــلال هذه ، قد ألقى به خـــارج دائرة الضـــوء الذى ظل يمثل بؤرته طيلة ما يقرب من أربعين عاما . وكانت الأقـــدار رحيمة به فقـــد رحل عن الدنيـــا فى نفس العـــام (١٠٧٨) عن ستين سنة ، فلم يشهد الا لبضع شـــهور تقلب الدنيـــا به وانصراف الدهر عنـــه .

ويذهب سوتر E. R. A. Sewter فى تقديمه لمؤلف بسللوس « التاريخ الزمنى » الى أن ميخائيل السابع دوكاس « الذى تدرب بمهارة وعناية كى يصـــبح ملكا فيلسوفا قـــد أقـــدم على طرد أستاذه بسللوس من منصـــبه ووضع يوحنا الايطالى J. Italus بدلا منـــه » ، ويقـــول فى موضع آخر « ... غير أنه فجـــأة وعلى نحـــو غامض فقـــد الكثير من مكانته على يـــد

---

(١) Fourteen byzantine rulers, pp. 369 — 370, n. I

(٢) Chron. VII Michael VII, 7

(٣) Ibid. 18 — 20

ميخائيل الذى تنكر له ولما أسداه اليه من معروف »(١) وقد نتفق مع سوتر فى الشق الأول مما يذهب اليه وهو (وضع) يوحنا الايطالى ، وهو من أخلص تلاميذ بسللوس وأقدرهم ، مكانه فى منصب أستاذ الفلسفة بجامعة القسطنطينية(٢) ، وربما يعود ذلك الى أن مؤرخنا كان قد أصبح شيخا طاعنا فى السن ، أو لأنه أراد أن يتخفف من الأعباء الملقاة على عاتقه بعد أن أصبح أستاذا لميخائيل دوكاس ووزيره الأول الذى يمسك بزمام دفة الأمور فى الدولة ، ويؤيد هذا ما أسلفناه من قول المؤرخ المعاصر يوحنا سكيلتزس .

أما ما يذهب اليه سوتر من القول بتنكر ميخائيل لأستاذه ، فهذا مالا تؤيده الأحداث ولا حتى كتابات بسللوس ، فمؤلفه « التاريخ الزمنى » ينتهى فجأة ودون توقع عند أحداث الثورة التى قام بها نقفور بوتا نياتس عام ١٠٧٨ ، وهى السنة التى مات فيها بسللوس ، والرسالة التى بعث بها ميخائيل الى نيقفور فى محاولة منه لاثنائه عن بغيته فى الوثوب على العرش .. بل انه قبل ذلك مباشرة يتحدث عن قسطنطين ، الطفل الرضيع لميخائيل « الذى لم ير فى حياته على وجه الأرض جمالا فى مثل جماله » . ولو أن ميخائيل كان قد غدر بأستاذه بسللوس ، لما تردد هذا فى أن يصب عليه غضب قلمه كما فعل مع كثيرين غيره من الأباطرة الذين سبقوه ، ولو حتى بالتلميح الذكى والتورية الساخرة التى يتميز بها كتابه . وفوق هذا وذاك فان الكتاب بهذه الصورة المبتورة يعد دليلا قاطعا على أن بسللوس لم يتمكن من اتمامه لأحداث فجائية تعرض لها ، وهذا فى حد ذاته يشير الى بقائه فى السلطة حتى الاعتزال القهرى لميخائيل السابع .

هذه هى حياة بسللوس السياسية على امتداد أربعين سنة الا قليلا ، أداها بالأسلوب الذى يتفق ومتاهات السياسة ودروبها فى الفترة التى عاش فيها ، « فلم يكن باستطاعته أن يقف بعيدا موقف المتفرج ، والعاصفة تتجمع أمام ناظريه لتذرى بكل شىء . كان عليه أن

(١) Fourteen byzantine rulers. introd. pp. 14 — 17

(٢) راجع « العالم البيزنطى » ص ٢٦٨ .

يحمى نفسه ، وفى بيزنطة فان أحسن وسائل الدفـــاع الهجوم ، ولكن بأسلوب تمويهى . ولكى يتصدى للدعاية المـــاكرة التى أطلقها أعداؤه ، كان لزاما عليه أن يلجأ الى استخدام كل دهاء الساسة الذين لا يرعون الا ولا ذمة » (١). وقـــد نجح بسللوس فى ذلك نجـــاحا بالغـــا ، ولخص حياته السياسية هذه كلهـــا فى عبارة بليغة ... « لست من ذلك الصنف من الرجال الذين اذا ما بـــدأ النزال ولوه دبرهم »(٢) ولا شك انه كان يمتلك من الكفاءات المتعددة الجوانب الشىء الكثير ، الى جانب ذكائه ولمـــاحيته وحسن استقرائه وتقديره للأمور .

فلقد كان بسللوس عالمـــا موسوعيا جمع فى عقله بوعى الكثير من فروع المعـــرفة الانسانية ، مثقفا واسع الثقافة ، قرأ لهوميروس وهزيود وهرودوت وثوكيديدس وديموستنيز وليزياس وثيوفراتس وبلوتارخ ، وفلاسفة الرواقية ، وآباء المســـيحية خاصة جريجورى النـــازيا نزى وبروفيرى وايا مبليخوس وبروكلوس ، وفلاســـفة الاغريق خاصـــة أرسطو ، وفـــوق هؤلاء جميعا محبـــوبه أفلاطون(٣) . وانجز الكثير ابان حيـــاته ، وترك العديد من المؤلفات فى اللاهوت والفلسفة والعلوم الطبيعية وفقه اللغـــة والتاريخ والقانون ، ونظم عددا من القصائد ، وكتب مجموعة من الخطـــب ، وخلف قـــدرا من الرسائل(٤) بحيث يمكن تشبيهه الى حـــد كبير بفوطيوس Photius بطريرك القسطنطينية الأشهر فى القرن التاسع فى ســـعة اطلاعه وتعـــدد اهتماماته

---

(١) انظر : Fourteen byzantine rulers, intod. p. 16.

(٢) Ibid. 17

(٣) Chron. IV 36; VI 61, 150, 169, 175; VI Theod. 9, VII Rom. IV 3; VI 24, 37 — 38

(٤) انظر : Vasiliev, op. cit. I, P. 368.

وأيضا : Baynes & moss. op. cit. p. 237

الفكرية(١) . واتسعت مداركه أيضا لدراسة الطب بل وممارسته فى بعض الأحيان(٢) والفلك والتنجيم(٣) ، والبلاغة والهندسة والموسيقى(٤) ، والى جانب هـذا كلـه العـلوم العسكرية والخطط الحربيـة(٥) . وفى قول بليغ يصف بسللوس نفسه قائلا : « الحقيقة ان ثقافتى عريضة ، والاسئلة التى توجـه الى عديدة ومتنوعة ، بحيث يمكننى القـول انه ليس هنـاك علم من العـلوم لم أجد عنـدى الرغبـة فى دراسته »(٦) .

(١ ، ٢) يتحدث بسللوس عن دراسته للطب ومعرفته الوثيقة بأسرار هذا العلم وممارسته له عندما راح يجادل الطبيب المختص بعلاج الامبراطور اسـحق كومننوس فى نوع الحمى التى أصابت الامبراطور . أنظر Chron. VII. 74 وراجع حاشية ٣ ص ١٥٦ ، ١٥٧

(٣) يقول بسللوس : انى لأعترف حقيقة انى قد ثابرت على دراسة ذلك « العلم » بكل مفاهيمه ولم يكن أى من هذه الدراسة محرما من الكنيسة مادام لا يستخدم بصورة سيئة . ولكنى مع هذا لم اكن أعتقد مطلقا بأن أوضاع النجوم ومساراتها لها أى تأثير على ما يحدث فى عالمنا . انظر Chron. VI Theod II 39

(٤)

(٥) يذكر بسللوس انه كان على دراية واسعة ومعرفة كاملة بفنـون القتال وعلوم الحرب ، وقد توصل الى ذلك من خلال دراساته فى هذا الميدان ، ويتضح هذا من مواقفه المتعددة مع الامبراطور رومانوس الرابع حيث يصفه بأنه كان « جاهلا » بالعلوم العسكرية . ويبدى بالتفصيل اعتراضاته دائما على خططه العسكرية فى حملاته التى قادها ضد السلاجقة فى آسيا الصغرى ، ويقول : « لقد اعتدت دائما أن أوجه النصيحة الصادقة والمفيدة الى الأباطرة ، وحاولت ذلك معه مبينا ضرورة مناقشة الأمور العسكرية واجراء الاسـتعدادات اللازمة قبل اعلان الحرب ، غير أن الثرثارين الذين دأبوا على معارضة كل ما أقول ، قادوا الامبراطورية الى الهلاك » . ويصف تصرف الامبراطور فى احدى معاركه ضد السلاجقة بأنه يدل على « منتهى الحماقة » ويقول فى موضع آخر : « كانت خبرتى الفائقة ومعرفتى المتفوقة فيما يتعلق بالعلوم العسكرية والخطط الحربية شيئا يفوق الوصف ، فلقد درست بعناية تامة كل ما يتصل بالتشكيلات العسكرية وبناء القلاع وحصار المدن وكل ما له أهمية خاصة لدى أى قائد عسكرى ، كل هذه المعرفة حركت فيه « رومانوس » ليس بواعث الاعجاب بى ، بل كوامن الحسد لى ، ومن ثم فقد دأب على معارضتى فى كل شىء ، محاولا التفوق على فى كل نقاش . ولسوف يعلم الكثيرون ممن شاركوا فى هذه الحملة انى لست مبالغا فيما أذكره الآن » . للمزيد من التفاصيل عن المامه بالعلـوم العسكرية وعداوته للامبراطور رومانوس الرابع ديوجينس انظر .
Chron. VII Romanus IV, 3 — 7, 11
Chron. VI Theod

(٦)

على أن أحب هذه الميادين جميعها الى قلب بسللوس كانت الفلسفة(١)، فقد كان يفخر دائما بلقب الفيلسوف وبعمله باعتباره أستاذ الفلسفة بجامعة القسطنطينية ووقف على دراستها حياته جلها (٢) . ولندع القلم الآن لبسللوس ، فليس هناك من هو أصدق منه حديثا عن نفسه . يقول :

« ... كنت آنذاك فى الخامسة والعشرين من عمرى عندما شغلت بالكثير من الدراسات الجادة ، وكانت جهودى مركزة فى ناحيتين رئيسيتين : أولاهما أن أدرب لسانى على الفصاحة حتى أغدو خطيبا مفوها ، والثانية أن أزكى بدراسة الفلسفة عقلى ، فلم ألبث أن امتلكت ناصية البلاغة حتى أصبحت قادرا على أن أصل الى جوهر الموضوع دون عناء ، وأن أعلق عليه منطقيا بأفكارى الرئيسية والنقاط التى يستدعيها المقام . وقد علمنى ذلك أن لا أقف موقف الرهبة أو المرتعد ازاء أى فن من الفنون، ولا أن أتبع كلوصاياه فى كل ناحية شأن الأطفال . فحققت لنفسى سمعة عريضة وأنا بعد غض غرير ، ووطنت نفسى على دراسة الفلسفة ، ولما أيقنت أنى أصبحت على قدر كبير من المعرفة بفن الجدال بشقيه الاستدلالى والاستقرائى ، وليت وجهى بعد ذلك شطر العلوم الطبيعية ، وقادنى طموحى الى معرفة المبادىء الأساسية للفلسفة من خلال الرياضيات .

« واذا لم يجدنى القارىء — خلال استطرادى هذا — ثقيل الظل ، واذا ما سمح لى بالمضى فى حديثى فسوف أضيف الى معلوماته شيئا عن نشاطاتى . هذه الحقيقة التى على وشك أن أقدمها أكسبتنى مكانة مرموقة بين رجال العلم بغض النظر عن أية اعتبارات أخرى(٣) وأنت أيها القارىء سوف تستشعر الصدق فى كل كلمة من كلماتى . فالفلسفة عندما بدأت فى دراستها كانت على شفا جرف هار تحتضر ، على عكس ما كان أساتذتها يؤملون . وقد أعدت اليها أنا وحدى الحياة دون أن أتتلمذ على أحد يستحق الذكر ... ولقد قيل ان اليونان حازوا

---

(١) Ibid. VI 26; VII 81

(٢) Ibid. VI 197

(٣) يشير هنا الى مركزه السياسى وقربه من البلاط .

شهرة واسعة فى هذا المجال ، وانهم عبروا عنها فى كلمات وقضايا مبسطة ، بقى عملهم فى هذا الميدان مقياسا للمستقبل ومعيارا . واذا كان هناك من يهاجم بساطة اليونان ، فانى رحت أتحرى الأمر ، ألتقى بالعالمين ببواطن هذا الأمر ، فأشاروا على بمتابعة دراستى بأسلوب منهجى ، ومن ثم قادنى واحد الى آخر ، ومن بصيص ضوء أبصرت النور الباهر ، ومن هذا الى ذاك حتى انتهيت الى أرسطو وأفلاطون .. ومما لا شك فيه أن من سبقونى كانوا قانعين تماما باحتلال المرتبة الثانية بعد هذين الفيلسوفين ..

« وابتداء بهذين المصدرين أكملت رحلتى نزولا الى أفلوطين Plotinus وبروفيرى Prophyrius وايامبليخوس lamblichus وأدخلت ضمن مسيرتى ذلك الرجل الذى يستحق التقدير والاعجاب بروكلوس Proclus ، ومنه زاد عزمى على المزيد من الدراسة لما وراء الطبيعة مع مقدمة عن العلم التجريدى . ومن ثم فقد بدأت بدراسة المفاهيم المجردة للرياضيات ، وهى التى تتوسط الطريق بين العلوم ذات الصبغة التجريبية والمسائل الذهنية موضوع الفكر الخالص(١) .

« ... أقول هذا بكل الصدق والاخلاص دون أى خيلاء .. فأنا لست ممن يخدع بانطباع زائف عن أهميتى الخاصة ، ولست جاهلا بمدى قدراتى ، وان مقدرتى لتتضاءل جدا اذا ما قورنت بكفاءة أولاء الفلاسفة وأساتذة البيان الذين يفوقوننى .. غير أنه اذا ما أراد أحد أن يثنى على جهدى ، فليكن ذلك بالأحرى راجعا الى أنى استلهمت معايير الحكمة من ينابيع طمرت مع الزمن ، ذلك أن المصادر التى اكتشفتها كان قد نضب معينها .. وكان على أن أجلو بنفسى ما علق بها . بل ان مياهها كانت فى الأعماق قد غاضت ، ولم تطف الى السطح من جديد الا بعد أن نتحتها بالجهد كل الجهد ..

« واليوم .. فان أثينا ونيقوميديا والاسكندرية وفينيقيا ، بل وحتى روما القديمة وسميتها الجديدة (القسطنطينية) لم يعد لأى منها أن تتباهى

---

(١) Chron. VI 36 — 39

بشيء من الأعمـــال الأدبيـــة ، ذلك أن ما تم ابـــداعه فى العصور الذهبيـــة والفضية المـــاضية قد توقف وأصـــبح بعيد المنـــال ، ولذا فان المصـــادر الأصلية التى لم استطع الحصـــول عليها أو التوصل اليهـــا ، دفعتنى الى الاستعاضة عنهـــا بالنسخ غير الأصلية التى تحاكيها . والتهم عقلى بنهم كل ما وقـــع تحت يدى ، ومنها جمعت كل معلوماتى ، ولم أحقـــد على أحـــد مشاركته لى فيما وصلت اليـــه فى هذه الرحلة الشاقة . لقـــد كنت أرحب دوما بكل من يريـــد أن يتعلم عنى ، ولم أطلب من أحـــد أبـــدا أن يدفـــع لى أجرا عن محاضراتى ، بل كنت على استعداد لمد يد العون الى الطـــلاب الحريصين على تحصيل العـــلم من جيبى الخاص . لقـــد كانت أزاهير حياتى تشير الى مستقبل باهر حتى قبل أن تصبح قطوفها دانية »(١) .

ويبدو بسللوس فى حديثـــه على قدر كبير من الثقـــة بالنفس والاعتزاز بهـــا بل والتعـــالى فى بعض الأحيـــان ، وقـــد نلتمس له العـــذر حقـــا فيما يذهب اليه ، ذلك أن الفلسفة بعـــد الازدهار المتزايـــد الذى حققته بمرور سنى القرون الثمانية الأولى للميلاد ، أخذت تتولى الى الظل بصفة عامة خلال القرنين التاسع والعـــاشر فى بيزنطة ، ولعـــل هذا يعود فى الدرجة الأولى الى أن هذين القرنين وبداية القرن الحادى عشر شهدت اهتمام الامبراطورية، تحت ســـيادة الأباطرة العسكريين ، بمجابهة التحديات الخارجية على الجبهات الشـــمالية والشرقية والغربيـــة ممثلة فى العنـــاصر الصقلبية وجماعات البشـــناق والمسلمين والبلغـــار ، بينما راح النشـــاط الثقافى يأخـــذ طريقه رويـــدا نحو الاضـــمحلال . وقد لاحظت ذلك كاتبـــة القرن الثـــانى عشر أنا كومننا Anna Comnena ابنة الامبراطور الكسيوس كومننوس ، عندما ذكرت أن التعليم قـــد أهمل من جانب الغـــالبية العظمى من الناس ، وان لم يصل الى الحضيض(٢) . هـــذا من ناحيـــة ، ومن الأخرى فان التـــدهور الفكرى يرجـــع أيضا الى استقرار الفكر الارثوزكسى بعـــد الصراع حـــول

---

(١) Ibid. VI 42 — 43, 44

(٢) Baynes & Moss, op. cit. p. 217

الايقونات خلال القرن الثامن وأوائل التاسع(١) ، وزيادة الحركة الرهبانية وروح الديرانية التى كانت تنظر الى الفلسفة الوثنية باعتبارها شرا محضا وعملا يوسوس به الشيطان ، حيث كانت الفلسفة الوحيدة الحقيقية فى نظر الرهبان آنذاك هى « طلاق العالم » . بل ان اعادة تنظيم جامعة القسطنطينية على يد القيصر باراداس Bardas فى القرن التاسع ، وصاحب القلية المتحررة ، والبطريرك فوطيوس ، لم يد الى اعادة احياء الفلسفة مرة ثانية . ولم يتيسر ذلك الا فى أوائل النصف الثانى من القرن الحادى عشر عندما أعيد تنظيم الجامعة على عهد قسطنطين التاسع وكان الفضل الأول فى ذلك يعود الى بسللوس(٢) .

غير أن هناك — كما يقول بسللوس — « نوعا جديد من الفلسفة تقوم أساسا على الغموض الذى يكتنف العقيدة المسيحية ، وهذه الفلسفة تتخطى ما عرفت من قبل . وهذا الغموض يشتمل على مفهومين : الأول فى الطبيعة ، أعنى الناسوتية واللاهوتية ، والثانى فى الزمن أعنى النهائية والسرمدية . وهذه هى الفلسفة التى أصبحت موضع دراستى الخاصة دون بقية الفلسفات الأخرى »(٣) .

والحقيقة أن الفلسفة حظيت بنصيب كبير من الدراسة والاهتمام فى بيزنطة باعتبارها سندا وتدعيما للمسيحية فى مقاومتها لأعدائها من الفلاسفة الوثنيين . وكان كلمنت Clemens (١٥٠ — ٢١٥) رئيس مدرسة الاسكندرية اللاهوتية فى اخريات القرن الثانى يعتمد الجدل فى مواجهة ميثولوجيا الاغريق(٤) ، ولما كان شأن الفيلسوف سقراط يعتبر الجهل أكثر

(١) للمزيد من التفاصيل عن الحركة اللايقونية ، راجع البحث القيم الذى كتبه دكتور أسد رستم تحت عنوان « حرب فى الكنائس » ونشر فى بيروت سنة ١٩٥٨ . وانظر أيضا :

Hefele, a history of councils of the church, Vol. V.

وكذلك Percival, the seven ecumenical councils of the undivided church (in Nicene and post nicene fathers of the christian church, Vol. XIV 2, p. 523-587

(٢) انظر C.M.H. IV 2 p. 245 وكانت الفلسفة قد حظيت بكرسى لها منذ صدر قرار تنظيم الجامعة سنة ٤٢٥ .

(٣) Chron. VI 42

(٤) Burkitt, the christian church in the east p. 480

اثما من الرذيلة ، فقد تحمس لدراسة الفلسفة جنبا الى جنب اللاهوت(١) ، وراح يهاجم أولئك الخصوم الذين يخافون الفلسفة ، خوف الطفل من القناع، ولم يدخر وسعا فى سبيل تبيان ضرورة دراسة الفلسفة باعتبارها سلاح آباء الكنيسة للرد على فلاسفة الوثنية وسبيلهم الى تقديم المسيحية فى ثوب علمى(٢) . ولم يكن هذا بالغريب على كلمنت فهو ينتمى الى أصل أثينى، وعايش فلسفات اليونان ثم جاء الى الاسكندرية يحمل معه الكثير من الأفكار والآداب والفلسفات اليونانية(٣) .

وخلال القرون الستة الأولى للميلاد كانت الفلسفات الأفلاطونية والأرسطية والرواقية تلقى ذيوعا وانتشارا ، وأحرزت كل من الاسكندرية وأنطاكية قصب السباق فى هذا الميدان ، وان اختلف طريق كل منهما عن الأخرى . فقد أرسى أوريجن Origenes (١٨٥ — ٢٥٤) السكندرى قواعد الفكر والمنهج واللاهوت الأفلاطونى فى مدرسة الاسكندرية بعد أن درس الفلسفة على يد فيلسوف الاسكندرية الأشهر أمونيوس ساكاس Ammonius Saccas أبى الأفلاطونية المحدثة وأصبح علما على مدرسة الاسكندرية المجازية الصوفية فى تفسير الكتاب المقدس ، وصاحب عقيدة الايمان المزدوج(٤) . على حين سار لوسيان Lucianus فى أواخر القرن الثالث بالمدرسة الأنطاكية نهجا أرسطيا عقلانيا محضا فى تفسير الكتاب المقدس،

(١) Atiya, a history of Eastern christianity, p. 34

(٢) Neander, history of christian dogmas, vol I. p. 63

(٣) أنظر Creed, Egypt and the christian church, p.302.

(٤) أنظر Cantor, Medieval hist. p. 72 وكان أوريجن يعتقد أن فهم الكتاب المقدس يرتبط بالانسان نفسه ، اذ أن وراء اياته معنيين : أحدهما المعنى الظاهرى أو التفسير الحرفى . والآخر هو المعنى العميق الروحى الذى لا يصل اليه الا الخاصة . وقد أثارت آراؤه هذه خاصة فكره عن الله ، جدلا كثيرا حتى القرن السادس الميلادى،فالله عنده خالق منذ الأزل وليس فى زمان بعينه والا عد ذلك تغيرا فى ذات الله والتغير ليس من صفاته . والله الأزلى خلق أو ولد كلمته « اللوجوس » الابن ، الذى على الرغم من كونه ليس الها حقا ، الا أنه يشارك فى جوهر الاب . والابن فى رأيه هو العقل المنظم للعالم ، خلقه الله وجعله له تاليا ، وكذلك الروح القدس يأتى فى مرتبة تالية شأن الابن . ولا شك ان اللاهوت الأفلاطونى واضح كل الوضوح فى هذه الأفكار ، وهى نفس الأسس التى بنى عليها آريوس السكندرى معتقداته فى القرن الرابع الميلادى .

وازدهرت على يد رجلها المقتدر يوحنا ذهبى Johannes Chrysostomos (٣٤٥ — ٤٠٧) الذى كان تلميذا للفيلسوف الانطاكى الكبير ليبانيوس Libanius (٣١٤ — ٣٩٣) ، وامتد أثرها بصورة واضحة الى آسيا الصغرى وبلاد اليونان .

وحتى القرن السادس كانت الافلاطونية والارسطية تستبقان ، وان كانت الأفلاطونية قد لاقت رواجا كبيرا حتى أوائل القرن الخامس تقريبا ، وصبغت اللاهوت المسيحى بصورة واضحة ، ووجدت سبيلها أيضا بين بعض الرهبان الذين كانوا يسمون أنفسهم « فلاسفة »(١) ، ثم راجت تتوارى لتحتل الأرسطية مكانة عالية ولعل ذلك يعود من ناحية الى الهجوم الذى شنه آباء الكنيسة على الفكر الاوريجنى — السكندرى الأفلاطونى بصورة مستمرة وعنيفة طوال القرنين الخامس والسادس ، ومن ناحية أخرى الى دخول الاسكندرية تحت السيادة الاسلامية فى القرن السابع مما أتاح الفرصة للفكر الأرسطى للذيوع خلال القرون التالية ، وتمثل بصورة خاصة فى أعمال ماكسيموس المعترف ويوحنا الدمشقى .

لا شك اذن فى أن المسيحية فى أصولها وتاريخها الباكر كانت على علاقة وثيقة ببلاد اليونان . ولما كان ما يعرف بعالم المسيحية لفترة تزيد على الألف سنة ، منذ مال قسطنطين الى تأييد المسيحية فى أوائل القرن

---

(١) انظر C.M.H.IV, 2, 195 ورغم اغراق بسللوس نفسه فى الحياة «الرغيدة» كما كان يحلو له أن يسميها ، ويعنى بها حياة البلاط ، الا انه كان ذا نزعة تصوفية فى بعض الاحيان ، وعلى الرغم من أنه لم يستطيع مع الرهبانية صبرا عندما حاول أن يسلك دربها ، لأسباب سياسية ، الا أنه كان يبدو معجبا بهذه الحياة ، وبتعبير أدق « من بعيد » ولعل هذا يصدق تماما فى بواكير حياته وقبل أن يجرفه تيار « الرغد السياسى » اذا صح هذا التعبير . ونلمس ذلك فى حديثه عن الفلسفة وأصحابها وقبل ان يصبح استاذا لكرسيها فى جامعة القسطنطينية ، يقول : « انى على يقين من أن الرجل « ميخائيل الرابع » كان نموذجا يحتذى فى التقوى بعد اعتلائه العرش ، ليس فقط بسبب اقدامه على اقامة كنيسة ، ولكن لأنه أعطى اهتماما خاصا للفلاسفة ، ولا أعنى بالفلاسفة أولئك الذين يحاولون التوصل الى معرفة حقائق الكون ويهملون مبادىء خلاصهم ، ولا أولئك الذين يعملون فكرهم فى ماهية الكون ، ولكنى أعنى هؤلاء الذين يحتقرون العالم ويعيشون مع الكائنات فوق هذه الدنيا » . انظر Chron. IV, 34.

الراسخ ، مجتمعا يتكون بصفة خاصة من شعوب تستمد نظمها الثقافية وتقاليدها الفكرية ، سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، من الثقافة اليونانية — الرومانية للعالم القديم ، فانه ليس من المبالغة فى شىء القول بأن فلسفة العالم المسيحى فى تلك القرون قد تشربت بعمق نظم وأفكار العقل اليونانى ، والمعتقدات غير المسيحية خاصة أفكار الفلاسفة الوثنيين ، بحيث يمكن اعتبارها بصفة مؤكدة امتدادا طبيعيا للفلسفات القديمة(١) . وبحيث يمكن القول أيضا بأنها تبلورت بشكل واضح لتصبح « فلسفة مسيحية » فى القرن الثالث عشر على يد توماس الاكوينى Thomas Aquinas ، أما فى القرون السابقة على هذا القرن فمن المفضل أن نطلق عليها « مسيحية مفلسفة » .

ورغم أن الأفلاطونية الأوربجنية قد لقيت العنت كثيرا ، الا أن الفكر الأفلاطونى فى صورته الكلاسيكية ، أو بنمطه الجديد فى الافلاطونية المحدثة كان له مريدوه . ومرد ذلك الى أن أفلاطون كان قد أصبح بالنسبة لكل الأجيال التالية المصدر والنموذج لاولئك الذين يتوقون الى الحقيقة المطلقة التى يمكن أن يعزى اليها كل شىء(٢) . ومن ناحية أخرى فان أفلاطون هو ذلك المثالى الذى صاغ هذه الحياة ونظمها فى « مدينة فاضلة ». بينما أرسى أرسطو الواقعى ، بقدمه الراسخة على الأرض فى دولة المدينة اليونانية ، خطوط الحياة السعيدة المثمرة فوق هذه الأرض . وأفلاطون كان واحدا من أعظم المفكرين الذين ينشدون الفضيلة . فكثير من كتاباته يتعلق بهذه الناحية . ولقد كانت الحياة بالنسبة له تمثل صراعا بين الخير والشر ، ومن ثم كان لابد أن يتقبل — باعتباره فيلسوفا — القول بأن من يكسب العالم ويخسر الروح ، فقد خسر خسرانا مبينا . أما ارسطو فقد كان نصيب العقيدة عنده أقل ، والله أقل أهمية من المسلمات الميتافيزيقية (٣) .

---

(١) Knowles, the evolution of medieval thought, P. 3.
وراجع أيضا : موس : ميلاد العصور الوسطى ، مترجمة عبد العزيز جاويد ، ص ٣١ — ٣٣ .

(٢) Knowles, op. cit. P. 5.

(٣) Ibid. PP. 5 — 6

ولقد اقترب أفلاطون كثيرا فيما يتعلق بالنظرة العامة للحياة والقدر الانسانى مما هو موجود فى المزامير العبرية أو النسك المسيحى ، وليس غريبا أن تعد محاوراته عن خلود الروح شيئا أساسيا بالنسبة للأباء المسيحيين المدافعين عن العقيدة ، بل ليس غريبا أيضا اعتباره من جانب بعض آباء الكنيسة الاولى ، مسيحيا قبل المسيحية أو اعتباره واحدا ممن أخذوا بعض آرائهم اللاهوتية عن العهد القديم . لقد بدا للبعض فى معتقده عن العقل الالهى أنه يرمز الى المعتقد المسيحى عن « اللوجوس » أو « الكلمة الابن »(١). وقد كتب يوحنا موروبوس Mauropous أستاذ بسللوس وصديقه ؛ مقطعا شعريا يتوسل فيه الى المسيح أن ينظر بعين العطف الى كل من أفلاطون وبلوتارخ ، حيث كانت عقيدتهما قريبة جدا الى تعاليم الانجيل (٢) .

من هنا كان اهتمام بسللوس بأفلاطون وفكره والافلاطونية المحدثة، ومن ثم راحت هذه فى زمانه تتحدى سيطرة الفلسفة الأرسطية . لقد كان ينظر الى أرسطو على أنه مجرد بداية أساسية لدراسة المنطق والطبيعة ، ولكنه جعل اهتمامه الأساسى بالافلاطونية لأنها فى رأيه تعد الدليل الحقيقى لدراسة الميتافيزيقيا التى تعتبر قمة الدراسات الفلسفية ، والتى لا بد أن تقود بالضرورة فى نهاية الأمر الى المعرفة اللاهوتية ، ومن ثم فانه لا يختلف عن أسلافه الذين درسوا الفلسفة كمقدمة لابد منها لتعميق الفكر والجدل اللاهوتى ، ولهذا فانه لما تحدث عنه صديقه يوحنا اسيفيلينوس فى نغمة تحمل طابع النقد حول تعلقه « بأفلاطونه » الى حد كبير جدا ، كان بسللوس على استعداد للاعتراف بأن الفلسفة التى هى التاج الذى يزين مفرق الدراسات العلمانية ، لا يمكن أن تعد فى ذاتها شيئا ذابال ، ولكنها مجرد اعداد للدراسات اللاهوتية . ولا ريب أن هذا الاتجاه كانت له آثاره البعيدة من حيث احباط التفكير الفلسفى الخالص فى كثير من الأحيان(٣) .

---

(١) Ibid. p. 11

(٢) C. M. H. IV, 2, P. 196 .

(٣) أنظر : العالم البيزنطى ص ٣٤٣ — ٣٤٤ ، وأيضا :
C.M.H. IV, 2, P, 245,
Chron. III, 3 وقارن

والحقيقة أن بسللوس كان أفلاطونيا محدثا متطرفا ، وهـذا يبـدو واضحا فى احدى محاوراته مع الامبراطور قسطنطين التاسع مونوماخـوس ، عنـدما راح يحدثه عن « العلة الأولى ، عن الخير المطلق وعن الفضيلة ، عن الروح ، ويبرهن له كيف أن الروح يمكن أن ترى فى الجسد ، وكيف يمكن أن تهفو خارجه وان كانت فى الوقت ذاته متصلة به »(١) وقد ترك هـذا أثره دون شك على معالجته للاهوت المسيحى حين يذكر أنه « اذا كنت أتفـق مع آباء الكنيسة الأول فى بعض المسائل المتعلقـة بقانون الايمان ، فانى من ناحيـة أخرى توصلت بفكرى الى بعض الآراء المغـايرة فيما يتعلـق بالتجسد »(٢) .

ولم يكن بسللوس راضيا عن ذلك الاتجـاه الدينى المتطرف الذى يقـوم عليـه آباء الكنيسة والرهبان من ذوى الفـكر المنغلـق ، متمثلا فى الاصرار على سمو الأمور العقيدية باعتبارها مسلمات ، على العقل الانسانى . ويقول: « لقد سمعت عن فلاسـفة مبرزين قولهم ان هنـاك حكمة أو معـرفة عليـا تسمو على كل الأدلة ، وهذه يمكن ادراكها فقط بعقل رجل فطن فى لحظة من لحظات الالهام »(٣) ويظهر سخطه هذا أيضا فى عـدم اصطباره على حيـاة الرهبانية ، مع ادخال العـوامل الأخرى التى ذكرناها آنفـا فى الاعتبـار ، بينما وجد صديقه اكسيفيلينوس نفسه فى حيـاة التأمل ، وأبدى — امتعاضه لانتزاعه من الدير ليعتلى عرش القسطنطينية الاسقفى سنة ١٠٦٣ . وقد أدى موقف بسللوس هذا وآراؤه العقيدية الى اتهـامه بالهرطقة ، غير أنه تمكن من التخلص من هـذا الاتهـام باعتراف سطحى تلفيقى بالأرثوذكسية قبلته منـه الكنيسة(٤) . بينما فشل تلميذه وخلفه على كرسى الفلسفة فى الجامعـة ؛ يوحنا الايطالى ، فى تدبيج مثل هـذا الاعتراف ، مما أدى الى دخـوله فى صراع مع السلطات الكنسية والزمنيـة فى القسطنطينية ، وانتهى الأمر بادانتـه وحرمانه على عهـد الامبراطور ألكسيوس كومننوس (١٠٨١ — ١١١٨)

---

(١) Chron. VI, 197

(٢) Ibid. 42.

(٣) Ibid. 40

(٤) C.M.H. IV, 2, PP. 82, 245

وأيضا : العالم البيزنطى ص ١٦٧ — ٢٦٨ .

والحقيقة أنه رغم الشهرة العريضة التى حققها بسللوس فى النواحى الفكرية ، إلا أنه لم يسمع به خارج الدوائر الثقافية البيزنطية ، وهذا هو شأن فلاسفة الأفلاطونية البيزنطيين بصفة عامة(١) .

ولقد كان بسللوس يهتم اهتماما بالغا باختيار كلماته وتنميق عباراته حتى فى كتاباته الفلسفية ، الى الحد الذى لم يكن يفصل فيه بين الموضوع الفلسفى والمقال البيانى ويضحى باللائمة على أولئك الذين يرسون البيان بينما يحتقرون الفلسفة ، فهذه فى نظره ليست أقل اهتماما بتدبيج الكلمات من البيان . ومن ثم فانه حسب قوله عندما يعد خطبة فانه يقدم البراهين والادلة العلمية مع الكياسة المقبولة .. وقد تعرض للنقد واللوم من جانب البعض الذين يكرهون الطريقة التى يبدع بها المقال — الفلسفى بفن البلاغة الرقيق ، ولكنه يدفع عن نفسه هذا النقد مبينا أن هدفه الأساسى من وراء ذلك هو مساعدة القارىء عندما يجد من الصعب عليه استيعاب الأفكار الفلسفية العميقة ، وحتى لا يفقد سياق الحوار الفلسفى(٢) .

وبسللوس يعتز بفصاحته وبلاغته وحسن بيانه ، اعتزازه بثقافته وسعة اطلاعه وفلسفته . عندما وجد من الامبراطور قسطنطين التاسع اعراضا عن حديث الفلسفة ، « وأحسست رغبته فى تغيير موضوع المناقشة ، كان على أن أتحول الى البلاغة عروس الشعر والأدب ، وأن أقدم له جانبا آخر من جوانب تفوقى ، مدخلا على نفسه البهجة بكلمات ايقاعية »(٣) . ويستطرد : « ان أهم ما يميز لغتى رقتها والعذوبة ، ورغم أنى لا ألهث من أجل وقع كلماتى على سامعيها ، فان حديثى به رنة جمال طبيعى ، وهذا شىء لم أكتشفه فى نفسى بل قاله لى كثيرون وأنا أحاورهم ، وذلك أن أحدا منهم لم يكن يصغى الى بفكر شارد ، وكيفما كان الأمر فان تلك الصفات كانت أول ما قربنى من الامبراطور ، وكانت طلاقة لسانى تعطيه احساسا بما هو فى أعماق نفسى كامن .. لقد تملك قسطنطين عند لقائى الأول معه شعور غريب بالبهجة على نحو مبهم غامض شأن منطوق الوحى الالهى ، يخرج من بين

(١) C.M.H. IV, 2, P. 373

(٢) Chron. VI, 41

(٣) Ibid. 197.

شفتى رجال احتوتهم غيبوبة التجلى . وقـد وضح تأثير كلماتى عليه مباشرة، فما أن سمع صوتى حتى كان قاب قوسين أو أدنى من عناقى ... ان عين قسطنطين لم تقـع على قبل اعتلائه العرش ، ولكنه ما أن رآنى حتى أخـذ بفصاحتى وبدا كما لو كانت أذناه قد علقت بشفتى »(١) .

ولم يقف حـد الاعجاب ببسللوس عنـد قسطنطين التاسع وحـده ، بل نعداه الى جملة الأباطرة الذين خلفوه ، فميخائيل السادس « تذوق العسل ينساب من بين شفتيه »(٢) ، واسـحق كومننوس « يحمل لحديثه كل الاعجاب والتقـدير »(٣) وتعلق به قلب قسطنطين العـاشر لفرط ولعه بالبيـان « وارتوى من نبعه حتى سكر وكانت كلماته له هى ماء الحيـاة أو شراب الآلهة(٤) أما يودوسيا فكانت تنظر اليه نظرتها الى اله »(٥) .

والحقيقة أن لغة بسللوس فى الحديث أو الكتابة ، كانت تأخذ بالأسماع والألباب ، فهو يختـار عباراته بدقـة موفقة ، ويستخدم التورية الذكية . وكان من بين الكتاب البيزنطيين القـلائل الذين كتبوا باليونانية الكلاسيكية ، ولغته تعد لغـة حية طبيعية وغير مصطنعة على العكس من تلك الكاتبـة التى أعجبت به فيما بعد ، الأميرة المتخذلقة أناكومننا التى تتعمد الصـنعة اللفظية فى كتابتها (٦) . ومما لا شك فيه أن سحر بيانه وفصـاحته وذكاءه ولمـاحيته ، أدت كلهـا دورها بمهارة عاليـة وكفـاءة فطنة فيما ذهب بـه بسللوس من قدرة على البقـاء فى كنف البـلاط الامبراطورى المتقلب قرابة الأربعين عاما .

---

(١) Ibid. 45 — 46, 161

(٢) Ibid. VII, 16

(٣) Ibid. 42

(٤) Ibid. VII, CONST. X, 7, 25.

(٥) Ibid. VII, Eudocia, 1 — 9

(٦) انظر C.M.H. IV, 2, P. 230

Baynes & moss, op. cit. p. 256

وكذلك : Fourteen Byzantine Rulers, introd. p. 18

واذا كنا قد تناولنا حتى الآن بالحديث بسللوس السياسى الأريب ، والبيانى المفوه ، والفيلسوف ، فان بسللوس المؤرخ لا يقل عن هؤلاء جميعا شهرة واقتدارا بل ربما فاق تاريخه تفلسفه ، اذ يكاد يكون هناك شبه اجماع بين الدارسين البيزنطيين على أن « التاريخ الزمنى » Chronographia الذى وضعه بسللوس يحتل مكانا مرموقا وسط الكتابات التاريخية فى العصور الوسطى ، وبغض النظر عن قيمته الحقيقية فى حد ذاته باعتباره مذكرات شاهد عيان على قدر كبير من الثقة والذكاء ، فانه لا يمكن أن ننكر كونه عملا فنيا رائعا(١) ونستطيع للوهلة الأولى ومن المقارنة الظاهرية فقط بين «التاريخ» Historia الذى وضعه سلفه ليو الشماس و « الألكسياد » Alexiad الذى كتبته خالفه أناكومننا ، من ناحية ، و « التاريخ الزمنى » مؤلف بسللوس من ناحية ثانية ، أن نتبين طبيعة هذا العمل التاريخى وخصائصه ، فالأول تحدث عن مرحلة من مراحل الحرب البلغارية على عهدى نيقفور فوقاس ويوحنا تزيمسكس وهى الفترة الواقعة بين عامى ٩٥٩ — ٩٧٥ . وتعود أهميته الى أنه يكاد يكون المصدر اليونانى الوحيد عن أحداث هذه الحرب . والثانى يتناول عهد الامبراطور الكسيوس كومننوس (١٠٨١ — ١١١٨) . أما عمل بسللوس فيتناول بين الاطناب والايجاز عهود أربعة عشر امبراطورا يمتد حكمهم الى قرن كامل(٢) . فاذا علمنا أن باسل الثانى وحده يحتل من هذا القرن نصفه (٩٧٦ — ١٠٢٥) أدركنا على الفور أهمية الفترة التاريخية التى يعالجها المؤلف ، وبالتالى قيمة الكتاب ، خاصة وأن هذه الفترة — كما ذكرنا — تمثل منعطفا خطيرا فى عمر الامبراطورية البيزنطية ، ويزيد من

---

(١) Fourteen byzanting rulers introd. p. 15.

(٢) هؤلاء الاباطرة هم باسل الثانى (٩٧٦ — ١٠٢٥) ثم قسطنطين الثامن (١٠٢٥ — ١٠٧٨) فرومانوس الثالث (١٠٢٨ — ١٠٣٤) فميخائيل الرابع البافلاجونى (١٠٣٤ — ١٠٤١) فميخائيل الخامس (١٠٤١ — ١٠٤٢) فالعهد المشترك لثيودورا وزوى (١٠٤٢) فقسطنطين التاسع مونوماخوس (١٠٤٢ — ١٠٥٥) فثيودورا منفردة (١٠٥٥ — ١٠٥٦) فميخائيل السادس ستراتيوتيكوس (١٠٥٦ — ١٠٥٧) فاسحق كومننوس (١٠٥٧ — ١٠٥٩) فقسطنطين العاشر دوكاس (١٠٥٩ — ١٠٦٧) فيودوسيا (١٠٦٧) فرومانوس الرابع ديوجنيس (١٠٦٨ — ١٠٧١) ثم ميخائيل السابع دوكاس (١٠٧١ — ١٠٧٨) .

هذه الأهميـــة مشاركة بسللوس ـــ على النحو الذى راينا ـــ فى الحيـــاة السياسية ومعايشته للبلاط البيزنطى على عهود تسعة من أباطرة هذه الفترة . والكتاب من ناحيـــة أخرى يمثل استكمالا طبيعيا لـــ « تاريخ » ليو الشماس دون انقطاع ، ومدخلا تلقائيا لـــ « الكسياد » أناكومننا .

قسم بسللوس تاريخـــه الزمنى الى كتب سبعة ، اختصت الســـتة الأولى منها بالأباطرة الاخيرين للأسرة المقدونية ، ابتـــداء بباسل الثانى منـــذ توليه العرش عام ٩٧٦ ، وانتهـــاء بثيودورا الابنـــة المسنة لقسطنطين الثامن، وآخر سلالة البيت المقدونى ، والتى بموتها ينتهى الكتاب السادس ، مرورا بالاباطرة الذين انتموا لهذه الاسرة وهم أزواج زوى الثلاثة ، رومانوس الثالث وميخائيل الرابع وقسطنطين التاسع ، وابنهـــا بالتبنى ميخائيل الخامس . والكتاب السادس وحده يمثل الجزء الرئيسى فى هذا المؤلف بصـــفة عامة ، اذ يحتل وحده ثلث صفحات الكتاب ، بينما يشغل الكتاب السابع والأخير الثلث الثانى الذى يعد أباطرته مرحلة انتقـــال بين البيت المقـــدونى والاسرة الكومننية و « التاريخ الزمنى » لبسللوس بصورته هذه يختلف تماما عما جرت العـــادة باتباعه فى كتابة التواريخ الزمنية ، فقـــد جرى مؤلفها على كتابة « تواريخهم » هذه ببداية الخليقـــة أو على الأقل بميلاد المسيح ، مستمدين معلوماتهم عن ذلك الزمن السحيق من الكتاب المقدس بعهديه القـــديم والجديد . أما بسللوس فقـــد خرج عن هذه القاعدة وان لم يكن أول من اقـــدم على ذلك .

وباستقراء تاريخ بسللوس يتضح أن الكتب الستة الأولى والفصلين الأولين من الكتاب السابع ، كانت هى « التاريخ الزمنى » فى صورته الأصلية ، أو بتعبير آخر ، حسبما خطط له صاحبـــه . فهو يذكر فى الفصل الثـــانى من الكتاب السابع ، وقد خص به اســـحق كومننوس ، أنه سيعرض لسيـــاسة الامبراطور ومحاولاته العديدة للقضاء على الفساد الادارى والمـــالى فى الدولة ، وكيف منيت هذه الجهود كلها بالفشل ، ويقـــول : « وعنـــدما أتم ذلك فسوف أضيف تقريرا عن نهـــاية عهده ثم أنهى تاريخى »(١) ويتبع هذا فعلا باستعراض

---

(١) Chron. VII, 51

ملخص وسريع لكل الأباطرة الذين تناولهم بالحديث سابقا ابتداء بباسل الثانى وخلفائه جميعا وانتهـاء باسحق ، وكأنها خاتمة يوجز فيهـا ما فصله على صفحات مؤلفة من قبـل ، وليقارن بين جهودهم وأعمال الامبراطور اسـحق فى تقريره النهـائى الذى وضعه عن سياسته(١) . ولمـا كان هذا الجزء من المؤلف يتسم فى جملته الى حـد كبير بالموضوعية ودقة الملاحظـة والنقد الجاد أحيانا ، فمن المحتمل أن يكون قد وضع فى عهـد قسطنطين العاشر دوكاس (١٠٥٩ — ١٠٦٧) . ويعود هذا الاحتمال الى أن الأمور كانت قد اسـتقرت بالنسبة لبسللوس وصفا له الجـو تماما ، فالامبراطور صديقه الحميم « وقد حصل فى كنفه على مرتبة سامية » وهـو أحـد زملاء الدراسة لدى أستاذهما يوحنا موروبوس ، وصديقـه قسطنطين ليخودس هو أسقف العاصمة . ومن ثم فقد وجد بسللوس لديه الفرصة السانحة لكتابة تاريخه هذا بأناة وروية(٢) .

أما الجزء الثانى وهـو الذى يتضمن الفصـول الأربعـة الأخيرة من الكتاب السابع والذى جـاء آخره مبتورا ، فيبدو أنه كتبه على عهد تلميـذه ميخائيل السابع ، فهو يطلب الى قرائه أن يثقوا فى صدق حديثـه وأن لا يتطرق الشك الى عقولهم فى كلماته هذه لأنهـا كتبت على عهـد الامبراطور ، « ذلك أن السبب الرئيسى الذى دفعنى الى أن آخذ على عاتقى مهمة كتابة هـذا التاريخ هو أن هـذا الانسان يفـوق كل من عرفناهم من قبـل»(٣) . ويبدو أيضا أن هـذا الجزء كتب على عجالة وعلى سـبيل التذييل على الكتاب الأصلى ، حيث نجد بسللوس فى كل فصل من فصوله يذكر أنه سوف يتحدث عن هـذا الامبراطور أو ذاك « بصورة مختصرة » أو « حسبما تسمح المساحة » وهكذا . وهـو يختلف أيضا عن بقيـة المؤلف فى كونه يعد تقريظـا مستمرا للأباطرة

---

(١) Ibid. 52 — 65

(٢) يميل سوتر Sewter فى تقديمه لترجمة « التاريخ الزمنى » الى تحديد عام ١٠٦٣ زمنا لتأليف هذا العمل .
أنظر : Fourteen byzantine rulers, introd. p. 15

(٣) Chron. VII, Mich. VII, 1

الذين شغلوا هذه الفترة ، باستثناء رومانوس الرابع ، ولهـذا فهو يبتعد عن الموضوعيـة بصورة واضحة عنـه فى الجزء الأول .

ويمكننا أيضا من خلال هذا الاستقراء أن نقسم « التاريخ الزمنى » الى أقسام ثلاثة من حيث القيمة المصدرية . فهو يفتتح الكتاب الثالث بالتصريح بأن روايتـه منذ الآن سوف تكون أكثر دقـة من ذى قبـل ، ويعلل ذلك بأنه كان فى السابعة من عمره عنـدما مات باسل الثانى ، بينما أنهى قسطنطين الثامن حياته وهـو فى العاشرة ؛ ويقـول : « ولم تتح لى فرصة رؤيتهما مطلقـا ولم أسمع لحديثهما أبـدا . وحتى لو كنت قد رأيتهما فانى لا أملك المقـدرة على الحديث عنهما ، فقـد كنت صغيرا الى الحد الذى لا أستطيع معه أن أذكر عنهما شيئا . غير أنى رأيت رومانوس الثالث وتحدثت اليه ذات مرة ، ولهـذا كان طبيعيا أن تكون ملاحظاتى وتعليقاتى على الامبراطورين الأولين مستمدة من الآخرين ، بينما روايتى عن رومانوس صادرة عنى مباشرة »(١) .

ولكنه يذكر فى موضع آخر فى معرض حديثـه عن العـلاقة بين رومانوس الثالث وزوجه زوى وعشيقها ميخائيل (الرابع فيما بعد) أنه استقى معلوماته هذه من أحـد الرجال المقربين لدى القصر ، والذى كان يعرف الكثير من أسراره . ويضيف أن لديه رواية أخرى عن هذه الأحـداث(٢) . وهـذا يدل على أن بسللوس لم يكن قد أصـبح بعد « مقربا » للقصر . وقد علمنـا أنه بـدأ عمله فى البـلاط سكرتيرا لميخائيل الخامس من بعـد . وعليه يمكن القـول بأن بسللوس استمد مادته التاريخيـة للكتب الأربعـة الأولى من المعمرين ورجالات البـلاط وأصدقائه السياسيين ، ومن ثم جاءت معلوماته خلالهـا سطحية وغير مكتملة اذا ما قورنت بالكتابين السادس والسابع . ولعل أوضح الأمثلة على ذلك أن عهـد باسل الثانى الذى استغرق من الزمن نصف الفترة الزمنيـة لتاريخ بسللوس ، أعنى خمسين عاما ، لم يكن حظـه

---

(١) Ibid. III, 1

(٢) Ibid. 23

من صفحات هذا العمل يزيد عن نصيب ميخائيل السادس الذى لم ينعم من العرش الا بسنة واحدة . وبينما كان باسل الثانى واحدا من أعظم أباطرة الأسرة المقدونية والامبراطورية على الاطلاق سواء فى النواحى المدنية أو العسكرية ، فان ميخائيل السادس لم يخلف للتاريخ الا اسمه ! .

أما القسم الثانى فيشمل الكتب الثلاثة من الخامس الى السابع فيما عدا الفصل الأخير ، وفيها كانت معلوماته ضافية وتعليقاته واضحة وتحليله على جانب كبير من الدقة والموضوعية . فقد غدا بسللوس أحد أقطاب العمل السياسى فى الامبراطورية وهو يذكر فى أوائل الكتاب السادس « أن حديثه عن الأحداث التالية سوف يكون مصدريا تماما لأنه نتيجة معرفة شخصية جدا »(١) . ولا يكاد يخلو فصل من فصول هذا القسم من عباراته الشهيرة « رأيت ذلك بنفسى وعاينته بشخصى » أو أنه وحده « الذى يعرف ذلك دون الآخرين » أو أن « مصدرى فى هذه الرواية لا يرقى اليه الشك »(٢). وهو يعتبر الجزء الرئيسى فى تاريخ بسللوس . أما الفصل الأخير من الكتاب السابع وهو الذى يمثل القسم الثالث ، فقد أضاف بسللوس الى اعتماده المطلق على شخصه فى رواية الأحداث التاريخية باعتبار نفسه المصدر الرئيسى لها ، تقريرا أو بتعبير أدق مذكرات وضعها ميخائيل السابع دوكاس عن نفسه . ذلك أن الامبراطور ما أن علم بأن بسللوس على وشك كتابة ترجمة عن حياته ، حتى طلب أن لا يفعل ذلك حتى يزوده بتصور عام عن شخصيته ، ثم ان السكرتير الخاص للامبراطور راح يقرأ على بسللوس ما أملاه عليه ميخائيل السابع »(٣) . ومن ثم فان هذا القسم جاء قصيدة نظمها بسللوس والامبراطور معا لمدح الجالس على العرش .

---

(١) Ibid. IV., 10

(٢) Ibid.IV, 4, 12, 25, 27, 38, 50; V, 3, 10, 22, 25, 26, 27. VI, 10, 77, 93, 100; VI, Theod. 19; VII, 46, 71.

(٣) Chron. VII, II

وأصدق ما يمكن أن يطلق على عمل بسللوس هذا هو « تاريخ البلاط » فبسللوس وقد مكنته مناصبه من ذلك ، يتحدث فى تفصيل دقيق فى كثير من الأحيان عما يجرى خلف أستار القصر الامبراطورى ، ورغم أنه صرح ذات مرة بأنه سوف يتحدث عن « الجيوش والمعسكرات والمناوشات والمعارك وكل صغيرة وكبيرة اعتاد المؤرخون الثقات ذكرها »(١) ، وأضاف أنه « ليس من سمات المؤرخ أن يضيع وقتا فى الحديث عن الصفات الدقيقة التى تتعلق بأمور شخصية بحتة ، بل يجب أن تكون مهمته الرئيسية هى تركيز فكره وكتابته حول الموضوع الذى يعالجه ، وأن يتناول الأمور الأخرى بشىء من التحفظ »(٢) . الا أنه عاد بعد ذلك ليقول انه « فيما يتعلق بالشئون العامة للدولة فانى سوف أتركها لكثير من الكتاب الآخرين الذين يرغبون فى تدوين مثل هذه الأمور »(٣) . وقد التزم بسللوس فعلا بقوله الأخير هذا ، فقد أعرض عن ذكر الحرب البلغارية التى شغلت من عهد باسل الثانى قرابة ربع القرن وهو لا يذكر شيئا عن هزائم قسطنطين التاسع أمام البشناق وابتياع السلم منهم بثمن باهظ . أما الحملات التى قادها رومانوس الرابع ديوجينس ضد الاتراك السلاجقة فلا يحدد لها زمانا ولا مكانا ، ولا يذكرها الا من قبيل السخرية بجهل الامبراطور فى الشئون العسكرية والتندر على خططه الحربية . ويعلق سوتر على ذلك بقوله ان جغرافية كتابه كانت غامضة(٤) .

وحتى الشئون الداخلية فانه قد تركها وشأنها فلم يحدثنا بشىء عن الاجراءات الاقتصادية والتشريعية التى اتخذها باسل الثانى فيما يتعلق بأملاك الكنيسة والأديرة ، ولا الاجراءات النقدية التى أدت الى تخريب الاقتصاد البيزنطى على عهد قسطنطين التاسع ، ولا جهود هذا فى اعادة تنظيم الجامعة . وأخفق أيضا فى تسجيل أخبار الاوبئة والمجاعات والزلازل

---

(١) Ibid. VI, 73

(٢) Ibid. 70

(٣) Ibid. 167

(٤) Fourteen B. R. Int. P. 13

التى أولاها غيره جزءا من اهتمامهم(١) . ولكن هـذا لا ينفى أنه ذكـر بتفصيل دقيـق حركات التمرد أو الثـورات التى قامت فى داخـل الامبراطورية ضـد هـذا الامبراطور أو ذاك(٢) . أو أنه أفاض بأسلوب فنـان فى وصف الكنائس الفخمة التى اقيمت على عهـد رومانوس الثالث وميخائيل الرابـع وقسطنطين التاسع(٣) ، والحقيقـة التى لا مراء فيهـا أنه اذا اعتبرنا الكتاب فعـلا تاريخا للبلاط بكل أسراره ومتاهاته وخباياه ، فانه يعـد من هذه الناحيـة عملا فنيا وأدبيا رائعـا يتفوق على الكثير من أمثاله فى هـذا الميدان .

ولنترك القلم الآن لبسللوس ليكتب بنفسه الدوافع التى حدت به الى تأليف كتابه هـذا ، والظروف التى أحاطت به ، ورأيه فيما يذهب اليـه معاصروه ، ونظرته للتأليف التاريخى :

« وجدت نفسى فى مناسبات عديدة وقـد أحاط بى الكثيرون وراحوا يستحثوننى كى أكتب تاريخـا لهذه الأحـداث ، ولم يكن بين هؤلاء رجـال الدولة وأعضاء السناتو فحسب ، بل أيضا عدد كبير من دارسى اللاهوت الذين نذروا أنفسهم لتفسير ما غمض من الكتاب المقدس فهمه ، وغير هؤلاء كثير من ذوى الطهـارة والقداسة وبتوالى السنين كان طبيعيا أن تصبح الأدلة التاريخيـة غير متوفرة لكتابة سـجل دقيـق للأحداث ، ومن الخطـورة بمكان أن تتوارى مع الماضى أحداثه ، ومن هذا النسىء تصبح معلوماتنا عن سالف الزمان غير مؤكدة . من أجل هـذا طلب الى هؤلاء الصفوة أن أفعـل ما وسعنى الجهـد لعلاج هـذا القصور .. وأضافوا قولهم انه من غير المعقول أن تغيب حادثات التاريخ التى نعيشها وتظل غامضـة مبهمة ، بينما ما جرى قبلنا تم تدوينـه على يد الأجيـال المتتالية . تلكم هى الضـغوط والدوافـع التى استحثونى بهـا لأقـدم على تنفيذ هذه المهمة الجسيمة . غير أنى لم أكن

---

(١) Id

(٢) Chron. I, 10 — 18, 23 — 29; V, 28 — 30, 45 — 50; VI, 76 — 86 — 98 — 124; VII, 4 — 43

(٣) Ibid. III, 14; VI, 185 — 187

متحمسا على الاطلاق للاقدام على ذلك ، ولم يكن هذا راجعا الى تكاسل من جانبى ، بل لأنى كنت أضع فى اعتبارى دوما أمرين لا يمكن بأى صورة التغاضى عن أى منهما ، فربما تجاوزت — لأسباب سأوضحها فيما بعد — عن أشياء وقعت بين أفراد معينين ، أو شوهت أو حرفت روايتى عنهم ، ومن ثم فانى سوف أدان لا لأنى كتبت عنهم تاريخا ، بل فقط لمجرد التلفيق أو الاختلاق ، كما لو كنت أؤلف رواية . وربما بلغ بى التطرف فى نقصى الحقيقة مداه ، فأصبح بالتالى أضحوكة النقاد ، ذلك أنهم سوف يعتبروننى عندئذ لست محبا للتاريخ بل مروجا للفضائح !

« من أجل هذا لم أكن شغوفا بتدوين تاريخنا المعاصر ، خاصة وأنى أعلم علم اليقين أننى سوف أختلف فى الرأى مع الامبراطور قسطنطين (التاسع) فى كثير من الأمور ، ومن ثم فاننى لابد وأن ألوم نفسى اذا لم أنتهز أية فرصة لامتداحه .... ولسوف يكون أمرا مخجلا حقا اذا لم أحفظ المعروف لصاحبه . لذا ، وبسبب هذا الرجل بالذات كنت أرفض دوما كتابة تاريخ هذه الفترة . لشد ما كان يؤرقنى أن أعرض عن أى لوم يمكن أن يوجه اليه ، كما كنت راغبا عن أن تفصح كلماتى عن أعمال ليست فى جانبه وعن أشياء من المفضل أن تظل فى غيابه الكتمان . لقد كانت نفسى تعاف أن أضع أمام العامة قصة غير صادقة ، كما أنى فى الوقت ذاته كنت كارها أن أفترى على بطل كان محل تقريظى وامتداحى . وفى رأيى أنه من الخطأ استعراض المواهب الأدبية ، وهى التى اكتمل نضوجها لدى بسبب تشجيعه ، فى الحاق الضرر به » .

ويضيف محاجا البعض معرضا عن مناقشاتهم وآرائهم : « ... ومهما يكن من أمر فانه لا يمكننى أن أتخذ من مثل هذه المناقشات مبررا لنكران الجميل أو الجحود ، خاصة مع انسان كرمنى أكثر مما أستحق ورفع فوق كل الاقران قدرى . لهذا فان كل ما أبتغيه اما أن أخلد ذكراه بالثناء والتقريظ ، واما أن أمر مر الكرام على تلك الأعمال التى وقعت فى عهده ولم تكن صادرة عن نية صادقة ، فاذا ما طرحت جانبا ، وأعطيت انطباعا بأنى قد جمعت معا كل ما يوجب التعنيف والتقريع ، فانى سوف أصبح

بذلك أسوأ وغد على وجه الأرض متمثلا فى ذلك ابن ليكسس Lyxes الذى تخير لتاريخـــه أقبح الأعمـــال التى اقترفها الاغريق(١) .

« ومن ناحية أخرى ، هب أنى تركت هذه الخطة جانبا بعض الوقت ، وأخذت على عاتقى كتابة تاريخ لحياة الاباطرة ، كيف يمكننى أن أتعامل مـــع تلك الأمور التى تعتبر موضوعا لمديحى اذا ما أهملت المـــادة التى تتصل اتصالا وثيقا بكتابة التاريخ ؟ ان الأمر سوف يبدو وكأنى قد ضللت طريقى ونسيت هدفى ، أو كأنى مسخت أو شوهت فى كتابة التاريخ وذلك بفشلى فى تمييز المـــادة التاريخية الحقة ، أو الخلط بين قاعدة كل من شكلى الأدب اللذين تختلف أغراضهما تمام الاختلاف كل عن الآخر . والواقع أنى كتبت كثيرا فى مديح قسطنطين قبل أن أقـــدم على تنفيذ هـــذا العمل(٢) . وذلك باستحسان الجميع . وكان مديحى البـــالغ الذى خلعته عليه عن جدارة واستحقاق ، وان كان الآخرون قد أخفقوا فى فهم منهاجى الذى بنيت عليـــه قصيدى ، والحقيقة التى لا مراء فيها أن أعمال الأباطرة تتضمن السىء والحسن ، وهنا يجد الكتاب أنفسهم غير قادريـــن على الادانة دون تحفظ أو الثناء بنية صادقة ، ذلك لأنهم قد طبعوا على الجمع بين الصفات المتنافرة .

« أما الآن وقد رأيت لزاما على أن أكتب تاريخـــا ، فان هذا المنهج يعـــد امرا مستحيلا ، ذلك أنه لا يمكننى أن أضع نفسى فى موقف من يشوه الحقـــائق التاريخيـــة فى الوقت الذى يجب أن تكون فيه الحقيقـــة أكثر أهميـــة من أى

---

(١) تذكر بعض الروايات أن هرودوت هو ابن ليكسس ودريو Dryo وانه ولد فى هاليكارناسوس Halicarnassus فى عام ٤٨٤ ق.م. وقد تعرض لهجوم من جانب العديد من الكتاب الاغريق بدعوى أنه كان متحيزا فى كتاباته لبنى وطنه من الفرس . غير أنه بالاحتكام الى كتاب De Malignitate herodoti الذى ينسب عادة الى بلوتارخ Plutarch يمكن القول ان مناقشات المؤرخين والكتاب حول هذا الرأى عبث لا غناء فيه . أنظر :
Fourteen Byzantine rulers, p. 167, n.l.

(٢) نظم بسللوس عددا من قصائد المديح ، وترك حوالى خمسمائة رسالة ما تزال باقية ، وسبع مرات من بينها واحدة لأمة ثيودوتا تكشف عن مدى حبه لها وامتنانه من أجل ما قدمته له لاستكمال دراسته . أنظر :
Fourteen Byzantine ruler, introd. P. 15

شيء آخر ، حتى أنجو بذلك من تعنيف أو لوم معاصرى ، وان كنت أفضل أن أغض الطرف عن أى اتهـــام . ان ما أكتبه الآن ليس انهاما لأحـــد ، ولا مادة لاقامة الدعوى ضد أحد ، ولكنه تاريخ حق ... وليس هناك على وجه الأرض انسان بلا خطيئة ، ونحن نحكم على الانسان بمقتضى ميزة خاصة تميزه أساسا عن غيره . لهـــذا فانى لن أشعر بالخجل وأنا أعلن صراحـــة ما يمكن أن يكون قد اقترفه ذلك الانسان (قسطنطين) من عسف أو طيش(١) .

« ولقد كان طبيعيا أن تحدونى الرغبـــة فى أن يكون امبراطورى المفضل أنموذجا يحتذى ، حتى ولو كان مثل هذا المديح والثناء مستحيلا بالنســـبة للآخرين جميعهم غير أن أحـــداث التاريخ لا يمكن أن تخضع نفسها لرغائبنا أو تتوافـــق وميولنا .. اذن .... فلتسامحنى هذه الروح السماوية (يعنى قسطنطين) واذا ما جاء حديثى فى بعض الاحيان وأنا أصف عهـــده بعيدا عـــن الاعتدال ، واذا لم أحـــاول اخفاء شيء وذكرت الحقيقة كما وقعت ، فليغفر لى ذلك . وليكن على يقين أن أيا من أعمـــاله النبيلة لن تمر هـــكذا دون ذكر ، بل سوف تنشر كلها ، وبالمثل أيضـــا كل ما قد يصدر عن غير هذه الروح النبيلة، ســـوف يكون واضحا فى تاريخى هذا جليا »(٢) .

لو طبقنا ما جاء فى هذا التقرير الذى قـــدمه بسللوس على المعـــايير الحديثة لعلم التاريخ ، لتبين لنـــا أن بسللوس قد وضع هذه المعـــايير أو جلها فى كتابته التاريخيـــة الى درجة لا بأس بهـــا أمام ناظريه ، فهـــو باديء ذى بدء يفرق بين العمل الأدبى الخالص الذى قد تداخله المبالغة أو الخيال ، والكتـــابة التاريخيـــة التى تعتمد المنهج العقلى والتحليل المنطقى . فاذا كان قد رفـــع الى عليين قدر (امبراطوره المفضل) فى أدبياته الا أنه يخضعه للتمحيص ويضـــعه تحت منظار النقد التاريخى ، وان كان يستميحه عذرا فى ذلك . وهـــو يظهر تردده فى البداية واحجامه عن تحمل مسئولية كتابة « تاريخ معاصر » للاحداث لحرصه الـــكامل على أن يســـجل الوقائع التاريخيـــة وأسبابها وملابساتها ونتائجها بدقـــة متناهيـــة ، وخشية أن يتهم لذلك بالتطرف المنهجى .

---

(١) Chron. VI, 22 — 26

(٢) Ibid 28

وهو لا يريد أن يحيد عن الموضوعية الكاملة التى يشترطها البحث التاريخى الجاد ، ولا أن يصبح كاتبا مأجورا يخط ما تمليه أهواء الامبراطور جزاء الاحسان ، بل يبتغى كتابة « تاريخ حق »(١) ، « لأن من يتصدى لكتابة التاريخ يصبح أقرب الناس شبها بالقاضى ، لا يراهن ولا يرتشى ، يتناول الأحداث دون ميل لهذا الجانب أو ذاك ، يتبنى فى كتابته سياسة الاعتدال والانصاف ، ولا يقدم فى بداية عرضه مناقشات أو قضايا خادعة من أجل التوصل الى حكم مسبق بالصواب أو الخطأ . بل يعرض لما حدث فى بساطة ونزاهة حتى وان كان قد أصابه ممن يؤرخ لهم ضر أو نفع »(٢) . ولا ريب أن هذا القول يتفق كل الاتفاق ومعايير علم التاريخ ، وهو من أجل هذا يضع أمامنا تصوره للمنهاج الذى يجد المؤرخ الموضوعى نفسه ملزما باتباعه ؛ وفى الوقت ذاته خطوات البحث التاريخى :

« ... ان منهاجى الذى أتبعه دائما لا يقوم على أساس فحص الحادثة فى حد ذاتها بمعزل عن الأحداث الأخرى ، سواء بدا ذلك حسنا أم شرا مستطيرا ، ولكن تقصى الأسباب واستقراء النتائج المحتملة خاصة اذا كان من ينقلون المعلومات يهتمون بالمناقشات الافتراضية . وقد برهنت التجربة على أن هذه المعالجة المنظمة أفضل ربما بكثير مما ينفق عليه خلفائى(٣)، ان تاريخى لا بد أن يكتب بطريقة منهجية ، فآتى فى المقدمة بمصادرى الرئيسية ، وأثنى بغربلة وتمحيص رواياتى ، وفى النهاية أورد الأحداث متتابعة . وأستطيع أن أؤكد الآن أن أدلتى وحججى سوف تبتعد عن كل ما هو زائف . وكل ما لم يفصح عنه سوف يظل سرا خفيا . ولكن لن تكون هناك واقعة واحدة مما أسوقها يمكن أن يتطرق اليها الشك »(٤) .

ويمكن القول بأن بسللوس قد صدق وعده الى حد كبير والتزم منهجه فى الكتابين الخامس والسادس والفصلين الأولين من الكتاب السابع ، فهو

---

(١) Ibid. VI 5

(٢) Ibid. VI 161

(٣) Ibid. VI 30

(٤) Ibid. 46. يقول انه قبل أن يضع ثقته فيما يسمع ، فانه يجعل دائما كل الروايات تحت الاختبار الدقيق . أنظر : Chron. IV, 33.

يركز دائما على القـــول بأنه رأى بعينى رأسه باعتبار نفسه المصدر الرئيسى لكتابته ، وهـــو يعرض أحداثه وينتقد ويدلى برأيه ويقـــدم أدلته والبراهين . أما الكتب الأربعـــة الأولى فلأنه لم يكن شاهد عيـــان لاحداث زمانها فقد حاول جاهدا أن يلتزم بما فرضه على نفسه وان لم يكن نجاحه فى ذلك كبيرا . على حين أصبح المنهـــاج التاريخى فى بقيـــة الكتاب السابع ، خاصة فصله الأخير، نسيا منسيا .

ولما كان « التاريخ الزمنى » كما بينا يتناول تاريخ أربعة عشر امبراطور ، ولمـــا كان قسطنطين التاسع « بطل »(١) هذا التاريخ يحتل وحده ثلث مساحة المؤلف كله ، كان لابـــد أن يجىء الحديث عن الأباطرة الآخرين مختصرا . وبسللوس نفسه يعترف بذلك موجهـــا حديثه الى صديقـــه الحميم ليخودس، الذى يبدو أنه كان على رأس الذين استحثوه لكتابة هـــذا التاريخ ، ويبين له فى الوقت ذاته النمط التسجيلى الذى ارتآه مفضلا على غيره فى كتابته : « ان رغبتك الواضحة أن أقـــدم تاريخا مختصرا أكثر منـــه مؤلفا متقنا ، وكى التقى مـــع رغباتك فقـــد تجاوزت فى تاريخى هـــذا عن كثير من الحقائـــق التاريخيـــة الجديرة بالذكر . ولم أحسب السنين تبعا للأولمبياد(٢) ، ولم أقسمها الى فصول كما فعل ثوكيديديس ، ولكنى صرفت انتباهى الى أهم الحقائق التاريخيـــة وكل الوقائع التى استطعت اعادة تجميعها عنـــد كتابة هذا التاريخ . وكما قلت فانى لم أبذل أى محـــاولة لتمحيص وفحص الظروف الخاصة المحيطـــة بكل حادثة على حدة . أن خطتى بالاحرى هى أن انتهج لنفسى طريقـــا وسطا بين أولئك الذين ســـجلوا الأعمال الامبراطورية لروما القديمة من ناحيـــة ، ومؤرخينا المعاصرين من ناحية أخرى ... ولم أبتغ الاطناب كما فعل الأولون، ولا سعيت الى محاكاة المتأخرين فى الاختصار المخل ، وذلك خشـــية أن يصبح مؤلفا بالاحداث يزدحم ، ومخافة أن يسقط منى ما لا بد أن يذكر(٣) ..

ولقد سقط من بسللوس الكثير فعـــلا من الأحداث التاريخيـــة ، وسقط

---

(١) Chron. VI, 71

(٢) وهى فترة تمتد أربع سنوات تقع بين الاحتفـــالات التى تخصص للالعاب الأوليمبية وقد اتخذ منها الاغريق تقويما يؤرخون به أحداث تاريخهم .

(٣) Chron. VI, 73.

منـــه أيضا الكثير من أسماء الشخصيات البارزة التى كان لهـــا أثرها الكبير فى النواحى السياسية أو بصفة خاصة فى الميـــادين الثقافية فى عصره . وقد بينا ذلك فى مواضع كثيرة من قبل ، وربما يغفر له ذلك اعتبار عمله « تاريخا للبلاط» كما أسلفنا .

ويوقفنا كتاب بسللوس على عدد من الحقائق التاريخيـــة التى كانت قـــد أصبحت فى بيزنطة أمرا مستقرا ، فالامبراطور البيزنطى كان التقليد قد جرى باعتباره نائبا عن المسيح على الأرض،واذا كان الاباطرة الرومان والامبراطورية بعد وثنية قد حملوا لقب الكاهن الأعظم Pontifex Maximus بل وظل أحد القابهم الرســـمية حتى تخلى عنـــه جراتيان Gratianus (٣٧٥ ــ ٣٨٣) فان الامبراطور قد غـــدا بعد تحـــول الدولة الى المسيحية الأسقف الأعلى ورأس الكنيسة ، واضحى منصبه على قدر كبير من القداسة (١) ، ويختار من قبل الله ليكون ممثلا له على الأرض . وتضمن ذلك ديباجة المجموعة القانونية التى صدرت على عهـــد الأسرة الايزورية باسم الامبراطورين ليو الثـــالث وقسطنطين الخامس والمعروفة باسم « المختار » Ecloga : « حيث أن الله قد عهـــد الينا بحـــكم الامبراطورية ، وقضت بذلك مشيئته ... » . وتأكد بصورة واضحة فى كتاب « المراسم » الذى وضعه الامبراطور قسطنطين السابع فى القرن العاشر ، حيث يتضح مدى الارتباط الـــكامل بين الامبراطور والمسيح . وبسللوس يدعم هذه الحقيقة على صفحات تاريخه . ففى معرض حديـــثه عن المنصب الامبراطورى ودفاعه عن مسلك الاباطرة المتقلب بصفة عامة دون تحديد الامبراطور بعينه ، وان كان يرمى من وراء ذلك الى الدفـــاع عن قسطنطين مونوماخوس ، يقول : « ... لكن الامبراطور ذلك الرجل الـــذى ورث عن الله السلطة العليا . . .. (٢) » ثم يقول عنـــد ارتقاء قسطنطين

---

(١) للمزيد من التفاصيل عن مركز الامبراطور البيزنطى انظر الفصل الرائع الذى كتبته : J.M. Hussey فى كتابها The byzantine world تحت عنوان : « الكنيسة والدولة : الحكومة الامبراطورية . وقد ترجم الباحث هذا الكتاب الى العربية « العالم البيزنطى » ص ٢٣١ ــ ٢٥٢ وقارن : موس : ميلاد العصور الوسطى ، ص ٥٠ ــ ٥١ .

(٢) Chron. VI, 27

العـــاشر العرش : « ان هذا الامبراطور ـــ والحق يقال » قـــد اختير من قبل الله » (١) .

ويرتبط بهذه مسألة أخرى على جانب كبير من الأهمية ، وهى الارتباط التام والوثيـــق بين الدولة والكنيسة ، منذ قبل قسطنطين الأول فى القـــرن الرابع باغتباط أن يتدخل فى أمور الكنيسة المسيحية والمسيحية ، ومن ثم سار الخطان الدينى والدنيوى متوازيين ، بل أصبحا خطا واحدا كما يعبر عن ذلـــك سقراط Socrates المؤرخ الكنسى فى القرن الخامس .. ولا نكاد نجـــد امبراطورا واحدا منذ قسطنطين الاول حتى سميه الحادى عشر على امتـــداد الف ومائة عام ونيف ، الا وقد تدخـــل فى شئون الكنيسة وأدلى بدلوه فيها ، ســـواء علم من أمر اللاهوت شيئا أو لم يعلم ، وارتضت الكنيسة البيزنطيـــة قانعـــة هذه العـــلاقة الوطيدة بينها وبين الدولة ، وكانت هذه الوحدة عاملا رئيسيا ومباشرا ، ضمن عوامل أخرى عديدة ، من أسباب امتداد العمـــر بالامبراطورية البيزنطية . ولم يحدث طوال ســـبعة قرون أن رفعت الكنيسة رأسها معارضة الامبراطور الا فى النذر اليسير . غير أن الأمور تبدلت من بعـــد على استحياء ، ذلك أن الكنيسة لمـــا آنست من جانب الدولة ضعفا متمثـــلا فى شخص الامبراطور وأجهزته الادارية والعسكرية ، حاولت أن تزيح عن نفسها ولو قليـــلا ثقـــل الوطأة الطويلة ، وزاد عنادها فى أواخر القـــرن الرابع عشر والنصف الاول من القرن الخامس عشر ، عندما راح الاباطرة فى محاولة يائسة لانقـــاذ الامبراطورية ، يتخلون عن معتقدهم الأرثوذكسى وعدائهم التقليدى لكنيسة روما . ويرتمى بعضهم فى أحضان البابوية معلنا اعتنـــاقه الكاثوليكيـــة .

وبسللوس يبدو فى تاريخـــه حريصا على التأكيد على هذه العلاقة الطويلة الوطيدة بين الدولة والكنيسة فى موقفين متتاليين له ازاء أسقف القسطنطينية المتعالى ميخائيل كرولاريوس ، الذى ذهب بشهرة ذائعة فى التاريخ بســـبب الشقاق الأعظم الذى حدث فى عهده بين كنيستى روما والقسطنطينية عام ١٠٥٤ ابان حـــكم قسطنطين التاسع .. ذلك أنه ما أن اعتلى ميخائيل السادس العرش عام ١٠٥٦ وجمع حوله مستشاريه وعلى رأسهم بسللوس لبحث أمر الاضطرابات التى أثارها اسحق كومننوس فى آسيا الصغرى ، حتى كانت أولى المقترحات

(١) Ibid. VII, Const. X, 2.

التى طرحها بسللوس على الامبراطور لاقرار الأمور وتقـوية قبضته ، التوصل الى حل معين مع اسقف العاصمة الذى كان مغاضبا لميخائيل ، وبرر بسللوس ذلك بأن « الأسقف يمثل الآن فى هذه الظروف مركز قـوة لا يستهان بها(١) »، فلما أهمل ميخائيل هذا الاقتراح بل ورفضه تماما ، كان هذا كما يقول بسللوس « كافيا للاطاحة به (٢) » .

ويبدو أن بسللوس كان مصمما على التخلص من كرولاريوس لغطرسته فى مواجهة الأباطرة ، وربما خشية منـه على سلطانه . ولا شك أن مرد هـذه الخيلاء من جانب الاسقف يعود الى شعوره بوهن السلطة الامبراطورية ، ويدل على ذلك ما يذكره مؤرخنا عن « الصفاقة والصلف » الذى كان يتحـدث بهما كرولاريوس الى الامبراطور اسحق كومننوس .. وقد تطورت الأمور بينهما الى حد محاولة عزل البطريرك ونفيه عام ١٠٥٨ وتعيين قسطنطين ليخودس، صديق بسللوس الحميم خلفـا لكرولاريوس . ويعلـق مؤرخنا على ذلك بقوله: « انه لن يروى قصة هذا الصراع بين الرجلين لأنهـا ملحمة طويلة » ويضيف قائلا : « لو أن أحـدا حاول جاهدا أن يستقصى ذلك الخلاف بينهما لأدان أحدهما لفتحه باب الصراع وأدان الثانى للنهاية التى انتهى اليها(٣) » .

والحقيقة أن اسحق كان يشعر بالامتنان تجـاه بطريرك القسطنطينية لموقفه المؤيد له أثنـاء ثورته ضد ميخائيل السادس وعند اعتلائه العرش ، وفى مقـابل ذلك تغاضى الامبراطور عن بعض حقوقه التقليدية تجـاه الكنيسة، فانتهز كرولاريوس الفرصة لزيادة نفوذه وسلطانه ، وتطاول على الامبراطور، « وانتعل فى الوقت ذاته الحذاء الأرجوانى الطويل » الذى كان يعتبر قصرا على الأباطرة وحدهم ، مما أثار بالتالى غيظ اسـحق وحنقه .. فأصدر أوامره فى نوفمبر ١٠٥٨ بالقبض عليـه ونفيه . غير أن الاسقف رفض الامتثال لأوامر الأمبراطور ، وبنـاء على ذلك أوعز اسحق الى بسللوس باقامة الدعوى ضده. وسرعان ما دبج بسللوس مجموعة من الاتهامات ضد الاسقف تعد وثيقـة على جانب كبير من الاهمية ، تنعت كرولاريوس بالهرطقة والخيانة مدعمة بالادلـة التفصيلية . الا أن بطريرك العاصمة مات قبـل أن تجـرى محاكمتـه سنة ١٠٥٩ (٤) .

(١) Ibid. VII, 10

(٢) Ibid. 11.

(٣) Ibid. 65.

(٤) Fourteen byzantine rulers, p. 315, n. I.

ومن الجدير بالذكر أن مثل هذه العلاقة الوطيدة بين الدولة والكنيسة التى جرى التقليد بها فى الامبراطورية البيزنطية ، بحيث أمست الكنيسة دائرة من دوائر الحكومة ، والأسقف موظفا كبيرا لدى الامبراطور فى هذه الدائرة ، هذه السمة لم توجد فى الغرب الأوروبى طيلة العصور الوسطى ، بل على العكس من ذلك نشب صراع رهيب بين البابوية والامبراطورية حول السيادة العالمية ، وقدمت الادلة من فقهاء كل من الطرفين ، بل وزيفت النظريات لخدمة أغراض كل طرف منهما ، وقد ذهب الاذلال الذى منيت به الامبراطورية سنة ١٠٧٦ فى احدى جولات الصراع بينهما بشهرة واسعة فى التاريخ حيث عرف باذلال كانوسا ، وان كان الأمر قد ظل سادرا طيلة قرنين تاليين(١) .

حقيقة أخرى يؤكدها بسللوس فى كتابه هى اعتزاز البيزنطيين برومانيتهم ، فالبيزنطيون الأباطرة والناس يعتبرون أنفسهم امتدادا طبيعيا للرومان الأسلاف ، فسلسلة الاباطرة الرومان لم تنقطع منذ أوكتافيانوس أوغسطس حتى قسطنطين الحادى عشر ، ولم يكن الانتقال من روما الى القسطنطينية فى نظرهم الا تغييرا للعاصمة الامبراطورية فقط . وقد قامت النظرية السياسية الرومانية التى تبنتها الامبراطورية البيزنطينية على فكرة الامبراطورية الواحدة ، ورغم ضياع النصف الغربى من الامبراطورية فى القرن الخامس ، واستيلاء الجرمان على روما عام ٤٧٦ ، الا أن أباطرة القسطنطينية لم يعترفوا مطلقا من الناحية النظرية بضياع السيادة الرومانية على هذه الأقاليم ، ولم تعترف بيزنطة بشارلمان « امبراطورا رومانا » كما أرادته البابوية فى القرن التاسع ، ولا بأوتو

---

(١) للمزيد من التفاصيل عن هذا الصراع الطويل بين البابوية والامبراطورية انظر :

Tierney, the crisis of church and state, 1050 — 1300, with selected documents, Barraclough, the medieval papacy, pp. 13 — 138.
Thompson & Johnson, an introduction to medieval Europe, 300-1500

Ullmann, a history of the papacy in the middle Ages, pp. 4 — 200

Corbett, the Papacy, pp. 15—41, 95—108.

Southern, the making of the Middle Ages, pp. 115—149

Hughes, a history of the church, pp. 209 — 238.

والامبراطورية الرومانية المقدسة من بعد (١) ، معتبرة نفسها الامبراطورية الرومانية الوحيدة الحقة . وقد كتب الامبراطور الالمانى فردريك الأول باربروسا فى سنة ١٠٧٦ رسالة الى الامبراطور البيزنطى مانويل كومننوس تقطر احتقارا بمناسبة الهزيمة التى منى بها مانويل فى آسيا الصغرى ، يصفه فيها بأنه « ملك اليونان » Rex Grecorum ويخلع على نفسه لقب « الامبراطور الرومانى » ويعلن وراثته للاباطرة الرومان وادعاءالسيطرة على « المملكة اليونانية » Regnum Greciae يعنى الامبراطورية البيزنطية. لكن هذا كله لم يفقد البيزنطى اعتزازه برومانيته باعتباره الوريث الشرعى أو بتعبير آخر الامتداد الطبيعى التقليدى للرومان .

وبسللوس يعبر عن ايمانه العميق بذلك فى اكثر من موضع فى تاريخه، فهو يبدى أسفه وحسرته على الأيام الخوالى للامبراطورية عندما كان البحر المتوسط بحيرة رومانية (٢) « أما الآن فلكم يتملكنى الغم والضيق ، ذلك أن احدا لم يته بالرومان عجبا مثلى ، ولا حبا لوطنه كنفسى (٣) » ويذكر أن قسطنطين التاسع كان يعهد اليه بكتابة الرسائل الهامة الى حكام الدول الأجنبية لثقته فيه ، « ولما يعلمه عنى من حب للوطن واعتزاز برومانيتى(٤) » وتظهر هذه النغمة بصورة واضحة فى التعبير الذى

---

(١) كان هناك اعتراف واهن من جانب الامبراطور البيزنطى ميخائيل رانجابيه سنة ٨١٢ لظروف سياسية وعسكرية سيئة احاطت به ، ولكنه لم يكن له أى تأثير على التقليد السياسى البيزنطى فيما بعد ، ولم يعترف به خلفاؤه. للمزيد من التفاصيل عن امبراطورية شارلمان والامبراطورية الرومانية المقدسة وعلاقتها بالامبراطورية البيزنطية وموقف هذه منهما ، أنظر :

Einhard, the life of — Charlemagne pp. 80 — 81.

Bryce; the holy roman empire.

Stephenson, mediaeval history, p. 153.

وانظر أيضا دكتور جوزيف نسيم يوسف : الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى ، ص ١٨٣ ، وكذلك ديفز: شارلمان ، ترجمة دكتور السيد الباز العريفى ص ١٧٢ — ١٧٨ .

(٢) Chron. VI, 153 — 154

(٣) Ibid. 154

(٤) Ibid. 190

يطلقه بسللوس فى صفحات كتابه على اعداء الدولة فى الشرق والغرب على السواء ، فهو يستخدم التعبير اليونانى — الرومانى الذى جرى استخدامه فى العصور القديمة للحط من شأن الشعوب الخارجه عن نطاق اليونان الاقدمين والرومان من بعدهم ، حضارة وسيادة ، أعنى كلمة « البرابرة » (١) .

ورغم الثقافة العريضة التى أدركها بسللوس وتعدد قراءاته ودراساته فى مختلف فروع المعرفة الانسانية ، ورغم تهكمه من هذا « الهوس » الدينى الذى أصاب البيزنطيين فى كل شئون حياتهم ، والذى عبر عنه جريجورى أسقف نيسا Gregorius Nyssaeus فى آسيا الصغرى فى القرن الرابع الميلادى أروع تعبير(٢) ، الا أن بسللوس كبيزنطى يعيش هذا المناخ لم تستطع ثقافته العريضة أن تمحو من نفسه ما أصبح فى بيزنطة ضرورة حياة . ومن ثم نراه فى تاريخه يفعل ما اطمأنت اليه أفئدة الجموع ، فهو يعزو الكثير من الأحداث الى الغيبيات ويؤمن بالمعجزات ويدعم بها فى بعض الأحيان رواياته التاريخية . ولعل هذا مما ينتقص شيئا من قيمة كتابته فى هذه المواضع ، وهو يقول : « من عادتى أن أنسب الى العناية

---

(١) Ibid. 1, 32, III, 9—10; IV, 40—41 VI 75, 90—91, 95, 153. VII, 45, 63, 67—70; VII, Eudocia, 6; Romanus IV, 4, II.

(٢) شهد القرن الرابع جدلا فكريا رهيبا بين آباء الكنيسة حول المسيح وظل هذا الجدل الدينى سمة الفكر البيزنطى طوال تاريخ الامبراطورية ، حتى أصبحت « المناقشات البيزنطية » تعبيرا عن كل جدل فكرى عقيم ، خاصة وقد شارك فى هذا الصراع كل الطوائف دون تمييز ، من الامبراطورية الى رجل الشارع . وقد وصف اللاهوتى الكبادوكى الشهير جريجورى أسقف نيسا هذه الحال فى القرن الرابع فى القسطنطينية بقوله : « لقد امتلأ كل شىء بأولئك الذين يتحدثون بغوامض الكلم ، وازدحمت بهم الطرقات والاسواق والأزقة فاذا ما سألت عما يجب أن ادفعه ثمنا لشىء ، فلسفوا لى الاجابة حول المولود والمخلوق ، واذا ما رغبت فى الوقوف على ثمن الخبز ، أجابنى البائع بأن الآب اعظم من الابن ، واذا ما بحثت عما اذا كان حمامى قد أعد ، جاءتنى الاجابة تقول ، ان الابن خلق من العدم » . ولقد ثار الجيش ذات مرة وطلب الى الامبراطور قسطنطين الرابع ٦٦٨ — ٦٨٠) أن يشرك معه فى الحكم أخويه هرقل وتيبريوس ، ولما سألهم الامبراطور لم يريدون ذلك ؟ اجابوه : « لأننا نؤمن بالثالوث فلنتوج أباطرة ثلاثة » وقد ظلت هذه الصورة ديدن البيزنطيين طيلة عصر الامبراطورية البيزنطية .

الالهية التحـــكم فى الاحـــداث الكبرى ، أو بالاحرى فأنا اعتبر كل ما يحـدث صادرا عن السماء(١) » وهـــو يطبـــق ذلك على الامبراطور ميخائيل الخامس الذى اعتلى العرش بتدبير الله « الذى يعلم علم اليقين أن هـــذا القيصر سوف يقود أسرته الى حتفها » ويتحدث عن دور الســـماء فيمـــا وقـــع لأسرة ميخائيل الخامس(٢) ، وما كان من أمر انقـــاذ جيوش قسطنطين العـــاشر بمعجزة من السماء ويشـــبه هذه المعجزة بما حـــدث لموسى النبى ويقـــول : « لو قدر لى أن أنظم قصيدة فى امتداح قسطنطين وليس تاريخـــا دقيقا ، لوجدت فى هذه المعجزة مادة كافيـــة لمديحى تفـــوق كل تصور(٣) » .

بل أن الاسطورة الذائعة التى أحاطت بايقونة العذراء على امتـــداد التاريخ البيزنطى ، وجدت لهـــا صدى فى تاريخ بسللوس ، فقـــد جـــرى ايمان الجموع بوضع أيقونة العذراء فوق أى اعتبار للخطط العسكرية أو المهارات القتالية أو الاستعدادات اللازمـــة للحرب . فهى باعتبارها حامية القسطنطينية انقذت المدينـــة من السقوط فى أيدى الفرس والآفار سنة ٦٢٦ بينما كانت جيوش هرقل خارج المدينة ، فقـــد ألقت الرعب والفزع فى قلوب هؤلاء وأولئك فور ظهورها على أســـوار القسطنطينية . وتناسى الناس مهـــارة هرقل العسكرية وخططه الحربيـــة فى حربه الطويلة ضد الفرس ، وعزوا نصره عليهم الى حمله ايقونة العذراء معـــه . ويكرر ميخائيل بسللوس نفس الصورة بحرفيتها عند حديثه عن الحملة التى قادها الامبراطور رومانوس الثالث ســـنة ١٠٣٠ حيث لقى هزيمـــة مروعة على يد المسلمين بالقرب من حلب ، وتفرق عنـــه جنـــوده ولم يستطع أن يجمع شتات نفسه وفلول جيشـــه الا بعد العثور على أيقونة العذراء (٤) » .

---

(١) Chron. IV, 30; VII, 98.

(٢) Ibid. V, 24.

(٣) Ibid. VII, Const. X, 23 — 24.

(٤) يصف بسللوس فى مشهد روائى رائع ما كان من أمر العثور على أيقونة العذراء وتأثيرها على نفس الامبراطور وجيشه ، فبعد تأكد الجنـــود الفارين من بقاء — الامبراطور حيا يقول بسللوس (وأهم من ذلك أن واحدا من الجند قدم بأيقونة العذراء ، تلك الصورة التى اعتاد الاباطرة الرومان حملها معهم فى كل حملاتهم كدليل لهم وحارس يقيهم شر أعدائهم ، وكانت هى الوحيدة

ولقد صاغ بسللوس أحداث تاريخه بأسلوب جزل فخيم ، يصعب على الترجمة كما يقـــول سوتر ، وان كان يتميز فى الوقت ذاته بسخرية لاذعة خاصة عندما يتصل الأمر بنقده لتصرفات هذا الحاكم أو ذاك . مما أضفى على الكتاب طابعا مميزا لا يبعث فى نفس قارئه أى ملل أو سأم . ولا يعيب انسياب الأسلوب واتساق العرض ، الا ما كان يقـــدم عليه بسللوس فى كثير من المواضع من قطع سياق الحديث عن الوقائع التاريخيـــة ليتناول موضوعات شخصية بحتة تتصل به نفسه أو تتعلق بأمور تدور خلف أستار القصر الامبراطورى لا صلة لهـــا بما يرويه ، وهذا ظاهر بصفة خاصة ابتداء من الكتاب الرابع أى منذ اصبـــح قريبا من القصر(١) .

ومن أطرف المواقف الساخرة التى يقصها بسللوس ، ذلك المشهد الذى يصف فيه صورة الامبراطور قسطنطين التاسع وقد جلس هو ومعشوقته سكلرنا Sclerena وزوجه الامبراطورة زوى فى المقـــدمة ، ثم السناتو وقد اصطف ليشاهد هذا التناغم الشاذ وقد احمرت وجوههم خجلا بينما راح بعضـــهم يتحدث همسا . وعلى الرغم من الحيرة والارتبـــاك الذى تملك أعضاءه ، الا أنهم جميعا كانوا يذكرون هـــذا « دائما كما لو كان شيئا قد هبـــط عليهم من السماء(٢) . ويعلق بسللوس على ذلك بقـــوله : « ان زوى لم تعد تشعر بالغيرة من منافستها مطلقا ، فزمان الغيرة فيها قد مضى ، وزمان الجنس عنـــدها ولى !! »(٣) .

التى لم يستول عليها الاعداء عند مهاجمتهم لخيمة الامبراطور . وعندما وقع بصر الامبراطور عليها تنفس الصعداء وأطبق عليها بكلتايديه ، وليس بمقدورى أن اجد الكلمات التى يمكن أن أعبر بها عن كيفية احتضان الامبراطور لها وكيف بللها بدموعه ، وكيف راح ينشد رحمتها وعونها كما حدث فى الماضى وأنقذت قوى الرومان من أزمات محققة . ومنذ تلك اللحظة امتلاء قلبه بكل الشجاعة) Chron. III, 10 — 11

(١) Chron. IV, 12, 25, 28; V, 9—10, 19, 34, 35, 42; VI, 22, 28, 36 — 46, 157 — 161; VI, Theod. 10 — 12.

157 — 161; VI, Theod. 10 — 12

(٢) Ibid. VI, 58

(٣) Ibid. 62, 151

كما أن بسللوس كان ناقدا صارما ومحقا فى كثير من المواقف فيما يتعلق بسياسات الأباطرة المختلفين الذين عاصرهم ، بحيث لم يكد ينجو من قلمه الا القليل ، فهو يصف باسل الثانى الذى ذهب بشهرة ذائعة فى التاريخ باسم (سفاح البلغار) Bulgaroctonus بقوله : « انه لعين الحق أن يقال ان السمعة التى اكتسبها باسل طيلة عهده كحاكم ، قامت على الرعب أكثر منها على الولاء ، وكلما تقدم به العمر وازدادت مداركه وكثرت خبراته قل اعتماده على غيره من أولى الالباب ... ولم يلق بالا على الاطلاق لرجال عهده المثقفين ؛ بل على العكس كان يكن للطبقة المتعلمة الاحتقار كله ويزدريهم (١) ويعيب على قسطنطين الثامن خموله ودعته وانغماسه فى اللهو والعبث ، ذلك أنه « أهمل شئون الامبراطورية وصرف كل اهتمامه الى الشطرنج والنرد والمسرح ، وكان متحمسا لكل ذلك الى الحد الذى لم يكن يسمح لأحد من السفراء أن يقطع عليه بهجته وانشغاله بهذه الالعاب حتى لو اضطر الى الانتظار طويلا (٢) » . أما رومانوس الثالث فكان مولعا بالانطونينيين فكرا وبماركوس أوريليوس كفيلسوف ، ومن ثم صرف عنايته الى ناحيتين هما دراسة الأدب وعلوم الحرب ، وبينما كان فى الأخيرة جاهلا تماما ، فانه فى الأولى كان بعيدا عن المعرفة(٣) » وعندما حاول رومانوس جاهدا أن يوسع حدود دولته ، ثم ضاعت من بعد جهوده سدى ، وسمه بسللوس بأنه « كان يريد أن يتشبه بالأباطرة السابقين أمثال تراجان وهادريان وربما أوغسطس وقيصر ، بل ربما قبل هؤلاء جميعا الاسكندر المقدونى فى حروبهم وأعمالهم الدنيوية فى آن واحد ، ولكنه كان كمن يبنى قلاعا فى الهواء (٤) .

وقد قدمنا من قبل انتقاداته المريرة للاسراف والبذخ اللذين اتسم بهما عهد قسطنطين التاسع وزوى وثيودورا بصورة تفوق الوصف ، « ... كما لو كان باسل الثانى قد ملأ الخزانة بالأموال لتنفق على أيديهم دون وعى ...

---

(١) Ibid. 1, 29

(٢) Ibid. II. 9.

(٣) Ibid. III. 2.

(٤) Ibid. 8. 4.

ان تجمع السحب فى تلك الأيام كان نذيرا بهذا الطوفان الذى تغرق فيه الآن .. . . (١) وقد لاحظت دائما ان الاباطرة قبل اسحق « كومننوس » قد أرهقوا الخزانة لصالح أهوائهم من أمرها عسرا ، فالدخل العام لم ينفق لاعادة تنظيم القوات العسكرية بل فى المظاهر البراقة . . . وتبددت الثروة الامبراطورية فى وجوه ثلاثة ، أولها فيما يدخل السرور على قلوبهم ، والثانى لتزيين أبنيتهم الفخمة ، والثالث لجعل أولئك الكسالى بطبيعتهم يعيشون حياة رغيدة كلها الرفاهية ، بينما ضيق على الجيش وعومل معاملة غير كريمة (٢)» وهو يصور الوهدة التى تردت فيها الامبراطورية عندما تقلد أمرها اسحق كومننوس تصويرا رائعا بقوله : « يمكننا تشبيهها بهيكل ضخم ذى رؤوس عدة ورقبة غليظة قصيرة قبيحة ، وأياد تفوق الحصر وأقدام لا عد لها ، تقرحت معدته وتورمت منه بعض أعضائه ، وتناثرت أشلاء بعضه الآخر . انتفخ هنا بمرض الاستسقاء ، وسقم هناك بفعل السل . والآن يحاول اسحق علاج كل ذلك بجراحة عامة (٣) » .

أما فيما يتعلق برومانوس الرابع فموقف بسللوس منه ليس بخاف على أحد ، وان كان مؤرخنا قد تجاوز معه حدود الموضوعية ، ومع « اعجابه الشديد » بميخائيل السابع تلميذه ، الا أنه لم يستطع أن يمنع قلمه من التعبير بصدق عما انحطت اليه الامبراطورية فى سبعينيات القرن الحادى عشر عندما ذكر « ان الامور قد وصلت فى الشرق والغرب الى الحضيض (٤) » .

بهذا الأسلوب التهكمى الساخر فى الكتابة كان بسللوس أنموذجا احتذاه بعض الكتاب الذين أتوا بعده فى تقديم الموضوعات الجادة فى صورة هزلية ، **بل أن أمور العقيدة لم تسلم ـ على النحو الذى رأينا ـ من هذا الاتجاه .** ونقد راح بسللوس يهاجم أحد الرهبان لسكره الذى لا يكاد يفيق منه مما جعله أضحوكة أثناء القداس(٥) . وهكذا نجد أن بسللوس المؤرخ لم يكن

---

(١) Ibid. VI, 8 — 9

(٢) Ibid. VII, 59.

(٣) Ibid. 51

(٤) Ibid. VII, Michael VII, 7.

(٥) Baynes & Moss, op cit. p. 250

يقل مقدرة عن بسللوس البيانى والفيلسوف ، ولا ذكاء عن بسللوس السياسى. ومما لا شك فيه أن الفضل يعود اليه فى الدرجة الأولى فى احياء الآداب والعلوم الانسانية فى الامبراطورية البيزنطية فى القرن الحادى عشر ، على الرغم من أنه لا يمكن استثناؤه من بين الذين خلطوا بين التقوى والورع وبين الشعوذة والخرافات (١) . ولكن الجهود التى بذلها بسللوس من خلال اعادة تنظيم الجامعة كان لها كبير الأثر فى خلق حالة طيبة من الأنشطة الثقافية خلال القرون التى تبقت من عمر الامبراطورية على عهد أسرتى كومنين وأنجلوس ، بحيث أصبح التحمس للآداب الكلاسيكية هو السمة الواضحة آنذاك ، وأصبحت محاكاة الكتاب والأدباء والفلاسفة الاغريق أمرا شائعا(٢) . وكان بسللوس دون ريب رائدا فى هذا المجال ، وان كان هذا قد أدى بالتالى الى قلة ان لم يكن انعدام المعرفة باللاتينية وآدابها عند معظم كتاب هذه الفترة فى بيزنطة ، الى الحد الذى كان ممكنا فيه أن يخلط بسللوس بين قيصر وشيشرون(٣) . ويعود هذا فى الواقع الى التباعد السياسى والفكرى والعقيدى الذى كان حادثا لزمن طويل ، يعود الى القرن الرابع ، بين العالمين اليونانى واللاتينى .

والحقيقة أن أحدا لا يستطيع فى النهاية أن ينكر ما كان عليه بسللوس من دقة الملاحظة وقوة الذاكرة وحصافة الرأى وبلاغة الأسلوب وسعة الثقافة « لقد كان رأسه — كما قيل — يحتوى على عينى فنان » .

---

(١) C.M.H. IV, 2, p. 297

(٢) Vasiliev, op. cit., 1, pp. 487 — 488.

(٣) Ware, the orthodox church, p. 54.

« المراجـــع »

— PSELLUS, (M), Chronographia trans. by E.R.A. Sewter, under the title : Fourteen, Byzantine Rulers, Penguin Books 1966.

— Academy of Sciences of the U.S.S.R. Institute of history : A short history of the U.S.S.R. Trans. from Russaian by George H. Hanna. Mosocow 1965.

— Atiya, (A.S.), A History of Eastern christianity, London 1968.

— Barraclough, (G), — The Medieval papacy, London 1975.

— The Medieval Empire : Idea and Reality.

وقد قام دكتور جوزيف نسيم بترجمة هذا البحث الاخير وقدم له وعلـــق عليـــه ونشره فى كتابه : « الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى » .

— Baynes (N.) & Moss (h. st. I.b.),

Byzantium : an introduction to East Roman civilization. Oxford 1969.

— Brook (ch), Europe in the central middle Ages, 962 — 1154. London 1969.

— Bryce (J.A.), The holy Roman Empire, London 1950.

— Cambrndge Ancient History, ed. by J.B. Bury; S.A. Cook and F.E. Adock, 12 vols. Cambridge 1936.

— Cambridge Medieval History, planned by J. B. Bury, in 8 vols. Cambridge 1964.

— Cantor, (N), Medieval history, the life and death of a civilization, New York 1963.

— Corbett (J), the papacy, Toronto 1956.

— Creed (J.M.), Egypt and the christian church (Legacy of Egypt, Oxford 1947).

— Einhard, the life of Charlemagne, trans. By lewis throp, under the title : two lives of charlemagne by Einhard and notker the stammerer) Penguin books 1969.

— Hefele (C.J.), History of the councils of the church, trans. from the German in 5 vols. and ed. by W. R. Clark, Edinburgh 1972.

— Hughes PH.), A history of the Church, vol. 2, London 1948.

— Hussey (J.M.), The Byzantine world, London 1967.

وقد ترجم هذا الكتاب الى العربيـــة وقدم له وعلـــق عليه الدكتور رأفت عبد الحميد ، القاهرة ١٩٧٧

— Knowles (D.), The evolution of medieval thought. Hong Kong 1976.

— Neander (A.), Lectures on the history of Christian dogmas, 2 vols, London 1882.

— Nicene and post Nicene fathers of the christian church, ed, by Philip Shalff & Henry Wace in 14 vols. Michigan 1891 Sqq.

— Percival (H.R.), The seven ecumenical councils, (Nicene Fathers) Vol. XIV 2 ser. Michigan 1899.

— Runciman (S), A history of the crusades, 3 Vols London 1951.

— Southern (R. W.), The making of the middle Ages, London 1968.

— Stephenson (C.), Mediaeval history. New York 1962.

— Thompson (J.W.) & Johnson (E.N.),

An introduction to medieval Europe 300 — 1500, New York 1965.

— Tierney (B.), The crisis of church and state 1050 — 1300, New Gersy 1964.

— Ullmann (W.), A short history of the papacy in the Middle Ages, London 1974.

— Vasiliev, (A.A.), A history of the Byzantine Empire, 2 vols, Madison and Milwauke 1964.

— Ware (T.), The Orthodox Church. Penguin Books 1967.

— أسد رستم (دكتور) حرب فى الكنائس ، بيروت ١٩٥٨

— ديفز (ر. هـ. س.) : شارلمان ، ترجمة دكتور السيد الباز العرينى القاهرة ١٩٥٩

— موس (هـ.) ميلاد العصور الوسطى ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد . القاهرة ١٩٦٧

نصوص لاخوان الصفاء حول فلسفتهم السياسية فى مخطوطة لابن منكلى

تحقيـــق ودراسة

د. محمد فريد حجاب

لقد وقفت على أمر مخطوطة ابن منكلى « الأحـكام الملوكية والضوابط الناموسية » حينما كنت أطالع منذ بضع سنين بعض النصوص التى نقلهـا أستاذنا الدكتور عز الدين فودة ـــ أستاذ العلوم السياسية بجامعة القاهرة ـــ من عدد من المخطوطات الموجودة بدار الكتب المصرية . فقد لاحظت أن بعض النصوص فى مخطوطة ابن منكلى حـــول معنى الســـياسة وأقسام العـــلوم السياسية متشابهة تماما مع بعض نصوص رسائل اخوان الصفاء حـــول نفس الموضوع .. وقد رجعت الى النسخة الوحيـــدة من هذه المخطوطة بدار الكتب المصرية ـــ تحت رقم ٢٣ فروسية تيمور ـــ ووقفت على كافة النصوص الموجودة بهـــا والمطابقة لنصوص فى رسائل اخوان الصفاء . وهذه النصوص هى رهن التحقيـــق والدراسة فى هذا البحث ..

ومؤلف المخطوطة هو محمد بن منكلى من علماء مصر فى القرن الثامن الهجرى ويثبت ذلك ما ذكره فى المخطوطة من حوادث تعـــود لعام ٧٦٦ هـ(١) وما ذكـــره من انه كان يعمل نقيبا فى الجيش بمملكة مصر وكان أمير الاسكندرية اذ ذاك صلاح الدين خليل بن عرام(٢) وما ذكره أيضا حول كتاب له بعنوان «التدبيرات السلطانية فى سياسة الصنائع الحربية » وهو ما يقول كتاب جليل المقـــدار، **كنت الفته للاشرف شعبان رحمه الله ولم يصل اليه(٣) . فاذا عرفنـــا أن مدة** حكم الأشرف شـــعبان بن حسين بن الناصر محمد بن قلاون كانت بين ســـنتى ٧٦٤ ـــ ٧٧٨ هـ ، لأدركنا أن المؤلف كان على قيد الحيـــاة بعد وفـــاة الأشرف،

---

(١) المخطوطة ، ص ٤٥

(٢) المرجع السابق ، ص ١١٢ ـــ ١١٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١١٣

أى بعد سنة ٧٧٨ هـ ، ولادركنا انه كان فى خدمة الدولة المملوكية قرب نهاية دولة المماليك البحرية .

وتبدو أهمية المقابلة بين ما ورد فى مخطوطه ابن منكلى « الاحكام الملوكية والضوابط الناموسية » من نصوص ، وبين تلك التى وردت فى رسائل اخوان الصفاء ، فى الدلالة على مدى انتشار الرسائل ، ومدى الاقتباس منها فى بعض الكتابات والمخطوطات ، مما يستوجب العناية بتقصى أبعاد هذا الاقتباس وذاك الانتشار مما يلقى مزيدا من الضوء على جماعة اخوان الصفاء وأثرها فى مختلف جوانب الفكر الاسلامى من سياسية واجتماعية وفلسفية وغيرها .

وقبل التطرق لعرض نصوص المخطوطة ، تجدر الاشارة الى أهم الملاحظات التى تتعلق بهذه النصوص والأفكار التى دارت حولها فى نطاق الفلسفة السياسية لجماعة اخوان الصفاء وهى :

أولا : ان الأبواب التى تضم النصوص المحققة من مخطوطة ابن منكلى ، تمثل فصولا أو أجزاء من فصول فى رسائل اخوان الصفاء . ويتضح من مقابلة نصوص المخطوطة مع نصوص الرسائل ما يلى :

١ ــ الباب السابع والتسعون من المخطوطة « فى بيان العلوم الشرعية »، يقابله فى رسائل اخوان الصفاء الفصل المسمى « فصل أجناس العلوم » والفصل المسمى « فصل فى العلوم الآلهية » ، وقد ورد هذان الفصلان فى الرسالة السابعة من رسائل الاخوان وهى رسالة « فى الصنائع العلمية والغرض منها »(١) .

٢ ــ الباب الثامن والتسعون من المخطوطة « فى بيان من يسهل عليه عمل صنعة وبالعكس » ، يقابله فى الرسائل الفصل المسمى « فصل فى **قابلية الانسان للصنعة** » **والفصل المسمى « فصل فى الغرض من الملك »** وقد ورد الفصلان فى الرسالة الثامنة لاخوان الصفاء وهى رسالة « فى الصنائع العملية والغرض منها » (٢) .

---

(١) رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء ، دار صادر ــ دار بيروت ، بيروت ١٩٥٧ الجزء الأول ص ٢٦٦ ــ ٢٧٤ . وسوف يتم تحقيق نصوص ابن منكلى على ضوء هذه الطبعة من رسائل الاخوان .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٩٠ ــ ٢٩٢

٣ ــ الباب التاسع والتسعون من المخطوطة « فى طلب الأخلاق السنية والقوانين المرضية » يقابله فى الرسائل الفصل المسمى « فصل فى وجوه اختلاف الاخلاق » والفصل المسمى « فصل فى اختلاف الأخلاق من جهة الاخلاط » . وقد ورد الفصلان فى الرسالة التاسعة من رسائل الاخوان وهى رسالة « فى بيان الأخلاق وأسباب اختلافها وأنواع عللها ونكت من آداب الانبياء وزيد من أخلاق الحكماء » (١) .

٤ ــ الباب المائة من المخطوطة « فى ذكر الرتب » ويقابله فى رسائل الاخوان ما ورد فى الفصل المسمى « فصل فى مراتب الانفس » من الرسالة التاسعة للاخوان المشار اليها فى البند السابق » (٢) .

٥ ــ الباب الحادى بعد المائة من المخطوطة « فى بيان السياسة » ، يقابله ما ورد فى الفصل المسمى « فصل فى مراتب الانفس » وما ورد فى بداية الفصل المسمى « فصل فى اختلاف مناهج النفوس » ، وكلاهما من الرسالة التاسعة لاخوان الصفاء المشار اليها فى البندين السابقين(٣) .

٦ ــ الباب الثانى بعد المائة من المخطوطة « فى بيان الناموس » ، يقابله ما ورد فى الفصل المسمى « فصل فى مراتب الناس فى الأخلاق حسب الأعمال » من الرسالة التاسعة لاخوان الصفاء المشار اليها فى البنود الثلاثة السابقة (٤) .

ثانيا : أورد ابن منكلى فى الباب الاخير من النص المحقق عبارة ذكر أنها من رسالة لمن يدعى « المرجيطى » ولعل هذا الاسم تصحيف لاسم الحكيم « المجريطى » الذى عزا اليه البعض تأليف رسائل اخوان الصفاء، ونسب اليه البعض الآخر أنه وضع رسائل على غرار رسائل اخوان الصفاء . ولعل هذا يدعونا الى القاء الضوء على علاقة المجريطى برسائل الاخوان .

لقد اختلف الباحثون اختلافا بينا حول مؤلفى رسائل اخوان الصفاء . وقد عبر القفطى عن هذا الاختلاف بقوله « ولما كتم مصنفوها أسماءهم ،

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٩٩

(٢) المرجع السابق ، ص ٣١١ ــ ٣١٣

(٣) المرجع السابق ، ص ٣١٤ ــ ٣١٦

(٤) المرجع السابق ، ص ٣٢٢ ــ ٣٢٣

اختلف الناس فى الذى وضعها . فكل قوم قالوا قولا بطريق الحدس والتخمين . فقوم قالوا : هى من كلام بعض الائمة من نسل على بن أبى طالب . . . واختلفوا فى اسم الامام الواضع لها اختلافا لا تثبت له حقيقة . . . وقال آخرون : هى من تصنيف بعض متكلمى المعتزلة فى العصر الأول . . . »(١).

وعموما يمكن اجمال الآراء التى قيلت فى صدد مؤلفى الرسائل وأشخاص جماعة أخوان الصفاء فيما يلى :(٢) .

١ ــ أن واضعى الرسائل فى القرن الرابع الهجرى هم زيد بن رفاعة ، وأبو سليمان محمد بن مشير (أو معشر) البستى المعروف بالمقدسى ، وأبو الحسن على بن هارون الزنجانى ، وأبو أحمد المهرجانى (أو النهرجورى) والعوفى وأبو محمد بن أبى البغل .

٢ ــ ان أحد الائمة من آل البيت فى العصر العباسى الاول هو الذى وضع الرسائل مععدم الاتفاق حول الامام الواضع لها .

٣ ــ أن الحرم الأربعة للامام أحمد الوفى هم الذين وضعوا الرسائل . وهؤلاء الحرم الأربعة هم : عبد الله بن المبارك ، وعبد الله بن سعيد ، وعبد الله بن حمدان وعبد الله بن ميمون القداح .

٤ ــ ان الحكيم المجريطى هو الذى وضع رسائل اخوان الصفاء أو الرسالة الجامعة . ولا يهمنا فى نطاق البحث الحالى الا الاتجاه الرابع الذى يشير الى علاقة المجريطى برسائل اخوان الصفاء ، والذى أشار اليه ابن منكلى فى مخطوطته .

والمجريطى هو مسلمة بن أحمد بن قاسم بن عبد الله المجريطى القرطبى الاندلسى . ويكنى أبو قاسم . وقد عاش فى زمن الحكم (٣٥٠ ــ ٣٦٦ هـ)

---

(١) القفطى ، أخبار العلماء باخبار الحكماء ، مطبعة السعادة القاهرة ١٣٢٦ ، الجزء الأول ، ص ٥٩

(٢) يمكن الرجوع لتفاصيل حول هذه الآراء والاتجاهات فى : د. محمد فريد حجاب ، الفلسفة السياسية عند اخوان الصفاء ــ دراسة فى الفكر الاسلامى ، رسالة دكتوراه لم تنشر بعد ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ٨٠ ــ ٩٩

وفى زمن هشام الثانى (٣٦٦ ــ ٣٩٩ هـ) وتوفى قبل نشوب الفتنة التى أدت الى سقوط الدولة الأموية فى الاندلس فى احدى السنوات الواقعة بين ٣٩٥و٣٩٨هـ حسب اختلاف الروايات . وممن تأثر به من العلماء الكرمانى وابن خلدون . وتدل الأخبار والأقوال على علو كعبه فى الرياضيات والفلك والمعاملات حتى لقد سماه صاعد الأندلسى « امام الرياضيين »(١) ولقبه ابن بشكوال بالفرضى والحاسب(٢) ، ووصفه ابن خلدون بأنه شيخ الاندلس فى علوم الكيمياء والسيمياء والسحر فى القرن الثالث وما بعده(٣) ومن أشهر مؤلفات المجريطى كتاب « رتبة الحكيم » وكتاب « غاية الحكيم » (٤) .

ويستند أصحاب الرأى القائل بأن رسائل اخوان الصفاء من وضع الحكيم المجريطى على ما أورده المجريطى فى كتابه « رتبة الحكيم » اذ قال « وقد قدمنا من التأليف فى العلوم الرياضية والأسرار الفلسفية ، رسائل استوعبناها فيها استيعابا لم ينقد منا فيها أحد من أهل عصرنا البتة . وقد شاعت هذه الرسائل فيهم وظهرت اليهم ، فتنافسوا فى النظر اليها ، وحضوا أهل زمانهم عليه ، ولا يعلم من ألف ولا اين ألف غير الحذاق منهم ، لما دأبوا على مطالعتها لاستحسانهم اياها واستعذابهم لألفاظها ، علموا أنها من تأليف زمانهم وعصرهم الذى هم فيه ولا يعلمون من ألفها ، وكل ذلك من تلك التآليف مبسوط المرسوم .. « وقد حمل البعض هذا القول على الظن بأن الرسائل التى يشير اليها المجريطى هى رسائل اخوان الصفاء . حتى لقد سئل البهائى مفتى الديار الرومية عن صاحب كتاب اخوان الصفاء فقال « رأيتها منسوبة للمجريطى ، وما تحققت من هو ما أخبره(٥) وجاء فى فتاوى الشيخ ابن حجر عن الرسائل « نسبها كثير الى جعفر الصادق ، وهو باطل . وانما الصواب أن مؤلفها مسلمة

---

(١) صاعد الاندلسى ، التعريف بطبقات الامم ، القاهرة ، ص ٦٩

(٢) ابن بشوال ، الصلة ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٥٦٤

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ٤٨١

(٤) انظر : الاب ميخائيل الجميل ، المجريطى ونظريته فى الطبيعيات ، آفاق عربية (جلة) ، عدد يوليو ١٩٧٦ ، ص ٨٢ ــ ٨٥

(٥) انظر : المحبى ، خلاصة الاثر ، تحقيق مصطفى وهبى ، القاهرة ١٣٧٦ هـ الجزء الرابع ص ٦ ، جميل صليبا ، مقدمة الرسالة الجامعة ، دمشق ١٩٤٨ ، الجزء الاول ص ٦

ابن قاسم الاندلسى » (١) وبالرغم من أن صاحب « كشف الظنون » يميل الى تأييد الاتجاه الأول الذى اعتمد على رواية ابى حيان التوحيدى فى القول بأن جماعة زيد بن رفاعه هم مؤلفو الرسائل ، الا أنه يذهب الى القول بأن للحكيم المجريطى القرطبى رسائل على نمط رسائل اخوان الصفاء ، تحمل نفس الاسم ولكنها نسخة مغايرة(٢) .

ولا يقر ويدمان Wiedemann أن المجريطى هو مؤلف رسائل اخوان الصفاء ولكنه جلبها معه عند عودته من رحلة الى المشرق (٢) ولكن البعض يرى أن المجريطى جلب معه « الرسالة الجامعة » وليس الرسائل ، وأملاها محاضرات على تلاميذه . ويذهب فريق آخر الى القول بأن الرسائل وصلت الاندلس بطريقة ما (٣) وان المجريطى قرأها وأملاها شرحا لرسائل الاخوان مدعيا أنها الرسالة الجامعة التى أشار الاخوان اليها فى رسائلهم(٤) .

---

(١) ابن حجر العسقلانى ، لسان الميزان ، حيدر آباد ١٣٣١ هـ ، الجزء الثانى ، ص ٦٣ — ٦٤ ، ابن الالوسى البغدادى ، محاكمة الاحمدين ، طبعة بولاق ١٢٩٨ هـ.ص ٤٥ وما بعدها ، مقدمة أحمد ذكى باشا لرسائل اخوان الصفا وخلان الوفاء ، القاهرة ١٩٢٨ ، الجزء الاول ص ٣٠ — ٣٢

(٢) حاجى خليفة ، كشف الظنون عن اسامى الكتب والفنون ، تصحيح محمد شرف الدين بالتقايا ورفعت بليلة الكليس ، القاهرة ١٩٣١ — ١٩٤٣ ، المجلد الأول ، ص ٩٠٢ . وفى المقدمة التى كتبها الشيخ على يوسف لرسائل الاخوان طبعة كلية الآداب يقول ان للمجريطى رسائل على مثال رسائل اخوان الصفاء كتم اسمه فيها ، وقد علق أحمد باشا على ذلك بقوله : « قول نطالبه عليه بالدليل ، ولا نأخذه منه قضية مسلمة فان مثل هذا يهم المؤرخين نقله (أنظر : مقدمة أحمد زكى باشا ، رسائل اخوان الصفاء ، طبعة القاهرة ١٩٢٨ ، مرجع سابق ص ٣٨) وفى نفس الاتجاه أيضا ذهب عمر الدسوقى الى القول بأن هناك نوعين من الرسائل ، الاولى لاخوان الصفاء والثانية على نمطها الفها المجريطى فى احدى وخمسين رسالة مثلها (عمر الدسوقى ، اخوان الصفاء القاهرة ١٩٧٣ ، ص ٤١) .

(٣) انظر Weidmann Migriti

(٤) يرى البعض أن الخليفة الحكم الثانى (٣٥٠ — ٣٦٦ هـ) أرسل بعض التجار لشراء الكتب من المشرق ، فعادوا ومعهم مجموعة كبيرة من الكتب من بينها رسائل اخوان الصفاء (أحمد أمين ، مبادىء الفلسفة القاهرة ص٧٤) ويرى البعض أن الكرمانى — تلميذ المجريطى — هو الذى جلب الرسائل من ديار الشرق (صاعد الاندلسى ، التعريف بطبقات الامم مرجع سابق ، ص ٧٠) .

(٥) عمر الدسوقى ، اخوان الصفاء ، مرجع سابق ، ص ٦٧

ومن المرجح أن المجريطى لم يؤلف رسائل اخوان الصفاء ولا الرسالة الجامعة لعدة اعتبارات لعل أهمها :

(ا) تراجم الحكيم المجريطى لا تقدم دليلا مقنعا على أنه واضع الرسائل أو الرسالة الجامعة . وما ذكره المجريطى فى كتابه « رتبة الحكيم » حول تأليفه لرسائل لا يعد برهانا قاطعا على أنها رسائل الاخوان ، كما أن أسلوب الرسالة الجامعة شديد الشبه بأسلوب رسائل اخوان الصفاء ، وكلاهما يختلف عن أسلوب المجريطى فى كتابيه المشار اليهما .

(ب) ان الرسالة الجامعة ترد القارىء الى رسائل اخوان الصفاء . كما أن الرسائل تحيل أيضا الى الرسالة الجامعة (١) وهذا دليل على التشابه والتكامل بين الرسالة الجامعة والرسائل ، وعلى أن مؤلفهما واحد أو جماعة واحدة .

وأقصى ما يمكن أن نستنتجه — اعتمادا على مخطوطة ابن منكلى — أن لمجريطى رسالة ، ليست الرسالة الجامعة ، على غرار رسائل اخوان الصفاء أخذت شكل مختصر لهذه الرسائل .

ثالثا : النصوص المحققة فى مخطوطة ابن منكلى والمنقولة عن رسائل اخوان الصفاء أو عن مختصر لهذه الرسائل ، تنطوى على بعض الأفكار السياسية ، ومن الملائم أن نعرض أهم هذه الأفكار فيما يلى :

ا — ذكر ابن منكلى أنواع العلوم الشرعية التى ذكرها اخوان الصفاء ، وهى ستة : علم التنزيل ، وعلم التأويل ، وعلم الروايات والاخبار ، وعلم الفقه والسنن والاحكام ، وعلم التذكار والمواعظ والزهد والتصوف ، وعلم تأويل المنامات (٢) — واخوان الصفاء يولون أهمية خاصة لعلم التأويل ، حيث يرون أن المشتغلين بهذا العلم هم الائمة وخلفاء الانبياء . ولا يجدر بنا ألا ندرك مغزى

(١) انظر على سبيل المثال : الرسائل ، الجزء الاول ، ص ٤٢ — ٤٣ ؛ الرسالة الجامعة ، الجزء الأول ، ص ٨، ٩، ١١، ١٤١، ١٤٢، ١٥٢، ١٥٣، ١٦٩، ٤٢٦، ٥٢٧، ٨٥٦.

(٢) انظر : الرسائل ، الجزء الاول ، ص ٢٦٧ ؛ المخطوطة ، ص ١٤٣ — ١٤٤

هذا القـــول باعتبار اخوان الصفاء من الشيعة الاسماعيلية الذين يعتبرون أن تأويل الشريعـــة هو حـــق لآل البيـــت فحســـب ، وليس من حـــق غـــير الائمة مهما بلغ علمهم الدينى التطرق الى تأويل أى أمر من أمور الشريعة .

وعلى ضوء هذا التصنيف للعلوم الشرعية ، يقسم الاخوان البشر الى مراتب حسب أعمالهم ، ولكن لا يقسمونهم الى ستة أقسام بل الى ثمانيـــة ، وقد نقل ابن منكلى هـــذا التقسيم فى مخطوطته فى البـــاب الذى أسماه « فى بيـــان الناموس » . وهذه الاقســـام لمراتب البشر هى : (١)

١ ـــ قراء التنزيل وحفاظ ألفاظه . وهذه المرتبة يقابلها علم التنزيل من العلوم الشرعية .

٢ ـــ رواة الاخبار وناقلو الحديـــث وحافظو سر النبـــوة . ويقابلها علـــم الروايات والاخبار .

٣ ـــ فقهاء أحكام الناموس وعلمـــاء سننه وحفاظ حدوده . ويقابلها علم الفقه والسنن والاحكام .

٤ ـــ المفسرون ألفاظ التنزيل الظاهرة وأقاويله المروية .

٥ ـــ المجاهدون وغزاة أعداء الناموس الحافظون ثغور البلاد .

٦ ـــ خلفاء صاحب الناموس فى أمره ، ورؤساء أصـــحابه الحارسون شريعته على أمته .

٧ـــ الزهاد والعباد فى المساجد والخطباء على المنابر الواعظون الناس لعدم ترك استعمال الناموس ، وهذه المرتبة تقـــابل علم التذكار والمواعظ والزهد والتصوف من العلوم الشرعية .

٨ ـــ علماء تأويل التنزيل ، وهم الائمة المهديون . وتقـــابل هذه المرتبة علم التأويل . ويلاحظ على هذا التقسيم أنه لم يتضمن مرتبة من البشر تقـــابل

---

(١) انظر : الرسائل ، الجزء الأول ، ص ٣٢١ ـــ ٣٢٢ ، المخطوطة ، ص ١٥٠ ـــ ١٥١

علم تأويل المنامات وهو العلم السادس من العلوم الشرعية . كما يلاحظ أن المراتب الرابعة والخامسة والسادسة من مراتب البشر ، يمكن أن تدمج فى مراتب أخرى . فالمرتبة الرابعة يمكن ادماجها فى المرتبة الثالثة على أساس أن عملية التفسير لظاهر التنزيل عملية متممة ومكملة للفقه ، ومن ثم تندمج تحت علم الفقه والسنن ، والاحكام والمرتبتان الخامسة والسادسة يمكن أن يدمجا مع المرتبة الثامنة ، على أساس أن أعمال هاتين المرتبتين تدخل ضمن اختصاصات الائمة وخلفاء الأنبياء فى مذهب الاخوان ، وهو ما يعبر عنه الاخوان — ونقله عنهم ابن منكلى — بمصطلح « السياسة الملوكية » وسوف نتعرض لذكرها فى النقطة التالية عندما نتعرض لأقسام علم السياسة .

٢ — نقل ابن منكلى فى مخطوطته أقسام العلوم السياسية عن اخوان الصفاء . وعلم السياسة كما يسميه الاخوان ، أو العلوم السياسية كما يسميها ابن منكلى ، خمسة أقسام هى :(١)

١ — السياسة النبوية : وهى التى يقوم بها الأنبياء عليهم السلام لسياسة النفوس الشريرة وترغيبها فى العادات والأخلاق الحميدة . وهذه السياسة هى أرقى أنواع السياسات . وفى هذا المعنى يقول الاخوان «واعلم يا أخى انه ليس من علم ولا عمل ولا صناعة ولا تدبير ولا سياسة مما يتعاطاه البشر هو أعلى منزلة ولا أسنى درجة ... من وضع الشرائع الآلهية »(٢) .

٢ — السياسة الملوكية : وهى التى تعنى معرفة كيفية حفظ الشريعة على الأمة ، واحياء السنة فى الملة بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، واقامة الحدود ، وانفاذ الأحكام ورد المظالم ، وقمع الأعداء ، وكف الاشرار ، ونصرة الاخيار . ويختص بهذه السياسة خلفاء الأنبياء والائمة المهديون . وواضح من هذا المفهوم للسياسة الملوكية أن الامامة أو الخلافة هى حق لخلفاء الأنبياء من أئمة آل البيت ، وهو ما يتفق مع مذهب الاخوان فى التشيع .

---

(١) انظر : الرسائل ، الجزء الأول ، ص ٢٧٣ — ٢٧٤ ، المخطوطة ، ص ١٤٤ — ١٤٦

(٢) الرسائل ، الجزء الرابع ، ص ١٢٨

٣ــ السياسة العامية : أو سياسة العـــامة كما ذكرها ابن منكلى . وهى الرئاسة على الجماعات ، كرئاسة الأمراء على البلدان والمـــدن ، ورئاسة قادة الجيوش على العساكر وغيرها .

٤ ــ السياسة الخاصية : وهى التى يقـــوم بها الانسان لتدبير منزله وأمر معيشته ، وتدبير أحوال خدمه وغلمانه ومماليكه واقربائه وعشيرته وجيرانه وأصدقائه .

٥ ــ السياسة الذاتية : ويعنى هذا النوع من السياسة بأخلاق الانسان نفسه ، أو الضوابط الذاتيـــة للانسان ، اى معرفة كل انسان لنفسه واخلاقه ، والنظر فى أحواله وأفعاله وأقواله وجميع أموره المتعلقة به دون سواه .

وتجدر الاشارة الى أن هذه الأقسام لعلم السياسة أو العلوم السياسية التى وضعها اخوان الصفاء ــ ونقلها عنهم ابن منكلى ــ يمكن اعتبارها أول تقسيم للسياسة فى الفكر السياسى الاسلامى . وعلى غراره قام بعض فلاسفة الاسلام كالفارابى وابن ســـينا بوضع تقسيمات ــ مع بعض الاختلافات ــ للسياسة . ولم يذكر كل من الفارابى وابن سينا السياسة النبوية أو السياسة الملكية ، وان كان ابن ســـينا قد أشار الى السياسة الملكية ضمن الســـياسة العامية ولم يجعلها قسما مستقلا من اقسام السياسة . ولعلهما لم يتعرضا لهذين النوعين من السياسة لأنهما كانا مجـــرد مفكرين نظريين(١) بعكس اخوان

---

(١) قسم الفارابى السياسة الى : سياسة المرء مع رؤسائه ، وسياسته مع اكفائه وسياسته مع من دونه ، وسياسة المرء مع نفسه . وقسمها ابن سينا الى : سياسة الرجل نفسه ، وسياسة الرجل دخله وخرجه ، وسياسة الرجل أهله ، وسياسة الرجل ولده وسياسة الرجل خدمه (أنظر : رسالة فى السياسة للفارابى وكتاب السياسة لابن سينا فى : الآباء لويس معلوف وخليل اده ولويس شيخو ، مقالات فلسفية قديمـــة لبعض فلاســـفة العرب مسلمين ونصارى ، مجلة المشرق ، بيروت ١٩١١ ، ص ٢ ــ ٣٠) . وقد نسب البعض لـــكل من أفلاطون وارسطو كتابا فى السياسة فيهما تقسيم للسياسة مشابه للتقسيمات التى ذكرها فلاســـفة الاسلام ، مثل سياسة الرجل لعبيده . وسياسته لخدمه ، وسياسته لأبنـــائه ، وسياسته لنفســـه (أنظر : د. عبـــد الرحمن بدوى ، الاصول اليونانية للنظريات السياسية للاسلام . القاهرة ١٩٥٤ وبه نص رسالتى أفلاطون وارسطو فى السياسة) .

الصفا الذين كانت تضمهم حركة فكرية ثورية معا ، أى كانوا أصحاب ايديولوجية ومذهب سياسى يسعون الى تحقيقه فى واقع الحياة السياسية . ومن ثم تعرضوا للسياسة النبوية والسياسة الملوكية لتقرير حق ائمتهم من آل البيت فى الخلافة أو الامامة باعتبارهم خلفاء الأنبياء .

وهناك نقطة جديرة بالاهتمام وهى أن اخوان الصفاء وغيرهم من فلاسفتنا الاسلاميين قد جعلوا علم السياسة أو العلوم السياسية أحد فروع العلم الالهى أو العلوم الدينية ، وربطوا بين السياسة والدين من جانب ، وبين السياسة والأخلاق من جانب آخر . ولا غرابة فى هذا الاتجاه ، حيث يلاحظ على الفكر السياسى فى العصور الوسطى بصفة عامة ، فى المسيحية أو فى الاسلام أنه لم ينظر الى السياسة باعتبارها علما قائما بذاته مستقلا عن العلوم الأخرى . بل صار علم السياسة — بحكم سيطرة القيم الدينية على كافة مناحى الحياة — فرعا من فروع العلوم الدينية أو الالهية . ومن ثم ظل الطابع السائد للكتابات السياسية فى الاسلام طوال العصور الوسطى ، بل وحتى القرن التاسع عشر الميلادى ، هو الخلط بين السياسة والدين والأخلاق ، نظرا للطابع الدينى السائد فى السياسة والحكم فضلا عن أن تعاليم الدين الاسلامى تجعل من الأخلاق النابعة من القيم الدينية أساسا لقواعد المعاملات والسياسات . ولذا لم يكن هناك أى خلاف بين سلوك الانسان مع نفسه (الأخلاق) وسلوكه مع غيره (السياسة) ، فالانسان الفرد والانسان السياسى كانا يسيران جنبا الى جنب ولا يمكن فصل احدهما عن الآخر . وهكذا كان الفكر السياسى الاسلامى فى هذه العصور فكرا أخلاقيا(١) . وفى الفصل الذى عقده الاخوان للبحث فى « غرض السياسات » يلخص الاخوان هذا الاتجاه العام للمزج بين السياسة والأخلاق ، وأن الأخلاق أو سياسة النفس هى أساس كل السياسات ، بقولهم « اعلم أن الجسد مسوس والنفس سائس ، فأى نفس ارتاضت فى سياسة جسدها كما يجب ، أمكنها سياسة الأهل والخدام والغلمان . ومن ساس أهله بسيرة عادلة ، أمكنه أن يسوس قبيله . ومن ساس قبيله كما يجب ، أمكنه أن يسوس أهل المدينة كلهم . ومن ساس أهل

---

(١) انظر فى هذا المعنى :

D. M. Dunlop. Al-Farabi, Fusul Al-Madani Cambridge 1961, p. 3

المدينة كلهم ، أمكنه أن يسوس الناموس الآلهى . ومن ساس الناموس الآلهى، أمكنه الصعود الى عالم الافلاك وسعة السماوات .. »(١) .

٣ — وكما نقل ابن منكلى فى مخطوطته تقسيم السياسة كما ورد فى رسائل اخوان الصفاء ، نقل عنهم أيضا تعريفهم للسياسة ومفهومهم لمعناها . فقد عرف الاخوان السياسة من حيث غايتها بأنها تهدف الى « صلاح الموجودات وبقاؤها على أفضل الحالات وأتم الغايات »(٢) وقد نقل ابن منكلى هذا المفهوم للسياسة ، وان كان قد أضاف اليه قوله « ان الانسان العاقل مجبول فى نشأته على الاتيان بالسياسة ، فهو مجبول على دفع ما يضره قسرا، وهو مجتهد فى استجلاب ما ينفعه حتما(٣) وهذه العبارة تعكس تردد ابن منكلى فى ارجاع السياسة الى أسس غريزية أم الى أسس عقلية ، وبمعنى آخر لم يستطع أن يوضح لنا بجلاء ما اذا كانت الجبلة والغريزة أو الاجتهاد والعقل هى أساس السلوك السياسى ، وهل يمكن قبل قوله بأن الانسان يتصرف تصرفا غريزيا فى دفع الضرر ، بينما يتصرف تصرفا عقليا فى جلب المنفعة ؛ أما اخوان الصفاء ، فقد عزوا السلوك السياسى الى الغريزة والجبلة والاستعداد الفطرى،وميزوا على هذا الاساس بين السياسة والرياسة. فجعلوا الرياسة من خصائص النفس الغضبية الحيوانية التى جبلت على « القهر والغلبة وحب الرياسة »(٤) ، أما السياسة فهى من صفات النفس العاقلة التى جبلت على « فن التدبير وسياسة التقدير »(٥) والسياسة عند الاخوان أشرف من الرياسة ، والنفس العاقلة تجذب النفس الغضبية الى « تدبيرها وسياستها » (٦) ولعل هدف الاخوان من فكرة الاستعدادات الفطرية لكل من الرياسة والسياسة ، وفكرة رياسة النفس الناطقة للنفس الغضبية ، واعتبار السياسة أشرف من الرياسة ، هو خدمة مذهبهم السياسى وهو

(١) الرسائل ، الجزء الثالث ص ٤٨

(٢) الرسائل الجزء الاول ، ص ٣١٤

(٣) المخطوطة ، ص ١٤٩

(٤) الرسائل الجزء الثالث ، ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٩

(٥) الرسائل الجامعة ، الجزء الثانى ، ص ١٧٥

(٦) الرسائل ، الجزء الرابع ، ص ٣٠٨

أن الائمة من آل البيت هم الذين لديهم الاستعداد الفطرى للسياسة،وبالسياسة تتحقق المدينة الفاضلة « دول أهـل الخير » أما الخلافـة الغاصبة للامويين والعباسيين فهى تقوم على القهر والغلبة ، وحكمها هو رئاسة ، وبالرئاسة، ظهرت « دولة أهل الشر » لأنهـا خالفت مبدأ الوراثة الفطرية الذى يفرض على النفس الغضبية الحيوانيـة الرضوخ والطاعة للنفس العاقلة ، أى خضوع الرياسة للسياسة والانقياد لها (١) .

٤ ــ ان فكرة تقسيم الصنائع والحرف والأعمال وفقا لطوالع البروج ودلالة الكواكب والقـدرة على اتفـاق صناعة الآباء والأجداد التى ذكـرها ابن منكلى فى مخطوطته والتى وردت قبل ذلك فى رسائل اخوان الصـفاء ، قد تشير الى أن نمط الفكر الاجتماعى الذى كان سائدا على عهد اخوان الصفاء لم يتغير طوال الفترة الواقعـة بين عصر الاخوان (القرنين الثالث والرابع الهجريين) وعصر ابن منكلى (القرن الثامن الهجرى) . ومن أهم المبادىء التى تنطوى عليها هذه الأفكار مبدأ « التخصص » ومبدأ « وراثة المهن » ــ ونصوص الاخوان وكذلك نصوص ابن منكلى تبرر هذين المبدأين بالقـول بأن « صـناعة الآباء والأجـداد انجع فى الاولاد من صناعة الغرباء ، وخاصة من دل مولده عليه ، ويكونون فيها أحذق وأنجب . ومن أجل هذا أوجبوا فى سياسة اردشير ابن بابكان على أهل كل طبقة من الناس لزوم صناعة آبائهم وأجدادهم وأن لا يتجاوزوها ، وزعموا أن ذلك فرض عليهم من الله تعالى »(٢) .

وفكرة دلالة الكواكب على الاستعداد الفطرى لتعلم صنعة معينة أو اتقان عمل بعينه دون سواه ، وفكرة الاسـتعداد الفطرى والوراثى لتعلم واتقان صناعة الآباء هما فكرتان تخدمان مذهب الاخوان السياسى ، اذ اعتمد عليهما الاخوان للدفاع عن حق الأئمة من آل البيت فى الحـكم لمـا فطروا عليـه من استعدادات تؤهلهم دون غيرهم لذلك . ويرى الاخوان أن مبدأ وراثة المهن

---

(١) يمكن الرجوع لتفاصيل حول مفهوم المدينة الفاضلة ودولة أهل الشر ودولة أهل الخير فى : د.محمد فريـد حجاب ، الفلسفة السياسية عند اخوان الصفاء ــ دراسة فى الفكر الاسـلامى ، مرجع سابق ، ص ٣٩٣ ــ ٤١٤

(٢) الرسائل،الجزء الاول ، ص ٢٩١ ــ ٢٩٢،المخطوطة ص ١٤٦ ــ ١٤٧

ومبدأ التخصص يؤديان الى « صيانة للملك ان لا يرغب فيه من ليس من أهله ، لأنـــه اذا كثر الطالبون للملك ، كثر التنازع بينهم ، واذا كثر التنازع كثر الشـــغب واضطربت الأمور وانفسد النظام وفساد النظام يتبعه البوار والبطلان » ويؤكد الاخوان فى مواضع أخرى من رسائلهم نفس الفكرة ، فيقولون بأن النـــاس ينقسمون الى طبقات » بحسب الموالد المتفقة لهم » أى طبقا لموجبات الفلك وشـــكل الكواكب واقترانات النجـــوم التى تؤثر بدورها على أمزجة وأخلاط وأخلاق البشر واستعداداتهم الفطرية ونفوسهم المطبوعة على حب الكون فى طبقة معينة من طبقات المجتمع (١) .

٥ — كان لاخوان الصفاء — وعنهم نقل ابن منكلى — رأى فى السيكولوجية الاجتماعيـــة والعوامل الطبيعية المؤثرة فى طبائع الأمم وسجاياها . ورغم أنهم يعتبرون « موجبات أحـــكام النجوم فى مواليد البشر هى أصل اختلاف أخلاقهم وطباعهم » وخصصوا لذلك رسالة كاملة هى رسالة « فى مسقط النطفة »(٢) بينوا فيها كيفية تأثيرات الكواكب على الاجسام والاخلاق من يوم مسقط النطفة الى يوم موت الجسد ، الا أنهم لم يغفلوا أهمية العـــوامل الوراثيـــة والعوامل الطبيعية والعوامل الاجتماعيـــة فى تكوين طبائع البشر وسجاياهم .

وقد جمع الاخوان فى الفصل المسمى « فصل فى وجوه اختلاف الاخلاق »(٣) والذى أورده ابن منكلى فى مخطوطته فى الباب المسمى « فى طلب الاخلاق السنية والقوانين المرضية » (٤) العـــوامل التى لهـــا تأثير فى طبائع البشر والتى تتسبب فى اختلاف طبائع الامم ، وهى :

١ — اخلاط أجسادهم وكيفية امتزاج هذه الأخلاط . وهو ما يمكن أن نعبر عنـــه بالعوامل الوراثية أو العرقية .

---

(١) انظر : الرسائل ، الجزء الثـــالث ، ص ٥٣٢ — ٥٢٣ ، الرسالة الجامعة ، الجزء الاول ص ٧٠٩

(٢) انظر : الرسائل ، الجزء الثانى ، الرسالة الرابعـــة والعشرين ، ص ٤١٧ — ٤٥٦ وبصفة خاصة فصل « فى كيفية تأثيرات الكواكب » .

(٣) انظر : الرسائل الجزء الاول ، ص ٢٩٩

(٤) انظر : المخطوطة ، ص ٤١٨

٢ ــ تربة بلدانهم واختلاف أهويتها . وهو ما يمكن أن يطلق عليه العوامل الطبيعية .

٣ ــ ديانات آبائهم ، وأساتذتهم ومربيهم . وهو ما يمكن أن يسمى بالعوامل الاجتماعية .

٤ ــ موجبات أحكام النجوم فى أصول مواليدهم . وهو فى نظر الاخوان العامل الأصلى والعوامل السابقة ما هى الا فروع له .

٥ ــ اهتم اخوان الصفاء فى مواضع كثيرة من رسائلهم بمراتب النفوس فقسموا النفوس الى خمس مراتب هى : (١)

(ا) النفس النباتية أو الشهوانية .

(ب) النفس الحيوانية أو الغضبية .

(جـ) النفس الناطقة الانسانية .

(د) النفس الملكية الحكمية .

(هـ) النفس الملكية القدسية .

وفى الباب الذى اسماه ابن منكلى « فى ذكر الرتب » (٢) ــ والذى يمثل جزءا من الفصل المسمى عند الاخوان « فى مراتب النفوس » (٣) ــ لم يذكر سوى المراتب الثلاث الاخيرة وهى : ــ الانسانية والحكمية والناموسية . واذا كان ابن منكلى لم يوضح أهمية تقسيم المراتب على هذا النحو فى مخطوطته ، أو الهدف من هذا التقسيم الا أن اخوان الصفاء قد أوضحوا فى رسائلهم الهدف من هذا التقسيم وأهميته ، وقد ربطوا بين تقسيم مراتب النفوس وبين تقسيمات أخرى مشابهة لمراتب الموجودات ومراتب البشر ومراتب أهل المدينة الفاضلة .

---

(١) انظر : الرسائل الجزء الاول ، ص ٣١١ ــ ٣١٦ ، ٣٦٥ ، الجزء الرابع ، ص ٢٣٠ ، ٣٦٥

(٢) المخطوطة ، ص ١٤٨ ــ ١٤٩

(٣) الرسائل ، الجزء الاول ، ص ٣١١ ــ ٣١٦

وكان نظام المراتب عندهم منهجا متعدد الجوانب والأغراض فهو أولا منهج فى التنظيم السياسى لجماعتهم السرية يأخذ شكلا هرميا يبدأ من أعلى الى أسفل بالقيادة العليا ، فالقيادة السياسية النظرية ، فالقيادة العلمية ، فالمجموعات الوظيفية ، فالمستجيبين للدعوة . وهو ثانيا منهج فى التنشئة السياسية لأعضاء الجماعة من المرحلة الأولى (الخمسة عشر سنة الاولى فى حياة العضو أو المرتبة الاولى من مراتب التنظيم السرى أو المدينة الفاضلة الروحانية) الى المرحلة الخامسة (التى تبدأ بعد سن الخمسين وبها تكتمل التنشئة السياسية للعضو ويصل بها الى « مرتبة الآلهيين » المطلعين على كافة أسرار الجماعة). وهو ثالثا منهج فى الترقى فى مراتب الجماعة والتدرج فى مستويات التنظيم ، قوامه الامتثال للطاعة من المراتب الأدنى للمراتب الأعلى والتفانى فى خدمة أهداف الجماعة . وهو رابعا منهج فى التخصص يقوم فيه أهل كل مرتبة أو طبقة بالعمل الذى يتناسب واستعداداتها وقدراتها . وهو خامسا منهج فلسفى لخدمة مذهبهم السياسى يهدف الى اثبات عصمة الامام وضرورته فى التوسط بين المرتبة البشرية والمراتب العليا ، فهو حلقة الوصل الرئيسية بين هاتين المرتبتين باعتباره أرقى مرتبة فى المراتب البشرية نفسها . ويمكن القول بأن فكرة المراتب تحتل أهمية خاصة فى كتابات فرق الشيعة عموما وفى كتابات فرقة الاسماعيلية خصوصا ونذكر منهم على سبيل المثال الكرمانى (القرن الخامس الهجرى)(١) والجيلانى (القرن الحادى عشر الهجرى)(٢).

وبعد هذا العرض لبعض الملاحظات التى تدور حول نصوص مخطوطة ابن منكلى والنصوص المماثلة لها فى رسائل اخوان الصفاء ، وعرض أهم الأفكار السياسية والاجتماعية التى تدور حولها هذه النصوص ، نعرض الابواب المحققة من المخطوطة فيما يلى :

---

(١) انظر : الكرمانى راحة العقل ، تحقيق د. محمد مصطفى حلمى ، القاهرة ١٩٥٢ ، ص ٢٧٧ — ٣٠٦

(٢) انظر الجيلانى ، توفيق التطبيق فى اثبات أن الشيخ الرئيس من الائمة الاثنى عشرية ، تحقيق د. محمد مصطفى حلمى ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص ١٨.

(ص ١٤٣) الباب السابع والتسعون(١) .

فى بيـــان(٢) العلوم الشرعية التى وضعت لنجاة(٣) النفوس (ص ١٤٤) وطلب الآخرة وهى(٤) ستة أنواع : أولهـــا علم التنزيل — وثانيها علم التأويل . وثالثها(٥) علم الروايات والأخبـــار والرابع علم الفقـــه والسنن والاحكام — ومنها(٦) علم التذكار والمواعظ والزهد والتصرف . ومنها(٧) علم تأويل المنامات . فعلماء(٨) التنزيل هم القراء والحفظة وعلماء(٩) التـــأويل هم الائمة(١٠) وخلفاء الانبياء وعلماء الروايات هم أصحاب الحديث ، وعلمـــاء(١١) الاحكام والسنن هم الفقهاء ، وعلماء(١٢) التذكار هم العباد(١٣) ومن شاكلهم ، وعلماء التأويل(١٤) هم المعبرون .

---

(١) ورد فى الاصل الباب الرابع والتسعون ، حيث ان المخطوطة تحتوى على أربعة أبواب مكررة الارقام .

(٢) وردت فى الرسائل « فاما أنواع فى » الفصل المخصص للبحث فى أجناس العلوم (الرسائل ، الجزء الاول ، ص ٢٦٧) .

(٣) وردت فى الرسائل « لطب » (المرجع السابق ، ص ٢٦٧) .

(٤) وردت فى الرسائل « فهى » (المرجع السابق ، ص ٢٦٧) .

(٥) وردت فى الرسائل « والثالث » (المرجع السابق ، ص ٢٦٧) .

(٦) وردت فى الرسائل « والخامس » (المرجع السابق ص ٢٦٧) .

(٧) وردت فى الرسائل « والسادس » (المرجع السابق ، ص ٢٦٧) .

(٨) وردت فى الاصل « فعلما » .

(٩) وردت فى الاصل « وعلما » .

(١٠) وردت فى الاصل « الايمة » .

(١١) وردت فى الاصل « وعلما » .

(١٢) وردت فى الاصل « وعلما » .

(١٣) وردت فى الرسائل « التذكار والمواعظ هم العباد والزهاد والرهبان » (الرسائل الجزء الاول ، ص ٢٦٧) .

(١٤) وردت فى الرسائل «تأويل المنامات» (المرجع السابق ، ص ٢٦٧).

وأما العلوم(١) الآلهية قالوا(٢) خمسة أنواع : أولها معـــرفة البارى تعالى وتقدس(٣) وصفة وحـــدانيته وكيف هو(٤) علة الموجودات ، وخالـــق المخلوقات وفائض(٥) الجود ، ويعطى الجود والوجود(٦) وحافظ النظام ، ومبقى الدوام ومدبر الكل ، وعلم الغيب(٧) ، وأول كل شىء ابتداء ، وآخر كل شىء(٨) ظاهر على(٩) كل شىء قدرة ، وباطن على(١٠) كل شىء علما(١١) .

---

(١) « وأما العلوم » وردت فى الرسائل « والعلوم » (المرجع السابق ص ٢٧٢) .

(٢) لم ترد « قالوا » فى الرسائل (المرجع السابق ، ص ٢٧٢) .

(٣) « تعالى وتقدس » وردت فى الرسائل « جل جـــلاله وعم نواله » (المرجع السابق ص ٢٧٢) .

(٤) وردت فى الاصل « هى » .

(٥) وردت فى الاصل « فايض » .

(٦) « ومعطى الجود الوجود » وردت فى الرسائل « ومعطى الوجود » (الرسائل الجزء الاول ، ص ٢٧٢) .

(٧) وردت فى الرسائل « وعالم الغيب والشـــهادة لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء » (المرجع السابق ، ص ٢٧٢) .

(٨) «واخر كل شىء » وردت فى الرسائل « وآخر كل شىء انتهـــاء » (المرجع السابق ص ٢٧٢) .

(٩) « على » لم ترد فى الرسائل (المرجع السابق ، ص ص ٢٧٢) .

(١٠) « على » لم ترد فى الرسائل (المرجع السابق ، ص ٢٧٢) .

(١١) ذكر المؤلف أن العلوم الآلهية خمسة أنواع ، ولم يورد منها سوى النوع الأول وهو معـــرفة البارى وانتقل الى العلوم السياسية مباشرة رغم أنها هى النوع الرابع من الانواع الخمسة ، ومن ثم ، لم يرد فى نص ابن منكلى ما يلى : والثانى علم الروحانيات ، وهـــو معرفـــة الجواهر البسيطة العقلية العـــلامة الفعالة ، التى هى ملائكة الله ، وخالص عباده ، وهى الصورة المجردة من الهيولى ، المستعملة للاجسام المدبرة بها ، لها ومنها أفعالها ، ومعرفة كيفية ارتبـــاط بعضها ببعض ، وفيض بعضها على بعض ، وهى أفلاك روحانية محيطات بالأفلاك الجسمانية والثالث علم النفسانيات ، وهى معـــرفة النفوس والأرواح السارية فى الأجسام الفلكية والطبيعية ، من لدن الفلك المحيط الى مفتهى مركز الارض ، ومعرفة كيفية ادارتها للافلاك ، وتحريكها للكواكب ، وتربيتها للحيوان وللنبات ، وحلولها فى جثث الحيوانات ، وكيفية انبعاثها بعـــد الممات (المرجع السابق ، ص ٢٧٢ — ٢٧٣) .

وأما العلوم السياسية (١) وهى (٢) خمسة أنواع : أولها سياسة النبوة(٣) الثانى (٤) السياسة الملوكية ، الثالث سياسة العامة (٥) ، الرابع سياسة الخاصة(٦) ، الخامس(٧) السياسة الذاتية . قالوا(٨) : أما سياسة النبوة (٩)فهى معرفة كيفية وضع النواميس المرضية والسنن الزكية بالاقاويل الفصيحة ، ومداواة النفوس المريضة من الديانات الفاسدة ، والآراء السخيفة،والعادات(١٠) الردية ، والافعال الجائزة(١١) ومعرفة كيفية نقلها من تلك الاديان والعادات (ص ١٤٥) ومحو تلك الآراء(١٢) عن مضاميرها(١٣) بذكر عيوبها (منه

---

(١) « وأما العلوم السياسية » وردت فى الرسائل « الرابع علم السياسة » (المرجع السابق ، ص ٢٧٣) .

(٢) وردت فى الاصل « وهو » .

(٣) وردت فى الرسائل « السياسة النبوية » (الرسائل ، الجزء الاول ، ص ٢٧٣) .

(٤) « الثانى » وردت فى الرسائل « والثانى » (المرجع السابق ، ص ٢٧٣) .

(٥) وردت فى الرسائل « والثالث السياسة العامية » (المرجع السابق ، ص ٢٧٣) .

(٦) وردت فى الرسائل « والرابع السياسة الخاصية » (المرجع السابق ، ص ٢٧٣) .

(٧) وردت فى الرسائل « والخامس » (المرجع السابق ، ص ٢٧٣) .

(٨) « قالوا » لم ترد فى الرسائل .

(٩) « أما سياسة النبوة » وردت فى الرسائل ، فأما السياسة النبوية » (المرجع السابق ، ص ٢٧٣) .

(١٠) وردت فى الأصل « للعادات » .

(١١) وردت فى الاصل « الجايرة » .

(١٢) وردت فى الاصل « الارا » .

(١٣) « مضاميرها » وردت فى الرسائل « ضمائرها » (الرسائل ، الجزء الأول ، ص ٢٧٣) .

مزشاتها(١) ومداواتها من سقم تلك الآراء ، والم تلك العادات ومحوها بالحمية لها من العود اليها(٢) ، واشفائها(٣) بالرأى المرضى ، والعادات الجميلة ، والاخلاق المحمودة(٤) بالمدح لها والترغيب فى جزيل الثواب يوم المآب(٥) ، وأما السياسة الملوكية فهى معرفة كيفية(٦) حفظ الشريعة على الأمة واحياء السنة فى الملة ، بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، باقامة الحدود ، وانفاذ الاحكام التى هى رسم صاحب الشرع(٧) ورد المظالم ، وقمع الاعداء وكف الاشرار ونصرة الاخيار . وهذه السياسة يختص(٨) بها خلفاء الانبياء صلوات الله عليهم والائمة(٩) المهديون الذين قضوا بالحق ، وبه كانوا يعدلون . وأما السياسة العامية التى هى الرياسات(١٠) على الجماعات

---

(١) « منه مزشاتها » هكذا وردت فى الاصل ، أما فى الرسائل فقد وردت « ونشر تزييفها » (المرجع السابق ، ص ٢٧٣) .

(٢) وردت هذه العبارة فى الرسائل : « وتلك العادات بالحمية لها من العود اليها » (المرجع السابق ، ص ٢٧٣) .

(٣) وردت فى الاصل « واشفايها » « ووردت فى الرسائل » « وشفائها » (المرجع السابق ، ص ٢٧٣) .

(٤) جاء فى الرسائل قبل « الاخلاق المحمودة » كلمتى « والأعمال الزكية » (المرجع السابق ، ص ٢٧٣) .

(٥) وجاء بعد « يوم المآب » فى الرسائل ما يلى : « وكيفية سياسة النفوس الشريرة بصدودها عن قصد سبيل الرشاد ، وسلوكها فى وعور طرق الغى والتمادى بالقمع لها والزجر والوعيد والتوبيخ والتهديد ، لترجع الى سبيل النجاة ، وترغب فى جزيل الثواب ، ومعرفة كيفية تنبيه الأنفس اللاهية والارواح الساهية من طول الرقاد ، ونسيانها ذكر المعاد ، والاذكار لها عهد يوم الميثاق لئلا يقولوا : ما جاءنا من رسول ولا كتاب . وهذه السياسة تختص بها الانبياء والرسل ، صلوات الله عليهم (المرجع السابق ، ص ١٧٣) .

(٦) لم ترد كلمة « كيفية » فى الرسائل (المرجع السابق ، ص ٢٧٣) .

(٧) وردت هذه العبارة فى الرسائل « التى رسمها صاحب الشريعة » (المرجع السابق ، ص ٢٧٣) .

(٨) وردت فى الاصل « تختص » ووردت فى الرسائل « يختص » (المرجع السابق ، ص ٢٧٤) .

(٩) وردت فى الاصل « الايمة » .

(١٠) وردت فى الرسائل « الرياسة » (الرسائل ، الجزء الاول ، ص ٢٧٤) .

كرياسة الامراء على البلدان والمدن ورياسة قادة الجيوش على العساكر (١) وما شاكلها ، وهى (٢) معروفة(٣) وأما السياسة الخاصية ، فهى معرفة كل شخص(٤) كيفية تدبير منزله وأمر معيشته ومراعاة أمر خدمه وغلمانه وأولاده ومماليكه وأقربائه(٥) وعشيرته وجيرانه(٦) وصحبته مع اخوانه وقضاء(٧) حقوقهم ، وتفقد أسبابهم ، والنظر فى مصالحهم من أمور دنياهم وأمر آخرتهم(٨) وأما السياسة الذاتية ، فهى معرفة كل انسان نفسه وأخلاقه ، وتفقد (ص١٤٦) أحواله وافعا له وأقاويله(٩) فى حال شهواته وغضبه ورضاه ، والنظر فى جميع أموره(١٠) .

---

(١) ورد قبل هذه العبارة فى الرسائل « ورياسة الدهاقين على أهل القرى » (المرجع السابق ، ص ٢٧٤) .

(٢) وردت فى الرسائل « فهى » (المرجع السابق ، ص ٢٧٤) .

(٣) « معروفة » وردت فى الرسائل « معرفة » وجاء بعدها : طبقات المرؤوسين وحالاتهم وأنسابهم وصنائعهم ومذاهبهم وأخلاقهم ، وترتيب مراتبهم ، ومراعاة امورهم وتفقد أسبابهم ، وتأليف شملهم ، والتناصف بينهم ، وجمع شتاتهم ، واستخدامهم فى ما يصلحون له من الامور ، واستعمالهم فى ما يشاكلهم من صنائعهم وأعمالهم اللائقة بواحد واحد منهم (المرجع السابق ، ص ٢٧٤).

(٤) وردت فى الاصل « فهى معروفة لكل شخص » ووردت فى الرسائل « فهى معرفة كل انسان » (المرجع السابق ، ص ٢٧٤) .

(٥) وردت فى الاصل « وأقرباه » ووردت فى الرسائل « وأقربائه » (المرجع السابق ، ص ٢٧٤) .

(٦) وردت فى الرسائل « وعشرته مع جيرانه » (المرجع السابق ، ص ٢٧٤) .

(٧) وردت فى الاصل « وقضا » .
الجزء الاول ، ص ٢٧٤) .

(٨) وردت « وأمر آخرتهم » فى الرسائل « وآخرتهم » (الرسائل ،

(٩) وردت فى الرسائل « وتفقد أفعاله وأقاويله » (المرجع السابق ، ص ٢٧٤) .

(١٠) لم يرد فى المخطوطة العلم الخامس الذى ورد فى الرسائل وهو « علم المعاد وهو معرفة ماهية النشأة الاخرى ، وكيفية انبعاث الارواح من ظلمة الاجساد ، وانتباه النفوس من طول الرقاد ، وحشرها يوم المعاد ، وقيامها على الصراط المستقيم وحشرها لحساب يوم الدين ، ومعرفة كيفية جزاء المحسنين وعقاب المسيئين » (المرجع السابق ، ص ٢٧٤) .

الباب الثامن والتسعون(١)

فى بيـــان من يسهل عليه عمل صنعة وبالعكس(٢)

والسبب فى ذلك أن الصناعة لا تتأتى(٣) للمولود الا بدلالة كوكب متولى البرج والعاشر (٤) من طالعه ، وذلك اذا(٥) استولى عليه من أحد الكواكـــب الثلاثة واحد فلا بد من صنعة يتعلمها ، وهى(٦) المريخ والزهرة وعطارد ، وذلك ان كل صناعة لا بد لها(٧) من حركة ونشاط وحذق (٨) فالحركة للمريخ ، والنشاط للزهرة ، والحذق (٩) لعطارد ، وأربعة منها اذا انفرد (احدها)(١٠) بالدلالة فلا يعطى الصنعة ، ولكن عملا ما يشاكله(١١) من الاعمال ، وهى الشمس وزحل والمشترى والقمر ، وذلك أن من استولى فى مولده(١٢) ، على درجـــة العاشر (١٣) ، الشمس ، فهو لا يتعلم الصناعة لكبر نفسه مثل أولاد الملوك .

---

(١) ورد فى الاصل « الباب الخامس والتسعون » .

(٢) اسم هذا الباب يقـــابل الفصل الذى خصصه الاخوان لبحث نفس الفكرة وهو « فصل فى قابلية الانسان الصنعة » (الرسائل ، الجزء الاول ، ص ٢٩٠) .

(٣) وردت فى الاصل « لا تتأتا » .

(٤) وردت فى الرسائل « متول لبرج العاشر » (الرسائل ، الجزء الاول ، ص ٢٩١) .

(٥) وردت فى الرسائل « وذلك انه اذا » (المرجع السابق ، ص٢٩١).

(٦) وردت فى الاصل « وهو » .

(٧) « لا بدلهـــا » وردت فى الرسائل « فلابد لهـــا » (الرسائل الجزء الاول ، ص ٢٩١) .

(٨) وردت فى الاصل « وحدق » .

(٩) وردت فى الاصل « والحذق » .

(١٠) لم ترد « احدها » فى الاصل ، ووردت فى الرسائل ، وقد اضفناها على النص ليستقيم المعنى .

(١١) « عملا ما يشاكله » وردت فى الرسائل « يدل على ما يشاكله » (الرسائل ، الجزء الاول ، ص ٢٩١) .

(١٢) « استولى فى مولده » وردت فى الرسائل «استولى عليـــه فى مولده» (المرجع السابق ، ص ٢٩١) .

(١٣) « على درجة العاشر » وردت فى الرسائل « على الدرجة العاشرة » (المرجع السابق ، ص ٢٩١) .

وأما من استولى عليه المشترى فهو لا يتعلم ولا يعمل لزهده(١) وأما من استولى عليه زحل ، فانه لا يعمل(٢) ولا يتعلم لكسله وثقل طبيعته عن الحركة ويرضى بالذل والهوان فى طلب معاشه كالسؤال(٣) وأما من استولى عليه القمر ، فانه لا يعمل من أجل مهانته ، واسترخاء(٤) طبيعته وقلة فهمه ، مثل النساء وأمثالهن من الرجال ومن أجل هذا كان الحرانيون(٥) الذين كانوا فى قديم

---

(١) توجد زيادة فى الرسائل لم ترد فى المخطوطة بعد « لزهده » وهى ، وورعه ورضاه بقليل من أمور الدنيا ، واقباله على طلب الآخرة ، مثل الانبياء عليهم السلام ، ومن يقتدى بهم (المرجع السابق ، ص ٢٩١) .

(٢) « لا يعلم » فى الاصل ، ولكنها فى الرسائل « لا يعمل » وهو أصح (المرجع السابق ص ٢٩١) .

(٣) معاشه كالسوال « وردت فى الرسائل » معاشه كالمكدين والسوال » المرجع السابق ص ٢٩١) .

(٤) وردت فى الاصل « واسترخا » .

(٥) وردت فى الرسائل اليونانيون (الرسائل ، الجزء الاول ، ص ٢٩١) والواقع أن العلاقة بين الحرانيين واليونانيين علاقة محل شك واختلاف . فحران هى موطن الصابئة الحرانية التى كانت الملهمة الكبرى لفيلسوف الاسلام الاول الكندى ، كما كان لها أثر كبير فى الفيلسوف محمد بن أبى بكر الرازى ويرى البعض أن الصابئة الحرانية كانت فرقة افلاطونية فى الاصل ، ثم ذهبت الى التوفيق بين مختلف الفلاسفة — ويثور التساؤل حول الاصل العرقى للحرانية : هل هى بقايا يونانى حران ، أم هى سوريانية جنسا ولسانا عرف أهلها اللغة اليونانية وترجموا عنها الى السريانية . هذه الطائفة — كما يقول المسعودى — معروفة بالحرانية والصابئة الحرانية فلاسفة ، الا أن أهلها من حشوية الفلاسفة وعوامهم ، أو من عوام اليونانيين كما يقول المسعودى ، الذى يذكر فى موضع آخر من كتابه « التنبيه والاشراف » انهم بقية صابئى المصريين ، حيث يقول « وصابئو المصريين الذين بقيتهم فى هذا الوقت صابئة الحرانيين ثم يعود المسعودى مرة أخرى ليقابل بين ملوك الروم الصابئة وملوك الروم المنتصرة فهل صابئة حران هم روم أم يونان وهل هم مجموعة الفلاسفة اليونان الذين فروا الى فارس بعد تنصر الملوك ، ان دليلا آخر من المسعودى يثبت أن الصابئة الحرانية هم فلاسفة يدينون بالدين اليونانى القديم فيقول « ان يوليانوس ابن أخى قسطنطين كان يخفى الصابئة فى أيتام عمه وابن عمه . فلما ملك أظهرها وارتد عن النصرانية ، وخرب الكنائس ، ورد التماثيل التى جعلها الصابئون مثلا للجواهر العلوية والاجسام السماية التى هى وسائط بين العلة الاولى عندهم وبين الخليفة فى العبادات . وقتل الانصارى =

الزمان أرادوا تسليم الصبى الى صناعة من الصنائع(١) ، اختاروا له يوما من الايام ، وادخلوه فى(٢) هيكل الصنائع(٣) ، بعد أن عرفوا ذلك من مولده(٤) عرضوا عليه الصنائع المصورة فى ذلك الهيكل ، فما رغب فى واحد منها(٥) بعد توفيقهم (ص ١٤٧) له على أحوال تلك الصناعة(٦) ، فيسلموه اليها(٧) ولتعلم

= خلقا كثيرا ، وجعل عقوبة من لم يرتد الى الحنيفية القتل » . فالصابئة الحرانية هم الاتقياء المؤمنون بالدين اليونانى القديم « اوسيبوس » وكل من يعود الى الدين اليونانى والفلسفة اليونانية فى أى صورة كانت ، هم صابئة وعلى مذهب عوام اليونانيين — ويعتبر المسعودى أن فوزفوريوس الصورى على مذهب صابئة اليونانيين وكذلك أحد كهنة المصريين الذى كان يتصر الفلسفة الاولى التى عليها فيثاغورس وثاليس وغيرهما ، وهى مذهب صابئة المصريين والصابئة الحرانية — فيما يقول المؤرخون — موسيقيون ، ومشغولون بعلم الكيمياء وعلم الصيغة ، ويزاولون السحر والتنجيم ويرى اخوان الصفاء أن فيثاغورس « كان رجلا حكيما موحدا من آل حران » وعموما فان اخوان الصفاء والفارابى وغيرهم تأثروا بالحرانيين أو بالفلسفة الهرمسية (انظر : د. على سامى النشار ، نظرية جديدة فى المنحنى الشخصى لحياة الفارابى وفكره ، آفاق عربية العدد ١٢ ، ١٩٧٦ حيث أورد ما ذكره المسعودى فى كتابه « التنبيه والاشراف » حول الحرانية ص ١٠١ — ١٣٨ ، الرسائل الجزء الثالث ، ص ٢٠٠ ، وانظر عن علاقة اخوان الصفاء بالفلسفة الحرانية والهرمسية

(١) وردت فى الاصل « الصنايع » .

(٢) « ادخلوه فى » وردت فى الرسائل « ادخلوه الى » (الرسائل ، الجزء الاول ص ٢٩١) .

(٣) وردت فى الاصل « الصنايع » وقد جاء بعدها فى الرسائل « وصور سائر الكواكب ، وقربوا قربانا لصنم ذلك الكوكب الذى دل على صناعته ، وسلموه الى تلك الصناعة » (المرجع السابق ، ص ٢٩١) .

(٤) « بعد أن عرفوا ذلك من مولده » ، وردت فى الرسائل « بعدما عرفوا ذلك من مولده ، وان لم يكونوا عرفوه من مولده » (المرجع السابق ، ص ٢٩١) .

(٥) « فما رغب فى واحد منها » وردت فى الرسائل « فان رغب فى واحدة منها » (المرجع السابق ، ص ٢٩١) .

(٦) « تلك الصناعة » وردت فى الرسائل « تلك الصنعة » (المرجع السابق ص ٢٩١) .

(٧) « فسلموه اليها » وردت فى الرسائل « سلموه اليها » (المرجع السابق ، ص ٢٩١) .

ان(١) صناعة الآباء والاجداد انجع فى الاولاد من صناعة الغرباء ، وخاصة من دل(٢) مولده عليها ، ويكونون فيها أحذق وأنجب (٣) ، ومن أجل هذا أوجبوا(٤) فى سياسة ارد شير (٥) بن بابكان على أهل كل طبقة من الناس لزوم صناعة آبائهم(٦) وأجدادهم (٧) وان لا يتجاوزوها ، وزعموا أن ذلك فرض عليهم (٨) من الله تعالى(٩) وأعلم أن(١٠) هذا كله صيانة للملك لئلا(١١) يرغب فيه من ليس من أهله لأنه اذا كثر الطالبون للملك كثر التنازع بينهم ، واذا كثر التنازع كثر الشغب ، واضطربت الامور ، وانفسد النظام ، وفساد النظام يتبعه البوار والبطلان . واعلم(١٢) بأن الغرض من الملك هو حفظ الناموس على

---

(١) « والتعلم ان » وردت فى الرسائل « واعلم يا أخى بأن » (المرجع السابق ص ٢٩١) .

(٢) « دل » وردت فى الاصل « ذل » .

(٣) « احذق وانجب » وردت فى الاصل « احد وأنجب » .

(٤) « أوجبوا » وردت فى الاصل « أواجبوا » .

(٥) « اردشير » وردت فى الاصل « اردشير » .

(٦) آبائهم « وردت فى الاصل « ابايهم » .

(٧) وأجدادهم « اضيف اليها فى الرسائل لفظ « قطعا » (الرسائل ، الجزء الاول ، ص ٢٩٢) .

(٨) « فرض عليهم » وردت فى الرسائل « فرض » (المرجع السابق ، ص ١٩٢) .

(٩) « من الله تعالى » وردت فى الرسائل « من الله عز وجل » فى كتاب زرادشت » (المرجع السابق ص ٢٩٢) .

(١٠) « واعلم أن » وردت فى الرسائل « واعلم بأن » (المرجع السابق ، ص ٢٩٢) .

(١١) « ائلا » وردت فى الاصل « ليلا » .

(١٢) « واعلم » وردت فى الاصل « وليعلم » .

أهله لئلا(١) يندرس بتركهم القيام بآوجباته(٢) ، واعلم بأن الغرض فى(٣) حفظ الناموس هو طلب صلاح الدين والدنيـــا جميعا ، فمتى ترك القيـــام بواجبـــاته انفسدا(٤) جميعا ، وبطلت الحكمة ، ولكن السياسة الآلهيـــة والعنايـــــة الربانية لا تتركهما(٥) يفسدان(٦) .

---

(١) « لئلا » وردت فى الاصل « ليـــلا » وردت فى الرسائل « ان لا »

(٢) « لئلا » وردت فى الاصـــل « ليلا » وردت فى الرسائل « ان لا » (الرسائل الجزء الاول ص ٢٩٢) .

(٣) توجد زيادة فى الرسائل بعد « بموجباته » هى : لان اكثر أهل الشرائع النبوية والفلسفية لولا خوف السلطان لتركوا الدخول تحت أحـــكام الناموس وحدوده وتأدية فرائضه ، واتباع سننه ، واجتناب محارمه ، واتبـــاع أوامره ونواهيه (المرجع السابق ، ص ٢٩٢) .

(٤) « فى » وردت فى الرسائل « من » (المرجع السابق ، ص ٢٩٢) .

(٥) « انفسدا » وردت فى الاصل « يفسدا » .

(٦) « تتركهما » وردت فى الاصل « تتركها » .

(٧) « يفسدان » وردت فى الرسائل « ينفسدان » وجاء بعدها زيـــادة على ما فى المخطوطة : لانهـــا هى العلة الموجبـــة لوجودها وبقائها ونظامها وتمامها وكمالها ، وكل صورة فى المصنوع فانها أولا تكون فى فكر الصانع وعلمـــه (الرسائل ، الجزء الاول ، ص ٢٩٢) .

الباب التاسع والتسعون(١)
فى طلب الاخلاق السنية والقوانين المرضية(٢)

قال الفقير الى الله تعالى محمد بن منكلى نزيل رحمة الله : ينبغى لكل عاقل منا أن يكثر السؤال(٣) لله تعالى فى اصلاح خلقه ، اذ هو أشرف العطايا واس القضايا ولولاه كذلك ما مدح الله سبحانه نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بقوله : « وانك لعلى خلق عظيم » ، فيبدأ بما قاله القدماء (٤) الالهيون فى وصف الاخلاق المرضية وضدها قالوا (٥) : أخلاق الناس وطبقاتهم تختلف من أربعة جهات(٦) : احدها من جهة اخلاط أجسادهم ومزاج أبدانهم(٧) ، والثانى من جهة تراب(٨) بلدانهم واختلاف أهويتها ، والثالث من جهة نشوئهم على سنن(٩) ديانات آبائهم(١٠) — ومعلميهم(١١) ومن يربيهم ويؤدبهم ، والرابع من جهة موجبات أحكام النجوم

---

(١) ورد فى الاصل (الباب السادس والتسعون) .

(٢) هذا الباب يقابل فصلين من فصول الرسائل هما « فصل فى وجوه اختلاف الاخلاق » و « فصل فى اختلاف الاخلاق من جهة الاخلاط » (الرسائل الجزء الاول ، ص ٢٩٩) .

(٣) « السؤال » فى الاصل « السوال » .

(٤) « القدماء » وردت فى الاصل « القدما » .

(٥) من أول الباب حتى « قالوا » لم يرد بالرسائل ، وهو من وضع المؤلف .

(٦) وردت هذه الجملة فى الرسائل « اعلم يا أخى أن أخلاق الناس وطبائعهم تختلف من أربعة وجوه (الرسائل ، الجزء الاول ، ص ٢٩٩) .

(٧) « ومزاج أبدانهم » وردت فى الرسائل « ومزاج اخلاطها » (المرجع السابق ص ٢٩٩) .

(٨) « تراب » وردت فى الرسائل « تربة » (المرجع السابق ، ص ٢٩٩) .

(٩) « سنن » لم ترد فى الرسائل .

(١٠) « آبائهم » وردت فى الاصل « آبايهم » .

(١١) « معلميهم » وردت فى الاصل « ومعلمينهم » وردت فى الرسائل « ومعلميهم وأساتذتهم » (الرسائل ، الجزء الاول ، ص ٢٩٩) .

فى أصول مواليدهم ، ومساقط نطفهم ، وهى الأصل والباقى فروعها(١) ، ويحتاج لشرح هذا القول(٢) . قالوا : ان(٣) المحرورى الطباع من الناس ، وخاصة مزاج القلب يكونون على الأمر الاكثر شجعان(٤) القلوب ، أسخياء(٥) النفوس، متهورين فى الامور المخوفة ، قليلى الثبات والتأنى(٦) ، مستعجلى الحركة ، شديدى الغضب سريعى المراجعة(٧) ، قليلى الحقد ، أذكياء(٨) ، حادى الخواطر ، جيدى التصور ، والمبرودين فى الامر الاكثر يكونون(٩) بليدى الذهن ، غليظى الطباع ، ثقيلى الارواح غير نضيجى(١٠) الاخلاق ، والمرطوبين يكونون فى أكثر الأمر لينى(١١) الجانب سمحاء(١٢) النفوس ، سهل القبول ، سريعى النسيان(١٣) واليابسى المزاج يكونون فى أكثر الامر صابرين فى الاعمال ،

---

(١) « والباقى فروعها » وردت فى الرسائل « وباقيها فروع عليها » (المرجع السابق ، ص ٢٩٩) .

(٢) « ويحتاج لشرح هذا القول » وردت فى الرسائل « ويحتاج الى شرح هذا الباب » ووردت زيادة على ذلك ليتبين صدق ما قلنا ، وحقيقة ما وصفنا ، ونبدأ أولا بذكر العلل والاسباب التى تكون من جهة أخلاط الجسد وتغيرات أمزجتها من الاعتدال والزيادة والنقصان وما يتبعها من الاخلاق والسجايا المختلفة المتضادة (المرجع السابق ، ص ٢٩٩) .

(٣) « قالوا أن » وردت فى الرسائل « اعلم يا أخى بأن » (المرجع السابق ، ص ٢٩٩) .

(٤) شجعان « وردت فى الاصل « شجعاع » .
(٥) « أسخياء » وردت فى الاصل « اسخيا » .
(٦) « والتأنى » وردت فى الاصل « والثانى » .
(٧) « المراجعة » وردت فى الاصل « الراجعة » .
(٨) « أذكياء » وردت فى الاصل « أذكيا » ووردت فى الرسائل « أذكياء النفوس » (الرسائل الجزء الاول ، ص ٢٩٩) .
(٩) « يكونون » وردت فى الاصل « يكونوا » .

(١١) « لينى » وردت فى الاصل « لبنى » .
(١٠) « غير نضيجى » وردت فى الاصل « فير فصيحى » .

(١٢) « سمحاء » وردت فى الاصل « سمحا » .

(١٣) وردت هذه الجملة بأكملها فى الرسائل كما يلى : والمرطوبين يكونون فى أكثر الأمر ذوى طباع بليدة وقلة ثبات فى الامور ، لينى الجانب ، سمحاء النفوس ، طيبى الاخلاق سهلى القبول ، سريعى النسيان مع كثرة تهور فى الامور الطبيعية (الرسائل ، الجزء الاول ، ص ٢٩٤) .

ثابتى الرأى ، عسرى القبول ، ويكون(١) الغالب عليهم الضبط والحقد والامساك والحفظ والبخل (٢) وليعلم (٣) أن الاخلاق كلها نوعان : أما مطبوعة فى جبلة النفوس مركوزة فيها ، واما مكتسبة معتادة من جريان العادة وكثرة استعمالها(٤) .

الباب المائة(٥)
فى ذكرى الرتب (٦)

قالوا : ثم مرتبتان فوق الانسانية وهى مرتبة الحكمية وفوقها الرتبة الناموسية (ص ١٤٩) فأما رتبة الانسان فقوله تعالى « لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم » واما التى (٧) فوق هذه مما قاله تعالى « ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما »(٨) ، وقال تعالى(٩) « أفمن كان ميتا فاحييناه

---

(١) « ويكون » لم ترد فى الرسائل .

(٢) وردت هذه العبارة فى الرسائل « الغالب عليهم الصبر والحقد والبخل والامساك والحفظ » (المرجع السابق ، ص ٢٩٩) .

(٣) « وليعلم » لم ترد فى الرسائل .

(٤) وردت هذه الجملة الاخيرة من الباب بعد حوالى احدى عشر صفحة من الرسائل ضمن قول الاخوان « واذ قد تبين بما ذكرنا أن العلل الموجبة لاختلاف أخلاق النفوس والأسباب المؤدية اليها أربعة أنواع حسب ، كما قلنا فى أول الرسالة ، فنقول الآن : ان الاخلاق كلها نوعان ، اما مطبوعة فى جبلة النفوس مركوزة فيها ، واما مكتسبة معتادة من جريان العادة وكثر استعمالها ... « المرجع السابق ، ص ٣١٠ » .

(٥) ورد فى الاصل « الباب السابع والتسعون » .

(٦) ما ورد فى هذا الباب هو بضعة جمل مما ورد فى الفصل الذى اسماه الاخوان « فصل فى مراتب الانفس » (الرسائل ، الجزء الاول ، ص ٣١١ — ٣١٣) .

(٧) « التى » وردت فى الاصل « الذى » .

(٨) وردت هذه الفقرة فى الرسائل كما يلى : واما الرتبتان اللتان فوق رتبة الانسانية فهى مرتبة الحكمة وفوقها الناموسية ، وأما مرتبة الانسانية فهى التى ذكرها الله تعالى « لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم » وأما التى فوق هذه فما أشار اليه بقوله ولما بلغ أشده ..) (المرجع السابق ، ص ٣١١ — ٣١٢) .

(٩) وردت هذه العبارة فى الرسائل « يعنى الانسان احيينا نفسه بنور والترقى فى غايات نهاياتها ، والشوق اليها والرغبة فيها ، والحرص فى طلبها، (المرجع السابق ، ص ٣١٢) .

وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمـــات ليس بخارج منها » أى أحيينا نفسه بنور الهداية ، فهذه مرتبة نفوس المؤمنين العارفين . وأمـــا التى فوقها ، فمرتبة النفوس النبوية الواضعين للنواميس(١) الالهية واليها الاشـــارة بقوله تعالى(٢) « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » .

الباب الحادى بعد المائة(٣)

فى بيـــان السياسة(٤)

قال محمد بن منكلى لطف الله تعـــالى به : أما الاجتهاد فى الســـياسات فلا يكاد يضبط ولا ينحصر لكثرة تعداده ، والسبب فى ذلك أن الانسان العاقل مجبول فى نشأته على الاتيان بالسياسة ، فهو مجبول على دفـــع ما يضره قسرا ، وهو مجتهد فى استجلاب ما ينفه حتما فلأجل ذلك قالوا(٥) المراد من السياسة هو صلاح الموجودات وبقاؤها(٦) على أفضل الحالات وأتم الغايات — وأما المنسوبة الى النفس الناطقة المختصة بها فهـــى(٧) شـــهوة العـــلوم والمعارف والتحرر فيها والاستكثار فيها ، وشهوة الصنائع(٨) والاعمال والحذق

---

(١) « للنواميس » وردت فى الرسائل « النواميس » (المرجع السابق ، ص ٣١٢) .

(٢) « واليها الاشارة بقوله تعالى » وردت فى الرسائل « واليها أشار بقوله جل ثناؤه » (المرجع السابق ، ص ٣١٢) .

(٣) وردت فى الاصل « الباب الثامن والتسعون » .

(٤) ما ورد فى هـــذا الباب مقتطفات من نصوص الرسائل من نهاية «فصل فى مراتب الانفس » وبداية ونهاية « فصل فى اختلاف منـــاهج النفـــوس » (الرسائل ، الجزء الاول ، ص ٣١٤ — ٣١٦) .

(٥) من أول الفصل حتى « قالوا » من وضع ابن منكلى ، وللاخـــوان نص قريب منه فى المعنى هو « كل هذه الخصال مركوزة فى الجبلة ... وكل ذلك معاونة من الطبيعة لنفوسها وتأييد لهـــا باذن بارئها على طلب مشتهياتها والوصول الى منافعها ، والفرار من المضرة منها ... (المرجع السابق ، ص ٣١٣ — ٣١٤) .

(٦) « وبقاؤها » وردت فى الاصل « وبقاوها » .

(٧) « فهى » وردت فى الاصل « فهو » .

(٨) « الصنائع » وردت فى الاصل « الصنايع » .

فيها ، وشهوة العز والرفعة والترقى فى المعالى ، واحتمال الذل والمشقة من أجلها والفرح والسرور من وجدانها ، والحزن من فقدانها(١) .

وليعلم أن(٢) هذه الخصال مركوزة فى جبلة الانسان ، ولكن تختلف اختيارات الناس(٣) لها بحسب ما يتسير له(٤) (وتتأكد أسبابه ، وذلك أن من الناس من تيسر له)(٥) أسباب الصنائع(٦) والحرف ، وآخر(٧) أسباب العلوم والآداب (ص ١٥٠) وآخر أسباب(٨) العمل والتصرف ، وآخر أسباب

---

(١) وقد وردت الفقرتان الاخيرتان من هذا النص فى الرسائل كما يلى : « واعلم يا أخى بأن المراد من السياسة هو صلاح الموجودات وبقاؤها على أفضل الحالات ووأتم الغايات كما سنبين فى فصل آخر . وأما المنسوبة الى النفس الناطقة » (ويلاحظ أن الاحوال ذكروا قبل ذلك فى الرسائل الخصال المنسوبة للنفس النباتية والنفس الحيوانية وهو ما لم يرد فى المخطوطة . ولذا نجد أن قول ابن منكلى « وأما المنسوبة » يفيد أن هناك أمورا منسوبة لنفوس أخرى لم ترد فى المخطوطة) المختصة بها زيادة على ما تقدم ذكره ، فهى شهوة العلوم والمعارف والتبحر والاستكثار منها ، وشهوة الصنائع والاعمال والحذق فيها والافتخار بها ، وشهوة العز والرفعة واحتمال الذل والمشقة من أجلها ، والفرح والسرور من وجدانها ، واللذة والراحة عند الوصول اليها ، والغم والحزن من فقدانها (الرسائل الجزء الاول ، ص ٣١٤ — ٣١٥) .

(٢) « وليعلم أن » وردت فى الرسائل « واعلم يا أخى بأن » وذلك فى بداية فصل فى اختلاف مناهج النفوس (المرجع السابق ، ص ٣١٥) .

(٣) « اختيارات الناس » وردت فى الرسائل « اختيارات كل واحد » (المرجع السابق ص ٣١٥) .

(٤) « يتيسر له » وردت فى الرسائل « تيسر له » (المرجع السابق ،

(٥) ما بين القوسين اضفناه من نص الرسائل لكى يستقيم المعنى .

(٦) « الصنائع » وردت فى الاصل « الصنايع » .

(٧) « وآخر » وردت فى الاصل « وآخز » .

(٨) « وآخر أسباب » وردت فى الرسائل «وآخر تيسر له أسباب » (الرسائل ، الجزء الاول ، ص ٣١٥) .

الحكم والمعارف(١) . فهـذا(٢) تفصيل جملة ما ينسب الى كل جنس من النفوس والمخصوص بهـا من الشـهوات المركوزة فيهـا فأما التى(٣) تعمها كلها فشهوة البقـاء على أتم الحالات وكراهية الفناء(٤) .

البـاب الثانى بعد المـائة(٥)

فى بيـان الناموس

قال مؤلف هذا المختصر محمد بن منكلى : اذا كان معنى الناموس عنـدهم هو مملكة روحانيـة ، فانه لا يكاد ينضبط ولا يضبط ، لأنه مفاض من الوجود الالهى ، فاذا كان كذلك فلا ينضبط . واذا قيل هـو مملكة روحانيـة ، فاقتضى أن يكون مخصوصا بمخصصين(٦) ، والدليل عليـه أننا نرى الملوك(٧) يتفاوتون فى قضية النواميس ، فمنهم المقصر ، ومنهم المجتهد ، ومنهم الموغل فيهـا البارع فى نفوذها (٨) . هذا آخر ما قاله القن غفر الله له(٩) . قال المجريطى(١٠)

---

(١) ورد قبل هذه العبارة فى الرسائل ... أسـباب العمل والتصرف وآخر أسباب التجارات والبيع والشراء ، وآخر الملك السلطان ، وآخر أسباب البطالة والفراغ ، وآخر أسـباب الحـكم والمعارف (المرجع السابق ، ص ٣١٥) .

(٢) « فهذا » وردت فى الاصل « وآما » ووردت فى الرسائل « فهـذا » وهو أصح .

(٣) تعمها وردت فى الاصل يعملها .

(٤) وردت فى الرسائل بعد ذلك « والنقص عن الحال الافضل والاكمل » (المرجع السابق ، ص ٣١٦) .

(٥) وردت فى الاصل « الباب التاسع والتسعون » .

(٦) « بمخصصين » وردت فى الاصل « بمحصصين » .

(٧) « أننا نرى الملوك » وردت فى الاصل « انا نرى من الملوك » .

(٨) « نفاذها » وردت فى الاصل « نفادها » .

(٩) يبدو أن ابن منكلى يشير الى نفسه بلفظ « القن » وهـو أسلوب شائع عند الصوفية بصـفة خاصة حيث يعبر الكاتب أو المؤلف أو الناسخ عن نفسه بمثل هذا اللفظ « كالفقير » أو « الحقير » للتعبير عن التواضع .

(١٠) « المجريطى » وردت فى الاصل « المرجيطى » ويلاحظ هنا أن ابن منكلى يشير الى « رسالة » للمجريطى وليست « رسائل » .

فى رسالته رحمة الله : إذا عرفت(١) أن النـــاموس مملكة روحانية ، فان(٢) وجوده وقوامه فى حفظ أركانه الثمانية ، وأن حافظى أركانه هم اتباع صاحب الناموس (٣) وهم ثمانية أصناف ، كل صنف منهم كأنهم صف(٤) قيام حاملون ركنا من أركان الناموس فالأول منهم ، قراء تنزيله وحفاظ ألفاظه ، يعلمونهـــا لمن بعدهم من ذراريهم(٥) ، لئلا ينسى وتدرس معالم الدين ، وتبطل أحكـــام الناموس(٦) . الصنف الثانى هم رواة الاخبار ، وناقلوا الاحاديث النبـــوية ، وحافظوا سر النبوة ، ومؤدوها الى من بعدهم ، كى لا تجهل فتنسى آثاره ، وتموت أخباره فلا تعرف (٧) ، الصنف الثالث ، هم فقهاء(٧) أحكام (ص ١٥١)

---

(١) « اذا عرفت » وردت فى الرسائل « وعرفت » (الرسائل ، الجزء الاول ، ص ٣٢٢) .

(٢) « فان » وردت فى الرسائل « وأن » (المرجع السابق ، ص ٣٢٢) .

(٣) « وان حافظى أركانه هم أتباع صاحب الناموس » وردت فى الرسائل « وتبينت بأن أركانه الذين هو أتباع صاحب الناموس وأنصاره (المرجع السابق ، ص ٣٢٢) .

(٤) صف » وردت فى الرسائل « صنف » .

(٥) « ذراريهم » وردت فى الاصل « درارهم » .

(٦) وردت هذه الجملة فى الرسائل كما يلى : « فأول الاصـــناف هم القراء تنزيله وكتبه ، وحفاظ ألفاظه على رسومها ، ومعلموها لمن بعدهم من ذراريهم ، ليؤدوا الى من بعدهم من اتباعهم ما أخذوا عمن قبلهم ، كـــل ذلك لكيلا يجهلها من يجىء من بعدهم وتنسى فتندرس معـــالم الدين ، وتضمحل وتبطل أحـــكام الناموس (الرسائل الجزء الاول ، ص ٣٢٢) .

(٧) وردت هذه الجملة فى الرسائل كما يلى : « والصنف الثانى هم رواة الى آخرهم ، كيلا يجهل وينسى فتندرس آثاره ، وتموت اخباره فلا تعـــرف « اخباره وناقلوا أحاديثه ، وحافظوا سيره ، ومؤدوها الى من بعدهم ، ليبلغوها (المرجع السابق ، ص ٣٢٢) .

(٨) « فقهاء « وردت فى الاصل « فقها » .

الناموس ، وعلماء سنته(١) وحفاظ حدوده(٢) كى لا تجهل فلا (٣) تستعمل أو تنسى فتندرس(٤) معالم الدين ، وتضمحل فيبطل(٥) الناموس . الصنف(٦) الرابع هم المفسرون الفاظ تنزيله الظاهرة ، وأقاويله المروية(٧) . الصنف الخامس هم أنصار المجاهدين ، وغزاة أعدائه(٨) ، الحافظون ثغور بلاد اتباع الناموس ، كيلا يغلب عليهم أعداؤهم(٩) ، فيفسد عليهم أمرهم(١٠). الصنف السادس هم خلفاء(١١) صاحب الناموس فى أمره(١٢) ورؤساء أصحابه

---

(١) « سته » وردت فى الرسائل « سننه » (الرسائل ، الجزء الاول ، ص ٣٢٢).

(٢) « حدوده » وردت فى الاصل « جنوده » .

(٣) « فلا » وردت فى الاصل « ولا » .

(٤) « فتدرس » وردت فى الرسائل « فتندرس » (الرسائل ، الجزء الاول ، ص ٣٢٢) .

(٥) « فيبطل » وردت فى الرسائل « ويبطل » (المرجع السابق ، ص ٣٢٢) .

(٦) « الصنف » وردت فى الرسائل « والصنف » (المرجع السابق ، ص ٣٢٢) .

(٧) « وأقاويله المروية » جاء بعدها فى الرسائل : « والمعبرون عن وجوه معانيه المختلفة لمن قصر فهمه عنها ، وقلت معرفته بها ، كل ذلك كيلا يجهلها من يجىء من بعدهم من ذراريهم واتباعهم فى أحكام الناموس ، أو تنسى فتندرس معالم الدين ، وتضمحل وتبطل أحكام الناموس » (المرجع السابق ، ص ٣٢٢) .

(٨) أعدائه « وردت فى الاصل « وأعداديه » .

(٩) « أعداؤهم » وردت فى الاصل « أعداوهم » .

(١٠) وردت هذه الجملة فى الرسائل كما يلى : « والصنف الخامس هم أنصاره المجاهدون وغزاة أعدائه » الحافظون ثغور بلاد اتباع صاحب الناموس وأصاره ، كيلا يغلب عليها أعداؤهم ويفسد أمر دينهم عليهم ، كما فعل يخت نصر بايلياء فى هيكل بنى اسرائيل ، وهو ببيت المقدس ، وكما فعلت الروم بثغور المسلمين » (الرسائل الجزء الاول ص ٣٢٣) .

(١١) « خلفاء » وردت فى الاصل « خلفا » .

(١٢) « فى أمره » وردت فى الرسائل « فى امته » (الرسائل الجزء الاول، ص ٣٢٣) .

الحارسون(١) شريعته على أمته بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، المانعـــون لهم أن يسيروا بغيره سيرة الناموس(٢) كيلا يخرج خارجى سرا أو علانية ، فيبطل (٣) أحكام الناموس بتمويه يورده على قلوب العامة (٤) الصنف السابع هم الزهاد والعباد فى المساجد(٥) ، والخطباء على المنابر الواعظون النـــاس، المحذرون(٦) لهم ترك استعمال الناموس(٧) ، المشروقون الى نعيم الآخرة ، المقرون بها ، كل ذلك مثلا(٨) ينسى أمر ذلك المعـــاد ، ولا ينسى ذكر الآخـــرة،

---

(١) « ورؤساء أصـــحابه الحارسون » وردت فى الرسائل « ورؤساء الجماعات والحارسون » (المرجع السابق ، ص ٣٢٣) .

(٢) « الناموس » ورد بعدها فى الرسائل « الحافظون أطراف المملكة » (المرجع السابق ، ص ٣٢٣) .

(٣) « فيبطل » وردت فى الرسائل « فيفسد » (المرجع السابق ،ص٣٢٣) .

(٤) « بتمويه يورده على قلوب العـــامة » وردت فى الرسائل « بتمويهه وزوره على قلوب العـــامة والجهال كما فعـــل مزدك الحزمى فى مملكة قباذ ملك الفرس » (المرجع السابق ، ص ٣٢٣) .

(٥) « فى المساجد » ورد بعدها فى الرسائل « والرهبان والقوام فى الهياكل» (المرجع السابق ، ص ٣٢٣) .

(٦) « المحذدون » وردت فى الاصل « المحدرون » .

(٧) « المحذدون لهم ترك استعمال الناموس » وردت فى الرسائل « المحذرون لهم من ترك استعمال أحـــكام الناموس ، الذامون أمور الدنيـــا ؛ المحذدون لهم من الاغترار بأمانيها المزهدون للمنهمكين فى الشـــهوات ، المذكرون أمر المعـــاد وأحوال القيـــامة للغافلين عنها ، المشوقون ... (الرسائل الجزء الاول ، ص ٢٢٣) .

(٨) « لئلا » وردت فى الاصل « ليلا » وقد وردت هذه الجملة فى الرسائل « كل ذلك كيلا يجهل أمر المعاد ، ولا ينسى ذكر الاخرة ، والاســـتعداد للرحلة اليها ، والتزود من الدنيـــا بالتقوى الذى هو خير الزاد » (المرجع السابق ص ٣٢٣) .

وهذا هو(١) الغرض الاقصى(٢) فى وضع النواميس الالهية(٣) . الصنف الثامن(٤) ، هم علماء(٥) تأويل تنزيله ، الراسخون(٦) فى العلوم الالهية والمعارف الربانية ، العارفون خفيات أسرار الناموس ، الذين هم الائمة المهديون(٧) ، رضى الله عنهم أجمعين(٨) .

---

(١) « وهذا هو » وردت فى الاصل « وهو هو » وردت فى الرسائل » اذا كان هذا هو » (المرجع السابق ص ٣٢٣) .

(٢) « الاقصى » وردت فى الاصل « الاقصا » وقد وردت الجملة فى الرسائل « الغرض الاقصى فى وضع الناموس الالهى ، والغاية والمطلب من الرياضيات الفلسفية » (المرجع السابق ، ص ٣٢٣) .

(٣) وردت بعد « الالهية » فى الاصل عبارة لا معنى لها هى « المعارف الربانية العارفون خفيات أسرار النواميس » .

(٤) « الصنف الثامن » وردت فى الرسائل « والصنف الثامن » (الرسائل الجزء الاول ، ص ٣٢٣) .

(٥) « علماء وردت فى الاصل « علما » .

(٦) « الراسخون » وردت فى الرسائل « والراسخون » (الرسائل ، الجزء الاول ، ص ٣٢٣) .

(٧) « الذين هم الائمة المهديون » وردت فى الاصل « الذين هم الايمة المهديين » .

(٨) وردت هذه العبارة فى الرسائل « والخلفاء الراشدون ، الذين يقضون بالحق وبه يعدلون » (الرسائل ، الجزء الاول ، ص ٣٢٣) .

مراجـــع البحث

١ ـــ ابن الالوسى ، محاكمة الاحمدين ، طبعة بولاق ، القاهرة ١٢٩٨ هـ .
٢ ـــ ابن بشكوال ، الصلة ، الدار المصرية للتأليف والترجمـــة والنشر ، القاهرة ١٩٦ .
٣ ـــ ابن حجر العسقلانى ، لسان الميزان ، حيدر أباد ١٣٣١ هـ .
٤ ـــ ابن خلدون ، المقـــدمة ، دار الشعب ، القاهرة ١٩٧٣ .
٥ ـــ ابن منكلى ، الاحكام الملوكية والضوابط الناموسية ، مخطوطة ، دار الكتب المصرية ، تحت رقم ٢٣ ، فروسية ـــ تيمور .
٦ ـــ أحمد أمين ، مبادىء الفلسفة « تعريب » ، القاهرة .
٧ ـــ الجيلانى ، توفيـــق التطبيق فى اثبات أن الشيخ الرئيسى من الاماميـــة الاثنى عشرية تحقيـــق د. محمد مصطفى حلمى ، دار احياء الكتب العربية ، عيسى البابى الحلبى القاهرة ١٩٥٤ .
٨ ـــ الرسالة الجامعة ، تحقيـــق جميل صليبا ، المجمع العلمى العربى بدمشق ، دمشق ١٩٤٨ .
٩ ـــ القفطى ، أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، مطبعة الســـعادة القاهرة ١٣٢٦ هـ .
١٠ ـــ الكرمانى ، راحة العقل ، تحقيـــق د. محمد مصطفى حلمى ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٥٢ .
١١ ـــ المحبى : خلاصة الاثر ، تحقيـــق مصطفى وهبى ، المطبعـــة الوهبية ، القاهرة ١٣٧٦ هـ .
١٢ ـــ حاجى خليفـــة ، كشف الظنون عن اسامى الكتب والفنون ، تصحيح محمد شرف الدين يالتقايا ورفعت بليكة الكليس ، وكالة المعـــارف الجليلة ، القاهرة ١٩٤١ ـــ ١٩٤٣ .
١٣ ـــ رسائل اخوان الصفاء ، القاهرة ١٩٢٨ .
١٤ ـــ رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء ، دار صادر ـــ دار بيروت ، بيروت ١٩٥٧

١٥ — صاعد الاندلس ، التعريف بطبقات الامم ، القاهرة .

١٦ — د. عبد الرحمن بدوى ، الاصـــول اليونانية للنظريات الســـياسية للاسلام ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٤

١٧ — د. على سامى النشار ، نظرية جديدة فى المنحنى الشخصى لحيـــاة الفارابى وفكره ، مجلة « آفاق عربية » العدد ١٢ ، بغداد ١٩٧٦م .

١٨ — عمر الدسوقى ، اخوان الصفاء ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ١٩٧٣

١٩ — الآباء لويس معلوف وخليل اده ولويس شيخو ، مقالات فلسفية قديمـــة لبعض فلاسفة العرب مسلمين ونصارى ، مجلة المشرق ، بيروت ١٩١١

٢٠ — د . محمد فريد حجاب ، الفلسفة السياسية عند اخوان الصفاء — دراسة فى الفكر الاسلامى رسالة دكتوراه « لم تنشر بعد » ، كليـــة الاقتصاد والعلوم السياسية ، جامعة القاهرة ١٩٧٦

٢١ — الاب ميخائيل الجميل ، المجريطى ونظريته فى الطبيعيات ، مجـــلة « آفاق عربية » ، بغداد عدد يوليو ١٩٧٦

D. M. Dunlop, Al-Farabi, Fusul-Al Madani, Cambridge 1961

Weidemann, Migriti, Encyclopedie de l'Eslam

Yves Marquet, la philosophie des Ikhwan Safa, Alger 1979.

الدخل الفردى واستهلاك الغذاء
فى الوطن العربى

بقلم : الدكتور عباس فاضل السعدى

تفاقمت أزمة الغذاء وتعمقت مشكلتها خلال فترة ظهور أزمة الغذاء العالمية التى بدأت طلائعها منذ عام ١٩٧٢ ، حيث أدى سوء الأحوال الجوية الى انخفاض الانتاج العالمى للأغذية(١) . وقد تفاعل هبوط الانتاج مع انخفاض المخزون العالمى* بسبب السياسات المتعمدة للدول الكبرى المنتجة للمواد الغذائية لا سيما الولايات المتحدة فزادت من حدة الأزمة . فضلا عن الطلب المتزايد على الغذاء بسبب زيادة السكان وارتفاع الدخل الفردى الذى أدى الى تغيير نمط الاستهلاك الغذائى فى الدول المتقدمة(٢)، وارتفاع حاد فى الأسعار مما أثار المصاعب والمشاكل الاقتصادية للدول النامية .

والبحث الذى نحن بصدده لا يتناول مشكلة الأمن الغذائى العربى بأبعادها المختلفة ، أو الأسس الجغرافية التى تعتمد عليها ، ولا بتحديد حجم الفجوة الغذائية أو توقعاتها المستقبلية . وانما سيتناول جانبا واحدا من تلك المشكلة وهو التعرف على مستويات الدخل الفردى العربى ، وأثر تباين تلك المستويات فى حصول الفرد على الطاقة الغذائية . وللوصول الى هذا الهدف يتطلب منا البحث تناول نقطتين مهمتين أولاهما دراسة العلاقة بين السكان والدخل ، وثانيهما أثر تلك العلاقة فى استهلاك السعرات والبروتينات الغذائية .

---

(١) الامم المتحدة ، منظمة الغذاء والزراعة الدولية ، تقرير مؤتمر الاغذية العالمى روما ٥ — ١٦ تشرين الثانى ١٩٧٤ ، نيويورك ، ١٩٧٥ ، ص ٨١

* انخفض المخزون الاحتياطى للقمح من (٦٠) مليون طن سنة ١٩٧٠ الى (٢٢) مليون طن سنة ١٩٧٤

(٢) ترى مؤسسة روكفلر أن ٢١٪ من الاستهلاك الغذائى العالمى سنة ١٩٧٣ تعود الى الزيادة فى القدرة الشرائية . فالزيادة فى الثروة الشخصية تنعكس أولا فى زيادة الاستهلاك ثم فى تحسين تركيب ونوعية الوجبة الغذائية .

أولا ــ السكان والدخل :

يستخدم الدخل القومى بمثابة مقياس احصائى لاظهار العلاقة بين السكان والموارد . وجملة الدخل القومى لا تظهر مستويات المعيشة بين السكان ، ولذلك تحسب على أساس قسمة مجموع الدخل القومى على عدد السكان لاظهار متوسط نصيب الفرد من هذا الدخل Per Captia Income وعلى هذا الاساس يعد الدخل الفردى من المقاييس المهمة التى تربط بين الانتاج وبين السكان بالرغم من أنه متوسط حسابى لا يظهر الفروق فى المستويات الاقتصادية بين الافراد ، ولكنه بوجه عام يعطى صورة عن مستوى المعيشة(١) . ويتناسب الدخل الفردى عكسيا مع مجموع السكان ، وطرديا مع الدخل القومى .

ومتوسط نصيب الفرد من الدخل القومى له أهمية كبيرة ، اذ كلما زاد نصيب الفرد من الدخل القومى ، زادت قدرة الفرد الشرائية ، وفى نفس الوقت تزداد الفرصة للادخار وتركيم رأس المال الذى يمكن بواسطته تحقيق مزيدا من التطور ، وخاصة اذا كان هناك نوع من العدالة فى توزيع الدخل القومى .

وتظهر احصائيات الدخل الفردى سوءا فى توزيع الدخل المذكور بين اقطار الوطن العربى كما يتضح من شكل (١) . فبينما تمتلك الكويت أعلى دخل فردى (١٥٤٨٠ دولارا) ، نجد الصومال فى أدنى مستوى للدخل المذكور (١١٠ دولارات) . وأن ما يحصل عليه الفرد من الدخل ، وتباين الأقطار العربية فى ذلك ، ينعكس على متوسط نصيب الفرد من الطاقة ، كما هو واضح من الجدول الآتى :

---

(١)يمكن ايجاد مستوى المعيشة بقسمة مجموع القيمة الانتاجية على عدد السكان ، ويتضح ذلك فى المعادلة الآتية : $L = \frac{O}{P}$ حيث تمثل L مستوى الميشة و O مجموع القيمة الانتاجية . أما P فتمثل مجموع السكان . وكلما ارتفع معدل الزيادة السكانية كان لا بد من ارتفاع معدل النمو الاقتصادى بدرجة أكبر ليتسنى للفرد أن يحصل على دخل أكثر وبالتالى يرتفع مستواه المعاشى (حول هذا الموضوع انظر :

The Popuiation Dilemma, PP. 48 — 50.

جـــــدول رقم (١)

مقارنة بين متوسط نصيب الفرد العربى من الناتج القومى ومن الطاقة

القطر	متوسط الدخل الفردى (بالدولار)١٩٧٦	متوسط نصيب الفرد من الطاقة(كغم) ١٩٧٧	متوسط نصيب الفرد من الطاقة الكهربائية المولدة(كيلوات ساعة)١٩٧٧
الجزائر	٩٩٠	٤٠٨	٢٨٢
العراق	١٣٩٠	٥٤٠	٥١٤
الكويت	١٥٤٨٠	٥٩٢٠	٥٧١٠
ليبيـــا	٦٣١٠	١٨٥٠	١٠٧٩
عمـــان	٢٦٨٠	١٢٢٩	٦٧٠
قطـــر	١١٤٠٠	٧٥٩٠	٦٨١٨
السعودية	٤٤٨٠	١٥٧٣	٧٠٨
الامارات العربية	١٣٩٩٠	٣٨٦٥	٣٣٩٥
البحرين	٢٤١٠	٢٨٠٠	٩٩٣٠
لبنان(*)	١٠٧٠	٧٠٠	٦٠٨
مصر	٢٨٠	٣١٦	٣٤٦
الأردن	٦١٠	٥٨٠	٢٩٧
ســـوريا	٧٨٠	٥٠٦	٢٦٠
موريتانيا	٣٤٠	٧٩	٨٦
المغرب	٥٤٠	٢٢٧	٢٢٥
تونس	٨٤٠	٣٤٢	٣٠٨
الصومال	١١٠	٣٠	٢٦
السودان	٢٩٠	١٠٢	٤٨
الجمهورية العربية اليمنية	٢٥٠	٥٢	١٢
جمهورية اليمن الديمقراطية	٢٨٠	٢٢٧	١٢٤
جيبوتى	غ٠م	غ٠م	غ٠م
الاجمالى	١١١٢	٥٠٨	٤٠٠

المصدر : نشرة منظمة الاقطار العربية المصدرة للبترول ، العدد ٥ ، السنة الخامسة ، آيار ١٩٧٩ ص ٢٨

(*) عام ١٩٧٤م .

(غ . م) غير متوفر .

انها لحقائق عديدة وغريبة تلك التى يبينها الجدول ، فباستثناء الجزائر فان جميع الاقطار البترولية يزيد فيها متوسط الدخل الفـــردى عن المتوســـط العـــام للوطن العربى والبالغ (١١١٢) دولارا . على عكس الأقطار غير البترولية التى يقل متوسط الدخل الفردى فيهـــا عن المتوسط العام : بل ان بعضها ينخفض فيهـــا المتوسط المذكور عن (٣٠٠) دولارا — مثل مصر وموريتانيا والصومال والسودان واليمن (بشطريه الشمالى والجنوبى)(١) — لذا يتعرض سكان هذه المناطق الى أمراض سوء التغذية .

وباستثناء الجزائر أيضا فان أدنى معـــدل للدخل الفردى فى الأقطـــار البترولية يزيد على أعلى معـــدل للأقطار غير البترولية . وبينما يرتفـــع متوسط الدخل الفردى فى الأقطار البترولية التسعة(٢) الى (٦٥٧٠) دولارا ، نجده ينخفض الى (٤٩٠) دولارا فى الاقطار غير البترولية المتبقية . أى أن متوسط دخل الفرد فى المجموعة الأولى من الأقطار يزيـــد ١٣ مرة عن مثيله فى المجموعة الثانية . واذا ما قارنا بين أعلى معـــدل للدخل الفردى وأدنى معدل له ، نجد المعـــدل الأول (والمتمثل فى الكويت) يزيـــد بمقـــدار ١٤١ مرة عن نظيره الثانى (المتمثل فى الصومال) .

وعند استعراض توزيع الناتج القـــومى بين الأقطار العربية عام ١٩٧٦، يظهر أن الأقطار البترولية التسعة تستحوذ على ٧٣٪ من النـــاتج المذكور ، بينما لا تكون تلك الأقطار الا ٢٩٪ من ســـكان الوطن العربى . وعلى النقيض فان الأقطار العربية الأخرى (الزراعية) لا تمتلك من الناتج القـــومى العربى الا ٢٧٪ منه ، بينما تؤلف ٧١٪ من جملة ســـكان الوطن العربى كما هـــو واضح من شـــكل (٢) وعليه فان أقل من ثلث ســـكان المنطقة العربيـــة يمتلكون حوالى ثلاثة أرباع الناتج القـــومى . وهو مؤشر آخر على ســـوء توزيع الدخل بين الأقطار العربية .

---

(١) يشير واقع السوق والحركة الشرائية فيه الى أن معـــدل الدخـــل الفردى فى اليمن الشمالى أكثر مما هو مذكور فى الجدول .

(٢) وتشمل الجزائر ، العراق ، الكويت ، ليبيا ، عمـــان ، قطـــر ، السعودية ، الامارات العربية ، البحرين .

وهكذا فان هناك تفاوتا كبيرا فى مستويات الدخل بين أقطار الوطن العربى ومازال الهدف وحدويا ، مع أن هناك ضرورة لتحقيق التكامل الاقتصادى العربى وعلى ذلك فان الأمر يتطلب اتخاذ خطوات فورية وجذرية غايتها تقليص الفجوة فى مستويات الدخل ، بين الأقطار العربية الغنية منها والفقيرة .

وثمة حقيقة أخرى يوضحها الجدول وهى ان الأقطار التى يرتفع فيها متوسط الدخل الفردى ، على الأغلب ، يرتفع فيها متوسط نصيب الفرد من الطاقة الكهربائية ، وهى الأقطار البترولية عادة عدا لبنان الذى ترتفع فيه المتوسطات المذكورة نسبيا لاعتماده على التجارة والسياحة التى تزيد من دخل الفرد ، كما تتطلب المرافق السياحية مزيدا من الطاقة ، فى حين ينخفض نصيب الفرد من الدخل والطاقة فى الأقطار التى يعتمد دخلها القومى على الزراعة وهى الغالبية العظمى .

ان ارتفاع متوسط الدخل الفردى ومتوسط نصيبه من الطاقة والطاقة الكهربائية فى الأقطار البترولية دليل على ارتفاع مستويات المعيشة فيها . مما يدفعها الى استيراد المزيد من حاجتها للمواد الغذائية لعدم كفاية الانتاج المحلى فيها ، وبطء نمو هذا الانتاج ، حيث أن الزيادة السكانية تلتهم كل زيادة فى الانتاج الزراعى طبقا للمعادلة الآتية : ج = ع × ك . فاذا كانت (ج) توضح كمية الانتاج ، فانها تساوى عدد المستهلكين (ع) × مستوى الاستهلاك الفردى (ك) (انظر شكل ٣) فزيادة عدد المستهلكين لا يتناسب مع زيادة الانتاج حيث ينمو الانتاج الغذائى العربى بمتوسط سنوى قدره ٢٪ بينما تصل الزيادة السكانية الى معدل ٣٪ سنويا ، فى حين يرتفع معدل زيادة الاستهلاك الغذائى العربى الى أكثر من ٥٪ سنويا(١) وطبقا للمعادلة المذكورة فان عدم التناسب بين زيادة عدد المستهلكين وزيادة الانتاج يؤدى الى انخفاض مستوى الاستهلاك وبالتالى الى انخفاض فى السعرات الحرارية التى يحصل عليها الفرد .

---

(١) مجلة النفط والتنمية ، بغداد ، عدد ٨ ، السنة الثالثة ، آيار ١٩٧٨ ، ص ٥ ، والمركز العربى للدراسات الاعلامية للسكان والتنمية والتعمير/القاهرة ملف التنمية ، العدد الثانى ، سبتمبر ، ١٩٧٧ ، ص ٣ — ٤ .

يتضح مما تقدم أن مستويات الدخل الفردى تؤثر فى قدرة الفرد الشرائية فكلما ارتفع الدخل المذكور ، تمكن الشخص من شراء متطلباته الغذائية ومن نوعيات جيدة تتكون من البروتينات الحيوانية كاللحوم ومنتجات الألبان والفاكهة .. وعلى العكس من ذلك فان انخفاض الدخل الفردى يجعل الشخص غير قادر على حصوله على كفايته من الغذاء ، ومن نوعية رديئة تتكون على الأغلب من المواد النشوية لانخفاض ثمنها ، وتتضح تفاصيل ذلك فى النقطة الثانية .

ثانيا ــ البروتينات والسعرات الحرارية :

يحتاج الجسم البشرى الى أنواع مختلفة من الغذاء ، كالبروتينات والدهنيات والكربوهيدرات والاملاح والفيتامينات(١) .. وتختلف الاغذية ، تبعا لاختلاف أنواعها ومصادرها ، فى قيمتها الحرارية . فالأغذية التى هى من أصل نباتى تعطى عموما سعرات حرارية وكمية من البروتين تفوق ما تعطيه الأغذية من أصل حيوانى .. الا أن البروتين من أصل نباتى ليس بذى قيمة غذائية للانسان بقدر القيمة الغذائية للبروتين الحيوانى السهل الهضم والذى يتناوله الشخص بدون أن تجرى عليه تحويلات فى داخل الجسم كما هو الحال بالنسبة للبروتين من أصل نباتى(٢) .

والطريقة التى تتبع فى تحديد كفاية التغذية فى أى دولة هى أن يحسب مقدار ما ينتجه البلد من المواد الغذائية ويضاف الى ذلك ما يستورده منها ويحذف ما يصدره الى الخارج أو يعيد تصديره ، ويقسم الناتج على عدد السكان وبذلك يمكن تحديد النصيب الغذائى السنوى ثم اليومى لكل فرد ، ويمكن فى ضوء ذلك تقدير ما يعطيه هذا النصيب من وحدات حرارية أو سعرات ضرورية لتعويض الجسم عن الجهد المبذول فى الانتاج وفى

---

(١) حول تفاصيل أنواع الغذاء راجع : شارل جوى ، السباق بين الانسان والطعام ، ترجمة د. محمد الشحات دار الجيل للطباعة القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ٤٧

(٢) على حسين الشلش ، « سكان العالم ومشكلة توفير الغذاء » ، مجلة الجمعية الجغرافية العراقية ، بغداد ، المجلد العاشر ، تموز ، ١٩٧٨ ، ص ٥٩

)

النشاط العام(١) . وتتوقف كمية السعرات الحرارية التى يحتاجها جسم الانسان على عمره ، وعلى طبيعة عمله ، والجو الذى يعيش فيه .

ويقدر علماء التغذية أن الشخص البالغ يحتاج يوميا الى ما لا يقل عن (٢٥٠٠) سعرة حرارية والى (٦٥) غراما من البروتينات(*) ليقوم الجسم بوظائفه الحيوية ، والى أكثر من ذلك بالنسبة للشباب . ومع ذلك فهذا الحد الأدنى من الغذاء بعيد المنال بالنسبة لفئة كبيرة من البشر (تقدر بنحو الثلثين)(٢) .

وحاجة الانسان الى الغذاء لا تتوقف على كمية الغذاء وحده ، بقدر ما تعتمد على أنواع الغذاء ، وأسلوب التغذية . فالفرق بين الشعوب الفقيرة والشعوب الغنية فى استهلاك كل منها للمواد الغذائية ليس فرقا كبيرا فى متوسط السعرات الحرارية التى يستهلكها الفرد ، بقدر ما هو فرق فى نوع التغذية وأسلوب الحياة . فنصيب الفرد من هذه السعرات فى البلاد الفقيرة يبلغ نحو ٢٢٠٠ سعرة حرارية (متوسط ١٩٧١/٦٩) ، أما فى البلاد الغنية فيبلغ نحو ٣١٥٠ سعره (٣) .

ومشكلة « سوء التغذية الناتج عن نقص البروتين والسعرات الحرارية فى باكورة العمر يمكن أن تؤدى الى اعاقة النمو جسديا وعقليا اعاقة لا يمكن تعويضها »(٤) والأطفال هم أكثر المتأثرين من سوء التغذية ، اذ أن نموهم فى

---

(١) أحمد الخشاب ، سكان المجتمع العربى — دراسة تكاملية ، دار الحامى للطباعة ، القاهرة ، ص ٣٩٨

(*) ذكرت مراجع عديدة أرقاما متباينة حول الحد الادنى الذى يتطلبه الجسم من السعرات الحرارية والبروتينات .

(٢) جوزية دى كاسترو ، جغرافية الجوع ، ترجمة زكى الرشيدى ، مراجعة محمود موسى . طابع دار الهلال ، ص ١٦

انظر أيضا : سدنى هـ. كونتز ، النظريات السكانية وتفسيرها الاقتصادى ، ترجمة أحمد ابراهيم عيسى ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٦ ص ١٨

(٣) FAO, The State of Food and Agr. 1975, PP. 76, 105 — 106 .

(٤) يوثانت ، عرض عام لاستراتيجية الازمة لدرء أزمة البروتين فى البلدان النامية ، ادارة الشئون الاقتصادية والاجتماعية ، الامم المتحدة ، نيويورك ، ١٩٧٤ ص (ج) نقلا عن زياد الحافظ (أزمة الغذاء فى الوطن العربى) معهد الانماء فى الوطن العربى فرع لبنان ، ط ١ ، بيروت ، ١٩٧٦ ، ص ١٦ .

الأعمار المبكرة بحـــاجة الى كميات كبيرة من البروتين ، ويترتب على عـــــدم تناولهم كمية كافيـــة منه تلف فى خلايا المخ ، وهى مأساة اذا حلت لا يمكن اصلاحها . ولذلك فان ســـوء التغذية البروتينى سبب مهم من أسباب الوفاة بين الأطفال الرضع والأطفـــال الصغار ، ويؤدى الى توقف النمو البدنى ، وقلة الانتاج فى العمل ، والشيخوخة المبكرة ، وقصر العمر فى البلدان الناميـــة . وتشير التقديرات الى أن أكثر من ٥٠٪ من نسبة الوفيات فى الدول الناميـــة هم من الاطفال دون سن السادسة(١) . وهذا يوضح بجلاء خطورة الوضـــع وضرورة توفير البروتينات والسعرات الحرارية اللازمة للبلدان النامية .

أما متوسط نصيب الفرد العربى من الطاقة الغذائية فهو منخفض عموما، ويحصل المواطن العربى على أقل من احتياجاته منها ، بعكس المواطن العربى فى الدول الصـــناعية المتقدمة ، كما يتضح من جدول رقم (٢) .

(١) نيجل هاى ، مشكلة الغذاء العالمى ، ترجمة د. فتحى محمد عبد التواب، مطبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٤ ، ص ١٤

جدول رقم (٢)

متوسط نصيب الفرد العربى من السعرات الحرارية والبروتينات

(متوسط الفترة ٦٩/١٩٧١)

القطر	حصة الفرد يوميا — تجهيز القدرة الغذائية السعرات	البروتينات ٪ من المتطلبات	البروتينات غرام
مصر	٢٥٠٠.	١٠٠	٦٩
العراق	٢١٦٠.	٩٠	٦٠
الأردن	٢٤٣٠.	٩٩	٦٥
لبنان	٢٢٨٠.	٩٢	٦٣
ليبيا	٢٥٧٠.	١٠٩	٦٢
السعودية	٢٢٧٠.	٩٤	٦٢
الصومال	١٨٣٠.	٧٩	٥٦
السودان	٢١٦٠.	٩٨	٤٨
سوريا	٢٦٥٠.	١٠٧	٧٥
الجمهورية العربية اليمنية	٢٠٤٠.	٨٤	٦١
جمهورية اليمن الديمقراطية	٢٠٧٠.	٨٦	٥٧
الجزائر	١٧٣٠.	٧٢	٤٦
موريتانيا	١٩٧٠.	٨٥	٦٨
المغرب	٢٢٢٠.	٩٢	٦٢
تونس	٢٢٥٠.	٩٤	٦٧
الوطن العربى	٢٢٠٩.	٩٢	٦١
الأقطار النامية	٢٢٠٠.		٥٧
الأقطار المتقدمة	٣١٥٠.		٩٦
العالم	٢٤٨٠.		٦٩

المصدر :

FAO, Thee State of Food and Agr. Table 2 — 19, P. 76 & Table 2—A, PP. 105— 106.

انها لحقائق عديدة تلك التى يبينها الجدول ، منها أن متوسط ما يحصل عليه الفرد العربى من الطاقة يبلغ ٢٢٠٩ سعرات يوميا (متوسط الفترة ١٩٧١/٦٩) وهو أقل من المتوسط العالمى البالغ (٢٤٨٠) سعرة ومقارب لمتوسط الأقطار النامية ، ولا غرابة فى ذلك حيث ينتمى الوطن العربى الى مجموعة الدول النامية ، الا أنه يقل عن متوسط نصيب الفرد فى الأقطار الصناعية المتقدمة بنسبة ٤٣٪ .

ومتوسط حصة الفرد العربى من البروتينات ، هو الآخر منخفض حيث يبلغ ٦١ غراما يوميا وهو أقل من المتوسط العالمى (٦٩ غراما) ، وأكثر بقليل من متوسط الاقطار النامية (٥٧ غراما) ، الا أنه أقل من متوسط الاقطار الصناعية المتقدمة (والبالغ ٩٦ غراما) بنسب ٥٨٪ (انظر شكل ٤) .

ان اعتمادنا على المتوسط فى حساب ما يتناوله المواطن العربى والفرد فى العالم لا تكشف حقيقة الوضع الغذائى ، اذ أن طبيعة الانظمة السياسية السائدة تنعكس على الظروف المعيشية للمواطن . ففى بعض الأنظمة العربية تحصل قلة على معدلات مرتفعة من السعرات الحرارية والبروتين، بينما لا تحصل الأغلبية من المواطنين على ما يسد احتياجاتها الغذائية اليومية، أى حصول الانسان على السعرات الحرارية والبروتين فى حده الأدنى الذى يجعله قادرا على الاستمرار فى الحياة .

وتتباين الأقطار العربية فيما بينها من ناحية نصيب الفرد من الطاقة. وعلى العموم فانه يمكن التمييز بين مجموعتين من الأقطار ، تضم المجموعة الاولى أقطارا يزيد فيها متوسط نصيب الفرد عن ٢٥٠٠ سعرة حرارية ، وهو الحد الأدنى المطلوب للجسم يوميا ، وتتمثل فى كل من مصر وليبيا وسوريا. بينما لا تحصل بقية الاقطار العربية على هذا المتوسط . فى حين يرتفع المتوسط المذكور الى ٣٣٣٠ سعرة فى الولايات المتحدة و ٣٢٩٠ سعرة فى بلغاريا و ٣٢٩٠ سعرة فى المملكة المتحدة .

أما نصيب الفرد من البروتين ، فهو الآخر منخفض فى المنطقة العربية ، اذ تحصل خمسة أقطار عربية فقط (مصر ، الاردن ، سوريا ، موريتانيا ، تونس) على الحد الأدنى المطلوب للجسم وقدره ٦٥ غراما فى اليوم . فى حين

ينخفض عن هذا المتوسط فى بقية الأقطار العربية . يقابل ذلك ارتفاع المتوسط المذكور فى الدول الصناعية المتقدمة ، حيث يرتفع نصيب الفرد منه فى الولايات المتحدة الى ١٠٠٦ غرامات يوميا وفى بلغاريا الى ١٠٠٠ غرام ، والى ٩٢ غراما فى المملكة المتحدة .

وثمة ظاهرة أخرى ، يمكن ملاحظتها فى الجدول المنوه عنه هى أن الاقطار العربية التى يعانى أفرادها ، فى غذائهم نقصا واضحا فى الطاقة الحرارية ، هى نفسها الأقطار التى يعانى أفرادها نقصا ملموسا فى البروتين .

وفى دراسة حديثة يشير الحجم المتاح لاستهلاك الفرد من المنتجات الغذائية فى المنطقة العربية ، الى أن نصيب الفرد من الطاقة الحرارية الغذائية يبلغ فى المتوسط ٢٥٨٠ سعرة فى اليوم . ويعتبر هذا القدر من الطاقة كافيا من حيث الكم فى ضوء الاحتياجات العادية للفرد فى ظروف الوطن العربى المناخية . الا أن نمط الاستهلاك الغذائى العربى غير متزن نوعيا . فهو يشابه بدرجة ملحوظة على الرغم من تفاوت كمية الاستهلاك بين البلاد العربية . اذ يسود فى هذا النمط استخدام الأغذية النشوية بصفة خاصة ، حيث تبلغ الطاقة الحرارية المستمدة من الحبوب والدرنات النشوية الى اجمالى الطاقة الحرارية المستهلكة نحو ٦٠٪ فى المتوسط فى الوطن العربى ، فى حين لا تزيد هذه النسبة عن ٢٤٪ فى الولايات المتحدة و ٢٦٪ فى النمسا و ٣٩٪ فى بريطانيا(١) .

ان ارتفاع هذه النسبة يعد مؤشرا لانخفاض متوسط دخل الفرد الذى لا يسمح الا باستهلاك نسبة عالية من المواد النشوية لانخفاض ثمنها وسهولة حفظها وتداولها مقارنة بأنواع الاغذية الاخرى كاللحوم ومنتجات الالبان والفاكهة . لهذا يعانى أبناء الوطن العربى من أمراض سوء التغذية مثل الانيميا والبلاجرا والبربرى والسل لذلك كثيرا ما نجد أجسام السكان فى الوطن العربى ضامرة بطيئة النمو (٢) . مما يقلل من انتاجية الفرد .

---

(١) مجلة النفط والتنمية ، بغداد ، العدد السادس . السنة الثالثة ، آذار ، ١٩٧٨ ، ص ١٥٣ — ١٥٤

(٢) محمد عبد الغنى سعودى ، الوطن العربى ، دار النهضة ، بيروت ، سنة ١٩٦٧ ، ص ١١٥

مما تقدم ذكره اتضح لنا وجود تفاوت كبير فى مستويات الدخل الفردى بين أقطار الوطن العربى ، ويصل الفرق بين أعلى معدل للدخل وأدنى مستوى له الى ١٤١ مرة . وقد انعكس ذلك على قدرة الفرد الشرائية ، حيث تتمكن الأقطار البترولية التى يرتفع فيها الدخل الفردى من شراء متطلباتها الغذائية ومن نوعيات جيدة . بينما الأقطار الزراعية الفقيرة غير قادرة على الحصول على كفايتها من الغذاء وتحصل عليه من نوعيات رديئة .

وعموما فان متوسط ما يحصل عليه الفرد العربى من السعرات الحرارية يقل عن الحد الأدنى المطلوب للجسم يوميا . والاقطار العربية التى يعانى أفرادها فى غذائهم ، نقصا واضحا فى الطاقة السعرية هى نفسها الأقطار التى يعانى أفرادها نقصا ملموسا فى البروتين . وعلى العموم فان المستوى الغذائى العربى يعتبر فقيرا فى مكوناته البروتينية الحيوانية ، وتغلب عليه المواد النشوية .

المراجـــع :

١ ـــ الأمم المتحدة ، منظمـــة الغـــذاء والزراعة الدولية ، تقـــرير مؤتمر الاغذية العالمى روما ٥ـــ١٦ تشرين الثانى ١٩٧٤ ، نيويورك ، ١٩٧٥.

٢ ـــ جوى ، شارل ، السابق بين الانسان والطعام ، ترجمة د . محمـــد الشحات دار الجبل للطباعة ، القاهرة ١٩٦٣

٣ ـــ الحافظ ، زياد ، أزمة الغـــذاء فى الوطن العربى ، معهـــــد الانماء فى الوطن العربى/فرع لبنان ، ط ١ ، بيروت ـــ ١٩٧٦

٤ ـــ الخشاب ، أحمد ، سكان المجتمع العربى ـــ دراسة تكاملية ، دار الحمامى للطباعة ، القاهرة .

٥ ـــ دى كاسترو ، جوزية ، جغرافية الجوع ، ترجمة زكى الرشيدى ، مراجعة محمود موسى ، مطابع دار الهلال .

٦ ـــ سعودى ، محمد عبـــد الغنى ، الوطن العـــربى ، دار النهضة ، بيروت ، ١٩٦٧

٧ ـــ الشلش ، على حسين ، « سكان العـــالم ومشكلة توفير الغذاء » . مجلة الجمعية الجغرافية العراقية ، بغداد ، المجلد العاشر ، تموز ، ١٩٧٨

٨ ـــ كونتز ، سدنى هـ . ، النظريات الســـكانية وتفسيرها الاقتصادى ، ترجمة أحمد ابراهيم عيسى ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٦

٩ ـــ مجلة النفط والتنمية ، بغـــداد ، عدد ٦ ، السنة الثالثة ، آذار ، ١٩٧٨ ، وعدد ٨ ، آيار ، ١٩٧٨ ، وعدد ١٢ ، أيلول ، ١٩٧٨

١٠ ـــ المركز العربى للدراسات الاعلاميـــة للسكان والتنمية والتعمير/القاهرة، ملف التنمية العدد الثانى سبتمبر ، ١٩٧٧

١١ ـــ نشرة منظمة الاقطار العربية المصدرة للبترول ، العدد ٥ ، السنة الخامسة آيار ، ١٩٧٩

١٢ ـــ هاى ، نيجل ، مشـــكلة الغذاء العـــالمى ، ترجمة د. فتحى محمد عبد التواب ، مطبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٤

١٣ — يوثانت ، عرض عام لاستراتيجية الأزمة لدرء أزمة البروتين فى البلدان المتنامية ، ادارة الشئون الاقتصادية والاجتماعية ، الأمم المتحدة ، نيويورك ، ١٩٧٤

14 — Hauser. P. M. World Population Growth, Population Dilemmaa, London 1969.

15 — U. N. F. Ao, The State of food and Agriculture 1975. Italy 1976.

الدكتور عباس فاضل السعدى كلية الآداب — قسم الجغرافيا ، يونيو (حزيران) ١٩٧٩

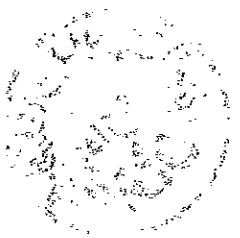

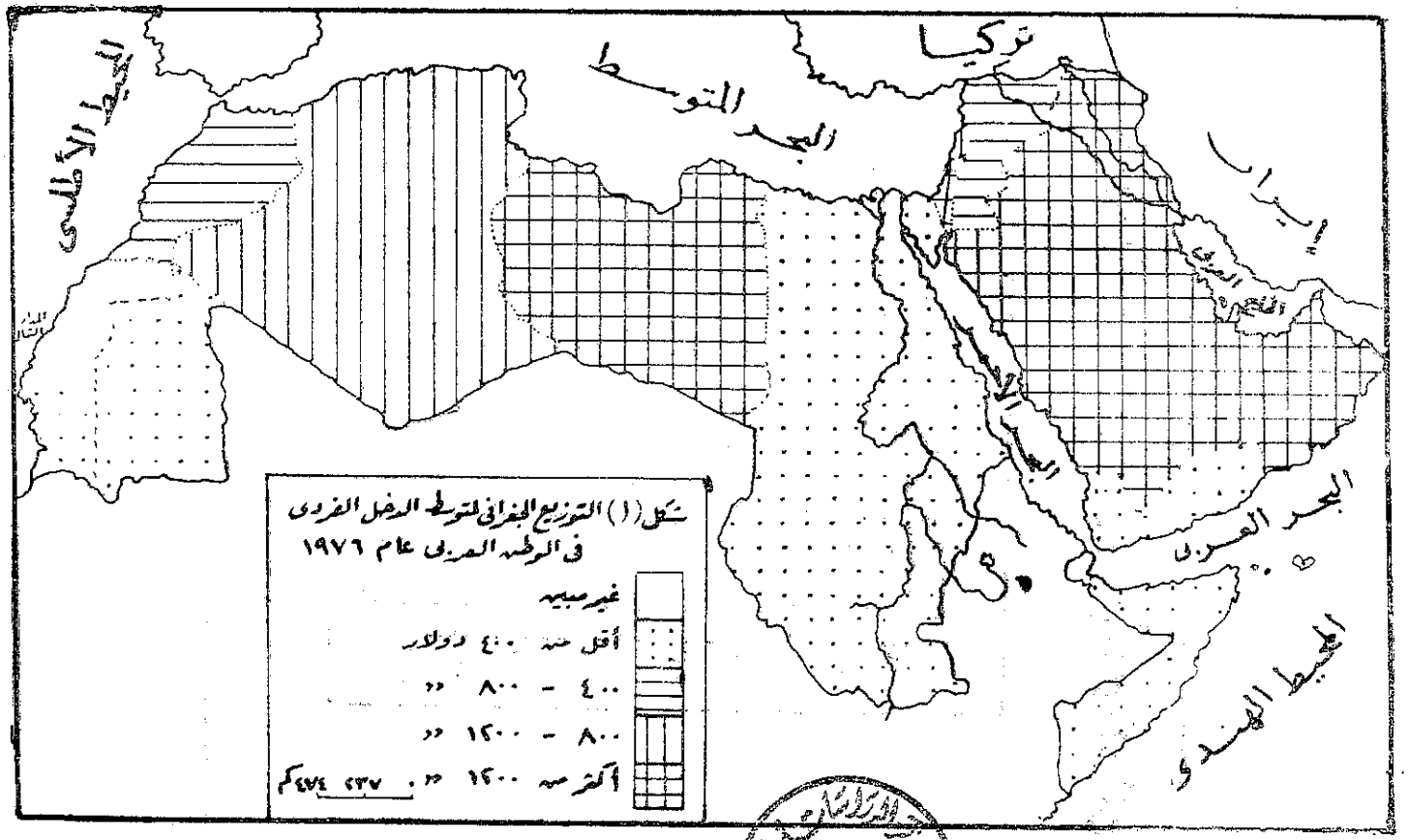

شكل (١) التوزيع الجغرافي للتوطن الدخل الفردي في الوطن العربي عام ١٩٧٦

غير مبينة

أقل من ٤٠٠ دولار

٤٠٠ - ٨٠٠ "

٨٠٠ - ١٢٠٠ "

أكثر من ١٢٠٠ " . ٤٧٤ ٤٣٧ كم

جامعة الدول العربية
المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم
إدارة التوثيق والمعلومات

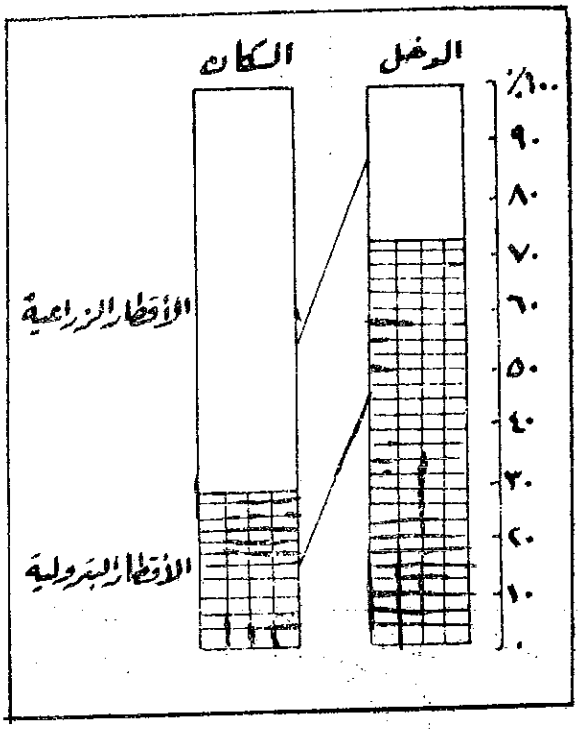

شكل (٢) توزيع نسب السكان والدخل في الوطن العربي

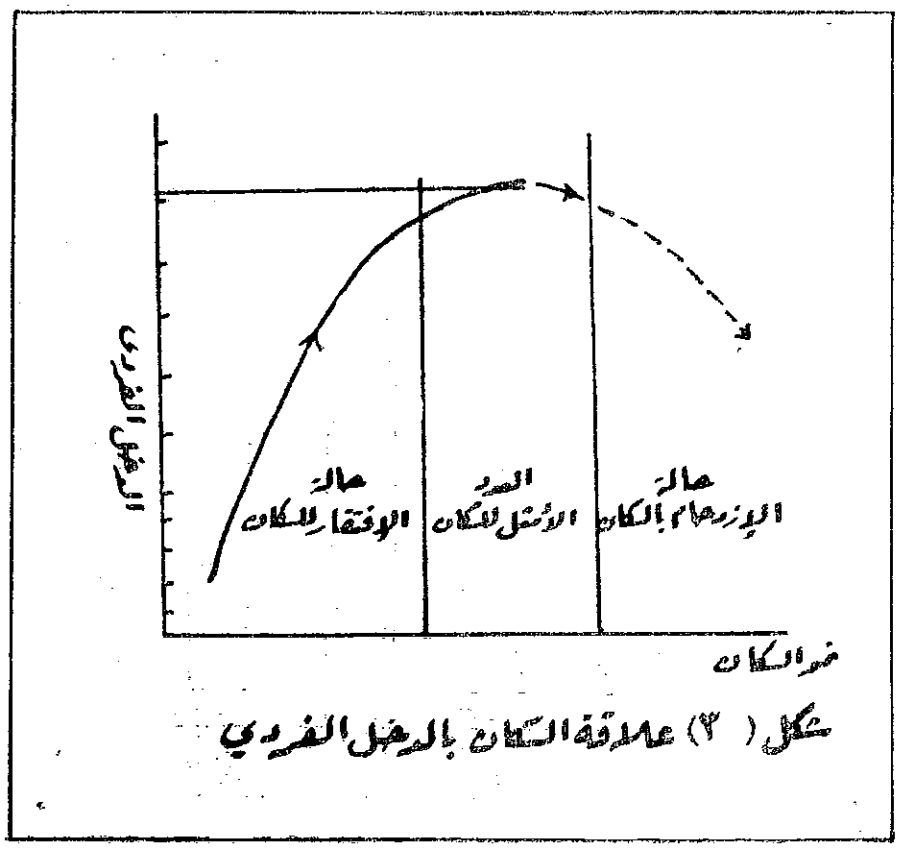

شكل (٢) علاقة السكان بالدخل الفردي

شكل (٤) نصيب الفرد اليومي من السعرات الحرارية والبروتينات في العالم والوطن العربي (لمتوسط الفترة ١٩٦٩/١٩٧١)

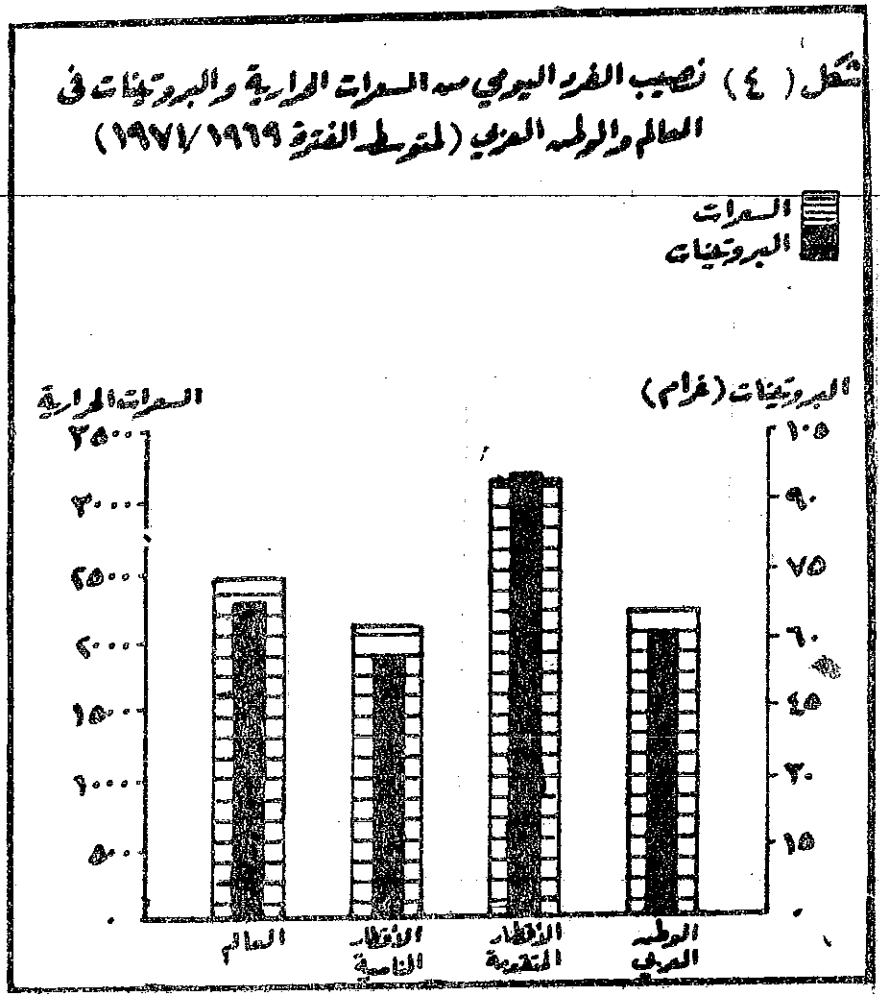

الاخصائى الاجتماعى والعلاقات العامة بالمستشفيات(١)

اعداد : د. زهير حنفى على

الخدمة الاجتماعية بالمستشفيات :

منذ سنوات قليلة كانت مسئولية ادارة المستشفى تنتهى عند حد حصول المريض والمصاب على أقصى رعاية طبية ممكنة ، وقد امتدت تلك المسئولية — فى وقتنا الحاضر — لتشمل الوقاية وتتبع المرض والاصابة والتأهيل بل ان النظرة أصبحت أكثر شمولا بالنسبة للدور القيادى الذى تؤديه المستشفى فى توفير الرعاية الصحية المتكاملة للمريض والمصاب من أفراد المجتمع .

فالمستشفى ينظر اليه الآن كأحد المنظمات الاجتماعية التى تستهدف وقاية أفراد المجتمع المحيط من المرض والاصابة الى جانب كونها دار للتشخيص والعلاج ، والأمر الذى أستتبع ضرورة مشاركته فى كل البرامج الهادفة الى تحقيق هذه الوقاية الى جانب المشاركة فى توعية أفراد المجتمع بأفضل السبل لتحقيق هذه الوقاية(٢) .

ولقد ولدت الحاجة « للخدمة الاجتماعية » فى المستشفيات نتيجة لتزايد الوعى بما يصاحب المرض والاصابة من مشكلات اجتماعية وعاطفية . فالاخصائى الاجتماعى Social Worker يقوم بمساعدة المريض والمصاب فى التغلب على المشكلات الداخلية والخارجية التى قد تعوق تقدم العلاج الذى يحصل عليه أثناء اقامته فى المستشفى ، دون النظر للوضع الاجتماعى للمريض ، كما يقوم بالعمل على ايجاد الصلة بين المريض وحاجته سواء

---

(١) الهدف من هذه الدراسة محاولة توضيح الرؤية بالنسبة للصلة بين نشاطى العلاقات العامة والخدمة الاجتماعية بالمستشفيات . وأهمية مثل هذه الخدمات فى مستشفيات اليمن وضرورة البدء فى تطبيقها .

(٢) زهير حنفى على ، دكتور ، المستحدث فى الادارة العامة للمستشفيات ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، الصفحات ٣٢ ، ٤٨ الى ٥٠ .

توافرت فى المستشفى أو فى احدى المنظمات الاجتماعيـــة الأخرى الموجـــودة فى المجتمع .

وعموما قد يختلف نشاط الخـــدمة الاجتماعية من مستشفى لآخـــر ، حيث يتوقف حجم وكثافة تلك البرامج على عدة اعتبارات منها : نوع المستشفى، الوان الرعاية التى يقدمها ، الظروف الاجتماعيـــة والاقتصادية للمجتمع المحيط، منظمات الرعاية الصـــحية الأخرى المتوافرة فى المجتمع ، نوع المرضى ومستوياتهم المـــادية والاجتماعيـــة ، المـــوارد المـــادية المتاحة لدى المستشفى ، المنظمات الاجتماعية المتوافرة فى المجتمع وسلوك المرضى والمصابين بالنسبة لمـــا هو متاح من رعاية وغير ذلك .

وهناك ثلاث محاور أساسية يعتمد عليها فى تخطيط برامج الخـــدمة الاجتماعية فى المستشفيات هى :

* المرضى وعائلاتهم ودراسة مدى حاجتهم للخدمة الاجتماعية .
* الامكانيات المتاحة فى المستشفى لتحقيـــق الخدمات الاجتماعية للمرضى والمصابين .
* الامكانيات المتاحة فى المجتمع المحيط للتكامل مع الخـــدمات المتاحة فى المستشفى .

ويلاحظ أن هذه المحاور الأساسية تستهدف فى النهاية تحقيـــق هـــدف « توافر أقصى رعاية ممكنة للمريض والمصاب » وهو من أهم أهـــداف المستشفى .

كما يلاحظ أيضا أن برامج الخـــدمة الاجتماعية الخاصة بالمستشفى يقصد بهـــا عموما تيسير وصول ما هو متوافر من رعاية للمريض والمصاب ، والعمل على وضوح الرؤية بالنســـبة للمريض وحاجاته ، وازالة العقبـــات التى تعترض اشـــباع تلك الحاجات ، والعمل على زيادة الامكانيات المـــادية والانشطة اللازمة لمداركة تلك الحاجات سواء بالامكانيات المتوافرة لدى المستشفى أو لدى المنظمـــات الاجتماعية الاخرى الموجودة فى المجتمع المحيط(١) .

---

(١) Harper, B.C. : Social Service in Extended Care Facilities : A Blueprint for Action : University of California : Los Angeles : U. S. A. 1968 : pp. 1 .. 10.

ويمكن تلخيص ما يؤديه الاخصائى الاجتماعى فى مجال المستشفيات فيما يلى :

أولا ــ خدمات للمرضى وعائلاتهم : يحول المرضى على الاخصائى الاجتماعى بواسطة الأطباء أو مكاتب قبول المرضى المنومين (المقيمين) أو قسم الطوارىء والحوادث أو العيادة الخارجية ، وغير ذلك من وحدات النشاط فى المستشفى كما يحولون اليه أيضا بواسطة المنظمات الاجتماعية المختلفة أو منظمات الخدمة الاجتماعية أو بواسطة أى شخص يشعر بحاجة المريض أو عائلته الى خدمات قسم أو ادارة الخدمة الاجتماعية بالمستشفى .

والاخصائى الاجتماعى لا يقتصر دوره على مجرد انتظار المرضى المحولين اليه ، ولكن عليه أن يبحث عمن يحتاج الى خدماته ، فالخدمة الاجتماعية قد تكون لازمة للمريض حتى قبل التشخيص والعلاج . والاخصائى الاجتماعى عليه أن يتعاون مع الأطباء وجهاز التمريض والعاملين بالمستشفى بوجه عام فى سبيل البحث عن المرضى الذين يحتاجون الى رعاية اجتماعية .

والخدمات الاجتماعية المباشرة التى تقدم للمريض تتوقف على دراسة حجم المشكلات الاجتماعية التى تواجهه واحتمالات حلها سواء بالامكانيات المتاحة داخل أو خارج المستشفى . ولعل اولى هذه المشكلات هى مساعدة المريض وعائلته على تقبل متطلبات العلاج وما يترتب عليه من مشكلات اجتماعية . فقد يقاوم المريض ما يقدم اليه من تشخيص وعلاج بدون وعى منه ، كما قد يصاحب مراحل العلاج حالات من القلق سواء بالنسبة للمريض أو بالنسبة لأفراد عائلته يتعلق بتقدم العلاج أو بالاوضاع الجديدة المترتبة على المرضى أو الاصابة ومدى تقبلهم لها .

ويضاف أيضا أن الاخصائى الاجتماعى قد يقوم بدور فعال فى سبيل توفير موارد جديدة للدخل سواء بالنسبة للمريض أو بالنسبة لافراد عائلته خلال فترة المرض أو الاصابة أو خلال الفترة التى ينقطع فيها دخل الأسرة ، كما قد يعمل مساعدة المريض فى الحصول على رعاية منزلية Home Care بعد خروجه من المستشفى أو بالحصول على مساعدة المنظمات الاجتماعية أو المتخصصة فى التأهيل .

ولعله من الواضح أن الخدمات المتقدم ذكرها تكون فعالة لو عمل حسابها قبل دخول المريض المستشفى أو بمجرد قبوله به ، حتى تتضح الرؤية أمامه وأمام أسرته مما يجعلهم ينظرون بعين التفاؤل للمستقبل . كما أن ادارة المستشفى يجب أن تعمل على وجود خطة مالية مستقلة لكل حالة مرضية تحتاج الى رعاية اجتماعية ، فوجود مثل هذه الخطط يؤثر على العلاج ومدى تقبله بواسطة المريض أو بواسطة أفراد عائلته . فلو توافر مثل هذا الشعور بالمسئولية تجاه المريض (قبل دخوله وأثناء وجوده بالمستشفى وبعد خروجه منها) يظهر ادارتها بمظهر مشرف ، وواقع الأمر فان ادارة المستشفى مسئولة عن كل حالة تحول منها الى المنظمات الصحية الأخرى، والاخصائى الاجتماعى يجب أن يتحقق من سلامة قرار تحويل المريض الى مستشفى آخر أو منظمة اجتماعية متخصصة .

ويضاف الى ما تقدم أن الاخصائى الاجتماعى يقوم بتوجيه النصح لغيره من العاملين بالمستشفى ، وذلك بالنسبة لحل مشكلات معينة تخص بعض المرضى سواء تعلقت بالنواحى الاجتماعية أو العاطفية أو المالية وغير ذلك من النواحى التى تؤثر على المريض وتقدم حالته أو تأهيله . فهو يقدم النصيحة اذا طلبت منه ، وعلى طالبيها التصرف بطريقتهم الخاصة .

لذلك فان الاخصائى الاجتماعى يشترك مع فريق رعاية المريض داخل المستشفى سواء كانوا أطباء أو أعضاء هيئة التمريض أو الصيادلة الاكلينيكيين (صيادلة عنابر Ward Phanmaciats) وغيرهم(١) ، فهذا التعاون له دور فعال فى تقدم حالة المريض وتقبله للعلاج ، وبصورة عامة فان الطبيب المعالج فى داخل المستشفى لا يمكنه العمل بكفاية بدون تعاون الاخصائى الاجتماعى ، وخاصة بالنسبة للحالات التى تتطلب رعاية اجتماعية. كما يقوم الاخصائى الاجتماعى بالاشتراك فى الحلقات التى تعقد بين مجموعة من المتخصصين لدراسة حالات معينة ، ويساعد فى تنفيذ توصياتها وقراراتها

---

(١) زهير حنفى على ، دكتور ، « تطور اختصاصات ادارة الصيدلية بالمستشفيات » مجلة كلية التجارة ، جامعة الرياض ، عام ١٣٩٦ هـ/١٩٧٦م. الصفحات ص ٢٦١ الى ٢٦٧

عن طريق تبادل المعلومات مع المشتركين فى تلك الحلقات سواء من داخل أو خارج المستشفى ، والاتفاق على خطوات التنفيذ .

وعموما فان الاخصائى الاجتماعى يعمل بالتعاون مع غيره من العاملين فى المستشفى ، وبالتعاون مع المنظمات الاجتماعية والتأهيلية المتوافرة فى المجتمع المحيط ، وبالتعاون مع الاطباء المعالجين للمريض خارج المستشفى وبالتعاون مع جماعات كثيرة يتطلب الأمر الاتصال بهم لصالح المرضى والمصابين وعائلاتهم ، كالجماعات الدينية والخيرية والنقابية والتمريضية وغير ذلك .

ثانيا — الاشتراك فى ادارة المستشفى : يلاحظ أن كفاءة وتيقظ ادارة المستشفى وارتفاع الروح المعنوية للعاملين فيه وكفاية أدائهم لأعمالهم تؤثر على المريض ، ومدى تقبله لما يقدم اليه من علاج ، واطراد تحسن حالة المرض أو الاصابة التى يعانى منها (١) .

والاخصائى الاجتماعى يعتبر مسئولا عن تنسيق تلك العلاقة ويتحمل عبء تحقيق تلك الأهداف للمستشفى ، فهو يهتم بكل ما يؤثر على علاج المريض والمصاب ودرجة تقدمه ، سواء كان المؤثر موجود فى داخل المستشفى أو وارد من خارجه. فالاخصائى الاجتماعى مسئول عن كل الاهتمامات الانسانية التى تتعلق بكفاية الأداء للخدمات التى يقدمها المستشفى التى تتركز فى تحقيق أقصى رعاية ممكنة للمريض والمصاب فى حدود الامكانيات المتاحة. فألوان الرعاية التى تقدم للمريض منها ما هو ملموس ، ومنها ما هو غير محسوس أو ملموس كدرجة الرضا والشعور بالارتياح ودفع القلق وغير ذلك(٢) .

ويتضح مما تقدم أن الاخصائى الاجتماعى يقوم بدور هام فى تحقيق هدف الوصول الى أقصى رعاية ممكنة للمريض والمصاب ، ومدير المستشفى يمكنه الانتفاع باتصالات الاخصائى الاجتماعى فى تحسين الصورة الذهنية للمستشفى لدى المنظمات والفئات والأفراد الذين يتصل بهم .

---

(١) American hospital association; the hospital's responsibility for psycological aspects of health care; the association; chicago, U.S.A; 1969, PP. 1 — 10.

(٢) زهير حنفى على ، دكتور ، المستحدث فى الادارة العليا للمستشفيات مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٦م ، الصفحات من ١١٧ الى ١٢٨

فالاخصائى الاجتماعى يعتبر من أفضل العـــاملين الذين تدربوا على مواجهـــة المواقف الانسانية المعقدة التى تتأثر بعدة عوامل متداخلة ، لذلك نجده يستطيع أن يسهم فى حل المشـــكلات الانسانية التى تعترض ادارة المستشفى ، مثل سعيها الى تعيين أفضل الكفايات العـــاملة من المجتمـــع المحيط ، ورغبتها فى تحسين الصورة الذهنيـــة للمستشفى بالنسبة للمنظمات والجماعات والأفراد الذين يتصل بهم الاخصائى الاجتماعى أثناء عمله ، وفى اكتساب حب وتعاون كل مكونات المجتمع المحيط من فئـــات . وربما يكون الاخصائى الاجتماعى هو الشخص الوحيد من بين العـــاملين الذى يتصل ببعض المنظمات أو الفئات أو الأفراد فى خارج المستشفى .

ويضاف الى ما تقـــدم أن الاخصائى الاجتماعى يشترك بشـــكل فعلى فى ادارة ـــ المستشفى عنـــدما يعين عضوا فى احـــدى اللجان الادارية ، وخاصة تلك التى تتعلـــق برسم سياسات العـــلاقات العـــامة مع المنظمات خارج المستشفى أو تلك التى تقـــوم بالتفاوض مع بعضها للاســـهام فى برامج المستشفى أو تعمل على تطويـــع ســـبل الرعاية المتوافرة بهـــا بما يتفـــق والمشكلات الاجتماعية التى يواجه المريض ، كما يشترك الاخصائى الاجتماعى فى اقرار السياسات المتعلقة بحالات الحمل أو ادمان الخمر والمخدرات أوتلك التىتحتاج الى رعاية منزليـــة وغير ذلك ، ويشترك أيضا فى تحديد ســـبل تنفيذ القوانين التى قد تصدرها الدولة فيما يتعلـــق بمثل هذه الحالات .

ويترتب على ما تقـــدم الحاجة لاشتراك الاخصائى الاجتماعى فى لجان التخطيط طويل الأجل وقصير الأجل ، للانتفـــاع بخبرته وتخصصه والمـــامه بحاجات المنتفعين بخـــدمات المستشفى أو بالمنظمات الاجتماعية والصـــحية والأنشطة المختلفة المتوافرة فى المجتمع المحيط .

ويضاف الى ذلك أن الاخصائى الاجتماعى يجب أن يشترك فى بعض اللجان المنبثقة عن مجلس ادارة المستشفى مثل لجنـــة رعايـــة المريض Patient care committee ولجنة الكوارث Disaster Comm. ttee . ولجنة العلاقات العامة Public relations comm. كما يجب أن يشترك ايضا فى بعض اللجـــان المنبثقة عن الهيئة الطبية مثل لجنة التسجيل الطبى Medical Records comm ولجنة مراجعـــة استخدام الامكانيات المتاحة

ولجنة الدواء والصيدلية ولجنة The Utilization Review comm.
العـــلاج The drug, pharmachar therapeutic comm. (١) .

ومن ناحية أخرى نجد الاخصائى الاجتماعى يشترك فى اعداد البرامج التدريبيـــة التى تعد الأطبـــاء الامتياز والممرضات ، وعليـــه واجب التأكد من احتوائها على ما يوضح الرؤية فيما يتعلق بالجوانب الاجتماعية والانسانية للمرضى والمصابين . كما أن مدير الخـــدمة الاجتماعيـــة فى المستشفى يقـــوم باعداد البرامج التدريبيـــة للعاملين الجدد — أو للعـــاملين القـــدامى فى مجال الخدمة الاجتماعيـــة .

ويضاف الى ما تقـــدم مسئولية ادارة الخدمة الاجتماعية عن القيـــام بالأبحاث والدراسات الاجتماعية عن حالة معينـــة أو مجموعة من الحـــالات مثل الابحـــاث التى تستهدف دراسة الحاجات الاجتماعيـــة لمجموعة معينـــة من المرضى تجمعهم صفة أو صـــفات مشتركة أو نوع واحـــد من المرض أو الاصابة ، والأبحـــاث التى تهدف الى التعرف على العوامل الاجتماعية التى تساعد فى علاج مرض معين أو فى تقـــدمه وتلك التى تؤدى الى اقـــرار سياسات تتعلق بعلاقة المستشفى بالمريض وأقاربه ، وكذلك الابحـــاث التى تهـــدف الى دراسة سلوك المرضى تجـــاه محاولات المستشفى لتقـــديم ســـبل العـــلاج والرعاية المناسبة ، كما أنه يقـــوم بدراسات تهـــدف الى بحث أسباب أعراض بعض المرضى عن متابعـــة متطلبات العلاج وغير ذلك .

ويلاحظ أنه كلما اتجهت ادارة المستشفى الى التوسع فى خدماتها للمجتمع المحيط كلمـــا زادت حاجتها الى البحـــوث الاجتماعية الهادفـــة الى اجـــراء دراسات من زاوية اجتماعيـــة معينة ، مثل اتجـــاه المستشفى الى المشاركة فى برامج وقاية المجتمع من المرض أو فى برامج الثقافة الصـــحية التى تقدم اليه أو فى تتبع المرض وتعقبـــه Follow — Up وغير ذلك .

ويضاف الى ذلك أن الاخصائى الاجتماعى عادة ما يشترك مع فريـــق الأبحـــاث الذى يشـــكل لاجراء دراسات خاصة بمرض معين مثل السرطان أو أمراض القلب أو الأمراض النفســـية وغير ذلك من الأمراض فان لم يشترك

---

(١) Grant, colin, hospital management, churchill livingstone, London; PP. 182 — 190.

الاخصائى الاجتماعى فى هـذا الفريـق فانه عادة ما يسأل عن تقـديم استشاراته فى حالات معينة ، وفى الحالة الأولى نجده يسهم فى كل مراحل البحث .

ثالثا ـ الاشتراك فى خـدمة المجتمع : يقوم الاخصائيون الاجتماعيون فى المستشفى بالاسـهام فى انشطة بعض المنظمات الاجتماعيـة المتوافرة فى المجتمع والاشتراك فى اجتماعاتها ولجانها بهـدف تحقيـق التعـاون مع المنظمات ذوات الأهداف المشتركة وقد تشجعهم ادارة المستشفى على الاشتراك فى عضـوية بعض المنظمات بهـدف زيادة الفرص أمامهم لمساعدة المرضى وعائلاتهم والانتفـاع بخدمات تلك المنظمات .

وفى البلاد المتقـدمة تشاهد أجهزة الخـدمة الاجتماعية فى المستشفيات العامة تقـوم بالتخطيط والتنفيذ لبرامج رعاية بعض المرضى فى منازلهم ، وقد يشترك فى تلك البرامج بعض المنظمات الصـحية والاجتماعيـة الأخرى المتوافرة فى المجتمع المحيط وواضح أن هذه البرامج تخفف الضغط على أسرة المستشفيات العـامة وتسهم فى حل بعض مشكلاتها الاجتماعية ، كما انهـا فى الوقت نفسه تحقق خدمات جليلة للمجتمع .

ويستطيع الاخصائى الاجتماعى عن طريـق اتصـالاته مع المنظمات الصـحية والاجتماعيـة المتوافرة فى المجتمع تخطى بعض الاجراءات وتذليـل بعض العقبات التى تعترض طريـق المريض وعائلته فى الحصول على خدماتها أو مزيـدا من تلك الخدمات .

ويستطيع أيضا أن ينبـه أذهان المسئولين فى تلك المنظمات الى المشكلات الصحية التى تحتاج الى تضافر الجهود بينها جميعا لتذليلها .

وعموما يستطيع الاخصائى الاجتماعى نقل الحقائق عن المستشفى الذى عمل فيه الى المنظمات الصـحية الاجتماعية المتوافرة فى المجتمع مما يضمن تعاونها ، وفى هذا الشأن يمكنه أن يتعاون مع غيره من المتخصصين بالمستشفى وعلى رأسهم العاملين فى العلاقات العامة .

كما يستطيع نقل كل ما يطرأ على المجتمع المحيط من تغيرات والحاجات المراد اشباعها واتجاهات الفئـات التى يتصل بهـا خـارج المستشفى . فلا يقتصر دوره على مجـرد تحقيـق الرعاية الاجتماعية للمريض وعائلته ،

ولكنه يستطيع أن يسهم فى مجال العلاقات العامة عن طريق نقل الحقائق عن المستشفى ، ثم تغذية إدارة المستشفى Feed back بالمعلومات التى تريد معرفتها عن المجتمع المحيط ويلاحظ أن إدارة العلاقات العامة فى أى منظمة تقوم أساسا لتوصيل الحقائق عنها الى المجتمع الخارجى والداخلى لها ، ثم توصيل الحقائق عن جمهورها الداخلى والخارجى الى ادارة المستشفى .

وتوجد كثير من المنظمات التى تهتم بما يستطيع الاخصائى الاجتماعى توصيله من حقائق عنها أو عن المستشفى الذى يعمل بها مثل :

الاتحادات المهنية والعمالية المختلفة ، المنشآت الاقتصادية التى يتعامل معها المستشفى ، المنظمات الدينية ، الأندية والهيئات الخاصة ، المنظمات الصحية والاجتماعية المتوافرة فى المجتمع المحيط وعلى مستوى الدولة .

العلاقات العامة والخدمة الاجتماعية :

عندما تحاول دراسة مدى انطباق مبادىء الادارة (كما يراها هنرى فايول Fayol) على ادارة المستشفيات(١) سيتبين لنا أن بعضها لا ينطبق فمثلا كلنا يعرف أن هنرى فايول كان يرى أن مبدأ التوجيه Unity of direction يختلف عن مبدأ وحدة القيادة Unity of command بمعنى آخر ينطبق مبدأ وحدة القيادة على علاقة المرؤوس بالرئيس ، ومبدأ وحدة التوجيه على المشروع أو التنظيم ككل ، كما ينطبق على مجموعات الأنشطة التى يتكون منها . فمبدأ وحدة القيادة ينحصر فى تلقى العامل الأوامر من رئيس واحد فقط ، أما مبدأ وحدة التوجيه فيقصد به أن لكل مجموعة من الانشطة التى تسير نحو أهداف متماثلة خطة واحدة . كما أن وحدة التوجيه لا يمكن أن تعيش بدون وجود وحدة القيادة وان كانت لا تتبع منها ، وكما ذكر هنرى فايول :

«On head one plan for a group of activities having the same objective».

«Unity of command cannot exist withaut unity of direction but does not flow from it».

---

(١) زهير حنفي على ، دكتور ، المستحدث فى الإدارة العليا للمستشفيات ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، الصفحات من ١٦٧ الى ١٨١

ولعله من الواضح ان مبدأ وحدة القيادة لا ينطبق فى كثير من الاحوال فى المستشفيات فمثلا المرضة قد تتلقى أوامر من الطبيب مخالفة للأوامر التى تتلقاها من مدير المستشفى ، وقد تكون مخالفة أيضا للأوامر التى تتلقاها من مديرة التمريض فأى الأوامر تطيع أو تنفذها أولا ؟ والعاملون فى الصيدلة والمعامل والاشعة التشخيصية يتلقون أوامر من الاطباء المعالجين باجراء الاشعات والفحوص المخبرية وصرف أصناف من الدواء ، وفى نفس الوقت يتلقون أوامر من ادارة المستشفى بعدم الاسراف فى استعمال بعض المواد أو العقاقير أو المحاليل أو الاحماض أو الأدوية أو أفلام الاشعة لعوامل الندرة أو تزايد التكاليف فأى الجانبين يطيعون؟

فوجود خطين للسلطة فى المستشفيات Tow Major Authorities يؤدى بالتالى الى عدم اطباق مبدأ وحدة القيادة فى المستشفيات فى كثير من الاحوال .

وأما بالنسبة لمبدأ وحدة التوجيه فقد حاولنا أن نتبين مدى انطباق هذا المبدأ على ادارة العلاقات العامة وادارة الخدمة الاجتماعية فى المستشفيات فيما يتعلق بالعلاقة مع المريض وذويه ، واتضح بعد الرجوع الى عدة مراجع ان مبدأ وحدة التوجيه لا ينطبق على هاتين الادارتين حتى فى مستشفيات البلاد المتقدمة . فكل ادارة من هاتين الادارتين تقوم بنشاط منفرد فيما يتعلق بالعلاقة مع المريض وذويه والعلاقة مع المجتمع بوجه عام . فى حين يمكن توحيد الجهود تطبيقا لمبدأ وحدة التوجيه بحيث يكون للنشاطين قيادة واحدة أو على الأقل خطة مشتركة فيما يتعلق بالعلاقة مع المريض وأسرته ، وكذلك فيما يختص بالعلاقة مع المنظمات والجماعات والأفراد فى خارج المستشفى.

وفى هذا الشأن أرسلت مستفسرا عن ذلك الى جمعية المستشفيات الأمريكية فجاءنى رد أحد خبراء الادارة(١) فى تلك المنظمة الكبيرة بتاريخ ٢١ مارس ١٩٧٣ ، وفيما يلى بعض فقرات الخطاب .

---

(١) M.G. Ause, Director of Bureau of Management & Planning, American Hospital Association, Chicago, Illinois, U.S.A.

«I Would agree with you completely that these two relationships could funsction very effectivelt.. and under the supervision of one person. He would be able to bring about a degree of coordination and cooperation that would not otherwise be possible.. I rather suspect that a conversation with a social worker and an independent conversation with a public relations person would find both of them reacting to the idea that they have much in common. Under good supervision of someone who really understands the relationship and independence of the two functions, there might well be rather remarkable strengthening in both..».

ويتلخص ما جاء فى هذه الفقرات أن الخبير المسئول يؤيد وجود ارتباط بين ادارتى العلاقات العامة والخدمة الاجتماعية فيما يتعلق بالعلاقة مع المريض وأسرته والمنظمات التى يتصل بها الاخصائى الاجتماعى لصالح المريض وأسرته ، وكذلك فيما يتعلق ببرامج العلاقات الصناعية Jndustrial nelatians مع العاملين فى المستشفى حيث يفضل أن يشترك فيها أيضا الاخصائى الاجتماعى(١) .. ويضيف أيضا أننا لو أحضرنا مدير ادارة الخدمة الاجتماعية فى احد المستشفيات وتحدثنا معه ثم أحضرنا مدير ادارة العلاقات العامة وتحدثنا معه بشكل منفصل سنجد أنهما يقاومان فكرة وجود تلك العلاقة المشتركة ..

ولعل وجود مدير كفء واحد للادارتين ، بحيث يفهم العمل المستقل لكل منهما كما يفهم أيضا تلك العلاقة التى تربطهما ، سيكون له أثر ملحوظ فى تدعيم كفاية الأداء لكل ادارة منهما (لم نتقيد بالترجمة الحرفية) .

ومما يؤيد وجهة نظرنا هذه وجود اتجاه — أكاديمى — مؤيد لاتجاهنا حيث يهدف الى توسيع مجالات الخدمة الاجتماعية الى الحد الذى تصبح فيه أداة فعالة فى تنظيم المجتمع وتنميته ، وأن تهتم بجوانبها الوقائية والانشائية بجانب جوانبها العلاجية . وبذلك فان نطاق مجالات الخدمة

---

(١) نفضل تسمية العلاقات الصناعية فى مجال المستشفيات بالعلاقات مع العاملين Employee melations فعبارة العلاقات الصناعية تنطبق على المصانع (التى نشأت فيها الادارة العملية) أكثر من انطباقها على المنظمات التى تنتج الخدمات كالمستشفيات . وان كان يلاحظ أن بعض مراجع ادارة المستشفيات ما زالت تستعمل عبارة (العلاقات الصناعية) وبخاصة المراجع الانجليزية .

الاجتماعية يمكن أن يشتمل على آفاق جديدة ومجالات متسعة مستخدمة جميع طرقها العلمية وامكانياتها للمساهمة فى تحقيق أهداف المجتمع . فالخدمة الاجتماعية مهنة تخصصت لتيسير وتقوية العلاقات الاجتماعية الأساسية بين الأفراد والجماعات والنظم الاجتماعية .

« ... ولا يمكننا أن نسلم بأن الخدمة الاجتماعية تطبيق حقيقى لعلم الإجتماع وتبتحق أن نطلق عليها (علم الاجتماع العملى) لأن الخدمة الاجتماعية تطبق جميع العلوم الاجتماعية مثل علوم السلوك والاجتماع ودراسة الانسان والبيئة الاجتماعية والتحليل النفسى وتستعير بعض الإتجاهات من التربية وعلم النفس الاكلينيكى . وكذلك تختلف مع الرأى الذى يقول أن العلاقات العامة تعتمد على علم الاجتماع فقط لأنها أيضا تطبق جميع العلوم الاجتماعية شأنها فى ذلك شأن مهنة الخدمة الإجتماعية الحديثة ، وهذا يعد من أهم العوامل التى دفعتنا الى فرضنا الأول بأن هناك وجه للانطباق والتشابه بين الخدمة الاجتماعية والعلاقات العامة مادام أن مصدرهما واحد وأهدافهما واحدة ووسائلهما وجماهيرهما واحدة أيضا ... والعلوم الاجتماعية تمد الخدمة الاجتماعية والعلاقات العامة بالنظريات والفروض العلمية ...(١) » .

وتأسيسا على ما تقدم يمكننا أن نقول انه يوجد أوجه للشبه بين نشاط الخدمة الاجتماعية والعلاقات العامة فى الجوانب الآتية :

١ ــ يرتكز كلا من تخصص الخدمة الاجتماعية والعلاقات العامة على العلوم الاجتماعية الحديثة .

٢ ــ يقوم نشاط العلاقات العامة على توصيل الحقائق من والى المستشفى ، شأنه فى ذلك شأن نشاط الخدمة الاجتماعية .

٣ ــ يستهدف نشاطى العلاقات العامة والخدمة الاجتماعية تحقيق فوائد مزدوجة للمستشفى وجماهيرها الداخلية والخارجية . كما يتشابهان وسائل الاتصال والاعلام فى كل النشاطين .

---

(١) أحمد كمال أحمد ، دكتور ، العلاقات العامة فى المجالات الاجتماعية والانسانية . مكتبة القاهرة الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، الصفحات من ١٧٣ الى ١٩٢ .

٤ ــ يتعلق نشاطى العلاقات العامة والخدمة الاجتماعية بأحداث تغيير اجتماعى مقصود يستهدف أولا وقبل كل شىء تحقيق أقصى رعاية ممكنة للمريض والمصاب .

ونستخلص من العرض المتقدم أن الاخصائى الاجتماعى يستطيع الاسهام فى برامج العلاقات العامة اسهام فعال . كما أن هناك حاجة لوحدة التوجيه unity of direction بين عمل ادارة العلاقات العامة وعمل ادارة الخدمة الاجتماعية فى المستشفيات العامة فلا اعتراض على هذه الوحدة من الناحية الاكاديمية .

ولعل أهم الأنشطة التى يجب أن يتوافر فيها وحدة التوجيه بين ادارة العلاقات العامة وادارة الخدمة الاجتماعية تلك الأنشطة التى تختص بعلاقة المستشفى بالمنظمات والفئات والجماعات التى يتصل بها اخصائى الخدمة الاجتماعية بحكم عمله ، وكذلك بالنسبة لعلاقة المستشفى بالمرضى والمصابين وعائلاتهم ممن يتصل بهم الاخصائى الاجتماعى بحكم عمله أيضا ، واثر ذلك على الصورة الذهنية العامة للمستشفى . ويمكن أن تستعين ادارة العلاقات العامة بادارة الخدمة الاجتماعية فى بعض مجالات النشاط الأخرى التى تتصل باقرار السياسات والبرامج الخاصة بالمرضى والمصابين وأقاربهم بالاضافة الى تبادل الرأى فيما يتصل بالرسالة التفصيلية التى يجب توصيلها عن طريق وسائل الاعلام المختلفة الى جمهور المرضى والزائرين وأقاربهم .

وواضح أن برامج العلاقة مع المرضى والمصابين وأقاربهم هى من أهم البرامج التى تحتاج الى خدمات الاخصائى الاجتماعى ، خاصة وأن جهوده لا تقتصر على دراسة بعض الحالات التى تحول اليه ولكنه مطالب بالبحث وراء الحالات التى تحتاج الى رعاية اجتماعية ، مما يتطلب منه الحصول على أقصى معلومات ممكنة عن كل الحالات الوافدة على المستشفى كما سبق أن ذكرنا .

وعموما يمكن تقسيم ما يطلبه المريض والمصاب من المستشفى الى نوعين أساسيين من ألوان الرعاية هما : الرعاية الملموسة والرعاية غير الملموسة ، وأعتقد أن الاخصائى الاجتماعى هو أكثر العاملين فهما لكل ما يتعلق بألوان الرعاية غير الملموسة أو المحسوسة Intangible كما يقوم بدوره فى تحقيق بعض ألوان الرعاية الملموسة .

الرعاية الملموسة وغير الملموسة :

يحتاج المريض والمصاب الى نوعين من الرعاية هما الرعايـــة الملموسة والرعاية غير الملموسة .

وقد تتمثل ألوان الرعاية الملموسة التي يحتاجها المريض فى توافر ما يلى :

(ا) أحسن التخصصات فى مجالات مثل الطب والتمريض والتغذيةوالخدمة الاجتماعيـــة .

(ب) الأجهزة والمعدات والمستلزمات الطبية المستحدثة فى المستشفى .

(ج) الدواء والطعام النظيف بشكل فاتح للشهية .

(د) المبانى أو الانشاءات المستحدثة المجهزة بكل جديد يساعد على راحة المريض مثل الحوائط المـــانعة للصوتوالأرضية المفروشةبالبلاستيك والاسرة الاتوماتيكية المستحدثة والاضاءة المريحـــة والنوافذ التى تسمح بدخول الهواء النقى وأشعة الشمس وما الى ذلك .

(هـ) النظافة فى الأقسام العلاجيـــة والممرات والمفروشات والأغطية وكل ما يصل اليه .

(و) الصـــيانة الفورية والوقائية Preventive maintenance لـــكل الأجهزة والمعدات والأدوات والمستلزمات المتداولة فى المستشفى .

(ز) وسائل التسلية التى تســـاعد المريض على قطـــع الملل وعلى مرور ساعات الليل والنهار فى غير قلـــق ولا ازعاج .

(ح) التأهيل المناسب لبعض الأمراض المزمنـــة ولذوى العاهات .

(ط) كل ما يساعده باستمرار على الانتقـــال الى مستويات أفضـــل من الرعاية الطبية تمهيدا لانتقاله الى الحياة العادية .

أما الوان الرعاية غير الملموسة فيمكن أن تتمثل فيما يلى :

(ا) المستوى الذى يرضى عنـــه المريض من الرعاية الطبية .

(ب) توافر الهدوء المناسب والراحة المناسبة والاستقرار الذهنىالمناسب للمريض والمصاب .

(جـ) الطريقـــة المناسبة لتناول المريض لمـــا قرر له من دواء .

(د) الالوان المرغوب فيها للمفروشات وللحوائط والنوافذ .

(هـ) الجهود المطلوبة من العـــاملين ـــ كل فى تخصصه ـــ التى يرضى عنها المريض .

(و) المواعيـــد المناسبة لتقديم الغـــــذاء واجراء الكشف الدورى الذى يفضله المريض .

(ز) أيام الزيارات ومواعيدها التى تناسب المريض .

ويضاف الى ما تقـــدم حاجة المريض والمصاب الى توافر درجـــة الرضا عن حالته وحالة ذويه المـــادية والاجتماعيـــة أثناء تواجده فى المستشفى ، وهـــو عمل يتطلب جهودا من الاخصائى الاجتماعى بالنســـبة لبعض الحالات التى تحتـــاج الى هذه الرعاية ، وفى حـــــدود الامكانيات المتاحة .

ومن ناحيـــة أخرى قد يقـــوم الاخصائى الاجتماعى مثلا بلفت نظـــــر رئيسة التمريض الى جهود احدى الممرضات التى أضاعت كل ساعات عملهـــا اليـــومى فى رعاية حـــالة مرضية معينة أو مصاب معين بشـــكل شغلها عن اداء واجباتها الأخرى . فهو الشخص الذى يستطيع أن يرشد الى ألوان الرعاية الرقيقـــة Teuder care التى قدمتها احـــدى العـــــاملات فى جهـــاز التمريض وتستحق عليها الثناء والمكافأة ، فقـــد يغيب عن رئيسة التمريض هذا التقـــدير فى زحمة العمل .

وقياسا على ذلك يمكن أن يقـــوم الاخصائى الاجتماعى أيضا بتنبيـــه كل التخصصات التى تتصل بالمريض أو تتعـــامل معـــه الى الأخطـــاء فى طريقـــة اتصالهم أو تعـــاملهم مع المريض . فقـــد يقوم أحـــد العـــاملين بتصرف معين قد يؤلم المريض وهـــو لا يدرك أن ما فعله سيؤثر على المريض بشـــكل مباشر أو غير مباشر ، فمرور ســـنوات العمل قد تقلب بعض تصرفات العـــاملين فى المستشفيات الى نوع من العـــادات التى تؤدى بطريقـــة تلقائية . ويتطلب الأمر تضافر نشاطى العلاقات العـــامة والخدمة الاجتماعيـــة .

وتظهر الحاجة لمثل هذا التعـــاون فى مجالات كثيرة ، فمثلا قد تلجـــأ ادارة العلاقات العـــامة الى استعمال قوائم الاستقصاء Questionnaires

للوصول الى الوان الرعاية غير الملموسة التى يحتاجها المريض والمصاب . وقد يقـوم شخص من العـاملين فى ادارة العـلاقات العامة بتوزيع الاستمارات على المرضى للاجـابة عليها ثم يمر بعـد ذلك لتجميعها ، وقد ترسل بالبريـد الى عينة من المرضى الذين خرجوا من المستشفى أو تصمم بحيث يقـوم مندوب بشرحها للمريض ثم يدون اجابتـه على الاستمارة بعد التـأكد من أنهـا الاجابة الصحيحة . ويلاحظ أن الطريقـة الأخيرة قد تلجأ اليها ادارة العلاقات العـامة خشية ألا يعبر المريض عن شـعوره بصراحة وهو أسير لحـالة المرض كما أن اجابات المريض التى تعبر عن رضائه قد تؤثر فيهـا ظروف اجتماعية أو اعتبارات خاصة بظروفه الشخصية(١) .

ولعل خير شخص يقوم بهذه المهمة هو الاخصائى الاجتماعى حيث يفترض فيه الالمـام فى صدور المرضى والمصابين من مؤثرات اجتماعية وشخصية .

وأعتقد أن قوائم الاستقصاء التى قد تستخدم فى المستشفيات والتى يرجى منها الحصول على اجابات سليمة من المرضى ، تحتـاج الى عنـاية فائقـة بصـياغة الأسئلة ، وفى هذا الشأن يمكن أن يشترك الاخصائى الاجتماعى فى صياغتها مع المسئولين فى ادارة العلاقات العامة .

ومن ناحية أخرى لو كان الاتجـاه مقصورا على تركها للمريض للاجـابة عليها أو ارسالها بالبريـد الى عينة من المرضى الذين خرجوا من المستشفى ، فان الأمر يحتـاج الى الاستعانة ببعض الطرق التى اسـتخدمت فى صـناعة التـأمين بالولايات المتحدة الأمريكيـة لتلافى أغراض العميل عن الاجابة على مثل هذه القـوائم أو على خطابات شركة التأمين ومن أمثلة هذه الطرق خطابات الهدايا(٢) Clft Letters التى ترسل للعملاء وتحمل وعدا بهدية بسـيطة اذا تمت الاجابة على ما ورد فيهـا من أسئلة ، والهـدية قد تكون فى شـكل

---

(١) زهير حنفى على ، رسالة للحصول على درجة دكتوراه الفلسـفة فى ادارة الأعمال : قياس كفاية الأداء فى المستشفيات الحـكومية مع تطبيـق خاص على قصر العينى ، كلية التجارة ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٤ ، الصفحات من ١٦ الى ٢٢

(٢) زهير حنفى على ، رسالة للحصول على درجة المـاجستير فى ادارة الأعمـال عنوانها : تسويق تأمينات الحياة الفردية فى ج.م.ع ، كلية التجارة ، جامعة القاهرة عام ١٩٦٤ ، الصفحات ٣١٩ الى ٣٣٣

حافظـــة نقود أو كتاب أو مجلة أو نشرة أو سلسلة مفـــاتيح وغير ذلك . كما يراعى فى الأســـئلة ألا تتعرض للموضوعات الشـــخصية ولا تنتهى بكلمـــة (التوقيـــع)

وان كانت مثل هذه الخطابات لم تســـتخدم بعد فى المستشفيات فان استخدامها يحتـــاج الى دراسة خاصة وبحـــوث قبل الاقدام على استخدامها. فمن المعروف أن المستشفيات نقلت عن المنشآت الاقتصادية كثيرا من التطبيقات فى مجـــال الادارة العلميـــة ، لأن الصـــــناعة أسبق من المستشفيات فى هذا الشأن .

وعموما فان مجالات الارتبـــاط والتعاون بين نشاطى العلاقات العـــامة والخـــدمة الاجتماعيـــة متعددة ومتوافرة ، الأمر الذى يحتـــاج الى تطبيـــق مبدأ وحدة التوجيـــه بين النشاطين ، وخاصة فى مجـــال تحقيـــق أقصى رعاية ممكنة للمريض والمصاب كما ســـبق أن ذكرنا .

ملاحظات أولية حول النقد الأدبى فى اليمن قبـــل ١٩٤٨

بقلم : د. عبد العزيز المقالح

فى الثلاثة فصول السابقة من هذه الدراسة قدمت نماذج للنقد الادبى فى بلادنا كما كان قبـــل عام ١٩٤٨ . كان الفصـــل الاول عن النقد الادبى فى نطاقه النظرى وكان الفصلان الثانى والثالث عن النقد التطبيقى . وقـــد اقتصر الفصلان الاخيران على ما كتبه الشهيد زيـــد الموشـــكى عن المتنبى فى « البريـــد الأدبى » وما أثارته تلك الكتابات من أصداء ، ومن ردود أفعـــال مختلفـــة شارك فيهـــا عدد من المؤسسين الأوائل للحركة الأدبيـــة فى اليمن.

والآن نعود من جديد الى تقليب الصفحات المحـــدوده التى تم العثـــور عليها من البريد الأدبى لنستوفى ما حفل به من دراسات نقـــدية ، وقبـــل أن نواصل حديثنا فى هـــذا المجـــال نتوقف قليلا لنؤكد على حقيقـــة فى غايـــة الأهمية ، وقد صارت من الحقائق البديهية ، وتلك هى أن النقد الأدبى لا يزدهر فى الفراغ ولا يأتى من العـــدم ، بمعنى أنه لابـــد أن تسبقه أو على الأقـــل ترافقـــه حركة خلـــق أدبية ناشطة لظهور طليعـــة ناقدة متذوقـــة فالنقد كما يقـــال ـــ بحـــق ـــ ليس الا اعادة خلق للعمل الادبى المخلوق أو القـــائم قبـــل ظهور العمليـــة النقدية ، أى أن النقد ـــ اذا صح التعبير ـــ ليس الا تعليقـــا ابداعيـــا بطبيعة الحال ، وقراءة عاليـــة الصوت للعمل الأدبى وهـــو تعليـــق أو قـــراءة تثرى العمل المبدع وتعطيـــه أبعـــادا قـــد لا يدركها القـــارىء الاعتيادى العـــابر .

وهذه المكانة القديمة الحديثة للنقد الأدبى تنفى المقوله القائلة بأن النقاد عالة على المبدعين وانه بدون المبدعين يموت النقـــاد ، فالنقـــد هو الاخر ابداع ، وحتى يكون كذلك لابـــد أن تكون ثقـــافة الناقد واســـعة وشاملة ، ومن الضرورى جـــدا ان يلم بجملة من الثقافات قد تكون أوسع من تلك الثقافات التى ينبغى ان يلم بهـــا المبدع نفسه ، لأنه كالصيرفى وناقد الذهب والدراهم . ومن التعريف العربى القديم للنقـــد نعرف العلاقة بين ناقـــد العملة وناقـــد القصـــيدة (نقدت الدراهم وانتقدتها اذا ميزت جيدها من ديئهـــا وأخرجت زائفها (١) .

---

(١) أساس البلاغة .

واذا كان الفصل الأول من هذه الدراسة قد جاء قاصرا على الجانب النظرى فان ذلك آت من كون الحركة الأدبية فى اليمن لم تكن قد وصلت الى درجة من الابداع تثير التساؤل وتدعو الى الدرس ، وعندما بدأت الحركة الأدبية فى الظهور اشتدت الحاجة الى الناقد حتى يقيم بحاسته المنبهة هذه البدايات فى حقل الابداع . ولعل أول ما لفت انتباهى فى البريد الأدبى قصيدتان بعث بهما الشاعر أحمد الشامى من « شرعب » الى البريد الأدبى فى تعز ، والقصيدتان للشاعرين عبد الوهاب الشامى ، ومحمد أحمد الشامى ، وهما كما يقول الشاعر أحمد الشامى من أسمى الشعر وأبدعه، وقد طلب من أدباء تعز وأدباء ذمار ابداء رأيهم فى القصيدتين ، وهذه هى مقاطع من القصيدة الأولى ، وهى تقريض لديوان « النفس الأول » الذى كان الشاعر أحمد الشامى يزمع اصداره فى ذلك الحين :

أبكل قلب نابض لك موقف ؟ ! أم أنت من صور المشاعر تهتف ؟
تمشى يمكنون الضمائر كاشفا طورا تنوح لهبا وطورا تعزف
تستلهم الاسرار من وحى الهوى وتحل ألغاز الوجود وتكشف
وعرفت أهواء النفوس وميلها فاتيت كلا بالذى هى تألف
صورت نفسك فى المعانى هذه صورا يحار لها الأديب ...
حينا تخالك فى الفيافى مغربا تجتاب أجواز الفلاة وتزحف
حتى يراك السير فى بيدائها وحواك ليل مدلهم أكلف

* * *

قلبت طرفك فى السما فلم تجد الا نجوما غائرات تخسف
ووجدت نفسك فى الفلاة مشردا أعياك أن تلقى خليلا يسعف
فرأيت ملء السهل أشباح المعا نى فاغرات بالاسى تتعجرف
فتواردت الما وذما للسورى وتشاؤما بمدى يجور ويعسف
وتهكما بالناس والشعراء ان صاغوا المديح وأطنبوا وتزلفوا
وتهاونا ببقاء دنيا شأنها سلب العقول وفى النهاية تتلف

هذان المقطعان من قصيدة الشاعر محمد أحمد الشامى . وفيما يلى قصيدة الشاعر عبد الوهاب الشامى :

مؤلم فى جوانحى بات ينزو ويخفق
من شعور يؤزره وهوى ليس يرفق
وعيذون يلومه وحبيب يصدق
فى حنان من المنى عجبا كيف يحرق
وخضم من الاسى ماله ليس يغرق
والدجى خافض الجنا ح من الشهب يشفق
ليس يمضى كأنما أعوز الشمس مشرق
هيمائم بين ذاوذا ك كيأنى معلق
ساهرا أطلب الكرى غمضة وهو يمرق
فكأنى اسأته فاذا جئت يفرق
أيها الصبح لا تبن ربما أنت أغيق
باطن المرء أسود ومحياه مونق

وقد عقب الشاعر أحمد محمد الشامى على هذه القصيدة بقوله : (ولها بقية لا تزال فى دماغ الشاعر العبقرى الشاب عبد الوهاب بن محمد الشامى ، ومتى أرسلها سيكون مواصلتكم بها ، أما أنا فقد أعجبت اعجابا شديدا بهذا الشعر وأناشد عالمنا أحمد سلامة الانصاف ، ومطالعة هذه القطعة بامعان وتدبير)(١) . لكن الشاعر عبد الله يحى الديلمى لم يشارك الشاعر أحمد الشامى اعجابه بالقصيدتين وكتب عنهما يقول : (وأتحفنا بقصيدتين من نغم السيد محمد أحمد الشامى والسيد الشاب الأديب عبد الوهاب شقيق شاعرنا البليل ، الاولى للنفس الاول الذى نرجو أن نراه مطبوعا فى القريب العاجل ، والثانية فى شكوى الآلام ، واستبطاء زوال الليل ،

(١) البريد الأدبى ، مخطوطة ص ٢١

وقفى الكلام على هاتين القصيدتين بقوله انما من أسمى الشعر وأبدعه وطلب من أدباء ذمار اعلان رأيهم فى الشعر وفى الموضوع نفسه ، وغمز الاستاذ أحمد سلامة بكلمة لا تخلو من السخرية والاستهزاء ، وعرض عليه مقياس الحكم بين شاهد الفتوى (قالت بنات العم يا سلمى ونن) وبين شعر قريبه وشقيقه فحننت الى كتابة ما عن لى بعد قراءة القصيدتين ، وربما خالفت الشاعر الكبير فى رأيه وعقيدته ، وان كانت القصيدتين (هكذا) مقدستين كل التقديس ، فأرجوه ألا يمسنى بكلمة سوء ولا يذكرنى بكلمة تجريح فى البريد الأدبى ، ومما لا ريب فيه أن السيدين الشاعرين قد بلغا بشعرهما مبلغ الاعجاب والاحسان . يقولون الشعر بدواعصرية وروح غربيه ، وقد ظهر مالهما من تأثير بالشعور الغربى فى شعرهما . اظننى قد أرضيت شاعرنا بقولى هذا ، وسأغضبه حين أقول جاءت فتاة السيد محمد بن أحمد ، ولا لوم على اذا سميت الشعر بالفتاة زرقاء العينين فى جسد جميل من الألفاظ ، يدرك ذلك القارىء لأول نظرة ، فاذا أعاد النظرة الثانية نقص ذلك الرونق ، ونقص ذلك الرواء ، ويضيع كله اذا نظرها القارىء مرة ثالثة .

أظنك تطالبنى السبب فى ذلك ، وأنا لا أرى بأسا فى ابدائه ان الناظم لم يؤت بلاغة ومتانة عربيتين بقدر ما أوتى من الخيال مسايرا فى شعره الشعور الغربى رافضا للشعور العربى مبتعدا عن الحقيقة بخطوات بطيئة ، لذلك لا تكاد تسمع لنعاله خفقا . وها أنا سأتكلم عن القصيدة اجمالا ، ولا حاجة لنا بسرد أبيات القصيدة بيتا بيتا ، ففى القصيدة ما لا خير فى سرده. وأهم ما فى القصيدة هو تصويره لشاعرنا الكبير بصورتين يؤمن القارىء بواحدة ويكفر بالثانية ، أما الأولى فهى تصويره الشاعر بصورة شيخ مقتر عليه اشد التقتير ، مشردا (هكذا) فى الفلاة والبيداء ، ولا ندرى هل ذلك لحفظ نفسه وحياته وامساك رمقه أم لعدم الاسعاد بمخالطة الناس فى هذا الزمان رغم ما لشاعرنا من نعم ومتع بالحياة فى القلم الأحمدى واليك ما يقول الناظم :

حينا نخالك فى الفيافى مضربا ... تجتاب أجواب الفلاة وترجف

حتى براك السير فى بيدائها ... وحواك ليل مدلهم اكلف

ووجدت نفسك فى الفلاة مشردا ... أعياك أن تلقى خليلا يسعف

مسكين ، مسكين ، الشاعر مكتوب عليه الشقاء :

فرأيت ملء السهل اشباع المعا نى فاغرات بالاسى تتعجرف

ليس ان الاعجاب بهذه المعانى ، وهذه الالفاظ افساد للذوق ، أما البيت الرابع فيحسن القارىء انه فى حال الغرغرة من وجع السل وسرعان ما يمزق أحشاءه وتودعه الابيات المتقدمة غير أسفه عليه ، الفاظ متقلقة ، سريعا (هكذا) ما ننتقل الى رحمة الله . أما الصورة الثانية فنحن نؤمن بما قاله الناظم من الاعتراف له بالبيان والاقرار بالحكم وقد وصفه .... له خياله . ووصفه بالتوسع بما يولد ... الثرى بالخيال من الابتكار . . . والاصيلة الرائعة وذلك ما لا يجحد . ندع الكلام على هذه القصيدة وننظر الروح الحزينة فى شعر عبد الوهاب فقد جاءت تدعينا (هكذا) الى .... فى الآلام ولم ندر ما الذى ولد فيه الأوجاع .... فقد افتتح الناظم قصيدته بالشكوى حتى لا يظن القارىء أن بين جنبيه قلبا صدىء من نار ... ثم أخذ يصور ليل من ساورته الهموم ، وقد امتلأ أشجانا وآلاما . ولو أن الهموم والآلام قد لذعت فؤاد هذا الشاعر ولو مرة لعرف كيف يئن وكيف يئن سامعى (هكذا) أشعره مثله وان ما جاء فى قصيدته :

مؤلم فى جوانحى بات ينزو ويخفق

من شعور يؤزه وهوى ليس يرفق

فى خضم من الاسى ما له ليس يقرف

والدجى خافض الجنا ح من الشهب يشفق

وانا انشد الصبا ح ولا صبح يشرق

فى ظلام كأنما أعنوز الشمس مشرق

هائم بين ذا وذا ك كأنى معلق

أراح الله عنك يا سيدى عبد الوهاب ثقل الآلام ، وأشعر قلبك حلاوة الحياة ، وانى أرجو الله أن يدخل الى قلبك السرور ، ولو ساعة من ليل أو نهار ، وقبل أن أختم كلمتى أتمنى لبعض أدبائنا الذين يقلدون الشعور

الأوربى أن يبتعدوا عنه ، ويرجعوا الى سجايا العربية الغراء ، وسيكون الشعر العربى رونقا فوق رونقه ، وثراء فوق ثرائه ، وعلى الحقيقة الناصعة ....(١) ، الشاعر يقول ليرضى شعوره أولا والناس ثانيا ؛ والا فهو مقلد ينظم بلسانه ولا ينظم بوجدانه — فان دعوى التجديد ونحن لا نستحسن ولا نتذوق الا الموسيقى العربية ... بالشاعر والا ظل شاكيا باكيا اللهم ان هذا باطلا ....(٢)) .

وتطرح هذه المتابعة النقدية ثلاث قضايا فى غاية الأهمية ، ولا تزال أصداؤها تتردد حتى الآن ، أحيانا بروحها وأحيانا بلفظها وروحها ، والقضايا المطروحة هى :

أولا : التنكر السافر لروح العصر .

ثانيا : رفض التجديد فى الشعر باعتباره التجديد خروجا على الشعور العربى وتأثرا بالشعور الغربى الأوربى .

ثالثا : مشكلة الشاعر والمتلقى وهى مشكلة مثارة الآن بحدة .

والملاحظ أن الشعر الجديد بما يمثله من خروج شبه كامل على الشكل التقليدى للقصيدة العربية لم يكن قد ظهر فى ذلك الحين . كان التجديد مايزال قاصرا على بعض الصور ، وبعض المعانى وبعض المفردات ، وكانت القصيدة العربية بعامة ما تزال محافظة على وحدة الوزن ووحدة القافية. ولو تناول ناقد اليوم القصيدتين اللتين أثارتا قلق الناقد الديلمى لأثبت تقليديتهما رغم المسحة الرومانسية التى تغلف بعض المقاطع ، وفى القصيدة الثانية بصورة خاصة .

لقد اعتبر الناقد الديلمى — وهو شاعر تقليدى — مثل هذا الخروج المحدود خروجا شاملا على الروح العربية وتقليدا غير محبب للشعور الأوربى ، وأهاب بالشعراء فى حماسة ظاهرة أن ينبذوا مثل هذا النوع من الشعر وان يرجعوا الى السجايا العربية الغراء .. ما أشبه الليلة بالبارحة أو بالاصح ما أشبه البارحة بالليلة !! ، وقد طرح هذا الناقد

---

(١) نفس : المصدر ص ٣١ ، وقد وضعت النقط موضع الكلمات المفقوده .

(٢) نفسه : ص ٣٢

ولأول مرة بالنسبة لنا قضية المتلقى حين قال ان الشاعر يقول شعره ليرضى به شعوره أولا وللناس ثانيا وبما أنه قد يكتب هذا اللون الجديد من الشعر باخيلته المختلفة وبروحه المتشائمة ، فانه لن يجد من يستمع اليه .

كما آثار ناقدنا كذلك قضية تطرح لأول مرة فى واقعنا وهى قضية موسيقى الشعر واننا لا نتذوق الا الموسيقى العربية ، وكأن القصيدتين المشار اليهما قد خرجتا فى موسيقاهما عن النغمة العربية ، وهو احساس باطل ، وادراك زائف لمعنى الموسيقى العربية فأى خروج على الوزن العربى فيهما . وقد سبقت الاشارة الى أنهما يخضعان خضوعا تاما لموسيقى القصيدة الخليلية — اذا جاز التعبير — فالاولى من بحر الكامل والاخرى من مجزوء الخفيف .

واذا كان ناقدنا المبكر قد أجهد نفسه كل هذا الجهد ليثبت لنا أن محاولة التجديد تسيء الى شعرنا العربى ، ولا تنطلق من موسيقانا العربية ، وانها لن تجدا تجاوبا أو قبولا من القارىء أو المستمع العربى فقد أثبتت الأيام فساد ذلك الرأى وما توصل اليه صاحبه لأن التجديد لم يقف عند ذلك التحول المحدود فحسب بل تخطاه كذلك الى نوع من التجديد أكثر جذرية ، وهو فى كل الأحوال لم يتنكر للتراث ولا للأصالة اللغوية ، والمهم انه لم يفقد القارىء أو المستمع كما كان يظن ناقدنا سامحه الله .

ولم يتوقف ناقدنا عند هذا الحد من الحفاوة بالقديم والتنكر الجديد ، فقد عاد مرة أخرى وكتب فى البريد الأدبى مقالا بعنوان « حول القديم والحديث » أراد به أن يثبت تنقل الشعر العربى من عصر الى عصر حتى انسلم قيادته لأمير الشعراء أحمد بن على المعروف بأحمد شوقى . وعند هذا الشاعر توقف أو ينبغى أن يتوقف التجديد .

وكان العلامة الفاضل الأستاذ أحمد سلامة قد كتب منددا بالجديد وداعيا الى الأخذ بأسباب القديم ، ولكن ما كتبه أستاذنا الفاضل — للأسف — لم يكن مما اشتمل عليه الجزء الموجود من البريد الأدبى ، انه فى الجزء الأول المفقود حتى الآن والذى أرجو أن يتم العثور عليه قريبا

حتى تكتمل صورة النقد الأدبى فى ذلك الحين وقد توصلت الى معرفة ما كتبه الأستاذ الفاضل من خلال رد ذكى وتعليق معجب كتبه الشاعر ابراهيم الحضرانى تحت عنوان « قف دون رأيك فى الحياة مجاهدا » ومما جاء فيه : « طالعنا ما كتبه الأستاذ أحمد بن أحمد سلامة حول الشعر والشعراء وشهمنا ما فى على كلماته من سخرية لاذعة وتهكم مرير ، وهو يحدثنا عن روعة الأدب القديم وتفاهة الأدب الحديث ، ونحن قبل أن نتناول كلمته بما تستحقه من النقد والتحليل ... نقف معجبين بشجاعة الأستاذ وبصراحته اذ قام أمام هذه الجموع الصاخبة ، وأمام هذه الضجة الكبرى التى تهتف بالجديد . وتنتصر له . قام برفع صوته ويبدى رأيه غير محتفل ولا آبه بما سيحوم حوله ، وبما سيتوجه اليه من الحملات القاسية والضربات القاضية ..

انها لجرأة رائعة واقدام نادر من عرف الأستاذ وعرف متانة أعصابه وثبات جأشه عرف انما أبداه هو رأيه الذى يدين به ، وتتيقنه نفسه ، اى انه لم يكن من باب ما قاله أبو الطيب :

والعير يحمل من ذل على الأسد .

انه لم يكن ميزانا يوزن به الجمال الفنى ، ويعرف به جيده من رديئه ، فقد تركنا للأستاذ رأيه ونحن واثقون من أنه سيعود عما قريب واننا نحيل جوابه على السيد عبد الله (يقصد عبد الله الديلمى) الذى يقول : (ان الذ شىء فى الحياة هو كتابة طه حسين ، وشعر على محمود طه ، وكنت أحب لو أنه أضاف وصوت ام كلثوم(٥)) ..

ومن خلال الفقرة الأخيرة ندرك أن عبد الله الديلمى قد كان من أنصار الجديد ، يكفى أنه يعتقد أن ألذ شىء فى حياته هو أن يقرأ لطه حسين وهو كاتب حديث الأسلوب ، كان أسلوبه حتى ذلك الحين عرضة لهجوم خصومه من المتمسكين بالأساليب القديمة وفى طليعتهم مصطفى صادق الرافعى الذى يعتبر أسلوب طه حسين القائم على التكرار والبساطة دسيسة غربية او بالاصح استعمارية تريد أن تعبث باللغة العربية وبكتابها الخالد القرآن

---

(١) نفسه : ص ٣

الكريم(١) أما على محمود طه الشاعر الرومانسى الرقيق فليس بحاجة الى من يثبت حداثته الشعرية ، ويؤكد ما ذهبنا اليه ما كتبه أيضا الشاعر ابراهيم الحضرانى فى صفحات لاحقة من البريد الأدبى حيث يقول : (تابلنا البريد الادبى بارتياح زائد واستظرفنا كثيرا كلمة السيد عبد الله حول القديم والحديث (ليست فى الجزء الموجود من البريد الادبى) ولم ندر كيف فاته أن يسترد كثيرا من الشواهد التى تكون منها ذوق الأستاذ أحمد (يقصد أحمد سلامة) كمثل قولهم :

لقد لقيت عجبا مذ امسا عجائزا مثل السعالى خمسا

يأكلن ما فى رحلهن همسا لا ترك الله لهن ضرسا

ولا بقين الدهر الا نعسا

ومثل قولهم :

أم الحليس لعجوز شهربه ترضى من اللحم بعظم الرقبه

على أن الأستاذ أحمد لم يذهب بعيدا فهناك طائفة كبيرة من اساطين الادب الحديث لم تفسد أذواقهم العربية ، وهذا أبو الطيب علم من أعلام القديم له مكانة فى نفوس كثيرة لم يصلها أى شاعر حديث ، وهذا كلام السيد زيد يشهد بصحة ما أقول ولقد شممت فى كلمة الأستاذ أحمد شيئا من المتانة والقوه وكأنما خيل لى أن لسان حاله يقول للسيد عبد الله .

ياناطح الصخرة العظمى ليوهنها اشفق على الرأس لا تشفق على الجبل(٢)

وفى السطور الاخيرة من هذه الملاحظة العابرة للشاعر ابراهيم الحضرانى فيها ما يستحق التعقيب ، وبخاصة ما أشار اليه من أن لأبى الطيب المتنبى مكانة فى نفوس كثيرة من أدباء اليمن لم يصلها شاعر حديث ، فأبو الطيب ليس شاعرا لكل العصور فحسب ، بل ان كل الادباء المحدثين والمجددين لا يستطيعون أن يتنكروا للتراث ولعمالقته ، ولا يستطيعون كذلك أن يقيموا أدبا دون أن يرتبط بجذوره التاريخية ويمتد من خلال تلك الجذور

---

(١) مصطفى صادق الرافعى : تحت راية القرآن . المقدمة .

(٢) البريد الادبى : ص ٩

الى العصر الحديث بكل ما يحفل به من تغييرات فى المجالات الادبية والفنية . ثم ان الاعجاب بالجديد لا يمنع عن الاعجاب بالقديم فالآداب عبر العصور المتلاحقة ـ ما هى الا حلقات يكمل بعضها بعضا .

وهذا هو الشاعر أحمد محمد الشامى الذى رأينا موقفه من الجديد من خلال حماسته لشعر شقيقه عبد الوهاب ولشعر ابن عمه محمد أحمد، ها هو ذا يطالعنا فى البريد الأدبى بدراسة نقدية قصيرة جيدة عن أبى الشيص ، ومن هو أبو الشيص هذا ؟ سنترك للشاعر أحمد الشامى يحدثنا عنه فى دراسته التى بعنوان : (الشاعر المغمور) عن هذا الشاعر العربى المجيد :

(يا لها من ساعات زاهرة ، كانت ألذ من نجوى الحبيب ، وأروع من نجاءات اللقاء بعد المغيب ، وأشهى الى النفس من أمانيها ، وأنعش للقلب من ذكرياته وخواطره تلك ساعات ليال وأيام مضت ، يلتفت اليها قلبى الآن بعد أن (جرت جوار بالسعد والنحس) كما يقول شاعرنا ابو الشيص ، نعم .. تلك ساعات ليال وأيام مضت قضيتها مع بعض أصدقائى الأدباء نتناقل أطراف الحديث ، ما بين شعر رصين ، وبيان ساحر، وقصص قوى متين . . الى غير ذلك من نكات بديعة تطير بالروح فى سماء الجذل ، وتذهب عنه أصر التكلف وأغلال العادات وتطهره من أدران المجتمع البشرى .

ان ذكرى تلك الساعات ستبقى خالدة فى قلبى وفكرى لن تمتد اليها يد الزمن ولن تمحوها الأيام حتى النفس الأخير ، كم فتشنا فيها عن الحقيقة ، وكم درسنا فيها من أدب ومعارف ، وكم نقدنا فيها من شعر وشعراء ، وكم استوعبنا من نظريات للحكماء وحكم للفلاسفة ، وان أنس فلن أنسى موقفنا ذات ليلة مع شاعر من شعراء العربية الاقدمين ، نتلو شعره معجبين مكبرين لهذا النفس البيانى ولهذه الروح العربية ، ولذلك الاسلوب الذى يعز أن نجد مثله فى جسل الشعر العربى القديم أما الشاعر فأسمه محمد بن عبد الله بن رزين الذى عاصر الرشيد ومن بعده . وكان له موكز عظيم بين أدباء ذلك الجيل الذهبى القديم . ولا أدرى كم يعرف أدباؤنا عن هذا الشاعر ؟ أما أنا فلم أقرأ لأى أديب عصرى مقالا أو تعليقا أو تحليلا لشعره وتاريخ حياته ، وقد عرفته لنا الكتب القديمة

بابى الشيص ولم تبخل علينا بقطع شعرية رائعة روتها له ، وحدثتنا انه صاحبها ، كما روت بعض حوادث وقصص جميلة للشاعر تدل على ما وراءها . إن حياة الشاعر أبى الشيص انما هى وليدة ذلك العصر العباسى الذى قوامه الفن والأدب والمجون والتبتع وراء المعرفة والاستغراق فى اللذة كما سنعرف عند قراءة قصيدته النونية بعد حين . وأنت .. فقف معى عند هذه الأبيات وأحكم عليها بما بدا لك .. يقول شاعرنا :

وقف الهوى بى حيث أنت فليس لى ... متأخر عنه ولا متقدم
فاهنتنى ، فاهنت نفسى جاهدا ... ما من يهون عليك ممن أكرم
أشبهت أعدائى فصرت أحبهم ... اذ كان حظى منك حظى منهم
أجد الملامة فى هواك لذاذة ... حبا لذاكرك فليلمنى اللوم

يا لله ما أروع وقفة الهوى عند هذا الحبيب القاسى الذى أساغ لهذا الشاعر المفتون الذل والاهانة وكان حظه من أعدائه . ولكنه العدو المحبوب فماذا يصنع ؟ ليس الا أن يحب أعداءه . ولقد بلغ الهوى بالمسكين الى أن يجد الملامة فى هوان لذيذة . فليعذ له العاذلون ، وليلمه اللوام . أما حين يفضى أبو الشيص بالأمة ، ويبوح بسره ، وينفث بمكنون ضميره شاكيا باكيا . فانه يأتى بالبيان المعجز ، والغاية القصوى فى السحر البيانى وأسمعه يقول :

هذا كتاب فتى له همم ... خطت عليك رجاؤه رحمة
غل الزمان يدى عزيمته ... وهوت به من حالق قدمه
وتواكلته ذوو قرابته ... وطواه عن أكفائه عدمه
أفضى اليك بسره قلمه ... لو كان يعقله بكى قلمه

لقد أودع هذه الشكوى المرة صورا رائعة ، صورا عقلية مزدحمة يخرج منها الخيال الى خيال آخر وكلها متحركة متوثبة ، تأخذ بالقلب واللب فهذا (الرجاء الذى عطفته الرحم) وتلك (العزيمة المغلولة اليد) وهذه (القدم الهاوية من حالق) ثم ماذا ؟ أيها السادة .... ثم ما أبشع (تواكل القرابة) مع العزيز المحتاج .. وما أوهى (العدم الذى يطوى من الاكفاء) وان شئت أيها القارىء فابك مع هذا الشاعر الذى أفضى اليك بسره القلم مضطرا ، والذى (لو كان يعقله بكى قلمه) .

أما حين يستسلم لذكرى أيام الشباب وليالى الشباب وأحلام الشباب ، ويحن لذكراه ويتهلف اليه فلن تستطيع المحاجر أن تمسك دموعها أمام هذا الشيخ الفانى الذى وسمته السنون بزيب المشيب وريب الزمان انه ليسمع الغراب ينوح معه وينشد :

أشاقك والليل ملقى الجران غراب ينوح على غصن بان
اجص الجناح شديد الصياح يبكى بعينين ما تدمعان
وفى نعمات الغراب اغتراب وفى البان بين بعيد التدان
أهل لك يا عيش من رجعة بايامك المشرقات الحسان ؟
لعل الشباب وريعانه يسود ما بيض العارضان
وهيهات بالعيش من عهدنا وأغصانك المائلات الدوانى
لقد صدع الشعب ما بيننا وبينك صدع الرداء اليمانى

هل قرأت كهذا الوصف ؟ وكهذا البيان ؟ وهل شهدت الليل حين يلقى جرانه ؟ وهل سمعت الغراب الغريب الاجص الجناح الشديد الصياح الباكى بعين لا تدمع ، كيف تبكى العين بلا دمع ؟ يا رحمتاه لهذا الطائر الاجص ثم اسمعه كيف يقول حين يذكر الخمر :

وعذراء لم تفترعها السقاه ولا استامها الشرب فى بيت حان
ولا احتلبت درها أرجل ولا وسمتها بنار يدان
ولكن عزتها بألبانها ضروع تجنى بها جدولان
ولم تزل الشمس مشغولة بصبغتها فى بطون الدنان
ترشحها الأنام الرجال الى أن تصدى لها الساقيان
وطاف علينا به أحور يداه من الكأس مخضوبتان

وتأمل هذه العبارات المسبوكة التى كأنما خلقها الشاعر خلقا وأبدعها ابداعا ، وكان أول من نطق بها وأفصح من نطق بها ، وتأمل البيتين (ولم تزل الشمس) (وترشحها للأنام) واستوعب معناهما ، ثم اسمعه يقول بلوعة :

ليـــالى يحسبن لى من ســـنى ... ثمان وواحـــدة واثنتـــان
غـــلام صغير اخـــو شرة ... يطير مـــع اللهـــو بى طائران
جـــرور الأزار خليـــع العـــذا ... ر ، على لعهـــــد الصبابردتان
أصـــيب الذنـــوب ولا اتقي ... عُقـــوبة ، ما يكتـــب الكاتبـــان
فاقصرت لمـــا نهـــانى المشيب ... واقصر عن عـــذلى العـــاذلان
تنـــافس فى عيـــون الرجـــال ... ويعتدن بـــى فى الحجال الغوانى
وعافت لعـــوب واترابهـــا ... دنـــوى اليهـــا وملت مـــكانى
رأت رجـــلا وســـمته السنون ... بريب المشيب وريـــب الزمـــان
فصـــدت وقالت اخـــو شيبة ... عـــديم ، الا بئســـت الخلتـــان
فقلـــت كذلـــك من عضـــه ... من الدهـــر نابـــاه والنـــاجذان

أشهد الأدب والتاريخ انى لم أقرأ مثل هـــذا الوصف وهذا الشـــعر لشاعر من شـــعراء العربية قديمـــا وحديثا ، ولا أدرى متى سينصف التـــاريخ هـــذا الشاعر فيتحدث عنـــه النـــاس ويقفوا (هكذا) عنـــده قليـــلا .. بدلا من هذه الوقفات الطويلة عند المتنبى ومهيـــار وشوقى الذى طالمـــا وقف عندهم النـــاس قديمـــا وحديثـــا وملأوا بطون الدفـــاتر حديثا عنهم وان النفوس لتمل أحيانا ، وانها لتصبو الى الجديد (١) .

كم تمنيت وأنا أقرأ كل سطر فى هـــذا النص أن يكون صاحبـــه قـــد أخلص للأدب واتجـــه بـــكامل وعيـــه المبـــكر نجـــو النقد اذن لـــكان لنـــا منـــه ناقد كبير يبصرنا بمحاسن شـــعرنا القـــديم ومواطن الجمـــال والفن فى شعرنا الحديث ولعـــل أهم ما شدنى فى هـــذا النص النقـــدى أن صاحبه لم يســـتخدم فيه سوى الأدوات ـــ الأدبية الخالصة أى أنه لم يحـــكم على شاعره المغمور من خـــلال اية مدرسة من مدارس النقـــد الأدبى الحديث تلك التى ملأت الساحة الأدبيـــة العربيـــة والعـــالمية وكاد يضـــيع بهـــا حاضر الأدب ، ولعـــل المفاهيم أو بالأصح النظـــريات المجلوبة من خـــارج الأدب لم تكن قد شاعت فى تلك المرحلة التمهيدية من مراحل ظهور النقـــد

(١) نفس المصدر : ص ٢٩

الادبى فى بلادنا ، ولا يعنى هذا اننى اريد ان اعود بالنقد الى مراحله الأولى أو انى اريد للناقد أن يتخلى عن ثقافته المعاصرة والمامه بالمدارس النقدية المختلفة ولكنى اصبحت لا أميل كثيرا الى اغراق الدراسات الأدبية بالمصطلحات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتاريخية ، فالمادة الأدبية موضع النقد تضيع خلال الانبهار بها أو الاحتفاء لها وينسى الناقد مهمته الأصلية وهى اعادة قراءة المادة كما هى والحكم كما قيل على أدبية الادب أولا وقبل استخلاص دلالاته وابعاده النفسية أو الاجتماعية .

واستكمالا لما كنت قد بدأته من حديث عن الجديد والقديم من خلال الرؤية النقدية للجيل السابق من أدبائنا أعود — مع القارىء طبعا — لنقرأ نصا آخر يتحدث فيه صاحبه عن الجديد كما يراه أو بالاصح كما كان يراه فى منتصف الأربعينات من هذا القرن ، الكاتب هو الشاعر ابراهيم الحضرانى احد الأعمدة التى قام عليها البريد الأدبى وعنوان موضوعه « فى طريق التجديد » وهو يمهد له بحديث يعبر عن واقع الأدب اليمنى فى ذلك الحين والأسباب التى أدت الى تأخره عن الادب فى بقية الأقطار العربية الاخرى يقول ابراهيم الحضرانى : (انه قد يخفى على كثير من الناس السبب الذى من أجله تأخر الأدب اليمنى وعجز عن مباراة ادب الأمم الاخرى . وقد يظن لأول وهلة أن السبب فى ذلك هو تأخر الحياة اليمنية وخمولها وما يسود جوها من البؤس الشديد والشقاء الدائم . أجل ليس ذلك هو السبب فقد تكون حياة البؤس والشقاء مصدرا من مصادر الالهام والاجادة وهل عاش « فرلين » و « راميو » من أدباء الغرب و « المعرى » و « ابن الرومى » من أدباء الشرق نعم فهل عاش هؤلاء الا فى أحضان البؤس وفى أودية التشرد والهيام وبالخصوص « فرلين » فان ترجمة حياته والوقوف على ما جرى له من المآسى يدع الأديب يتوجع له ويحزن وربما يبكى . فهل منعه ذلك من أن يكون ارخم صوت عرفه الشعر الفرنسى فى نهضته الأخيرة . وكذلك قل لى فى المعرى وصاحبه واضرابهما فان حياة الضنك والجفاف لم تحل دون تفوقهم فى الأدب وسموهم فى التفكير ، ولهذا أقول : ان سبب تأخر الأدب اليمنى هو حرص اليمنيين على التقاليد وتشبثهم بها واعتقادهم أن الخير كل الخير والنبوغ كل النبوغ هو محاكاة الاقدمين والتقليد الأعمى لهم .

ولهذا فاننا في حاجة الى من يدعو اليمنيين الى نبذ هذه العادات العتيقة واماطة هذا الرداء الأدبي الخلق ، واخفات هذا الصوت الذى يشبه وسوسة المجانين .

قل لي بربك أيها الأديب كيف يكون حكمك على رجل عاقل ذى لحية كثه وعمة كبيرة ، وكم طويل وجثة فوق ذلك ضخمة اذا وقف أمامك ، مترنما بمثل هذه الوسوسة :

شوربانى بالملوس من غير قص	اك شورى لمن على الشوربانى
راقدانى بالوصل لا تسهرانى	رق لى من نداى ومارق دانى
والمحانى شزرا وقولا « جريو(١) »	قام « بالجرم(٢) » بيننا والمجانى

انك ولا شك ستحكم عليه بفساد الذوق ان لم تحكم عليه بالجنون ، وكيف لو سمع المتنبى أو المعرى هذا الشعر أو قرأه ، عفوا أيها القارىء الكريم فانى أريد أن أصل بك الى قرارة هذه الهوة التى تدهور فيها الادب اليمنى لكى تمد اليه يدك الكريمة لتنتشله بقوة وعزيمة .

وبعد فهل نلام ان دعونا الى نبذ التقليد ؛ هل نلام اذا أسأنا الظن بكل شىء بعد ، أنبذ التقليد ايها الأديب اليمنى وشق لك طريقة فى الأدب يرضاها ذوقك ويختارها تفكيرك ، واياك أن تنظر الى شىء بعين غيرك . او تجعل لأى عقل مهما عظم سلطانا على عقلك . هذا واننا سنبقى نواصل الكتابة حول هذا الموضوع وسنشير الى العوامل المؤثرة فى تقدم الأدب او تأخره ولعلنا نصل الى وجهة يرضاها العقل ويقرها المنطق فنقف عندها ونهدف اليها ، وسنحوم فى اكثر ما نتناوله من البحوث حول الأدب اليمنى وتقدمه(٣) .

ذلك ما كتبه الشاعر ابراهيم الحضرانى فى مقاله عن التجديد ، وقد اتبعه فى مكان آخر من البريد الأدبى وتحت نفس العنوان ، وقبل أن نأتى اليه أود أن أقف قليلا لمناقشة ما أورده الشاعر الناقد من أسباب أدت الى تأخر الادب فى اليمن فهو كما رأينا لا يجعل من تأخر الحياة فى البلاد

---

(١) جريو : عريس .

(٢) الجرم : لباس من جلد الاغنام .

(٣) البريد الادبى : ص ٥٣

وخمولها سببا لذلك التأخر وقد أورد أمثلة على ذلك ما أصاب بعض الأدباء الاوروبيين والعرب من بؤس وشقاء فى العيش ، وهو تدليل خاطىء فالحياة المتخلفة فى اليمن هى التى صنعت التخلف الادبى ، والتخلف هو السبب الرئيسى لبقاء اليمن حتى وقت قريب خارج العصر فى كل المجالات ومنها المجال الثقافى . أما عن بؤس « فرلين » و «رامبو» وعن بؤس « المعرى » و « ابن الرومى » اذا صح أن المعرى كان بائسا فان التأثير فى مثل هذه الحال على التخلف العام أو بعبارة أدق على بؤس الظروف المحيطة بفرلين ورامبو فقد كان هؤلاء الشعراء يعيشون جميعافى بيئة متحضرة سواءفى بغداد أو الشام أو باريس ، ولا يكون البؤس الشخصى أو المعاناة الذاتية فى مثل هذه الأوضاع الا دافعا على الانتاج والكتابة ، والمواهب البائسة ماديا هى التى صنعت أدبا جميلا ولكن فى ظل عصور متقدمة وفى ظل أوضاع ثقافية متطورة هل يستطيع المعرى فى يمن الامام يحيى أن يكون كذلك ؟ وهل يستطيع رامبو فى ظل الثقافة الامامية المتخلفة أن يصبح شيئا يذكر ؟!

لم يكن الشاعر ابراهيم الحضرانى — اذن — موفقا فى ما ذهب اليه من أن تأخر الحياة فى البلاد لا يشكل عائقا فى سبيل التقدم الأدبى ، واذا كان قد نحى باللائمة على التقليد فان التقليد جزء من التأخر الذى كانت تعانى منه البلاد كما ان البؤس مصدر الالهام فى بلاد لا تجعل التقليد سنة وأسلوب حياة ، وقد يكون التشرد دافعا للتفوق فى ظروف اجتماعية وثقافية تتيح للمتشرد أن يسجل مشاعره وصور ماسيه ، ان العادات العتيقة جزء لا يتجزأ من حياة التخلف ومن مجتمع التأخر والآن نستطيع أن ندخل الى بقية حديث الشاعر الناقد ابراهيم الحضرانى على طريق التجديد : (تكلمنا فى البريد الاول عن انحطاط الادب اليمنى وان ذلك لم يكن الا نتيجة التقاليد والجمود عليها والتشبث بها ، وقلنا ان تأخر الحياة المادية ليس لها اثر كبير فى تأخر الأديب فان للشاعر والأديب فى اى أمة من الامم ، وفى عصر من العصور دنيا غير دنيا الناس .. وحياة لا تتفق مع حياتهم ، واليومنتحدث عن شىء قد يراه الكثير سببا لتأخر الأدب اليمنى وخموله وركاكته وهذا الشىء هو عدم الصحافة والمطابع ، وانه قد يكون لذلك اثر فى ضآلة المنتوج الأدبى وفى تزاحى الهمم وضعف العزائم . ولكن ما يدرينا أيها القراء الكرام أن عدم المطابع والصحف قد يكون سببا

لنضوج الفكر ورصانة الأدب وقد يكون الدواء الوحيد لمرض الشهرة المبكرة والغرور الممقوت . اذا فلا يعوقنا عدم الصحافة عن أن نحلق فى أفق الأدب الرفيع ونحوم حول ورده الصافى العذب وعن الاتيان بالروائع والمعجزات .

ولماذا نطيل القول ونكثر التدليل وهذه حياة عباقرتنا الخالدين أمثال المتنبى والمعرى والشريف الرضى وغيرهم أقوى دليل وأعظم برهان . . . يسادتى: هل فى الادراك اليمنى استعداد للتعمق والغوص الى بعيد ، أم أنه ادراك محدود ، ونظر قريب ، لا يتعدى ما يحيط به من المرئيات . أى أنه لا يمتاز عن مدارك الزنوج والبربر ؟ كلا ؟ فأنا لا أعتقد أن هنالك عقلا يضاهى العقل اليمنى فى اتزانه وعمقه واحاطته لو وجد من يوجهه الى الطرق القويمة ويدله على الجديد ونبذ التقاليد(١) .

عجيب أمر شاعرنا وناقدنا الحضرانى ، كيف يتصور فى القرن العشرين أن الأدب يمكن أن يتطور ويزدهر أو ينفض عنه غبار الخمول والركاكة ، وكيف له فى واقع ليس فيه صحيفة ولا مجلة ولا مطبعة أن ينتصر على التقليد ؟ وهل يستطيع شاعر فى ظروف تغيب فيها كل مقومات الثقافة وكل أساليب الحياة الجديدة أن يكتب شعرا جديدا خاليا من التقليد ؟ وهل صحيح أنه كان فى امكان أدباء وشعراء اليمن فى غياب المطابع والصحف أن يخلقوا أدبا فيه نضوج الفكر ورصانة الأدب ؟

لا أشك أن ناقدنا وشاعرنا الحضرانى كان يسخر من ظروف التخلف بطريقته الخاصة ، والا فكيف يأتى شاعر بالروائع المعجزات فى وضع لا يجد فيه الأديب صحيفة يكتب فيها أو ينشر عليها نبات أفكاره فاضطر الى بريد خطى يتناقله الأدباء سرا كما يتناقلون المنشورات السرية ؟ انا مع الشاعر ابراهيم الحضرانى فى دعوته للجديد وفى هجومه المبكر على التقليد ولكننى لست معه فى أن الاوضاع المتأخرة تستطيع أن تخلق أدبا جديدا .

ومن هذه اللقطات النقدية المبكرة يتضح النهج النقدى الذى يسير عليه عدد من ادبائنا فى فهم النصوص الأدبية ونقدها ، وفى البحث عن الجديد

---

(١) نفس المصدر : ص ٥٦

أو التمسك بالقـــديم . ويلاحظ الأول وهلة غيـــاب المنهج الواضـــح فيما يكتب من نقد ، لكن غياب المنهج لم يمنع أن يكون بعض النتاج النقدى لهذه الفتـــرة على قـــدر كبير من الموضوعيـــة التى هى عماد الابداع النقدى كما أن الجدة واضحة فى بعض هذا الانتـــاج ، وبعض نقادنا كانوا يلتقون فى أســـاليب تفسيرهم الأدبى لبعض النصوص مع زملائهم خـــارج اليمن ، وكانوا مثـــل هؤلاء يعتمدون الذوق الخاص وسيلة لاستجلاء عالم النص والاحاطة بأبعـــاده الموضوعية والفنية ذلك تعليـــق عابر على الملاحظات أو الخواطر النقـــدية فى اليمن قبل عام ١٩٤٨ ، وهى ملاحظات أو خواطر جديرة بالدرس لمـــا تعبر عنه من احساس بضرورة تغيير الاساليب التقليديةفى طرائق النقد التطبيقى . ولما تبشر به من أثر العصر على الأدب فى اليمن عند قرب نهـــاية النصف الأول من هذا القرن العشرين .

من جهود علمـــاء اليمن فى علوم العربية « المناهل الصافية »

للعلامة لطف الله بن الغياث « القرن الحادى عشر الهجرى »

بقلم : الدكتور عبد الرحمن محمد شاهين
الاستاذ المساعد بآداب صنعاء

تمهيد فى مؤلفات علماء اليمن فى النحو والصرف :

لعلماء اليمن دور كبير فى بنـــاء صرح الحضارة العربية الاسلامية بما بذلوا من جهود علميـــة ، وما قدموا من انتـــاج فكرى شمل جوانب هذه الحضارة ، فكان منهم المؤرخون وعلمـــاء التفسير والحديث والأدب واللغة والنحو والصرف وغير ذلك .. وقد كانت عنـــاية هؤلاء العلمـــاء بالنحو والصرف فائقـــة ، فمنهم من عنى بالتأليف فيهما ، ومنهم من عنى بشرح مؤلفات مختصرة ســـبقت لغيرهم .

ومن الكتب المؤلفة : (مختصر ابن عبـــاد فى النحو) للحسن بن اسحاق ابن عبـــاد ، وكان امام عصره فى هذا الفن ، وعلى يده نبغ اكثر أهل اليمن فيه ، وكانت وفاته على رأس الخمسمائة ، ويعد كتـــابه من الكتب المعتنى بهـــا عند اهل اليمن ، واستعمل فى التدريس مدة من الزمن ، قال أهل العلم : «وعليه يأخذ الطلبة فى النحو فلا يستفتحون الا به » .

وفى القرن السادس الهجرى ظهر محمد بن يحيى الزبيدى الذى ولد فى زبيد سنة ٤٦٠ هـ واستقر فى بغـــداد حتى توفى بهـــا سنة ٥٥٥ هـ ومن كتبه : مقدمة فى النحو ، ومنار الاقتضاب فى النحو أيضا .

وفى القرن السادس الهجرى أيضا وضع على بن سليمان بن تميم الحارثى المعروف بابن حيدرة (المتوفى سنة ٥٥٩ هـ) كتابه المشهور : « كشف المشكل فى النحو » فكان له منزلة وقبول عند اهل العلم ، وله تصانيف أخرى فى مجـــال هذا الفن .

وقد حفل القرن السابع بعدد ليس بالقليل من هؤلاء العلمـــاء نذكر منهم على سبيل المثال :

جمهور بن على بن جمهور ، وله : المذاكرة العربية فى النحو ، ومحمد بن على ابن يعيش(١) (المتوفى سنة ٦٨٠ هـ) الذى الف فى النحو عدة مصنفات منها : التهذيب ، الياقوته ، وشرح المفصل للزمخشرى .

وقد كان كتاب (المفصل) للزمخشرى ذا مكانة عند علماء النحو اليمنيين فشرحه عدد ، منهم :

ابن يعيش الذى سبق ذكره ، والعصيفرى الفضل بن أبى السعد ، وأبو القاسم محمد بن أبى القاسم ، وعلى بن محمد بن هطيل ، والامام المهدى أحمد بن يحيى المرتضى .

كذلك كانت (الكافية)لابن الحاجب من كتب النحو التى اشتهرت بين علماء اليمن ، فكثرت شروحها ، وكان ممن شرحها :

العلامة العصيفرى ، والعلامة محمد بن حمزة بن أبى النجم (المتوفى سنة ٦٥٦ هـ) فى كتابه : (المسالك) ، والعلامة على بن محمد أبى القاسم (المتوفى سنة ٨٣٧ هـ) فى كتابه : البرود الصافية والعقود الضافية ، والعلامة أحمد بن داود الخالدى فى : تحفة الراغب ، والعلامة الحسن بن أحمد الجلال (المتوفى سنة ١٠٨٤ هـ) وعنوان شرحه : المواهب الوافية بمرادات طالب الكافية .

أما (شافية) ابن الحاجب فى علم التصريف ، فقد كان لها اثر كبير ، ومنزلة رفيعة عند اهل العلم باليمن ، مما دعا الكثيرين منهم الى شرحها والتعليق عليها .. اجل لقد حظيت الشافية بجهود عدد غير قليل من علماء اليمن ، ما بين ناظم لها ، أو شارح معلق عليها .

فكان ممن نظمها : أحمد بن محمد لقمان (المتوفى سنة ١٠٣٩ هـ) وحسين ابن حسن الحوثى (المتوفى سنة ١١٥٠ هـ) وحسين بن يحيى الديلمى (المتوفى سنة ١٢٤٩ هـ) ومحمد بن أحمد بن قاسم حميد الدين (المتوفى سنة ١٣٥٩ هـ) .

وكان من شراحها : اسماعيل بن أحمد النجرانى (المتوفى سنة ٧٩٤ هـ) ويسمى شرحه : الأسرار الشافية فى كشف معانى الشافية ، وأحمد بن يحيى

---

(١) ابن يعيش اليمنى هذا غير سميه ابن يعيش الذى عاش متنقلا بين حلب ودمشق وبغداد ، واشتهر كتابه (شرح المفصل) للزمخشرى ايضا .

حابس (المتوفى سنة ١٠٦١ هـ) ومحمد بن صالح حريوة (المتوفى سنة ١٢٤١هـ) ولطف الله بن محمد الغياث الظفيرى (المتوفى سنة ١٠٣٥ هـ) صاحب (المناهل الصافية لذوى العقـــول الصادية الى كشف معانى الشافية) وهو ما نعنى ببحثه وتفصيل القول فيه .

تعريف بالعلامة لطف الله بن الغياث :

هو لطف الله بن محمد الغياث الحجاجى المعـــروف بالظفيرى من العلماء المحققين ، ولد فى ٢٨ من شهر ربيع الأول سنة ٩٧٨ هـ ورحل الى مكة وأخـــذ عن علمائها ، وهو من العلمـــاء المتبحرين فى علوم العربيـــة وفى مقدمتها : النحو والصرف ، وكانت وفاته فى ظفير حجة (محل ولادته) فى شهر رجب سنة ١٠٣٥ هـ — ١٦٢٦ م .

وقد عاش العلامة لطف الله فى أواخر القرن العـــاشر الهجرى وأوائل القرن الحادى عشر ، وفى هذين القرنين كثرت المؤلفـــات اليمنية فى مجالات العلم المتـــاحة ، ولم تختلف مناهج تلك المؤلفـــات وأساليبها عما سبقها ، وان امتـــازت بالسعة والشمول ، وقد كانت للطف الله مصنفات عديدة تناولت اهتمامات علمـــاء اليمن فى الفترة التى عاشها ، ومن ذلك : فى علم الـــكلام : شرح خطبة الأساس لعقائد الأكياس(١) للامام القاسم بن محمد .

وفى علم الفقه : مختصر فى الفقه(٢) لخصه من كتـــاب الأزهار مع زيادة . والجوزة فى الفرائض(٣) .

وفى علم التصوف : رياضة الصبيان وهو مخطوط(٤) .

وفى علوم البلاغة : الايجاز فى المعـــانى والبيان(٥) لخصـــه من التلخيص للقزوينى .

---

(١) مخطوط بجامع المكتبة الغربية بصنعاء تحت رقم ٧٥ مجاميع .
(٢) مخطوط بجامع المكتبة الغربية تحت رقم ٢٩٧ فقه .
(٣) الأعلام ١٠٧/٦
(٤) بالأمبروزيانا ٢٠٢
(٥) مخطوط بجامع المكتبة الغربية بصنعاء تحت رقم ٢٩٧ فقه .

ونفحات الاسحار(١) مختصر السعد .

وفى علم النحو : شرح الكافية (لم يستكمل(٢)) .

وفى علم التصريف : « المناهل الصافية(٣) لذوى العقول الصافية الى كشف معانى الشافية » وهو ما نحن بصدد الحديث عنه .

كتاب المناهل الصافية :

ألف لطف الله هذا الشرح سنة ١٠٢٦ هـ وأول مخطوط له سنة ١٠٢٩ هـ بجامع المكتبة الغربية ، وقد اشتغل به طلبة العلم منذ عصره الى الآن ، كما نال اعجاب الكثيرين من أهل العلم واستحسانهم ، فأشادوا به ، وقالوا فى تقريظه ومدح صاحبه أشعارا .. يقول الفقيه مظهر بن على النعمان التهامى فى مدح المناهل :

هذى المناهل ليت شعرى ما هى ... جلت عن التشبيه بالأمواه
وتنزهت عن خمرة من كرمة ... وتنزهت عن خمرة الأفواه
تصنيف سيدنا النبيه العالم الـ ... علم التقى الزاهد الأواه
شيخ المشايخ قدوة العلماء بحـ ... ر العلم طود العلم لطف الله

ويقول القاضى محمد بن ابراهيم السحولى فى مدحها أيضا :

يا من الى الصرف داعيه على عجل ... دعا فلبـاه قبل الركب والابل
أقصد مناهل لطف الله سيدنا الـ ... علامة الجبل المشهور فى الجبل
ابن الغياث غياث الواردين الى ... مناهل العلم فى عل وفى نهل
كم من عليل سقينا من مناهله ... بنهله من غدير الخمر والعسل
لله همة لطف الله كم لطفت ... لطائف منه فى علم وفى عمل

---

(١) مخطوط سنة ١١٠٤ بالأصفية تحت رقم ٨٨ بلاغة .

(٢) مصادر الفكر العربى الاسلامى فى اليمن ص ٣٨٣ ، ٣٨٤

(٣) وهو مخطوط تحت رقم ٢ صرف ، وله نسخة أخرى مخطوطة سنة ١٠٥١ هـ بدار الكتب اليمنية تحت رقم ١٠ صرف ، ونسخ أخرى متعددة والمخطوطة التى اعتمدت عليها كتب فى آخرها : « وكان الفراغ من رقمه بعد عصر يوم الأحد سنة ١٣٤٤ هـ أربع وأربعين وثلاثمائة وألف هجرية » وعدد صفحاتها ثلاثمائة وثمان وثمانون .

ويقارن العلامة عبد الله بن على الوزير بين شرحى لطف الله وعصام الدين للشافية فيقـــول :

للـــه شافية التصريف كـــم صبرت على الجفـــاء وقالت قـــول محتسب

اذا جفـــانى عصام الدين قلـــت له هذا امتحان ولطف الله أشفق بى

والحق يقـــال ان هـــذا الشرح يعد من خير ما ألف فى عصره فى هـــذا العلم ، لمـــا امتازت به بعض بحوثه واتجاهاته من ابتـــكار ، بالاضافة الى اتساعه فى التحليل ، وغزارته فى الاستشهاد والتمثيل .

وقد قام شرح « المناهل الصافية » أساسا على « شافية » ابن الحاجب ، لكن يمكن اعتباره كتابا كبيرا فى هذا العلم لأنه شمل جوانب صرفية ونحويـــة ولغوية وأدبيـــة ... كما ألزم لطف الله نفسه فى هـــذا الشرح باتجـــاهات واضـــحة ومحددة ، فشرح مشـــكل التصريف ، وأوضح مجمله ، وأتبـــع كل مسألة بما ورد فيها من أقـــوال علمـــاء التصريف وعللهم دون اسراف ، كما أتبع شرحه فى كثير من المسائل بشرح لغويات التصريف وشواهده ، واستعان فى ذلك كله بما ألفه الأئمة السابقون فى هـــذا العـــلم ، من أمثال : الخليل وسيبويه والكسائى والمبرد وابن جنى والزمخشرى وابن يعيش والرضى وغيرهم ....

المباحث التى تضمنتها « المناهل الصافية » :

اشتملت شافية ابن الحاجب ـــ كما هو معلوم ـــ على معظم أبواب علم التصريف وجـــاء شرحها « المناهل الصافية » متمشيا مع منهجها ، ومتمما لكثير من القضايا التى تناولتها ، وقد جاءت أبواب التصريف الرئيسة فى شرح « المناهل الصافية » على النحو الآتى :

ـــ مقدمة فى تعريف التصريف .

ـــ الميزان الصرفى للكلمة العربية .

ـــ القلب المكانى وما يعرف به فى كل من الأسماء والأفعال .

ـــ تقسيم الاسم والفعل الى صحيح ومعتل ، وأنواع كل منها .

ـــ ابنية مجرد الاسماء الثلاثية والرباعية .

— أبنية الأفعال المجردة والمزيدة .

— الالحاق : معناه — تطبيقاته فى الأسماء والأفعال .

— معانى الأفعال الأصلية والمزيد فيها — تصريف المضارع من الماضى .

— المصدر — اسما الزمان والمكان — اسم الآلة .

— مبحث التصغير .

— مبحث النسب .

— مبحث جمع التكسير .

— مبحث التقاء الساكنين — الابتداء — الوقف .

— مبحث المقصور والممدود .

— مبحث الزيادة .

— مبحث الامالة .

— مبحث تخفيف الهمزة .

— مبحث الاعلال .

— مبحث الابدال .

— مبحث الادغام .

— مبحث الحذف .

— مسائل التمرين .

— مقدمة الخط .

تلك موضوعات التصريف الرئيسة التى تناولتها « المناهل الصافية » اما كيفية هذا التناول والمنهاج الذى سارت عليه فذلك ما نوجه اليه عنايتنا فيما بقى من هذه الدراسة .

منهج المناهل الصافية :

قبل أن نناقش موقف « لطف الله » فى شرحه من قضايا القياس والتعليل، ونظرته الى تعدد الآراء فى مسائل التصريف .. نبدأ بالحديث عن لغة هذا الشرح ، وطريقة تأليفه ، ثم ننتقل الى بيان موقفه من قضايا القياس والتعليل وغير ذلك ..

أولا ــ لغة الشرح :

تتفاوت كتب التصريف فى سلاسة لغتها ، ووضوح مرادها ، واستقامة خطتها ، ونصيب « المناهل » من هذه المزايا وفير . .

فأما من ناحية لغة الشرح فقد سلك المؤلف مسلك التيسير واعتمد فى كثير من الأحيان على الأمثلة يذكرها لتوضيح مسائل التصريف وقضاياه ، فعندما تذكر (الشافية) أمثلة القلب المكانى موجزة ، فان (المناهل) تتبع كل مثال بالتحليل والبيان والايضاح ، مع الاستعانة بالأمثلة المتعددة ، وفى عبارة تنبىء عن حذق ودراية بمادة العلم ، يقول صاحب الشافية : ان من دلائل (القلب المكانى) وعلاماته فى الكلمة العربية (أمثلة اشتقاقه) ويكتفى بمثل هذه الاشارة العابرة للموضوع مع النص على بعض الأمثلة ، يقول : « وبأمثلة اشتقاقه كالجاه والحادى والقسى » .

ويعقب صاحب المناهل على كل لفظة من هذه العبارة ببيان يزيل كل ابهام ، وبأسلوب يتسم ببساطة العرض ووضوحه ، فيقول :(١) (وبأمثلة اشتقاقه) أى يعرف القلب أيضا بالكلمات المشتقة مما اشتق منه المقلوب (كالجاه) فان : توجه وأوجهته والوجاهة ووجه ووجهة مشتقة من الوجه ، فيكون الجاه أيضا مشتقا منه وأصله : وجه ، فقدمت الجيم على الواو ، ثم قلبت الواو ألفا ، قيل : لأنه لما غير بالتقديم غير بالقلب ، ولا يبعد ان يقال : انها لما قدمت الجيم على الواو حركت الجيم بالفتح لتعذر الابتداء بها ساكنة ، والفتح أخف ، وبقيت الواو مفتوحة كما كانت : فقلبت ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها ، فصار : جاه ، ليكون على وزن : حمل ، (والحادى) فى مثل قولهم : الحادى عشر أيضا مقلوب عن الواحد ، أخرت الواو التى هى فاء الكلمة الى موضع اللام ، ثم أخرت الألف التى بعدها عن الحاء التى هى عين الكلمة لعدم امكان الابتداء بها ، فصار : الحادو كالضارب ، ثم قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها ، فصار الحادى بزنة : العالف ، ويورد فى مسائل المعاياة : أى كلمة أعرابها على نائها ؟ ويجاب بالمقلوب كالحادى ، والقلب فيه عرف بأمثلة اشتقاقه ، فان التوحد والتوحيد ، والواحد مشتقة من الوحدة اشتقاق الحادى منها » .

---

(١) المناهل الصافية ــ مخطوط ص ١٨ ، ١٩

أما اللفظة الأخيرة من الأمثلة التى ساقها صاحب الشافية كمثال من أمثلة هذا النوع من القلب المكانى ، وهى (القسى) جمع قوس فان صاحب (المناهل)يتناولها على النحو الآتى(١) :

(والقسى) أيضا مما يعرف فيه القلب بأمثلة الاشتقاق ، فان الأقواس وتقوس ، واستقوس ، والتقويس مشتقة من القوس اشتقاق القسى منه ، فهو جمع قوس ، مقلوب من قووس كفلس وفلوس : جعلت اللام موضع العين ، والعين موضع اللام ، فصارت : قسوا ، ثم قلبت كل من الواوين ياء ، وأدغمت الأولى فى الثانية ، كما هو القاعدة فى مثله — كما سيجىء — وكسرت السين لتناسب الياء ، وأما القاف فيجوز كسرها للاتباع ، وضمها على الأصل ، فصار : قسى بزنة : فلوع .

وهكذا تعرض (المناهل) قضايا التصريف المبهمة بهذه الصورة الميسرة القائمة على ايضاح ما أجمله صاحب (الشافية) بعبارة مبسوطة تعتمد على سرد الأمثلة ، وتهتم بالمقارنة التى تدعم التحليل ، وتنتهى بالشرح الى تحقيق أهدافه ، حيث يتضح ما يراد بالقلب المكانى فى الكلمة العربية ، كما تتضح الأمثلة التى ساقها صاحب متن الشافية .. ولا ينسى الشارح فى أثناء عرضه ان يلفت النظر الى أن لفظه (الحادى) مما يأتى فى مسائل الألغاز والأحاجى النحوية ، وذلك حيث يقول : ويورد فى مسائل المعاياة : أى كلمة اعرابها على فائها ؟ ويجاب بالمقلوب كالحادى .!. صحيح انهما مسألة هامشية ، ولكنها فى الوقت نفسه من الطرائف التى جاءت فى وقتها المناسب ، للتخفيف من حدة التحليل العلمى ، كما تدعم الفكرة التى يدير حديثه حولها ، ويحرص على ايضاح مضمونها ..

ثانيا : طريقة المناهل فى عرض قضايا التصريف :

لا نكون مبالغين اذا قلنا ان الأمثلة تكثر كلما عرضنا نماذج من هذا الشرح الشيق لمسائل التصريف ، ذلك أنه يلجأ — أحيانا — الى أسلوب الحوار فى عرض تلك المسائل ، وهو أسلوب مثالى يساعد على التقليل من جفاف المادة وصعوبة ما تتناوله ، يقول بعد عبارة الشافية (وشذ

---

(١) المناهل — مخطوط ص ٢٠

رحبتك الدار) فيما جـاء من الأفعـال على (فعل) مضموم العين متعديا(١) : هذا جواب عن سؤال تقـديره : أنه قد جـاء متعديا فى قولهم : رحبتك الدار، فلا يصح قولك : كان لازما ، فأجاب بأنه شاذ مخالف للقياس ، ووجهه مع الشذوذ : أنه نزع منـه الخافض ، وأوصل الفعل فلا يكون فى الحقيقـة من المتعدى .

وفى مبحث (التصغير) يذكر ابن الحاجب بعض الامثلة لمـا وضع فى الاصل مصغرا ، فيقـول :(٢) .

(ونحو : جميل وكعيت لطائرين ، وكميت للفرس موضوع على التصغير) ويعقب لطف الله على هذه الأمثلة بقـوله : كأن هذا جواب عن سؤال مقدر ، وتقديره أن يقـال : ان هذه مصغرات لا يظهر للتقليـل فيها معنى ، وقيد ذكرت أن التصغير يدل على التقليل ! فأجاب : بأن التصغير المفيـد للتقليل هو التصغير الطارىء على المكبر ، وأما ما ذكر فهو موضـوع على التصـغير ولا مكبر له ، فليس مما نحن فيـه ، وانما نطقوا بأسماء الطير المذكـورة مصغرة ، لأنهـا عندهم مستصغرة ، والصغر من لوازمها ، فوضعوا الالفاظ على التصغير ، ولم تستعمل مكبراتها ... » .

ومن خلال ما سبق عرضه من أمثلة ونماذج نستطيع أن نقرر فى اطمئنان أن الطريقـة التى سار عليهـا لطف الله فى هـذا الشرح تكشف عن أسلوبه المبتكر فى عرض قضايا التصريف ومناقشتها ، مما يدل على تمكن فى الـمـادة ، واستقامة فى المنهج ، وحرص على تذليل الأساليب التى تعرض بهـا مسائل التصريف ومباحثـه ..

ثالثا ــ التفصيل بعة الاجمال :

غنى عن البيـان الاشادة بدور لطف الله فى تفصيل ما أجمله ابن الحاجب، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تذكر ، وهـذا نموذج من شرح (المنـاهل) وتفصيلها لحركة كل من (الفاء) و (العين) فى ماضى الفعل الأجوف عنـد

---

(١) المناهل ــ مخطوط ص ٥٣ ، ٥٤

(٢) المناهل ــ مخطوط ص ١٠٩

اسناده ، يقـــول ابن الحاجب فى ذلك مجملا(١) : « وأما باب سدته فالصحيح أن الضم فيه لبيـــان بنات الواو ، لا للنقل ، وكذا باب بعتـــه ، وراعوا فى باب خفت بيـــان البنية » .

ويقـــول لطف الله بعد شرح العبارة السابقـــة وتحليل أمثلتها(٢) : وتوضيح الكلام فى المقـــام على مقتضى ما ذكره المصنف أن (الأجوف) اما : واوى أو يائى ، وعلى كل تقـــدير اما أن يكون : مفتوح العين أو مكسورها أو مضمومها ، صارت ستة أقسام ، لكن لم يأت من الأجوف اليائى على فعـــل الا هيؤ لكن ياؤه لم تعل ، بل بقيت على حالها ، فيسند الى ظاهر أو مضمر ، كما يسند : شرف من غير تغيير ، فبقيت خمسة أقسام : فعل (الواوى) كسود و (اليائى) كبيع ، وفعل (الواوى) كخوف ، و (اليائى) كهيب ، وفعـــل (الواوى) كطول ، فوجب قلب حرف العلة فيها ألفا لتحركه وانفتاح ما قبله ، فاذا أســـند شىء منها الى غير الضمير المذكـــور نحو : ساد أو باع أو خـــاف أو هاب أو طال زيد ، لم يمكن حينئذ التنبيه على بنية ولا على واو ولا على ياء ، لأن الألف موجودة ، وما قبل الالف لا يكون الا مفتوحا ، وان أســـند الى الضمير المذكور وجب حذف الألف لالتقـــاء الساكنين ، فيمكن فيها تحريك الفـــاء بغير الفتحة ، وحينئذ أمكن فيما عينه (مكسورة) أو (مضمومة) التنبيه لتخالف حركتى العين والفـــاء بتحريك الفـــاء بحركة العين ، فيجب التنبيه عليها ، فالكسرة فى : خفت وهبت ، والضمة فى : طلت لبيانها من غير نظر الى واو ولا يـــاء ، وأما ما عينه (مفتوحة) فلا يمكن التنبيه فيه على البنية ، اذ التنبيه انما يحصل بحـــركة العين ، وهى هنـــا مجانســـة لحركة الفـــاء ، فلا يحصل بهـــا تنبيه على البنية ، لكنه يمكن التنبيه على أنـــه واوى أو يائى باجتلاب الضم فى نحو : سدت ، والكسر فى : بعت ، فوجب المصير اليـــه مراعاة لما تقتضيه الحـــكمة بقـــدر الامكان » .

وهكذا ندرك من خلال عرضنا لعبارة ابن الحاجب الموجزة الغامضة ، وما عقب به صاحب المناهل فى اســـهاب ، ما سبقت الاشارة اليه من أن لطف الله قـــام بالشرح والايضاح ، أى بالتفصيل بعد الاجمال لكثير من قضايا

---

(١) المناهل ـــ مخطوط ص ٥٥

(٢) المناهل ـــ مخطوط ص ٥٦ ، ٥٧

التصريف فى عبـــارة ميسرة ، تقـــوم على أساس فكرى مرتب مدعوم بالأمثلة ، ومقدر فيه موضع كل مثال ، سواء قبل الاسناد الى الضمائر أو بعـــــده . .

رابعا ــ الدقة فى عرض مسائل التصريف :

أما جانب الدقـــة فى عرض مسائل التصريف ، فقـــد كان سمة بارزة فى شرح (المناهل) وان دل ذلك على شىء . فانما يـــدل على ســـعة اطلاع من يضطلع بمثل هذه المهمة العلمية ، وقـــدرته على عقـــد الموازنـــات ، واستنباط ما تدعو الحاجة الى اضافته من مســـائل واتجـــاهات ، ففى مبحث (المصـــــادر) عند الكلام على مصدر الفعل (الربـــاعى المضعف) يقـــول صاحب الشافية (١) : (ونحو زلزل على زلزال بالفتح والكسر) وفى هـــــذه العبـــارة على اطلاقهـــا قصور يحتـــاج الى اضافة تحـــدد مصادر هذا النوع من الأفعـــال ، وذلك ما حـــدا بصاحب المناهل الى أن يقـــول فى تعقيبه على العبـــارة السابقة : « ولو قال : ونحو زلزل مثل : دحرج ، ويختص بجواز فتـــح فاء مصدره المكسور الأول ، أو نحو ذلك لكان أولى ، لايهـــام عبارته أن مصدر نحو زلزل لا تجىء فيه : فعللة ، وانما يكون على فعـــلال مكسور الفـــاء أو مفتوحها ، وفى بعض النسخ : ونحو زلزل على زلزلة وزلزال بالفتح والكسر فلا اشكال عليـــه حينئذ » .

وفى مبحث (التصغير) وبعد تفصيل القول فى أغراضه واوزانه يحرص لطف الله على أن يذكر الفرق بين الوزن (التصغيرى) والوزن (الصرفى) . فيقول بعد وزن المصغر الرباعى على (فعيعـــل) والمصـــغر الخماسى على (فعيعيل) (٢) : وقد خولف فى الوزن هنا ما سبق من اعتبار (الحروف الزائدة والأصلية) ، اذ يدخل فى فعيعل : جعيفر واكيلب وحمير ومسيجد ونحوهـــا ، وفى فعيعيل : مفيتيح وتميثيل ونحو ذلك ، ومن (ترتيبها) اذ يقـــال وزن : أو بدر تصغير الأدر : فعيعل لا أعيفل قصدا للاختصار بحصر أوزان التصغير فيما تشترك الالفاظ فيه بحسب الحركات المعينة والسكنات ، لا بحسب زيادة الحروف وأصالتها وترتيبها ... » الى أن يقـــول : فان لم يقصدوا هـــذا الحصر المذكور ، وزن كل بناء بما يليق به ، فيقال : دريهم : فعيلل وحمير : فعيل ، ومقيتل : مفيعل ، ونحو ذلك » .

---

(١) المناهل ــ مخطوط ص ٨٥ ــ ٨٦ .
(٢) المناهل ــ مخطوط ص ٩٥ .

فروق دقيقة تبدو من خلال المقارنة بين وزنى الصرف والتصغير ، وهـو أمر ينتبه اليه صاحب المناهل ويحرص على ذكره وايضاحه ، وان دل ذلك على شيء فانما يدل على دراسة واعية ، واستيعاب جيد لمباحث هذا العلم .

خامسا ــ المناهل وقضية القياس :

يطلق (القياس)في اللغة ، ويراد به : الاعتماد فى صوغ أصولها وفروعها وضوابطها ... على محاكاة الـكلام العربى الأصيل ، والقياس بهـذا المفهوم واضح الغاية ، عظيم الفائدة ، محمود العاقبة فى الدراسة اللغوية ، لأن اللغة فى ضوئه تقوى وتنهض ، وتستطيع مسايرة الحياة فى تجددها وتطورها .

وقد كان العلامة لطف الله ممن عنوا (بالقياس) فى أثناء شرحه ، وذلك عن طريق سرد الامثلة المطردة ، والاستشهاد بالنصوص القرآنية وأشعار من يحتج بهم ، ومثل هذا الاتجاه يتيح للدارسين فرصة التزود بأفصح الأساليب ، والالمام بموضوعات العلم من خلال المحاكاة العملية لما ورد عن العرب فى طرائقهم اللغوية فيما يتصل بصوغ أصول المادة وفروعها ، وضبط حروفها ، وما يتبع ذلك من اعلال وابدال وادغام وحذف وزيادة وغير ذلك من المباحث التى عنـى التصريف بدراستها ، وتفصيل القول فيها .

ويتضح منهج لطف الله فى استخدام (القياس) من حرصه على تتبـع مفردات اللغة ، وجمع ما تفرق منها على السنة العلماء وفى مؤلفاتهم ، فعندما يحدد ابن الحاجب أمثلة الاسم الثلاثى المكسور الفاء والعين فى كلمتى (ابل وبلز) ويقول : (ولا ثالث لهما) فانه يعقب على ذلك بذكر ما ورد عن العلماء من أمثلـة هذا البناء ، فيقول : (١)

« قال سيبويه : ما يعرف الا ابل ، وزاد الأخفش : بلز ، وكأنه لم يثبت عند المصنف ما روى من الحبر (لصفرة الاسنان) والاطل (للخاصرة) والابط (لغـة فى الابط) والاقط (لغة فى الاقط) وأتان ابداى ولود ... » .

وقد يستطرد أحيانا الى ذكر ما ورد عن العرب من لغات ، وذلك حـين يتفرع من ضبط بنية الكلمة الواحدة أكثر من حالة ، فيرد كل لغة الى أصحابها ،

---

(١) المناهل ــ مخطوط ص ٣٤ .

يقول معقبا على ما ورد من كلمات ثلاثية لها أكثر من وزن بسبب تغيير حركة العين أو الفاء (١) : « واعلم أن هذا التفريع ورد بعض الى بعض هو لغة تميم كما تقدم ، وأما الحجازيون فلا يفرعون ، وما جاء مما يوهم ذلك حمل على أنه لغتان فى الكلمة ، وأنه يجوز عند التميميين فى فعل الفعلى مما ليس عينه حرف حلق كعلم اسكان العين كما جاز فى الاسم نحو : كتف ، وفى فعل مضموم العين ككرم أيضا : اسكانها ، كما جاز فى الاسم نحو : عضد ، وأنه قد يخفف فعل المبنى للمفعول ، بتسكين العين كقولهم : لم يحرم من فصد له ، أى فصد ، وأنه لا يجوز » « فرس الى فلس » ، وقوله :

وما كل مبتاع ولو سلف (٢) صفقة يراجع ما قد فاته برداد

شاذ أو للضرورة » .

ولا يقتصر صاحب (المناهل) فى هذا المجال على تتبع لغات العرب وما ورد من ذلك ، بل ينقل ماروى عن العلماء من مذاهب وآراء حول قضايا التصريف ، يقول فى تعليقه على عبارة ابن الحاجب فى مبحث (التكسير) : « وأما فوارس فشاذ » وهذا : (٣) يوهم أن جمع (فاعل) فى الصفة على (فواعل) شاذ مطلقا ، وليس كذلك ، بل اذا كان فاعل وصفا لمن يعقل ، وأما غير العاقل فيجمع على فواعل الحاقا له بالمؤنث نحو جمال بوازل ، وأيام مواض ، وما ذكر من شذوذ فواعل فى جمع فاعل للعقلاء هو مذهب سيبويه ، وظاهر كلامه أنه لم يجىء الا فوارس ، وقال غيره : قد جاء هوالك أيضا ، يقال : فلان هالك فى الهوالك ، وقال السيرافى : وجاء فى الشعر أيضا :

أحامى عن ديار بنى سليم ومثلى فى عوانيكم(٤) قليل

وقال المبرد : ان جمع فاعل الصفة اذا غلبت عليه الاسمية كفارس حيث اختص براكب الفرس على فواعل ــ أصل ، وأنه فى الشعر سائغ حسن قال:(٥)

---

(١) المناهل ــ مخطوط ص ٣٥ ــ ٣٦ .
(٢) السلف : بيع معلوم يعجل فيه الثمن ، ورداد مصدر بوزن سحاب .
(٣) المناهل ــ مخطوط ص ١٥٦ : ١٥٧ .
(٤) العانى : الذى يطلب ولا يطلب .
(٥) البيت للفرزدق ، ومفرد نواكس : ناكس ، أى خاضع ، وربما رويت الكلمة جمعا : نواكسى ، ثم حذفت النون للاضافة .

واذا الرجال رأوا يزيد رأيتهم خضع الرقاب نواكس الابصار

قال الرضى : ولا دليل فى جميع ما ذكروا ، اذ يجوز أن يكون الهوالك جمع هالكة ، أى طائفة هالكة ، وكذا غيره ، كقولهم : الخوارج أى الفرق الخوارج» .

ويدعم صاحب المناهل قضايا التصريف التى يتناولها بالاستشهاد بالآيات القرآنية والاحاديث الشريفة وأشعار من يحتج بأشعارهم ؛ ففى مبحث « الافعال المزيدة » وأثر الزيادة فى معانيها ، يقول صاحب الشافية عن صيغة (افتعل) انها تأتى (١) (للتصرف نحو : اكتسب الخير) ويعقب صاحب المناهل على هـــذه العبارة بقوله : « اكتسب الخير » : أى اجتهد فى تحصيله وحاول أسبابه بخلاف: كسبت ، فانه بمعنى حصلت ، أى سواء اجتهدت فى تحصيله أولا ، فلهذا قـــال الله تعالى(٢) : (لها ما كسبت) أى اجتهدت فى الخير أولا ، فانه لا يضيع (وعليها ما اكتسبت) أى لا تؤاخذ الا بما اجتهدت فى تحصيله وبالغت فيه من المعاصى، قال الرضى : وفى الكشاف : لما كان الشر مما تشتهيه النفس وهى منجذبة اليـــه وأمارة به كانت فى تحصيله أعمل وأجد ، فجعلت لذلك مكتسبة فيه ، ولما لم تكن فى باب الخير كذلك لقصورها فى تحصيله وصفت بما لا دلالة له على الاعتمـــال والتصرف » .

ويستشهد على مجىء المصدر على فعل (بفتح الفاء والعين) كالغلب بقوله:(٣) قال تعالى (٤) : (وهم من بعد غلبهم سيغلبون) قال الفراء : يجوز أن يكون فى الأصل غلبتهم بالتاء ، فحذفت كقوله:

ان الخليط(٥) أجدوا البين فانجردوا وأخلفوك عدا الأمر الذى وعدوا

أى : عدة الأمر » .

وفى مبحث (همزة الوصل) يشير ابن الحاجب الى (لام التعريف وميمه) ويعقب لطف الله بذكر آراء العلماء حول حرف التعريف (ال) مستشهدا بالحديث الشريف ، يقول : (٦) هذا مبنى على مذهب سيبويه أن حرف التعريف هـــى

---

(١) المناهل ـــ مخطوط ص ٦٦ .
(٢) جزء الآية ٢٨٦ من سورة البقرة .
(٣) المناهل ـــ مخطوط ص ٨١ .
(٤) جزء الآية ٣ من سورة الروم .
(٥) الخليط : المخالط ، انجردوا : انجرد فى السير اذا مضى فيه .
(٦) المناهل ـــ مخطوط ص ١٨٠ .

اللام وحدها ، وضعت ساكنة ليستحكم امتزاجها بما دخلت عليه ، وفى لغة حمير ونفر من طيىء ابدال الميم من لام التعريف ، كما روى النمر بن تولب عنه صلى الله عليه وسلم « ليس من امبرا مصيام فى امسفر » ، وأما على مذهب الخليل فان آلة التعريف الهمزة واللام ، فلا سكون للأول وانما حذفت الهمزة عنده فى الدرج — وان كانت همزة قطع — لكثرة الاستعمال » .

والاستشهاد بالشعر فى هذا الشرح له مواطن كثيرة ، نشير الى بعضها على سبيل المثال لا الحصر ، يقول (١) فى تعقيبه على ضم عين (المضارع المثال) من نحو : وجد يجد : «والفصيح يجد بكسر الجيم ، والضم لغة بنى عامر ، قال لبيد العامرى(٢) :

لو شئت قد نقع الفؤاد بشربة تدع الصوادى لا يجدن غليلا »

ولا ينسى الشيخ لطف الله فى مثل هذا المقام أن يعلق على بعض لغويات ما يستشهد به فيشرحها ، يقال : نقعت بالماء أى رويت ، والغليل : حرارة العطش».

وحين يتعرض صاحب الشافية لقياس المصادر التى تأتى من (فعل) على (تفعله) مثل : عزى تعزيه ، يعقب عليها صاحب المناهل بذكر ما جاء مخالفا لهذا القياس فى الضرورة ، فيقول : (٣)

تحذف ياء التفعيل ، وتعوض منها الهاء لزوما لا ستثقال الياء المشددة ، وقد جاء التشديد فى الضرورة كقوله :

فهى تنزى(٤) دلوها تنزيا كما تنزى شهلة صبيا »

وعن مجىء (المصدر الميمى) نادرا على (مفعل) بضم العين ، يستشهد بقول الشاعر(٥) :

بثين الزمى لا ان لا ان لزمته على كثرة الواشين أى معون

---

(١) المناهل — مخطوط ص ٧٢ .

(٢) نسبة غيره الى جرير ، والصوادى : جمع صادية وهى العطشى ..

(٣) المناهل — مخطوط ٨٢ .

(٤) روى صدر البيت مرة : فهى تنزى ، وفى رواية أخرى : بات ينزى دلوه ، ومرة : باتت تنزى دلوها (شرح شواهد الشافية ٣/٤) .

(٥) المناهل — مخطوط ص ٨٤ والبيت لجميل . وبثين ترخيم : بثينة .

وفى مبحث (التصغير) يتناول أعراضه الادبية مع الاستشهاد بأشعار السابقين ممن يحتج بهم يقول(١) : وأما التصغير المفيد للشفقة والتلطف كيابنى وأنت صديقى ، فمن مجاز تقليل الذات ، لأن الصغار يشفق عليهم ، ويتطلف بهم ، فكنى بالتصغير عن عزة المصغر على من أضيف اليه ، وكذا التصغير المفيد الملاحة ، كقولك : هذا لطيف ومليح ، ومنه :

يا ما أميلح غزلانا شدن(٢) لنا من هؤليائكن الضال والسمر

كما سيأتى ان شاء الله تعالى ، وذلك لأن الصغار فى الغالب لطاف وملاح ، فاذا كبرت غلظت وجهمت ، وكذا المفيد للتعظيم كقوله(٣) :

وكل أناس سوف تدخل بينهم دويهية تصفر منها الأنامل

من باب الكناية ، كنى بالصغر عن بلوغ الغاية ، لأن الشىء اذا جاوز حده جانس ضده ، ويجوز أن يكون تصغيرها فى البيت لاحتقار الناس لها ، وتهاونهم بها ، اذ المراد بها الموت ، أى يجيئهم ما يحتقرونه مع أنه عظيم فى نفسه تصفر منه الأنامل » .

وهكذا يسير صاحب (المناهل) فى شرحه مستشهدا ببعض النصوص القرآنية ومتمثلا بأشعار من يحتج بهم ، ومعتمدا فى الوقت نفسه على ذلك الأسلوب العلمى (التأدب) الذى يخفف بوضوحه ورصانته حدة الأسلوب العلمى الذى تعرض به قضايا التصريف .

سادسا : التعليل وتعدد الآراء :

عنى العلماء فى علمى النحو والصرف بأمر (التعليل) ، فلا نجد قضية نحوية أو صرفية الا ولها تعليل يطول أو يقصر ، يعتدل أو يلتوى ، على حسب مقدرة النحوى أو الصرفى ، وتمكنه من زمام اللغة والجدل ، ورغبته فى اظهار البراعة . . . والتعليل الذى عنى به العلماء فى هذا العلم نوعان :

---

(١) المناهل — مخطوط ص ٩٢ .

(٢) شدن : قوين واستغنين عن أمهاتهن ، والضال : السدر : (شجر النبق) والسمر : شجر الطلح .

(٣) البيت للبيد من قصيدة رثى بها النعمان بن المنذر ملك الحيرة .

أحدهما : قائم على الصناعة والتأويل والتكلف ، والمنطق الكادح المرهق وقد تسلل هذا النوع الى الكثير من قضايا التصريف ومسائله ، ومن ثم نشأت الآراء ، وتشعبت المذاهب ، ودراسة هذا النوع من التعليل يعنى بها المتخصصون في مجالات العلم ، أما غيرهم فان صدور البعض منهم تضيق عندما يراجعون بعض مطولات هذا العلم ، وتصادفهم تلك التعليلات المتكلفة المرهقة . .

والنوع الثانى من التعليل : هو ذلك النوع الذى يطلقون عليه (علل التنظير) ، كما اذا سئل باحث : لم كانت هذه الكلمة على وزن فعل أو فاعل أو غيرهما ؟ وتكون اجابته اننا نحاكى ما جاء عن العرب الفصحاء ونجاريهم ، ونأخذ بمناهجهم . .

وهذا النوع من التعليل هو الذى يجب أن يسود دراسة الظواهر اللغوية سواء أكانت نحوية أم صرفية أم غير ذلك . .

ولقد ساد عصر العلامة لطف الله اهتمام بالتعليل النابع من النوع الأول والقائم على الصناعة والتأويل المتكلف ، وكان ممن تأثروا به فظهرت آثاره فى بعض قضايا شرحه ، كما فى مسائل الاعلال والابدال وغيرهما ، ولكنه مع ذلك كان له اهتمام بالنوع الثانى من التعليل ، ففى عدد غير قليل من المسائل عنى بما كانت العلة فيه التنظير (أى قياس الشىء على نظيره) .

ففى مبحث (التصغير) اذا كان الاسم الذى يراد تصغيره : ثلاثيا مؤنثا خاليا من (تاء التأنيث) فانه عند التصغير تلحقه (التاء) مثل (عين) يقال فى تصغيرها : عيينة ، ويعلل لطف الله لذلك بقوله(١) لأن التصغير يورد فى الجامد معنى الوصف ، فقولك : أذينة ، بمنزلة قولك : أذن صغيرة ، فكما أنك لو أتيت بالوصف الصريح أتيت بالتاء فيه ، كذلك تأتى بها فيما يفيد معناه وهو التصغير ، وما حذف منه حرف فى التصغير حتى صار ثلاثيا . فله حكمه فى الحاق (التاء) كسماء ، تقول فى تصغيرها : سمية) .

وفى مبحث (أسماء الزمان والمكان) يعلل لمجىء هذين المشتقين من الثلاثى على (مفعل) بكسر العين أو (مفعل) بفتح العين فيقول (٢):والحاصل ان أسماء

---

(١) المناهل — مخطوط ص ١٠١ ، ١٠٢ .

(٢) المناهل — ص ٨٨ ، ٨٩ .

الزمان والمكان من الثلاثى على (مفعل) بكسر العين أن كان صحيح اللام مع كسر عين مضارعه ، أو كونه مثالا واويا ، والا فعلى (مفعل) بفتح العين ، كأنهم بنوا الزمان والمكان على المضارع ، فكسروا العين فيما مضارعه مكسور العين ، وفتحوا فيما مضارعه مفتوحها ، وانما لم يضموها فيما مضارعه مضمومها نحو يقتل ، لأنه لم يأت مفعل فى الكلام فى غير هذا الباب الا نادرا ، كما تقدم فى مكرم ومعون ، فلم يحملوا مأدى اليه قياس كلامهم على بناء نادر فى غير هذا الباب وعدل الى أحد اللفظين فى مفعل ومفعل . . » وفى مبحث (الابدال) يقول لطف الله عن ابدال (تاء) افتعل (طاء) مثل : اصطبر (١) : تبدل هذه التاء طاء مما كان (فاء) افتعل فيه أحد الحروف المستعلية المطبقة وهى : الصاد والضاد والطاء والظاء ، وذلك لأن التاء مستفلة لا اطباق فيها ، وهذه الحروف مستعلية مطبقة ، فاختاروا حرفا مستعليا مطبقا من مخرج التاء وهو الطاء ، فجعلوه مكان التاء ، لأنه يناسب التاء فى المخرج . . » .

أما فيما يتصل بتعدد الآراء فى المسألة الواحدة ، فان صاحب المناهل لم يتجه الى ما اتجه اليه بعض مؤلفى التصريف حين بذلوا قصارى جهدهم فى الاهتمام بقضايا الخلاف . . وكان فى كثير من المسائل التى عرض لها بالشرح يقتصر على ما اشتهر من الآراء ، ففى مبحث (همزة الوصل) يرد لفظ (اسم) مما بدىء بهمزة وصل ، ويعقب عليه الشيخ بذكر ما ورد عن البصريين والكوفيين فى بيان أصله ، فيقول : أصله سمو أو سمو كحبر أو قفل ، عند البصريين من سما ، لأنه يسمو بمسماه ويشهره ، ولولا الاسم لكان خاملا ، وعند الكوفيين : وسم ، لكونه كالعلامة على مسماه ، فحذف على الأول (اللام) وأسكنت ، الفاء ، وعلى الثانى حذفت (الفاء) وأبقيت السين على سكونها . . » .

وعلى هذا النحو كان اهتمام العلامة لطف الله بقضايا التعليل ومسائل الخلاف ، فلا يورد من هذا وذاك الا ما كان قريب المأخذ ، بعيدا عن التكلف والتأويل المرهق ، مع استيعاب وتمثل لما يعرض من قضايا ، وما يورد من آراء . .

---

(١) السابق ص ٣٣٠ .

كلمـــــة ختامية :

تلك لمحة سريعة تناولت فيها جانبا من الجوانب العلمية لأحد الأعـــلام المحققين من علماء اليمن ، ذلك هو العلامة لطف الله بن الغياث صاحب (المناهل الصافية) وان من تتاح له ظروف الاطلاع على ما ترك هؤلاء الأئمة من تراث فى مجالات العلم المختلفة ، ليقف حائرا مندهشا يسائل نفسه . كيف سبقوا عصورهم على هذا النحو الرائع ؟ وهذه الأعمال التى أنجزوها ، أهى عمل فرد ؟ أجل انـــه عمل فرد ، لكنه ليس ككل الأفراد ، انه من جماعة وهبوا أنفسهم لخدمة لغتهم ، ونهضة أممهم ، ووقفوا على ذلك حياتهم ، وتقربوا الى الله تعالى بأعمالهم ، فدان لهم البعيد ، وذل العصى ، وذخل المحال فى مجال الامكان .

والامل كبير فى أن تتجه همم الباحثين والدارسين من احفاد هؤلاء الامجـــاد وتسعى الى هذا التراث الجليل ، لاحياء ذخائره ، وبعث ما انطمس من معالمه ، وتقديمه فى صورته المشرقية التى تليق بمكانته،وتكشف فى الوقت نفسه عما يحتويه هذا التراث من أصالة وابتكار .

والله وحـــده من وراء القصـــد

المراجـــع

١ ــ الأعلام للزركلى ــ الجزء الرابع والسادس .

٢ ــ بغية الوعاة للسيوطى ــ الجزء الأول والثانى .

٣ ــ دائرة المعارف الاسلامية ــ الجزء الاول .

٤ ــ شرح شافية ابن الحاجب ــ لرضى الدين الاستراباذى .

٥ ــ فى تصريف الاسماء ــ للدكتور عبد الرحمن شاهين .

٦ ــ مصادر الفكر العربى الاسلامى فى اليمن للاستاذ عبد الله الحبشى .

٧ ــ المناهل الصافية للطف الله بن الغياث ــ مخطوط .

عرض كتـــاب :

موريس بوكاى :

دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة *

الدكتور أحمد محمود صبحى
استاذ الفلسفة الاسلامية
ـــ كلية الطب ـــ جامعة صنعاء

يؤخذ على كثير من المستشرقين أنهم فى دراستهم للاسلام قد مالوا عـــن قول كلمة الحق ، ولكن قليلا منهم قد درس بحثا عن الحقيقة لا لهوى فى نفســـه ولا لخدمة غرض سياسى أو بالاحرى استعمارى ، اذ وجد فى الاسلام دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها فى غير تعقيد ولا التواء .

الكتاب الذى نحن بصدده فى هذه المقالة قد نهج مؤلفه فى البحث عـــن الحقيقة بين الاديان منهجا فريدا لا أكاد أعرف له نظيرا بين من اهتدوا الـــى الاسلام من المفكرين الغربيين ، يتمثل منهجه فى الآية الكريمة : « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » (النساء : ٨٢) . ذلك أنه درس الكتب المقدسة الثلاثة : التوراة والانجيل والقرآن فى ضوء قضايا منهجية ثلاث :

ـــ يعد الكتاب وحيا الهيا اذ لم يكن ثمة تناقض أو تعارض بين آياتـــه تناقضا أو تعارضا يأباه العقل ، وعلى العكس لا يعد وحيا ـــ وانما حرفت آياته ـــ ان كان ثمة تعارض أو تناقض فى بعض مواضعه .

ـــ يعد الكتاب وحيا الهيا أن اتسقت آياته التى تتعرض لتفسير الكون مع حقائق العلم المسلم بها ، اذ يستحيل أن يكون خالق الكون غير عالم بأسراره ، تماما كما يستحيل أن تتعارض كلمة The word of God مع صنعه The work of God

ـــ يعد الكتاب وحيا الهيا ان اتسقت آياته التى تتناول موضوعات تاريخية ـــ قصص الأنبياء ـــ مع الحقائق المسلم بها فى علم التاريخ وفقا لأصول النقـــد التاريخى ، أما ان عارضته فذلك يعنى أن الرواية من وضع البشر .

وضع موريس بوكاى معايير ثلاثة لتقييم الكتب المقدسة من أجل تمييز ما يعد من بينها وحيا اليهيا عما يعتبر وضعيا بشريا ، هذه المعايير هى :

---

* الترجمة الحرفية لعنوان الكتاب بالفرنسية : الكتاب المقدس والقرآن والعلم ، وقد نشرت دار المعارف بمصر ترجمته العربية .

١ ـــ الاتساق مع أوليات العقل .

ـــ الاتفاق مع حقائق العلم .

ـــ التطابق مع وثائق التاريخ .

واستكمالا للبحث والدراسة وبحثا عن الحقيقة فقد تحرى عن ظروف تدوين كل من الكتب المقدسة الثلاثة فوجد :

بصدد التوراة : يتكون العهد القديم من مجموعة اسفار كتبت على مدى يزيد على تسعة قرون وبلغات مختلفة ومن مصادر متنوعة ، ولم يكن هنـــاك فى البدء نص واحد للتوراة ، بل تعددت النصوص ، وكان فى القرن الثالث قبل الميلاد ثلاث مدونات على الاقل للنص العبرى للتوراة غير موجودة اليوم ؛ ومن ثم فان الاعتقاد بأن موسى هو كاتب التوراة لم يعد مقبولا منذ نهاية العصور الوســـــطى .

بصدد الانجيل : لم تحتفظ المسيحية بكل الأناجيل التى كتبت عن المسيح ، وانما تمسكت باربعة منها واعتبرت الباقى أناجيل مزورة ، ولم يثبت أن أحدا من كتاب الاناجيل الاربعة : متى ومرقس ولوقا ويوحنا كان ممن صحب المســـــيح أو شاهد عيان على أقواله وافعاله ، ويرجع اول نص للانجيل عام ٧٠ م . ولم تكن الصياغة النهائية للاناجيل الاربعة معروفة أو معترفا بها قبل عام ١٤٠م . وتمثل فترة صياغة الاناجيل بين عامى ٧٠ ـــ ١١٠م مرحلة صراع بين المسيحيين اليهود ـــ أو الذين يرون فى المسيحية امتدادا لليهودية* ـــ وبين بولس الذى كان يعد خائنا فى نظر أسرة المسيح والحواريين الذين استقروا بالقدس ، ومن ثم جاءت بعض العبارات فى الانجيل معبرة عن روح « خصامية وظرفية » ، هذا ولقد كتب النصر فى هذه الخصومة لبولس .

بصدد القرآن : كان كثير من الصحابة يحفظ القرآن حفظا تاما ، ولقد تم ترتيبه وفقا لتوجيهات من النبى محمد نفسه ، ولقد بدأ تدوينه بتوجيه من أبـــى بكر وتم تدوينه ونشر صيغته المجمع عليها فى عهد عثمان . أى أن تدوين القرآن وانتشار صيغته المتداولة الى اليوم قد تم فى أقل من عشرين سنة من وفـــاة

---

* استنادا الى قول المسيح : لا تظنوا انى جئت لأنسخ الشريعة والانبياء، لم آت للنسخ بل للتكميل . . انجيل متى الاصحاح الخامس : ١٧

الرسول على أيدى صحابة استمعوا القرآن من الرسول نفسه الأمر الذى لا يثير أدنى خلاف حول حرفية نصوصه .

وقد حرص موريس بوكاى فى دراسته الناقدة الفاحصة أن يقارن بين ما ورد فى الكتب المقدسة بصدد موضوعات مشتركة فيها ليميز الوحى من الوضـــع والحق من الباطل ، فلنتتبع معه بعض جوانب من هذه الدراسة الجادة والشيقة معـــا .

أولا : نشـــــأة الخلق :

كيف أن رواية التوراة مجافية لأوليات العقل معارضة لحقائق العلم :

١ ــ أقوال فيها مجافاة لأوليات العقل :

النص : « فى البدء خلق الله السموات والارض ، وكانت الارض خربـــة وخالية ، والظلمات تغطى اللجة ، وروح الله يرف على المياة ، وقال الله : ليكن نور فكان النور ، ورأى الله أن النور حسن ، وفصل بين النور والظلمات ، ودعا الله النور نهارا والظلمات ليلا ، وكان مساء وكان صباح اليوم الأول » .

(الاصحاح الاول : الآيتان ١ ، ٢) .

التعليق : من غير المنطقى أن يذكر النهار والليل فى اليوم الأول ، وكيف يكون نور ونهار فى اليوم الاول بينما لم يخلق مصدر النور (الشمس) الا فى اليـــوم الرابع ، وكيف يكون نهار وليل وذلك لا يكون الا بوجود الارض ودورانها حول نفسها تحت ضوء الشمس .

٢ ــ أقوال معارضة لحقائق العلم :

النص : « وقال الله ليكن جلد فى وسط المياه ، وليكن فاصل بين ميـــاه ومياه وكان كذلك ، فعمل الله الجلد ، وفصل بين المياه التى تحت الجلد والمياه التى فوق الجلد ، ودعا الله الجلد سماء ، وكان مساء ، وكان صباح اليـــوم الثـــانى » .

(الاصحاح الاول : من ٦ ــ ٨)

التعليق : القول بأن المـــاء أول الموجودات خطأ من الناحية العلمية ، وان صورة انقسام المياه الى كتلتين تكونت السماء من احداها غير مقبولة بدورهـــا علميـــــا .

النص : « وقال الله لتجتمع المياه تحت السماء الى مكان واحد فى كتلة واحدة ولتظهر اليابسة وكان كذلك ، ودعا الله اليابسة ارضا ومجمع المياه دعاه بحورا، ورأى الله ذلك انه حسن » .

« وقال الله : لتنبت الارض خضرة عشبا يحمل بذرا كجنسه ، وشجرا يعطى ثمرا من جنسه وبذرا ، ورأى الله ذلك أنه حسن ، وكان مساء وكان صباح اليوم الثالث . . . .

(الاصحاح الاول : من ٩ — ١٣)

التعليق : مقبول علميا أن القارات قد ظهرت فى مرحلة من تاريخ الارض كانت هذه مغطاة بالمـــاء ، ولكن أن يكون هناك فى تلك الفترة عالم نباتى يتكاثر بالبذور قبل ظهور الشمس التى تظهر حسب قول سفر التكوين فى اليـــوم الرابع ، وان ينتظم تعاقب النهار والليل ، فذلك ما لا يمكن اطلاقا التسليم به .

النص : « وقال الله : لتكن أنوارا فى جلد السماء فتفصل بين النهار والليل، وتكون علامات للاعياد كما تكون للايام والسنين ، ولتكن أنوارا فى جلد الســماء لتضىء الارض وكان كذلك ، وعمل الله المنيرين العظيمين : المنير الاكبر لحكـم النهار ، والمنير الاصغر لحكم الليل ، وكذلك النجوم ، وجعلها الله فى جلد السماء لتنير الارض ولتحكم على النهار والليل ، ولتفصل بين النور والظلمة ، ورأى الله ذلك أنه حسن ، وكان مساء وكان نهار اليوم الرابع ؟

(الاصحاح الاول : من ١٤ — ١٩)

التعليق : ان وصف كاتب التوراة هنا مقبول . والنقد الوحيد الموجـــه الى هذه العبارة هو أن الارض والقمر قد نبعا من نجمهما الاصلى وهو الشمس ، فوضع خلق الشمس والقمر بعد خلق الارض يناقض المعلومات الاساسية عـــن تشكل عناصر النظام الشمسى .

النص : « وقال الله : ولتعج المياه بجميع الكائنات الحية ، ولتطر طـــور فوق الارض وعلى وجه جلد السماء ، وكان كذلك ، وخلق الله كبـــار تعابين البحر وكل الكائنات الحية التى تنزلق وتعج فى البحار ، كل بحسب جنسه ، وكل ذى جناح بحسب جنسه ، ورأى الله ذلك أنه حسن ، وباركها الله قائلا : اثمرى واكثرى واملائى البحار وليتكاثر الطير على الارض ، وكان ليل وكان نهار اليوم الخامس » .

(الاصحاح الاول : من ٢٠ — ٢٣)

التعليق : لا شك أن اصل الحياة مائى ، ولكن ترتيب ظهور الكائنات الحية على هذا النحو : حيوانات البحر ثم الطيور ثم حيوانات البر غير مقبول علميا .

النص : « وقال الله : لتخرج الارض الكائنات الحية كجنسها بهائم ودبابات ووحوش كجنسها ، وكان كذلك ، عمل الله الوحوش كجنسها والدبابات كجنسها ، وكل دبابات الارض كجنسها ، ورأى الله ذلك انه حسن . وقال الله : لنعمل الانسان على صورة كشبهنا ، ويتسلط على سمك البحر وعلى طيور السماء وعلى البهائم وعلى كل الوحوش والدبابات التى تزحف على الارض ، فخلق الله الانسان على صورته ، على صورة الله خلقه ، ذكر وانثى خلقهما ، وباركهما الله وقال لهما : اثمرا واكثرا واملأ الارض واخضعاها وتسلطا على سمك البحر وطيور السماء وعلى كل حيوان يدب على الارض ، وقال الله : انى قد اعطيتكما كل بقل يحمل بذرا على وجه الارض وكل شجرة فيه ثمر ويحمل بذرا لكما يكون طعاما ، ولكل الوحوش ولكل طيور السماء ، ولكل دبابة على الارض وكائن حى ، اعطيت كل خضرة النباتات طعاما ، وكان كذلك ، ورأى الله كل ما عمله فاذا هو حسن جدا ، وكان مساء وكان صباح اليوم السادس » .

(الاصحاح الاول : من ٢٤ — ٣١)

التعليق : يكمن الخطأ فى وضع ظهور الحيوانات الارضية بعد ظهور الطيور ، ولكن ظهور الانسان على الارض محدد بشكل صحيح بعد ظهور الفئات الاخرى من الكائنات الحية .

وتنتهى رواية الخلق بالآيات الثلاثة الاولى من الاصحاح الثانى :

النص : « فاكملت السموات والارض بكل جندها وفرغ الله فى اليوم السابع من عمله الذى عمل ، فاستراح فى اليوم السابع من جميع عمله الذى عمل ، وبارك الله اليوم السابع وقدسه ، لأنه فيه استراح من جميع عمله للخلق . هذه مبادىء السموات والارض حين خلقت » .

التعليق : واضح أن هذه الراحة التى يفترض ان الله قد اخذها بعد أن عمل ستة أيام هى اسطورة ، ولكن لها تعليلا ذا طابع تشريعى ، والنص اليهودى الذى يسبق النص الكهنوتى بعدة قرون يجعل راحة السبت محور الرواية معللا ذلك بأن الله هو أول من احترمها ، رواية الخلق اذن قد وضعت لضرورة عملية لا لتفسير موضوعى لنشأة الخلق ، وان ادرج مراحل الخلق المتعاقبة فى اطار

اسبوع ، هذا الادراج الذى أراده الكاتب الكهنوتى بهدف الحث على الطاعة الدينية لا يقبل الدفاع من الناحية العلمية سواء فى تحديده زمن الخلق بستة ايـــام أو فى ترتيب نشأة المخلوقات » .

هكذا تبدو الرواية الكهنوتية للخلق كنسق خيالى قد ابتكر لهدف آخر غير التعريف بالحقيقة .

أما الرواية اليهودية فترجع الى تاريخ أكثر قدما من الاولى بحوالى ثلاثـــة قرون وهى رواية قصيرة جدا ولكنها أكثر افاضة فيما يتعلق بخلق الانسان .

النص : « عندما عمل يهوه الرب الارض والسماء ، كل شجر البرية لـــم يكن بعد فى الارض ، وكل عشب البرية لم ينبت بعد لأن يهوه الرب لم يكن قد أمطر على الارض ، ولا كان انسان ليفلح الارض ، ولكن كان سيل يطلع منهـــا ويسقى كل وجهها ، وعندئذ جعل يهوه الانسان من طين الارض ، ونفخ فى أنفه نسمة حياة فصار الانسان نفسا حية » .

التعليق : يفهم ضمنا انه عند خلق الله للانسان لم تكن هناك نباتات حية ، فلم يكن المطر قد نزل بعد وانما مياه نابعة من العمق كادت تغطى ســـطح الارض ، وهذا يعنى ان عالم النبات قد ظهر فى نفس وقت ظهور الانسان على الارض وهذا خطأ علمى اذ لا يمكن تقدير مئات الملايين من السنين بين نشأة النبات وخلق الانسان .

وينتهى المؤلف بعد هذه الدراسة النقدية لسفر التكوين عن الخلق الـــى القول : هكذا يجد الاوروبى فى الكتاب المقدس لغة مخالفة للغة العلم الحديث اذ يجد متناقضات وامورا غير معقولة ولا مقبولة .

كيف أن رواية القرآن عن نشأة الخلق متسقة تماما مع حقائق العلم الحديث :

يجدر أن نسجل آراء موريس بوكاى اجمالا بعد دراسته للآيات الكونية فى القرآن قبل أن نعرض آرائه تفصيلا حول نشأة الخلق بين القرآن والعلم . ينتهى

---

* ونجد الاوروبى نفسه مدفوعا الى أحد موقفين : اما ان ينكر الكتاب المقدس بخاصة والدين بعامة يستعيض عنه بأيديولوجيات لا غناء فيها عن الدين اذ لا تشبع الوجدان . أو أن يعيش بشخصية مزدوجة : ينكر عقله ما يؤمن بـــه قلبه ويهدم بفكره ما يبنيه بايمانه .

المؤلف بعد أن تعلم العربية خصيصا لدراسة القرآن فى لغته الاصيلة تحاشيا لترجمات لا تخلو من عدم الدقة الى القول :

١ ــ أذهلتنى حين دراسة التفاصيل الخاصة بالظاهرات العلمية فى القرآن ومطابقتها مع تلك المفاهيم التى نملكها اليوم عن نفس هذه الظاهرات والتى لم تكن ممكنا لأى انسان فى عصر محمد صلى الله عليه وسلم ان يكون اديه عنها أدنى فكرة ، انه لا يمكن القول أن أحد سكان شبه الجزيرة العربية قد استطاع فى القرن السابع الميلادى ان يتملك ثقافة علمية تسبق عصره بحوالى عشرة قرون على الاقل .

٢ ــ ان الآيات الكونية فى القرآن تفوق مراحل ما يناظرها سواء فى التوراة أو فى الاناجيل ، فهناك آيات تتصل بالخلق والفلك والارض وعالم الحيوان والنبات والتناسل ، وعلى حين نجد فى العبارات القليلة عن الكون فى التوراة اخطاء ضخمة فاننا لا نكتشف ادنى خطأ فى القرآن ، وقد دفعنى ذلك الى أن أتساءل : لو كان كاتب القرآن بشرا ، كيف استطاع فى القرن السابع الميلادى أن يكتب ما اتضح انه يتفق مع المعارف العلمية الحديثة ؟

٣ ــ حقيقة أن القرآن لا يهدف الى عرض القوانين التى تحكم الكون وانما يهدف الى غرض دينى هو معرفة الله عن طريق آياته فى الكون ، وحقيقة ان فى بعض الآيات مجرد تنبيه إلى مخلوقات الله التى يمكن ادراكها بالملاحظة البسيطة كالقول : « أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت . . . » ، ولكن هناك آيات تشير الى دلالات لايمكن أدراكها الا بمعرفة علمية دقيقة ، ومن ثم فان قدامى المفسرين لم يستطيعوا ان يدركوا منها الا المعنى الظاهر ولم يتسن إفهم العميق لهذه الآيات الا بعد التقدم العلمى الحديث .

٤ ــ ويستدرك المؤلف فيوضح أن التفسير العلمى لآيات القرآن لا يعنى اطلاقا اخضاع الآيات الكونية للنظريات العلمية ، اذ ينبغى التفرقة بين النظريات العلمية التى تسعى الى تفسير ظاهرة أو ظاهرات ، وقد تتغير هذه التفسيرات أو تقبل التعديل ، وبين تسجيل دقيق لهذه الظواهر فى جريانها كالقول بدوران الارض حول الشمس والقمر حول الارض أو كتسجيل تطور الجنين البشرى .

٥ ــ ويشير موريس بوكاى الى مؤلفات كثيرة خصصها كتاب مسلمون للجوانب العلمية فى القرآن ، ويشيد بالجهد والاصالة فيها ولكنه مع ذلك يستكشف

جوانب اخرى لم يسبقه اليها احد ، هذا وينبه انظار مفكرى الغرب من المهتمين بالدراسات الاسلامية الى هذا الاتجاه الذى لم يلق الاهتمام الجدير به .

٦ — وقد حاول بعض المفكرين الغربيين ارجاع مطابقة الآيات الكونية فى القرآن لحقائق العلم الى تقدم العرب العلمى ابان ازدهار الحضارة الاسلامية ، وذلك منطق معكوس ، اذ أن تقدم العرب فى العلوم انما جاء لاحقا لتنزيل القرآن وليس سابقا عليه ، ومن ثم فان النتيجة التى لا بد أن يخلص اليها كل باحث نزيه هى أنه لا يمكن أن يكون القرآن من قول البشر .

٧ — يزيد هذه الحقيقة تأكيدا ان القرآن لم يتابع على الاطلاق ولم يشايع ما كان شائعا من أخطاء علمية فى عصر النبى كالقول بدوران الشمس حول الارض (١) أو أن تغير طول الظل اثناء النهار انما هو تبع لحركة الشمس بالنسبة للارض من المشرق الى المغرب(٢) بل ان القرآن قد صحح خطأ كان شائعا هو أن المياه الجوفية والينابيع انما مصدرها المحيطات والبحار اذ قرر القرآن أنها من مياه الأمطار : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الارض . . . » (الزمر : ٢١)فكيف استطاع محمد — لو كان القرآن من عنده — أن يستبعد اخطاء علمية شائعة فى عصره وأن يبادر بمعطيات اثبت العلم صحتها ؟.

لنتتبع الآن التصوير القرآنى لنشأة الخلق ، ولا يقدم القرآن رواية واحدة متصلة ، بل يقدمها فى آيات متفرقات تذكر كلا منها جانبا .

النص : « ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام » (الأعراف : ٥٤) .

---

(١) اشار القرآن الى أن الشمس تجرى لمستقر لها « يس : ٣٨ » أو أنها تجرى « والقمر » الى أجل مسمى « الرعد : ٢ » وقد أكد علم الفلك الحديث أن النظام الشمسى يتحرك فى الفضاء نحو نقطة عندها يستقر ، وقد استخدم علم الفلك نفس التعبير « مستقر الشمس » . وأن الشمس يقدر عمرها بعشرة مليارات من السنين قضت منها أربعة مليارات ونصف وبقى لها فى رحلتها خمسة مليارات ونصف تتحول فيها ذرات الهيدروجين الى هليوم وينتهى الامر بها الى برودها وبذلك تبلغ اجلها المسمى .

(٢) اشار القرآن الى علاقة الظل بالشمس فى قوله تعالى : « ألم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا . . . » (الفرقان : ٤٥) .

التعليق : اخطأ بعض المستشرقين اذ تصوروا ان رواية القرآن عن الخلق مماثلة لهذه الرواية فى التوراة لأنها حددت زمن الخلق بستة أيام ، ان لفظة يوم فى التوراة تعنى المدة الزمنية بين اشراقين للشمس ولكنها لا تعنى ذلك فى القرآن، وانما يتحدد مفهوم اليوم كما حددها القرآن ذاته بالقول : « فى يوم كان مقداره الف سنة مما تعدون » (السجده آية ٥) وفى آية اخرى : « فى يوم كان مقداره خمسين الف سنة » (المعارج : ٤) . ودلالة العدد فى القرآن تشير فى مواضع كثيرة الى مدة زمنية غير محصورة ، ولقد تنبه بعض المفسرين القدامى الى أن لفظة « يوم » انما تعنى فى القرآن مرحلة أو فترة طويلة . وأن الخلق قد تم فى فترات زمنية طويلة عددها ستة ، واذا لم يكن العلم الحديث قد حددها بمراحل ستة فانها اثبتت بشكل قاطع انها فترات زمنية طويلة جدا ، اما العملية الاساسية لنشأة الخلق فقد ذكرت فى موضعين :

النص الاول : « قل ائنكم لتكفرون بالله الذى خلق الارض فى يومين وتجعلون له اندادا ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواس من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين ، فقضاهن سبع سنوات فى يومين . . . » (فصلت : ٩ ــ ١٢) .

النص الثانى : « أو لم يرى الذين كفروا أن السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من المـــاء كل شىء حى . . . » (الانبياء : ٣٠) .

التعليق : تشير هاتان الآيتان الى حقائق متسقة مع اتجاهات العلم الحديث تتلخص فيما يأتى :

١ ــ بدء الخلق من كتلة غازية ذات جزئيات عبر عنها القرآن بلفظة «دخان» اذ أن الدخان قوام غازى تعلق به جزئيات دقيقة صلبة أو سائلة .

٢ ــ اشارة الآية الثانية الى عمليتى « الرتق » و « الفتق » ، والرتق هو الوصل ، والفتق هو الفصل أو القطع أو على نحو ما يحدث فى فك اللحام ، وتشير نظريات العلم الحديث فى نشأة الكون الى أنه كان كتلة غازية متصلة ثم انقسم السديم أو انفصلت بعض أجزاء تشكلت منها النجوم التى انتجت نتيجة الانفصال أيضا كواكب تابعة لها .

٣ ــ تشير الآية الثانية أيضا الى أن الماء هو الاصل المكون لكل كائن حى اذ انه يدخل فى تركيب كل خلية حية ، وحينما يطرح السؤال : هل على كوكب من حياة فان السؤال يطرح بطريقة أخرى : ايحتوى هذا الكوكب على العناصر المكونة للماء ؟

٤ ــ تركت الانفصالات المتعاقبة من المركب الاصلى أو السديم الاول بواقى عبارة عن مادية كونية منتشرة بين النجوم توصف بأنها سدم براقة تنشر ضوءا استقبلته من نجوم أخرى ، وقد أشار القرآن الى موجودات وسيطة بين السموات والارض فى عدة مواضع نذكر منها : « له ما فى السموات وما فى الارض وما بينهما وما تحت الثرى » (طه : ٦) ، « الذى خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام » « الفرقان :٥٩ » ولقد خلقنا السموات والارض وما بينهما وما مسنا من لغوب(١) » (ق : ٣٨) .

٥ ــ واذا لم يكن القرآن قد أشار الى المسائل العلمية تفصيلا ــ وليس ذلك موضوعه ولا موضعه ــ واذا لم تكن القضايا التى طرحها القــرآن مطابقة تماما لمعطيات العلم الحديث ، فان الاخير لا يعارض ما ورد فى القرآن كالقــول بخلق كل من السموات والارض فى يومين أو على مرحلتين .

٦ ــ ومن الطبيعى أن يتضمن القرآن عبارات ذات دلالة روحية اثناء عرضه لنشأة الخلق كقوله : « ائتيا طوعا أو كرها » وكقوله فى وصف الاجرام السماوية : « وحفظا من كل شيطان مارد » (الصافات : ٧) وقوله : « رجوما للشياطين » (الملك : ٥) ولكن ذلك خارج عن موضوع دراستنا .

ويشير موريس بوكاى الى الدقة العلمية واللغوية فى تعبيرات القــرآن نذكر منها :

١ ــ التمييز بين الضياء والنور :

النص : « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا . . » (يونس : ٥) « تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمــرا منــيرا » (الفرقان : ٦١) .

---

(١) فى قوله تعالى : وما مسنا من لغوب معارضة لرواية التوراة التى تقرر أن الله قد استراح فى اليوم السابع بما يتضمن انه تعب حين فرغ من عمله ، وفى ذكر ما بين السموات والارض هناك آيات أخرى : الحجر : ٨٥ الانبياء : ١٦ ــ الزخرف : ٨٥ ــ الدخان / ٧ ، ٣٨ ــ الاحقاف : ٣ ــ النبأ : ٣٧ .

التعليق :

١ ــ اشارة واضحة فى القرآن الى أن الشمس والقمر من طبيعتين مختلفتين بينما لم تفرق التوراة بينهما اذ وصفتهما بأنهما منيران .

٢ ــ وصف القرآن الشمس بأنها : ضياء ــ سراج ــ سراج وهاج ، حيث الضؤ من احتراق ذاتى فيها ، اما القمر وهو جسم مظلم يستمد نوره من الشمس ثم يعكسه فقد وصف بأنه « منير » .

٢ ــ التمييز بين الكواكب والنجوم :

« انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب » (الصافات : ٦)

« وما أدراك ما الطارق ، النجم الثاقب » (الطارق ٢ ، ٣)

النص :

١ ــ لا يعرف للكواكب وجود خارج النظام الشمسى ومن ثم فقد قصرها القرآن على السماء الدنيا .

٢ ــ نجم بمعنى ظهر ، وثقب بمعنى اخترق حيث يخترق ضوء النجـــوم الفضاء الخارجى وينفذ منها والنجوم ليست اجراما ثابتة .

كذلك اشار المؤلف الى عدة ظواهر ما كان يمكن للعقل البشرى فى القرن السابع الميلادى أن يدرك تفسيرها نذكر منها :

١ ــ الجبـــال :

النص :

« والقى فى الارض رواسى ان تميد بكم » (لقمان : ١٠)

التعليق :

١ ــ يصف علماء الجيولوجيا تعرجات الارض بأن الاجزاء البارزة تثبت القشرة الارضية فلا تهتز اثناء دوران الارض والى ذلك أشار القرآن بدقـــة حين وصف الجبال بأنها رواسى حتى لا تميد أو تهتز الارض بالانسان .

٢ ــ كما تستخدم الاوتاد فى تثبيت الخيام تقوم الجبال بتثبيت القشرة الارضية وهكذا يتفق وصف القرآن مع معطيات علم الجيولوجيا .

٢ ــ الكون فى اتساع :

النص :

« والسماء بنيناها بأيد وانا لموسعون » (الذاريات : ٤٧)

التعليق :

من أعظم منجزات العلم الحديث ما أوصت به النظرية النسبية من أن الكون يتمدد ولا يكف عن الكبر حيث تبتعد المجرات فى السموات عنا .

٣ ــ التوازن والتزاوج فى عالمى الجماد والاحياء :

النص :

والارض مددناها والقينا فيها رواسى وانبتنا فيها من كل شىء موزون » (الحجر : ١٩) .

« وانزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين » (الرعد : ٣) .

« سبحان الذى خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن انفسهم ومما لا يعلمون » (يس : ٣٢) .

التعليق :

١ ــ تحكم فكرة التزاوج عالم الاحياء كله وان كان ذلك ملحوظا فى عالم الحيوان فان القرآن قد لفت الانظار الى عالم النبات .

٢ ــ تحكم فكرة الازدواج أو التزاوج عالم الجماد أيضا : ما كان متناهيا فى الكبر وما كان متناهيا فى الصغر ، وما كانت العرب تعرف شيئا عن الازدواج فى الالكترونيات بين موجب وسالب مما يقيم التوازن ويحكم عالم الذرة ، والى ذلك أشار القرآن بقوله : « ومما لا يعلمون » و « ما » تقال لغير العاقل .

وموضوعات أخرى فى القرآن تتعلق بالاخصاب فى النبات وحياة الطير والحيوان والتناسل فى الانسان بما يتفق تماما مع معطيات العلم الحديث .

ثانياً : قصة الطوفان :

كيف أن رواية التوراة عن الطوفان تتعارض مع وقائع التاريخ :

ذكرت قصة طوفان نوح فى كل من التوراة والقرآن ، وهناك روايتان للطوفان فى التوراة : رواية يهودية فى القرن التاسع وأخرى كهنوتية فى القرن السادس قبل الميلاد ولا تحدد الرواية اليهودية زمن وقوع الطوفان ، أما الرواية الكهنوتية فيمكن تحديد التاريخ فيها على وجه الدقة ، فلقد وقع حين كان عمر نوح ستمائة عام ، ولقد ولد نوح بعد آدم بـ ١٠٥٦ عاما أى أن الطوفان قد وقع عام ١٦٥٦ من بدء حياة آدم على الارض.

واذا اردنا تحديد تاريخ وقوع الطوفان بالنسبة لنا ، فان سفر التكوين قد جعل ميلاد ابراهيم بعد الطوفان بـ ٢٩٢ عاما ، وكانت حياة ابراهيم فى القرن التاسع عشر قبل الميلاد أى أن الطوفان قد وقع فى القرن الحادى أو الثانى والعشرين قبل الميلاد .

وهناك اختلاف بين الروايتين اليهودية والكهنوتية ، اذ تشير الرواية الاولى الى تمييز بين الحيوانات الطاهرة والطيور وبين الحيوانات النجسة، وسبعة أزواج من الاولى وواحدة من الثانية ، بينما تشير الثانية الى زوج من كل نوع دون تمييز فضلا عن نوح واسرته دون استثناء ، ووجود روايتين بينهما اختلاف دليل حاسم على تعديل البشر للكتب المقدسة .

وتصور التوراة الطوفان على أنه كارثة عالمية دمرت الحياة كلها من على سطح الارض فى القرن الحادى أو الثانى والعشرين قبل الميلاد ، وفى ذلك تعارض مع كل المعارف التاريخية عن الحضارات القديمة لسببين :

الاول : ان كثيرا من الحضارات الشرقية القديمة كانت تجتاز فترة متقدمة من تاريخها ، ففى ذلك القرن كانت مصر تجتاز من حضارتها القديمة الفترة الوسطى بين نهاية الدولة القديمة وبداية الدولة الوسطى ، كذلك كانت بابل تجتاز فترة حضارية متقدمة .

الثانى : انه لم يعرف فى تاريخ أى من الحضارات القديمة ان البشرية فيها قد انتهت تماما لتبدأ نشأة جديدة من نوح واسرته ومن كان معه فى الفلك .

يقول المؤلف : انه من المضحك حقا القول بأن الطوفان قد دمر فى القرن الحادى والعشرين قبل الميلاد كل الحضارات والبشر على الارض .

كيف أن رواية القرآن عن الطوفان لا تتعارض مع أى من وقائع التاريخ :

لا تشير قصص القرآن — ومنها قصة نوح — الى أى دليل يمكن به تحديد زمن الانبياء أو قصصهم مع أقوامهم (*) ، وتتفق رواية القرآن مع التوراة فى أمرين :

١ — أن نوحا قد حمل فى الفلك من كل زوجين اثنين .

٢ — ان اسباب الطوفان واحدة وهى التقاء الامطار الغزيرة مع تفجر العيون :

« ففتحنا ابواب السماء بماء منهمر وفجرنا الارض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر » (القمر : ١٢) .

ولكن القرآن يقدم كارثة الطوفان باعتبارها عقابا نزل خصيصا على قوم نوح (١) لا يتجاوزه الى البشرية جمعيا « وقوم نوح لما كذبوا الرسل اغرقناهم وجعلناهم للناس آية واعتدنا للظالمين عذابا اليما » وان ما لحق بقوم نوح من عقاب انما قد لحق نظير له اهلك أقواما آخرين : « ويا قوم لايجرمنكم شنآن ان يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح ، وما قوم لوط منكم ببعيد » (هود : ٨٩) .

وهكذا تخلو رواية القرآن من أى عنصر مثير للنقد التاريخى ، فضلا عن أنه لم تستجد أية معلومات بين روايتى التوراة والقرآن يستقى منها محمد ما عدله (٢) — لو كان القرآن من عنده — ومن ثم فان رواية القرآن ليس لهـا مصدر بشرى .

---

* ذلك لأن القرآن ليس كتابا فى التاريخ وانما تذكر وقائع الانبياء مع اقوامهم للعظة والاعتبار « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الالباب ما كان حديثا يفترى . . (يوسف ١١١) .

(١) ذكرت قصة نوح تفصيلا فى سورة هود من ٢٥ — ٢٩ وفيها اشارة فى أكثر من آية الى قوم نوح فقط « ولقد أرسلنا نوحا الى قومه . . آية ٢٥ ، واوحى الى نوح أنه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن . آية ٣٦ ، وذكرت كذلك فى سورة الشعراء من ١٠٥ — ١٢١ .

(٢) تشير التوراة الى أن نوحا قد حمل معه أسرته جميعا دون استثناء بينما يستثنى القرآن ابنه وقد جنحت السفينة الى جبل « آرارات » فى التوراة والى « الجودى » فى القرآن .

على أنه اذا كانت قصة نوح فى القرآن لا تثير أدنى معارضة حسب أصول النقد التاريخى ، فان مايبلغ حقا حد الاعجاز هى واقعة محددة فى قصة خروج موسى من مصر فبينما تشير رواية التوراة فى سفر الخروج الى أن فرعون قد هلك مع جيشه بالغرق وارتدت المياه كما كانت وغطت مركبات وفرسان كل جيش فرعون الذى كان قد دخل الى البحر وراءهم ، ولم يبق منهم واحد . (سفر الخروج : الاصحاح ١٤ : ٢٨ ، ٢٩) كما تشير مزامير داود الى هلاكه اذ يحمد داود الله لأنه القى بفرعون وجيشه فى بحر البوص (مزمور رقم ١٣٦) .

فان القرآن يسجل : « فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك اية . . . » (يونس : ٩٢) . وما كان أحد فى عصر محمد ولا قبله ولا بعده باكثر من ثلاثة عشر قرنا يعلم اين ترقد جثة « فرعون الخروج »(١) ، فأى بيان رائع لآيات القرآن التى **خصت جثة فرعون التى ترقد الآن فى قاعة المومياوات الملكية بالمتحف المصرى** بالقاهرة ، وبالفحص الطبى الحديث على المومياء تبين أن فرعون موسى — واظنه مفتاح — قد مات باسفكسيا الخنق نتيجة الغرق فضلا عن رضوض شديدة سببت الغرق وأدت الى وفاته (٢) ، وهكذا انقذ الله جثة « فرعون الخروج » من الهلاك التام ليصبح آية للعالمين كما سجل القرآن .

* * *

هذه نماذج من آيات بينات لمن شاء أن يتدبر أو يتذكر ، ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ولكنه تنزيل من رب العالمين . « قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين » .

صدق الله العظيم

---

(١) اكتشف المومياء ومعه كثير من مومياوات الفراعنة فى أواخر القرن التاسع عشر .

(٢) تم توقيع الكشف الطبى على المومياء عام ١٩٧٥ .

(٣) لا يفوتنى أن اشكر الاخ الدكتور عبد الرحمن شاهين اذ نبهنى لهذا الكتاب وأعارنى اياه .

اليمن وحضارات الشرق القديم

الدكتور هنرى رياض

ظهرت اقدم حضارات الشرق القديم فى وديان الانهار ، فى وادى النيل بمصر ووادى الرافدين بالعراق ووادى السند بالباكستان . وكانت هناك صلات تربط هذه الحضارات بعضها ببعض ، فأهل حضارة السند كانوا يعنون الى حد كبير بالتجارة ، وكانت قوافلهم ترحل بصفة منتظمة نحو الغرب . وقد قام الدليل على وجود الصلات التجارية بين وادى السند والسومريين ، وهم سكان العراق القدامى عندما عثر فى خرائب المدن القديمة فى سهل شنعار على اختام واوان وخرز من صناعة سكان السند القدماء . كما عثر العلماء فى آسيا الغربية على آثار تثبت أن تجارة السند قد امتدت الى الشمال الغربى ، اى الى البلاد الواقعة حول شواطىء البحر الابيض المتوسط(١) .

كما كانت هناك صلات تربط حضارة الرافدين بحضارة وادى النيل ، فقد ظهر فى الرسوم المنقوشة على فخار « نقادة الثانية » وهى احدى الحضارات المحلية التى نشأت بمصر فى العصر السابق لعصر الاسرات (٥٠٠٠ـ٤٠٠٠ ق.م) ما يوحى بوجود اتصال بينها وبين حضارة سومر(٢) . ومنذ الالف الرابع قبل الميلاد ظهرت نقوش ورسومات على الآثار المصرية دخيلة على الفن المصرى القديم . فلوحة الملك (نعرمر) الاردوازية ـــ وهو من ملوك الاسرة الاولى (٣٢٠٠ ق.م) مثل على احد وجهيها حيوانان خرافيان استطالت رقبتهما والتفت حول بعضهما ، ومثل هذا المنظر وجد على ختم اسطوانى محفوظ بمتحف اللوفر. وقد عرفت الاختام فى حضارة الرافدين منذ عهد حضارة « الوركاء » وهى من الحضارات السابقة للعصور التاريخية فى العراق . واستمر استعمالها هناك ما يقرب من الف عام . وبالاضافة الى ذلك فان الرسوم الموجودة على سكين «جبل العرقى» المحفوظ بمتحف اللوفر والذى عثر عليه فى صعيد مصر لها صلة وطيدة بالرسوم الموجودة على كثير من الاختام الاسطوانية . فالحيوانات الخرافية

---

(١) انتصار الحضارة تأليف جيمس هنرى برستد وترجمة أحمد فخرى ص١٦٠

(٢) الشرق الادنى قبل عصوره التاريخية تأليف محمد أبو المحاسن عصفور صفحة ٦٨ .

والافاعى المتشابكة التى مثلت على مقبض السكين المذكور ؛ عرفتها بلاد ما بين النهرين لفترة طويلة ، ولكنها ظهرت فى مصر لفترة قصيرة ثم اختفت . وعلى نفس المقبض منظر آخر يمثل رجلا يقبض على أسدين ، ويدل شكل الرجل ولباسه ولحيته وشعره الملفوف حول رأسه والمجدول فى ضفائر خلف الرأس على أنه غير مصرى ، ومثل هذا المنظر مألوف فى جميع الازمنة ببلاد ما بين النهرين ولكنه نادر جدا فى مصر(١) .

وفى ميدان التشييد والبناء ظهر فى مصر منذ بدء الاسرة الاولى مصاطب مبنية بالطوب اللبن وجوانبها الخارجية تحتوى على دخلات وخارجات ، وهذا الطراز أيضا من المبانى ظهر فى بلاد الرافدين فى المعبد الابيض فى « أوروك » وهى احدى المدن التى لعبت دورا هاما فى حضارة العراق القديم منذ الالف الثالث قبل الميلاد(٢) .

كل هذه الامثلة تدل على أن هناك صلة كانت تربط بين هذين البلدين ويذكر الاستاذ بروه Parrot فى كتابه عن الحضارة السومرية ان العلماء المختصين متفقون على أن هذه الموضوعات كانت أصلا من بلاد ما بين النهرين وان مصر اقتبستها من العراق(٣) .

وتفصل مصر عن العراق صحراء شبه الجزيرة العربية . وتدل الشواهد على أنها كانت تنعم فى عصورها الحجرية القديمة بظروف مناخية تختلف تماما عن عصرنا الحالى . فقد كان المناخ فى ذلك العصر حارا رطبا أشبه بمناخ المناطق الاستوائية مما ترتب عليه نمو الغابات وكان السكان بدوا يرتحلون من مكان الى آخر سعيا وراء الغذاء . الا أنه منذ بداية العصر الحجرى الحديث أى منذ أكثر من ستة آلاف سنة قبل الميلاد بدأ الجفاف يزحف على أقاليم الشرق القديم بما فيه شبه الجزيرة العربية ، فأختفت الاشجار التى كان انسان العصر السابق يتغذى بثمارها مما اضطره الى أن يهجر مناطق الجفاف ويعيش بالقرب من مصادر المياه . وقد وجدت آثار انهار فى الربع الخالى وفى اجزاء اخرى فى جنوب شبه الجزيرة وهى وديان جافة فى عصرنا الحالى .

---

(١) فجر الحضارة فى الشرق الادنى هنرى فرانكفورت وترجمة ميخائيل خورى ، صفحة ١٣٠ — ١٣١ .
(٢) المرجع السابق ، اللوحتان ٢٢ ؛ ٢٣ .
(٣) الشرق الخالد تأليف عبد الحميد زايد صفحة ٣٢ .

وتنحصر معلوماتنا عن عصر ما قبل التاريخ فى بلاد العرب فيما قامت به السيدة « كيتن تومسون Miss Caton Thomson » الانجليزية والدكتور سليمان حزين المصرى من أبحاث فى مناطق محدودة من جنوب الجزيرة . وتعتقد السيدة الانجليزية انه كانت توجد حضارة فى شرق افريقية وان هذه الحضارة انتقلت الى جنوب الجزيرة العربية . ويخالفها فى الرأى الدكتور حزين الذى يميل الى اعتبار بلاد العرب هى الاقدم حضارة ، أى ان الحضارة نشأت بها ثم انتقلت الى شرق أفريقية . وسواء أخذنا برأى الدكتور حزين او برأى السيدة تومسون فالواقع أننا امام حقيقة ثابتة وهى ان جنوب بلاد العرب ، أى منطقة اليمن الحالية كانت عامرة بالسكان منذ العصور الحجرية(١) .

وهناك أيضا حقيقة هامة وهى منذ الالف الرابع قبل الميلاد ، وربما بسبب قسوة الطبيعة ، نتيجة للجفاف الذى اجتاح شبه الجزيرة العربية ، خرجت منها الهجرات ، وهى الهجرات السامية . وكان المهاجرون يتجهون شرقا الى بلاد الرافدين أو غربا الى بلاد الشام ووادى النيل ، وكان هؤلاء المهاجرون على درجة كبيرة من الثقافة ، فعندما وصلوا الى العراق ما لبثوا ان اندمجوا فى سكان البلاد الاصليين بل ووصلوا الى الحكم فيها . فقد وجد بين خلفاء سرجون الذى أسس الامبراطورية « الاكادية » فى الالف الثالث (٢٣٥٠ ق . م) من يحمل اسماء سامية ، ورغم أن اللغة التى كانت سائدة فى بلاد الرافدين فى ذلك الوقت كانت اللغة السومرية ، الا أنه وجدت نقوش كثيرة مكتوبة بالسامية ، كما وجدت أسماء سامية عديدة فى النقوش السومرية ، أى أن هؤلاء الوافدين اسهموا مع السومريين فى نشأة حضارتهم . ومن غير المعقول ان يتمكن هؤلاء المهاجرون من فرض أنفسهم على شعب ذى حضارة مثل الشعب السومرى ، الا اذا كان هؤلاء المهاجرون أنفسهم قد وصلوا الى مرحلة من التقدم والحضارة تفوق مرحلة أهل الرافدين (٢).

ووفد الى مصر فى الالف الرابع قبل الميلاد عن طريق البحر الأحمر أقوام استخدموا نوعا من السفن ترتفع مقدمتها ومؤخرتها ، هذا النوع من السفن كان مستخدما فى بلاد ما بين النهرين وفى البلاد التى تطل على المحيط الهندى .

---

(١) دراسات فى حضارات الشرق القديم . تأليف أحمد فخرى ، صفحة ١٢٥

(٢) المرجع السابق ، صفحة ١٢٥ .

وترك هؤلاء الاقوام رسوما لسفنهم على صخور الصحراء الشرقية بمصر المطلة على البحر الاحمر . ومن هناك انتقلت عن طريق الدروب الموجودة فى الصحراء الى وادى النيل واختلطوا بسكانه(٢) .

لعبت الجزيرة العربية بحكم موقعها المتوسط بين اقدم حضارات الشرق القديم دورا هاما فى اتصال هذه الحضارات بعضها ببعض . وكانت بلاد العرب تنقسم الى وحدتين جغرافيتين احداهما فى الشمال وتشمل الحجاز ونجد ، واكثر اهلها يعتزون بالبداوة وباستقلال الفرد وحريته ، وسكان الجنوب ويختلفون عن سكان الشمال فهم سكان سهول ومدن وأكثر سكان الجزيرة تحضرا ، اذ ترجع حضارتهم الى الالف الثالث قبل الميلاد وهؤلاء هم اليمنيون الذى اسهموا بقسط كبير فى اتصال هذه الحضارات بعضها ببعض عن طريق التجاره(٣) .

كان هناك طريقان لنقل تجارة الشرق الى الغرب وبالعكس ، احدهما الطريق البرى الذى تسير فيه القوافل مخترقة صحراء البادية من بلاد الرافدين الى بلاد الشام ، وكانت تتعرض لمصاعب كثيرة ولنهب البدو لهم . والطريق الثانى عبر البحر فكانت تنقل التجارة فى البحر الى عدن وهناك يشتريها تجار جنوب الجزيرة العربية — اليمنيون — ويتولون نقلها شمالا بطريق القوافل مخترقين الجزيرة العربية حتى يصلوا الى بلاد الشام ، ومن هناك يحملها تجار آخرون الى مختلف ارجاء العالم القديم .

وكان هناك طريق آخر لنقل البضائع شمالا الى بلاد الشام ، وهو الطريق البحرى وكان أكثر أمنا واقل نفقة وكان ملاحو اليمن الذين يحملون التجارة فى سفنهم ويعبرون البحر الاحمر الى الشاطىء الافريقى ، ثم يسيرون بحذاء الشاطىء من ميناء الى آخر حتى يصلوا الى القصير ومن هناك تنقلها القوافل الى النيل(١) .

لم يقم اليمنيون بدور الوسيط فقط بين حضارات الشرق القديم ولكن كان لهم دورا اساسيا فى هذه الحضارات وعلى الاخص مع مصر ، فمن الناحيـــة

---

(٢) تاريخ الشرق القديم تأليف محمد عبد القادر صفحة ٢٥ .
دراسات فى حضارات الشرق القديم ، تأليف أحمد فخرى صفحة ١٣٧ .

(٣) دراسات فى تاريخ الشرق القديم ، تأليف أحمد فخرى صفحة ١٣٥ .

(١) المرجع السابق ، صفحة ١٣٦ — ١٣٧ .

الدينية نجد ان عبادة الصقر (حور أو حورس) غريبة على مصر ، فالموطن الاصلى لهذا الطائر هو جنوب شبه الجزيرة العربية ، كما أن اسم « حور » غريب على اللغة المصرية ، ولكنه موجود فى الساميه وكذلك فى اللغة العربية ، فقد جاء فى « كتاب حياة الحيوان » لكمال الدين الدميرى ان « الحر طائر صغير انمر اصقع قصير الذنب عظيم المنكبين والرأس ... » وما زالت كلمة حـــر مستعملة حتى الآن فى جهات كثيرة من شبه الجزيرة العربية وما زال كثير من مشايخ الامارات فى جنوب الجزيرة يعنون بتربية الصقور وتدريبها على الصيد . كما ورد فى ديانة قدماء المصريين ذكر اتباع حور وهؤلاء جاءوا من الشرق ومن الجنوب وان كان وصف الطريق الذى سلكوه غامضا الا أنهم استخدموا فى الغالب الطريق الموصل بين البحر الاحمر والنيل مارا بمنطقة وادى الحمامات . كمـــا أن صفات الاله حور التى وردت فى متون الاهرام وهى نصوص دينية تاريخهـــا موغل فى القدم تصفه بكلمة تعنى « الشرق » وباخرى تعنى « افق الشمس » وكلا الكلمتين تشير الى المشرق (١) .

ولم يكن الاله حور هو المعبود الوحيد الذى يرجع موطنه الاصلى الى جنوب بلاد العرب ، بل هناك آلهة اخرى منها الاله «بس» (Bes) اله الرقص والموسيقى عند قدماء المصريين ، اذ قد عثر على تمائم فى اليمن مثل عليها صورة هذا المعبود . ويحتمل أيضا ان البقرة الاليفة قد اتت من شبه الجزيرة العربية ثم نزحت الى أفريقية ، والبقرة الاليفة هى الحيوان المقدس للالهة « حتحور » حسب العقيدة المصرية القديمة . أما الكبش السمين الذيل ، فمما لا شك فيه أن موطنه الاصلى بلاد العرب ، وهذا النوع من الكباش كان الحيوان المقدس للاله أمون المصرى .

فاذا تركنا الدين جانبا وانتقلنا الى الحديث عن التجارة ، نجد أن هناك علاقة وثيقة تربط اليمن بمصر ، فمنذ القرن السادس والعشرين قبل الميلاد ارسل احد ملوك الاسرة السادسة المدعو « ساحورع » بعثة الى بلاد بونت التى تعنى الصومال وما يقابلها من الساحل الاسيوى اى جنوب شبه الجزيرة العربيـــة وقد صور هذا الملك المصرى على جدران معبده ما جاءت به البعثة التى أرسلها من خيرات البلاد واهمها البخور والعطور وبعض الاحجار الكريمة والاصباغ(٢)

(١) المرجع السابق ، صفحة ١٤٩ .
(٢) المرجع السابق ، صفحة ١٤٥ .

ولقد كان الحصول على البخور اللازم للمعابد السبب الرئيسى للبعثات المصرية الى بلاد بونت . وتوالت هذه البعثات منذ الاسرة السادسة وعلى امتداد التاريخ المصرى القديم وكان أهمها تلك البعثة التى أرسلتها الملكة حتشبسوت فى القـــرن الخامس عشر قبل الميلاد ونقشت مناظرها على حوائط معبدها « الدير البحرى» فى غرب طيبة (الاقصر) .

هذه لمحة موجزة عن علاقة اليمن بحضارات الشرق القديم وعندما يتـــم الكشف عن آثار اليمن سنعرف الكثير عن مدى تأثير اليمن وحضارته على تلك الحضارات ومدى تأثره بها .

ملامح أثرية من الجامع الكبير بصنعاء

الدكتور سامى أحمد حسن

يعتبر هذا الجامع أقدم الجوامع التى بنيت فى اليمن عامة وصنعاء خاصة. وهو يقع فى مدينة صنعاء القديمة فى المنطقة المعروفة بسوق الملح ، وقد بنى هذا الجامع فى عهد الرسول فى السنة السادسة من الهجرة وقد اختلفت الروايات فى بنائه ، فقيل ان الرسول أمر وبر بن يحنس الانصارى حين أرسله الى صنعاء واليا عليها فقال : « ادعهم الى الايمان فان اطاعوا لك به فاشرع الصلاة ، فاذا أطاعوا لك بها فمر ببناء المسجد لهم فى بستان باذان من الصخرة التى فى أصل غمدان واستقبل به الجبل الذى يقال له ضين . وفى رواية أخرى ان الابناء لما بعثوا وفدهم الى النبى صلى الله عليه وسلم باسلامهم وقتل الكذاب (الاسود العنسى) بعث الرسول على صنعاء ومخالفيها ابان بن سعيد بن أمية وأمره ان يبنى حائط باذان مسجدا فكان أول من بناه ولم يزل أبان بن سعيد بصنعاء أميرا حتى توفى رسول الله وخلفه أبو بكر الذى جعل يعلى بن أمية واليا على صنعاء وفى رواية أخرى ان الرسول بعث فروة بن مسيك الى اليمن فتوجه الى صنعاء فبنى لهم مسجدا ما بين القلعة الملمة الخضراء الى غمدان . وقال عبد الله بن محمد التيمى ان هذا الرجل الذى قدم مع يعلى هو وبر بن يحنس وان دازويه انزله عند امرأته ام سعيد بنت بزوج فى الكنيسة التى بباب مدينة صنعاء فقرأ عليها وبر بن يحنس القرآن فأسلمت وحسن اسلامها وكان أول من أسلم من أهل اليمن .

ومهما اختلفت الروايات فان الجامع بنى فى عهد الرسول (ص) وكان حينئذ صغيرا جدا مربع الشكل طول ضلعه ١٢ مترا ، به اثنا عشر عمود أشهرها المنقورة (العمود السادس من ناحية الجدار الشرقى الحالى) والمسمورة (العمود التاسع من ناحية الجدار الشرقى أيضا) ، وتحصر الاعمدة الاثنى عشر فيما بينها ثلاثة أروقة ، وكان يوجد بالرواق الشمالى المحراب الاصلى (لم يبق منه غير طاقتيه حاليا) ويبدو أنه لم يكن لهذا الجامع سوى باب واحد يقع فى الناحية الجنوبية ، وخارج هذا الباب توجد مظلة على شكل قبة صغيرة تحملها اعمدة وهى حديثة البناء . وعندما آلت الخلافة الى الوليد بن عبد الملك بن مروان سنة ٨٦هـ كتب الى أيوب بن يحى الثقفى بالولاية على صنعاء وأمره أن يزيد فى

مسجد صنعاء ويبنيه بناء جيدا محكما . فبناه أيوب وزاد فيه من ناحيـــة قبلته الاولى الى موضع قبلته اليوم ، وكان فى المحراب نقوش وصناعة عجيبة بالجص ودهن بالمسك والطيب ، ولما ولى القضاء يحى بن عبد الله بن كليب أمر بهدم تلك النقوش فى المحراب وأعاده الى ما كان عليـــه وقال ان ذلك مكروه لانـــه يشغل المصلى بالنظر اليه . ؟

وفى ايام بنى أمية كانوا يخضبون المساجد بالطيب ، غير ان ذلك الطيب انقطع من المساجد عندما قدم عمر بن عبد الحميد وكان أول من ولى صـــنعاء لبنى العباس وجعل للمسجد عدة أبواب فالباب الشمالى الذى كان يدخل منـــه الامام يقع عن يمين المحراب وهو من الابواب الاثرية الحميرية وقيل انه من أبواب قصر غمدان وبه صفائح فولاذية متقنة الصنع ومن بينها لوحات مكتوبـــة بالمسند . وكان يوجد بابان عن يمين ويسار الباب الشمالى غير انهما سدا بالحجارة وفى عهد العباسيين فى أيام ولاية الامير على بن الربيع جدد عمارة مسجد صنعاء سنة ١٣٦ هـ ويؤيده ذلك ما هو مكتوب باللوح الابيض الموجود بالصحن بالخط الكوفى ونصه كالآتى :

١ ـــ بسم الله الرحمن الرحيم .

٢ ـــ لا اله الا الله وحده لا شر

٣ـــ يك له محمد رسول الله

٤ ـــ ارسله بالهدى ودين الحق

٥ ـــ ليظهره على الدين كله ولو

٦ ـــ كره المشركون

٧ ـــ أمر المهدى عبد الله

٨ ـــ أمير المؤمنين اكرمه الله

٩ ـــ باصلاح المساجد وعمارتها

١٠ـــ على يدى الامير على بن الر

١١ـــ بيع أصلحه الله فى سنة

١٢ــ ست وثلاثين ومائة (فاعظم)

١٣ــ الله اجر المهدى وثقل عمله .

وفى سنة ٢٦٥ هـ نزل سيل عظيم خرب المسجد فقام بعمارته وتجديده الامير محمد بن يعفر الحميرى بعد عودته من الحج ، وذكر بعض المؤرخين ان عمارة المسجد المتأخرة وسقوفه المتقنة كانت بأمر الامير ابى يعفر ابراهيم بن يعفر الحميرى الحوالى وكانت جميع أخشاب السقف من الساج ، وفى سنة ٣٣١هـ توفى الامير أسعد بن أبى يعفر ابراهيم فى حصن كحلان يحصب ونقل الى شاهرة التى اوقفها على جامع صنعاء .

ويذكر بعض المؤرخين أن على بن الفضل نزل الجامع عقب عودته من حصار صاحبه ابن حوشب فى رمضان سنة ٢٩٩ هـ وحدث مطر غزير فأمر على ابن الفضل بحبس الماء فى سطح الجامع ونظرا لتجمعها فقد اتلفت الزخارف بهذا السقف ، ورغم ذلك فالسقف الحالى فى منتهى الابداع ونشاهد آيات من القرآن كتبت بالخط الكوفى وهى محفورة فى الخشب .

وذكر عمارة اليمنى فى تاريخه أن الامير الحسين بن سلامة مولى بنى زياد ملوك زبيد اصلح جامع صنعاء فى آخر القرن الرابع ، غير أنه يشك فى هذه الرواية لأن صنعاء كانت فى ذلك الوقت فى يد الامام القاسم بن على العيانى والامام يوسف الداعى بن المنصور بن الناصر بن الامام الهادى . وفى سنة ٥٢٥ هـ فى عهد الملكة السيدة بنت أحمد قامت بتوسيع الجامع وذلك بزيادة الجناح الشرقى الذى لا يزال قائما حتى الآن وأمرت ان يكتب فيه اسماء جميع الائمة من على بن أبى طالب حتى امام عصرها واثبتت ذلك فى الحائط القبلى من الجامع ولكن الكتابة أزيلت وام يترك منها غير البسملة وأعيد بالجص فى عهد دولة الملك حاتم بن أحمد اليامى الهمدانى ثم كشط فى عهد دولة بنى يحيى من الاشراف .

وفى سنة ٦٠٣ هـ قام الامير وردسار بن نيامى بتجديد المنارة الغربية بجامع صنعاء ويؤيد ذلك الكتابة المدونة بلوح الحجر الابيض الموجود بجدار هذه المنارة من الجهة الشرقية ونصها كالآتى :

« المسجد الجامع بصنعاء أمر ببنائه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل مسجد الجند وأعيدت عمارة هذه المنارة الغربية من أساسها الى أعلاها

بأمر الامير علم الدين وردسار بن نيامى انشاكانى أنفق عليها من ماله فى سنة ٦٠٣ هـ بعد أن كملت عمارة الجبانة مصلى العيدين مقدم صنعاء . ومصلى العيدين وضع على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ؛ وأعيدت عمارته من أساسه الى علوه واحتفرت البير هكذا التى فيه وعمرت هى وضيعتها عمارة أخرى بأمر الامير علم الدين وردسار وانفق عليه من ماله ووقف الضيعة والبير على مصالح الجبانة » .

وقيل أن الامير وردسار أصلح المنارة الشرقية للجامع بعد ذلك وحفر البئر وعمر المطامير والبركة ، ويقال أن القاضى السرى بن ابراهيم هو الذى بنى المطامير بجامع صنعاء سنة ٦٠٦ هـ وساعده على ذلك وردسار الذى عمر البئر وعمل مجرى منها الى المطامير . وفى عهد الامام الناصر صلاح الدين محمد بن الامام المهدى على بن محمد (المتوفى سنة ٧٩٣ هـ) جددت عمارة المطامير والبركة وهى قائمة حتى الآن .

وفى سنة ٩٨٤ هـ قام الوزير مراد باشا باصلاح منبر الجامع ، ونظرا لأن وضعه كان يحول دون اكمال الصف الاول من المصلين ، قام امير المؤمنين المتوكل على الله يحيى بن الامام المنصور بالله محمد بن يحيى حميد الدين باصلاح وضع المنبر سنة ١٣٣٨ هـ وهذا واضح من الكتابة الموجودة بأعلى المنبر وهى « أمر بوضع المنبر على أحسن وصف مناسب لاصلاحه ولوصل الصف فى عهد الامام يحيى بن محمد شوال ١٣٣٨هـ » .

ويلاحظ أعلى محراب الجامع كتابات بالجص نصها « عمل هذا المحراب بعناية القاضى الاجل ضياء الدين عمر بن سعيد الربيعى أجزل الله ثوابه فى سنة ٦٦٥ . أما فى الجانبين « عمل هذا المحراب العبد الفقير الى الله عبد الصمد بن أحمد بن ابى الفتوح وولده أحمد وجعلا ما يستحقانه من الاجرة على ذلك صدقة لله تعالى طلبا للثواب الجزيل تقبل الله منهما » .

كذلك قام الوزير سنان باشا فى أوائل القرن الحادى عشر بعمارة الصرح المعروف الآن بالشماسى ورصفه بالاحجار وعمارة القبة الموجودة وسط الصرح . وعندما حدث خلل فى المنارة الشرقية فى أوائل القرن الرابع عشر قام الحاج محمد بن على صبرة باصلاحها ، ويرجع الى المتوكل على الله يحى بن الامام المنصور بالله محمد بن يحى حميد الدين بتعمير المكتبة التى تقع غرب المنارة

الشرقية ويصعد اليها من باب يقع فى انرواق الجنوبى للجامع سنة ١٣٥٥ هـ وبها الكتب النفيسة التى وقفها للانتفاع بها ، كما ضم اليها ما عثر عليه من كتب من أيام أسلافه ، ولهذه المكتبة أمين ومعاون يشرفان عليها . ومما قام به أيضا عمارة السقف الاوسط فى الجناحين بجامع صنعاء ويصعد اليه كثير من الناس فى صلاة الجمعة نظرا لازدحام الجامع ، وقد صنع هذا السقف من الاخشاب الجاوية والالواح الهندية ، كما حفر البئر الغربية بالجامع وأصلح سواقيها الى مطامير الجامع . وفى مؤخر الجامع سبيل للشرب أقامه الشيخ محمد بن يحيى الجندارى فى أول القرن الرابع عشر ، كما يوجد فى شرقى الجامع سبيل للشرب عمره على الزبيدى .

تخطيط الجامع حاليا (المسقط الافقى) :

هذا الجامع مستطيل الشكل طوله ٨٤ر٦ وعرضه ٦٩ر٣ مترا بينما كان فى أيام معاذ بن جبل فى عهد الرسول مربع الشكل طول ضلعه ١٢ مترا وبه ثلاثة أروقة واثنا عشر عمودا ومحراب من الجص ، غير أن الجامع جرت عليه عدة تجديدات منذ العهد الاموى . وأصبح الجامع الآن يحتوى على صحن يحيط به أربة أروقة أكبرها رواق القبلة وبه خمس صفوف من الاعمدة ، أما باقى الاروقة الثلاثة فبكل منها ثلاثة صفوف من الاعمدة ، ويبلغ عدد أعمدة الجامع مائة وثلاثة وثمانين عمودا . أما بالنسبة للمحاريب فكان يوجد محراب من الجص فى عهد معاذ بن جبل لم يبق منه غير طاقتيه ، ويوجد محراب فى الرواق الجنوبى ومحراب فى كل من الجناحين الشرقى والغربى ثم محراب كبير فى الرواق الشمالى « رواق القبلة » وبجانب هذا المحراب منبر خشبى جميل الصنع . أما أبواب الجامع فهى اثنا عشر ، ثلاثة بجدار القبلة المفتوح ، منها الباب الأوسط وعن يمينه ويساره بابان مسدودان ، خمسة بالجدار الشرقى ترتيبها من جهة القبلة كالآتى : باب الرعد ــ الباب المستمر فتحه ــ الباب الاوسط ، باب الدحاح ، ثم الباب الطويل بجانب باب المطاهير . وعند دخول الجامع من جانبه الغربى يوجد مدخلان أحدهما يؤدى الى المطاهير والآخر يؤدى الى داخل الجامع ، ويبعد المدخل المؤدى الى المطاهير نشاهد مكان الصخرة الملمة وهى على شكل قاعدة قليلة الارتفاع يليها عمود صغير اسطوانى الشكل ، ونحن لا نؤيد هذا الرأى لأن حجم الصخرة يكون عندئذ أكبر وليس بالشكل الحالى .

وكان يوجد بأعلى الجدار الشرقى للجامع كتابة كوفية لم يبق منها سوى البسملة سيأتى ذكرها عند الكلام عن الزخارف والكتابات .

الزخارف والكتابات :

ان أهم ما يلفت النظر هو سقف الرواق الغربى بالجامع اذ انه مقسم الى حشوات خشبية مربعة بشكل تحتلها الزخارف النباتية من العناصر النخيليـــة والأكانتس وهذه الزخارف تشبه الزخارف الموجودة فى قبة الصخرة وهنا تبدو التأثيرات الأموية ، وبالاضافة للزخارف النباتية توجد أشكال هندسية متعددة وتمثل الاشكال (١ ــ ٤) العناصر الزخرفية النباتية والهندسية المختلفة .

وتتمثل الاشكال الاساسية فى الورود والنجوم (٥ ــ ٦) بالاضافـــة الى أشكال القلوب والصلبان كما توجد نماذج متعددة من الاوراق النخيلية (٧ــ٨) وتمثل الاشكال (٩ــ١٠) نماذج من أوراق النبات الثلاثية والخماسية وأوراق اللوتس والوريدات السداسية . ومن هذه الاشكال والنماذج نرى الثراء الكبير فى الزخرفة بالاضافة الى الالوان البديعة التى ما زالت اثارها واضحة الى اليوم. أما الكتابات فنلاحظ وجود بقاياها وخاصة فى أعلى الجدار الشرقى للجامع وهى كتابة بالحروف الكوفية ولم يبق منها سوى البسملة ونصها :

١ ــ بسم الله الرحمن الرحيم بركة

٢ ــ من الله (. . . . .)

وتوجد عدة سور من الآيات القرآنية فى الرواق الغربى من الجامع ففـــى الناحية الشرقية من هذا الرواق (السورة ٢٢ آية ٧٧ ، ٧٨) ، (السورة ٢١ ، آية ١٠٤ ، ١٠٨) وفى الوسط (السورة ٣ آية ١٠١) وفى الناحية الغربية (السورة ٢ آية ٢٥٥) ونصوص هذه الآيات بالترتيب كالآتى :

الآيات ٧٧ ، ٧٨ : « يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبـــدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون » ، وجهدوا فى الله حق جهاده هو اجتبكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم وهو مسمكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فاقيموا الصلاة وآتوا الزكوة واعتصموا بالله هو مولكم نعم المولى ونعم النصير » .

الآيات ١٠٤ ــ ١٠٨ ، الآية ١٠٤ « يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب كما بدانا أول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين » .

الآية ١٠٥ « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » .

الآية ١٠٦ « ان فى هذا لبلغا لقوم عابدين » .

١٠٧ « وما ارسلناك الا رحمة للعالمين » .

الآية ١٠٨ « قل انما يوحى الى انما الهكم اله واحد فهل أنتم مسلمون »

الآية ١٠١ : يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كفرين » .

الآية ٢٥٥ :

« الله لا اله الا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الارض من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه الا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلى العظيم » .

وهكذا نجد أن الرواق الغربى يعتبر مثالا رائعا للزخارف والنصوص القرآنية مما يضفى على هذا الرواق الروعة والجمال .

ولا شك أن الجامع الكبير بصنعاء يعتبر أقدم جوامع اليمن قاطبة واعظمها عمارة وأروعها زخرفة ونقوشا ولهذا كان من الواجب المحافظة على هذا التراث المعمارى حتى يبقى شاهدا على فن العمارة الاسلامية الاصيل .

ولا يسعنى فى ختام هذا البحث الا أن أنوه بمن سبقوا فى هذا المجال من العلماء الشيخ الرازى فى كتابه تاريخ مدينة صنعاء تحقيق حسين العمرى ، سهيل زكار ، الشيخ الحجرى فى كتابة مساجد صنعاء ، ثم الاساتذة بربارا فنستر فى مقالها « جامع صنعاء بمجلة المعهد الاركيولوجى الالمانى — الجزء التاسع — عام ١٩٧٨م .

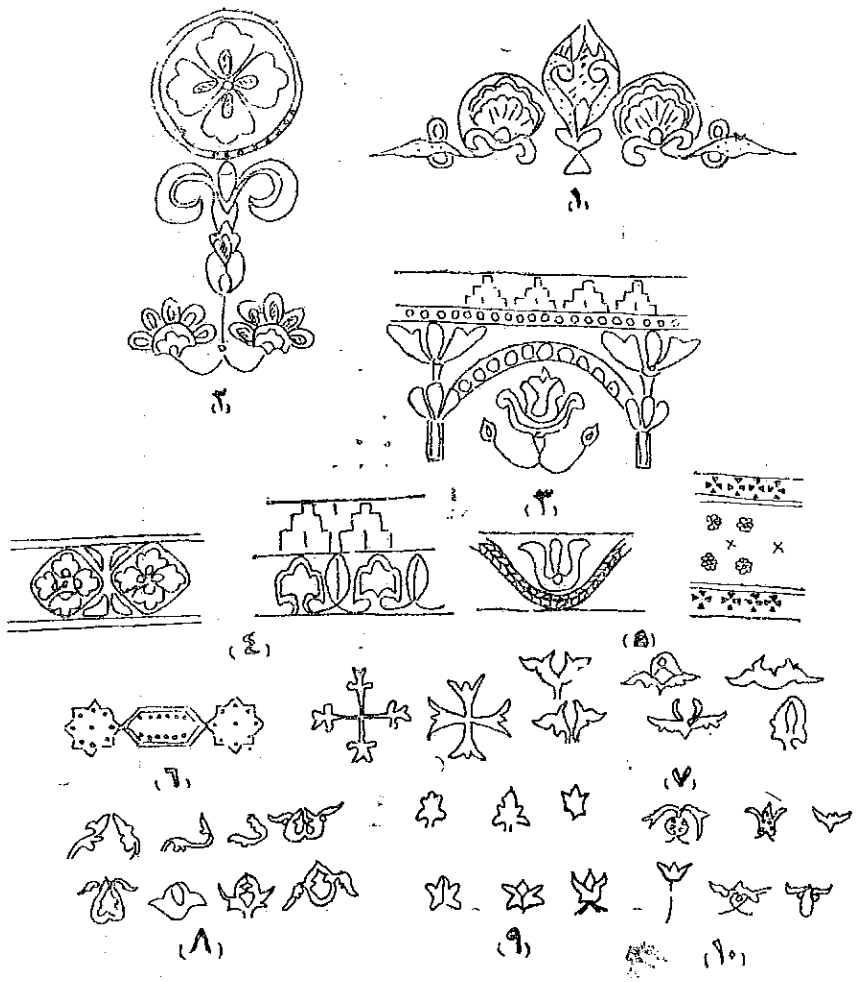

زخارف سقف الرواق الغربي
بالجامع الكبير

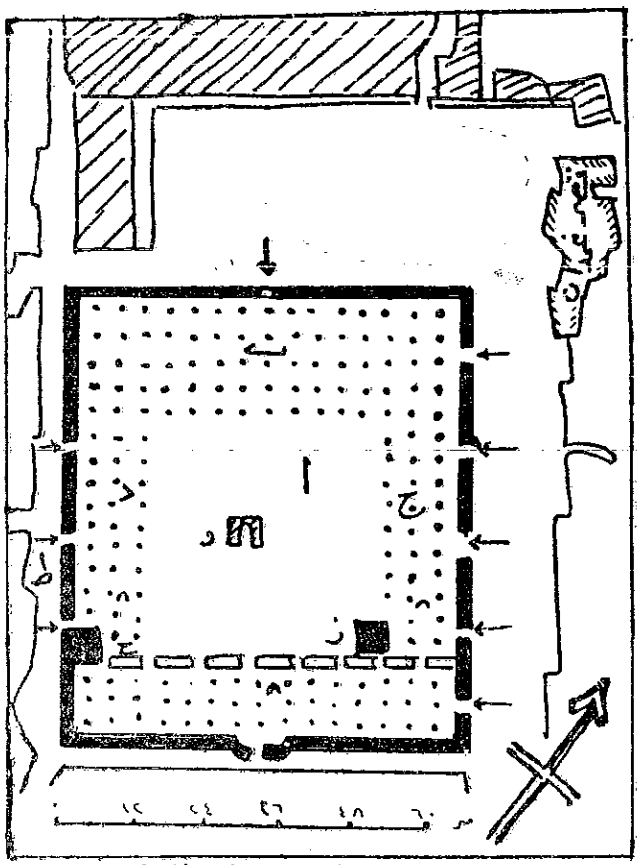

أ الصحن
ب رواق القبلة
ج اسوار الشرقية
د الرواق الجنوبي
هـ " الجنوبي
و قمة
ز المنارة الشرقية
ح " الغربية
ط المطاهير

انطفـــــاء

« دميان جرانت »

ترجمة الدكتور محمد عبده غانم

ذات مساء
بينا أنا فى قاعة الطعام
فى فندق بصنعاء
أقرأ فى كتاب
انقطعت فى مكتبى الانوار
وفى المنازل المقابلة
عبر مسيرة المدينة المجيدة
ودورها المشيده
من قطع مسبوكة
يدهمنا الظـــلام
كأنـــه موجـــه
وتعتلى الصرخات
وتوقد الشـــموع
ويلتقى النزيل بالنزيل بالنزيل
يلتمسون راحة على السطوح
ومن ذراها يشرفون

على المدينة التى يغمرها الظلام

وفى السماء علق المساء

فلقة بدر مثل زر منكسر

وحوله قد غرزت نجوم

كأنها هام الدبابيس

وتحتنا فى الشارع الغارق فى الظلام

يحاول المصباح من سيارة

أن ينهش الظلام فى أشكاله المسدسة

نهشا ضعيفا

واقبلت فى المشرق البعيد

على الطريق الآتية

من الحديدة

سيارة تتبعها سيارة فى وحدة الظلام

وحافلات زينت الواحها

تنبعث الانوار منها فى انحدار

كالشرر الهابط فى بطء

وفى ثنايا الانتظار

كأنما تسخر منها والظـــلام

تفجرت خلف الجبال عاصفة

عاصفة من كهرباء

وبرقها البارد يخطف العيون

علامة فى واسع السكون

وبرد المســـاء

وانسحب الضيوف

لكننى بقيت

وكنت أرتعش

منجذبا نحو كثافة الظلام المختزن

ذلك ما قد كان فى الماضى وما سوف يكون دائما

قبل وبعد فترة مدفونة مؤتلقة

هذا الظـــــلام

اعظم فى روعته من خوفنا من الظـــلام

لأنه شطر الضياء الآخر .

BLACKOUT

Evening. I am reading in the dining room.
in a hotel in Sana'a. Suddenly
the lights go out; here at my table, in
the houses opposite, across the whole
square city with its houses built of blocks
the darkness breaks upon us like a wave
Cries, candles; and the few guests congregate
for comfort on the flat roof and look out
over the black map of the town. A half
moon hangs its broken button in the sky
where stars are stuck like pins. In streets below
car headlights nibble feebly at the cubes
of darkness, and away east on the steep
Hodeida road the lights of lonely cars
and decorated lorries glimmer down
like slowly falling sparks. And while we wait
as if in mockery an electric storm
breaks out behind the mountains flashing its
cold lightnings in wide silence like a sign.
The night is cool now, and the other guests
go in. I stay there, shivering but drawn
to what was and will always be, before
and after our bright, buried interlude :
a darkness greater than our fear of it.
darkness that is the other half of light.
Damian Grant

أستاذ زائر بقسم اللغة الانجليزية كلية الآداب جامعة صنعاء من العـــام الدراسى ١٩٧٩/٧٨ .

IN THE NAME OF GOD, THE COMPASSIONATE AND THE MERCIFUL EDITORIAL NOTE

At least in size the second issue of our Journal is certainly more impressive than the first. This arises not from a greater number of contributions as much as from some of the contributions being rather extensive, one of them, for instance covering as many as 75 v pages. Yet the credit for this issue being a step forward may be largely due to the greater variety of subjects explored which range from geography, history and archaeology to religion, philosophy, language, literature and literary criticism.

Yemen again has received its fair share in this issue as reflected in the articles dealing with the problems attending agricultural development, literary criticism in Yemen before 1948, the contribution of Yemeni scholars to the sciences of the Arabic language, the relations between Yemen and the ancient civilizations, certain archaeological aspects of the large mosque of San'a, and, for the first time, a poem in English about San'a at night and its Arabic version.

Apart from this poem which is shared by both sections, all the contributions to the Arabic section of the Journal come from inside the University, while two of the three contributions to the English section come from outside.

The contributions in prose reflect, in general, a high standard of academic investigation by masters of the craft. It is hoped that the reader, though he may not agree with all the conclusions reached, will certainly relish the high standard of excellence presented.

of working toward the resolution of such enigmas because, he acknowledges, it is impossible to meet all of the major criticism of any approach to literature or culture studies.

Not that he needs to meet all such criticisms. His work has a quality of endurance that marks it as a classic in popular culture studies. Its interdisciplinary approach to formula studies has already launched numerous studies going beyond the stereotypical or archetypal bases of popular literature and film. And it is responsible for instigating studies in the area of popular serials, ranging from the Tarzan series of Edgar Rice Burroughs to the thousands, literally, of Harlequin romances, previously all but neglected by scholars.

Available in paperback, **Adventure, Mystery, and Romance** isa welcome addition to literature courses as well as to culture courese. Cawelti's bibliographic notes are indispensible aids to scholars confronting the myriads of primary and secondary works associated with the popular literature and film genres on which The book focuses : detective stories, westerns, and melodramas.

It is Cawelti's methodological inroads in **Adventure, Mystery, and Romance** which signal a breakthrough in popular culture studies. But it is the step which will build on Cawelti's success that is ultimately most important. It is this next step, hopefully. which will establish, to the satisfaction of academics and consumers of popular culture alike, the relationship between literature or film and the culture which produces them.

James R. Nesteby

tique (1970), and, earlier, in **Apostles of the Self-Made Man** (1965). With enlightening results, Cawelti early on attempted to define in **Apostles of the Self-Made Man** the changing popular concepts of success by investigating major American personalities as they are portrayed in sources ranging from succes manuals to popular novels. **The Six-Gun Mastique** further refined his methodology, and in **Adventure, Mystery, and Romance** Cawelti put forth his «four interrelated hypotheses about the dialectic between formulatic literaturl and the culture that produces and enjoys it».

> (1) Formula stories affirm existing interests and attitudes by presenting an imaginary world that is aligned with these interests and attitudes . . (2) Formulas resolve tensions and ambiguities resulting from the conflicting interests of different groups within the culture or from ambiguous attitudes toward particular values . . (3) Formulas enable the audience to explore in fantasy the boundary between the permitted and the forbidden and to experience in a carefully controlled way the possibility of stepping across this boundary . . (4) Finally, literary formulas assist in the process of assimilating changes in values to traditional imaginative constructs (pp. 35-36)

Such connections between literature and the culture are not always clearly explained, Cawelti admits, and in some cases are to be taken on faith becouse they cannot be explained. Cawelti makes this admission after a decade and a half

Although he can show how formula stories may reflect porticular cultural milieus, Cawelti, like all who have attempted to do so, is yet unable to produce a means of validating the assumption that formula stories actually to reflect or refract cultural milieus. What he is most successful in doing - - advancing proof that escapist formula Stories should be viewed as a form of literary expression embodying its own values and goals rather than as a form of inferior literature - - is, however, an important contribution to popular culture studies and to American culture studies.

As both of these fields of study advocate, Cawelti moves beyond the strictures of disciplines by worhing both in and across fields like history and literature. While each discipline has its own perspective on culture, Cawelti takes the stand that a culturalist scholar needs more than one of these perspectives in order to begin to see clearly what really is the cultural significance of the material being investigated.

Cawelti's background is not atypical of scholars now working in popular culture studies since he arrived via American shifting scholars move into the relatively recent enterprises of American culture studies and popular culture studies in which the state of theory and methodology is in flux. This flux, however, as witnessed to by the **Journal of Popular Culture's** special issue on «Theories and Methodologies in Popular Culture» (Fall 1975), has the attribute of encouraging an active, on-going, scholarly debate.

In many respects, **Adventure, Mystery, and Romance** is an elaboration of ideas and a sophistification of techniques already set forth in works such as Cawelti's **The Six-Gun Mys-**

CAWELTI'S METHODOLOGY AND POPULAR CULTURE STUDIES

Review of John G. Cawelti's **Adventure, Mystery, and Romance : Formula Stories as Art and Popular Culture.** Chicago : University of Chicago Press, 1976. 336 pages. $ 15.00 hardcover.

Building upon myth and symbol scholarship, John G. Cawelti's **Adventure, Mystery, and Romance** wrestles with the relationship between popular literature and the culture which produces it. Cawelti's study may prove to be as pivotal to popular culture studies as Henry Nash Smith's **Virgin Land : The American West as Symbol and Myth** (1950) was pivotal to American culture studies.

The area of investigation is controversial since many scholars continue to insist upon an elitist approach to culture. In defiance of this elitism, Cawelti advances a methodology in **Adventure, Mystery, and Romance** which seeks to provide substantiation for viewing, as his subtitle indicates, «formula stories as art and popular culture». The Book thoroughly supports the premise that formula stories, both in literature and in film, are important as art. But it is not entirely successful in fulfilling its promise of being important to culture studies for it falls short of substantiating cultural insights on the basis of the evidence provided by formula stories.

first is that it is primarily concerned with subject-matter, that, is, with art as propaganda. The second is its general tendency to be ambivalent, and certain parts, even manifestly inconsistent. Yet, as John Wain has once remarked, it 'matters'.

> ..When I first read D.H. Lawrence's novels, at theage of about twenty, I was puzzled by the fact that there did not seem to be any classification of the characters into 'good' and 'bad'. Lawrence seemed sympathize with all of them about equally and this was so unusual as to give me the feeling of having lost my bearings.(1)

Orwell, who Judges Lawrence as a bourgeois writer, rejects the claim of some critics that he is a proletarian writer. To him, the true proletarian writer is Jack Hilton. He describes Hilton's **Caliban Shrieks** as witty and presenting its readers with a genuine working class outlook :

> ..The humorous courage, the fearful realism and the utter imperviousness to middle-class ideals, which characterize the best type of industrial worker, are all implicit in Mr. Hilton's way of talking ..
>
> Books like this, which come from genuine workers and present a genuinely working-class outlook, are exceeding by rare and correspondingly important. They are the voices of a normal silent multitude.(2)

I should like to close this piece of research with the hope that it has been reasonably successful in throwing into relief two prominent features of Orwellian literary criticism. The

---

(1) «Review of Caliban Shrieks by Jack Hilton», CEJL, Vol. 1, p. 173.

(2) «Raffles and Miss Blandish», CEJL, Vol. 3, pp. 258-9.

stories as lyrical poems, and considers it quite natural that a short story should have the properties of a lyrical poem : «.. a short story can be purely lyrical, whereas a novel has to take account of probability and has to be cold-bloodely constructed».(1) Lawrence is in essence a lyric poet, who has undisciplined enthusiasm for 'Nature' and «His stories are a kind of lyric poem, produced by just looking at some alien, inscrutable human being and suddenly experiencing an intense imaginative vision of his inner life».(2) Lawrence's strongest point lies in his «power of undlrstanding, or seeming to understand, pjeople totally different from himself».(3) He also finds that Lawrence's short stories are superior to his novels in that they render his philosophy of an instinctive life more successfully because we do not have to know too much about the characters that appear in them, as it is the case with novels. In these stories, he «often seems to bypass the novelist's problem by making all his charaters equally sensitive. All thepeople in his stories, even those to whom he is hosutile, seem to experience the same hind of emotions.»(4),

However, Orwell disagrees with Lawrance's vision of the inner lives of his characters. He also complains that Lawrence creates undifferentialted characters in his novels. He critit:cises the modern novel, as written by Lawrence and others, for freeing itself from absolute values, according to which weakness must be respected, and fight is right and wrong is wrong, whoever wins.

---

(1) Ibid., p. 52.

(2) & (1) & (4) Ibid., p. 51.

is essentially Lawrence's love of nature that endears him to Orwell's heart.

It is surprising how little Orwell has written about writers whom he praises and admires. His criticism of Lawrance, Joyce and Conrad occupies a very limited space in his four-volume Penguin collection of essays. Not only does Orwell sympathize with Lawrence, but also he admits that despite his difference from him, he finds it difficult not to agree with him :

> ..When Lawrence prefers the Etruscans (his Etruscans) to ourselves it is difficult not to agree with him, and yet, after all, it is a species of defeatism, because that is not the direction in which the world is moving. The kind of life that he is always pointing to, a life centring round the simple mysteries - - sex, earth, fire, water, blood - - is merely a lost cause.(1)

Orwell's criticism does not cover Lawrence's major fictional works. It only deals in some detail with **The Prussian Officer and Other Stories.** In his review of this collection of short stories, he says that he is deeply impressed by Lawrence's deep feelings for the Beauty of Nature. He is also impres sed by Lawrence's insight into the horror of military discipline. He praises him for seeming «to have an extraordinary power of knowing imaginatively something that he could not have known by observation».(2) He reads Lawrence's short

---

(1) «inside the Whale», op. cit., p. 556.

(2) « Review of The Prussian Officer and Other Stories by D. H. Lawrence », CEJL, Vol. 4, P. 51. ,

pessimism', that is to «keep out of politics, make a sort of oasis within which you and your friends can remain same, and hope that somehow things will be better in a hundred years».(1) Yet, he vindicated socialism in a Johnsonian conservative spirt of despair :

> ..Perhaps some degree of suffering is ineradicable from human life, perhaps the choice before mban is always a choice of evils, perhaps even the aim of Socialism is not to make the world perface but to make it better.(2)

The appearances of the literatures of Orwell and D.H. Lawrence may give us the false impression that they are poles apart and irreconcilable. Nothing can be more misleading than this hasty conclusion. Both to say the least, have their points of similarity. Orwell is not and can never be, mystic after the Lawrentian fashion. Yet, he seems to have believed in a sort of spiritually that was based on satisfaction of the demands of the flesh, these demands being bread and butter' in his case. Likewise, Lawrence believes in another sort of spirituality based on similar demands, with the one difference that the Orwellian insistence on bread and butter is substituted by 'sex'. Orwell also seems to subscribe to Lawrence's view that a healthy sexual relation between a man and a woman is the bed-rock of a healthy and normal life. Some of his writings reflect how the disorder of laissez-faire capitalism (which he eagerly wishes to see replaced by socialism) disturbs this healthy and normal relation. And most importantly, both writers are romantic in varying degrees. It

---

(1) & (2) Ibid., p. 282.

anti-revolutionary position..»(1) which is reminiscent of Orwell's own swing in 1984 towards the same position. Orwell, whe describes **Arrival and Departure** as «a tract purposing to show that revolutionary creeds are rationalizations of neurotic impulses», proceeds to explain that, granted that revolutionaries are neurotics, this does not invalidate the Socialist case :

> ..Of course it is true in many cases, and it may be true in all cases, that revolutionary activity is the result of personal maladjustment. Those who struggle against society are, on the whole, those who have reason to dislike it, and normal healthy people are by war.. But after all, this does not invalidate the Socialist case. Actions have results, irrespective of their motives. Marx's ultimate motives may well have been envy and spite, but this does not prove that his conclusions were false.(2)

No statement can so obviously show that Orwell is near-Marxist than the last one in the quotation above. It also shows that he is not hostile to the Marxist theory as theory, but to totalitarian Marxist practice.

Besides, Orwell's resemblance to Koestler is not a tenuous one. Though different from Koestler in that he still holds on to Socialism, we must not be oblivious of the fact that his belief in socialism is based on despair rather than hope. He is too militant and positive to accept Koestler's 'short-term

---

(1) Ibid., p. 278.

(2) Ibid., p. 280.

sion from dictatorship. And as far as subject-matter, and even fictional atmosphere, are concerned, there are many similarities between Koestler's **Darkness at Noon** and Orwell's **1984.** Both set out «to write contemporary history, but **unofficial** history, the kind that is ignored in the text-books and lied about in the newspapers».(1) Orwell regrets that England is lacking in what one might call concentration-camp literature, and that «there exists in England almost no literature of disillusionment about the Soviet Union». Besides, whatever political literature England has produced is of no aesthetic value. He admits many European literatures are ahead of English literature in this respect, and he cites the name of Arthur Koestler as an evidence of the superiority of foreigners to the English in producing concentration-camp literature. Following in the footsteps of Koestler, Orwell himself has stepped in to fill what he considers a deplorable gap.

Orwell describes Koestler's position as one of pessimistic conservatism, and his main theme as the decadence of revolutions owing to the corrupting effects of power. «Revolutions always go wrong - - that is the main theme». Orwell admires Koestler for rendering what might have been turned into a polemical tract by an English writer, into an art that has a historical and an aesthetic value. In **Darkness At Noon,** which reaches 'the stature of tragedy', Koestler has digested his material and can treat it on the aesthetic level.

Pointing out that in his later works Koestler farther recoils from revolutions, Orwell says, «Later, in **Arrival and Departure,** Koestler swings over much further towards the

(1) «Arthur Koestler», CEJL., Vol. 3, p. 271.

ments, including flimsy racial generalizations about the 'French soul', the 'German soul', etc. He is an extreme pacifist and on the other hand has a yearning for violence, provided that it is happening somewhere else, thinks life wonderful but hopes and expects to see everything blown to pieces before long.. He refuses to bother about the difference between Fascism and Communism, because 'society is made up of individuals' .. Actually, those who talk in the same vein as Miller always take care to stay inside bourgeois-democratic society, making use of its protection while disclaiming responsibility for it .. (1)

Orwell, who regrets the advent of an age totalitarianism, and the end of the liberal-Christian culture, has much in common with another expatriate and a Hungarian writer-namely Arthur Koester. But wherease Koestler has completely lost faith in socialism and turned his back on it, Orwell, though doubtful, and even pessimistic about its future, holds on desperately to it. There is some difference between the two men, but it does not appear to be a difference of kind; only a temperamental difference, that is, they react rather differently to, recognizably, the same stimulus. And in the final analysis, the views of both men converge more than they diverge.

Both Orwell and Koestler are deeply preoccupied with the nature of totalitarianism; they share an intense revul-

---

(1) Ibid.

to write a bold. florid, rhythmical prose of a kind that had hardly been seen in English for the twenty past years, he harshly stigmatizes him as a 'charlatan' of one kind or another. «..agreat deal of his later writing is simply a banging on the big drum - - noise proceeding from emptiness.»(1) He also writes that it is astonishing how little Miller says in his book **The Cosmological Eye,** and how impressively he says it. This book is littered with arresting but meaningless phrases. It is simply rubbish, attractively presented. One of Miller's tricks is to be constantly using apocalyptic language, and by the free use of sush a language.

> ..The most banal statement can be made to sound picturesque, while what is outright meaningles can be given an air of mystery and profundity. Even the title of this book, **The Cosmological Eye,** doesn't actually mean anything, but it sounds as though it **ought** to mean something».(2)

Underneath Miller's flamboyant language lie mostly commonplace and often reactionary opinions, which boil down to a sort of nihilistic quietism. Orwell says that he found Miller's early irresponsibility harmless but later his irresponsibility grows too pernicious to be tolerated or winked at :

> ..He disclaims interest in politics.. but in fact he is constantly making political pronounce-

(1) «Review of The Cosmological Eye», CEJL, Vol. 4, p. 134.

(2) Ibid., p. 135.

although Orwell considers this attitude healthier than the attitudes that prevailed in the twenties' and thirties', he criticizes Miller for his acceptance of the age in which he lives, and he describes this attitude as irresponsible :

> ..To say 'I accept' in an age like our own is to say that you accept concentration camps, rubber truncheons, Hitler, Stalin, bombs, aeroplanes, tinned food, machine-guns, putsches, purges, slogans, Bedaux belts, gasmasks, submarines, spies, **provocateurs,** press censorship, secret prisons, aspirins, Hollywood films and political murders.(1)

However, he admits that Miller's acceptance of the world-process, and his passivity to experience has enabled him to get nearer to the ordinary man for the ordinary man is also passive. Miller is «a voice from the crowed, from the underling, from the third-class carriage, from the ordinary, non-political, non-moral, passive man.(2) But «Miller's 'ordinary man' is neither the manual worker nor the suburban householder, but the derelict, the declasse, the adventurer, the American intellectual without roots and without money.»(3)

At last Miller completely loses the favour of Orwell, who withdraws his claim that Miller may be the starting point of a new 'school'. His criticism of Miller's **The Cosmological Eye** becomes severe. Though he still praises Miller's ability

(1) Ibid. p. 548.

(2) Ibid. p. 549.

(3) Ibid., p. 550.

and scope of **Black Spring,** he fervently lauds its prose-style : «It is the kind of prose which, when I read it, makes me feel that I should like to fire a salute of twenty-one guns.»(1) Puzzingly enough, he withdraws this euology in another place in his writings : «But do I mean that Miller is a 'great author', a new hope for English prose ? Nothing of the kind».(2)

Orwell first met Miller at the end of 1936. And when Miller learnt of his intention to join the Spanish Civil War in defence of democracy against the forces of Fascism, he described Orwell's act as idotic and stupid. The fact, Orwell explains, is that Miller is a man who believes the world-process to be outside his control, and who in any case hardly wishes to control it. Commenting on Miller's passivity to the world-process, he says that there is no question that Miller felt safe inside a Jonah's whale. In a whale's belly, which is simply a womb big enough for an adult, a person is completely safe, and indifferent to whatever happens in the external world. «For the fact that being inside a whale is a very comfortable, cosy, fomelike thought.»(3) Unlike the conservative writers of the twenties', who ignore the world-process, and unlike the progressive writers of the thirties', who are keen on pushing the world-process forward', Miller's work seems to him to be symptomatically important in that, as we had said earler, it avoids either of these two attitudes. This does not mean that he is unaware of the world-process; only he does not feel called upon to do anything about it. And

---

(1) Ibid.
(2) «Inside the Whale» op. cit., p. 577.
(3) Ibid., p. 571.

> you English secondly the fact that you dealt with facts well known to everybody but never mentio ned in print (e.g. when the chap is supposed to be making love to the woman but dying for a piss all the while), thirdly theway in which you would wander off into a kind of reverie where the laws of ordinary reality were slipped just a little but not too much.(1)

Orwell is not as happy about **Black spring** as he is about **Tropic of Cancer.** Objecting to the flight into fantasies, he writes, «..I have a sort of belly-to-earth attitude and always fell uneasy when I get away from the ordinary world where grass is green, stones hard etc..»(2) He also writes in a similar vein :

> ..The truth is that the written word loses its power if it departs too far, or rather ifi t stays away too long, from the ordinary world where tow and two make four. A tendency to put his day-dreams on paper was apparaent in Henry Miller's earlier book*, and I think he has been led further in that direction by the remarkable power over words which enables him to slide from reality to fantasy and from urinals to angels without the smallest appearance of effort or incongruity.(3)

But thougn he differs with Henry Miller on the substance

---

(1) & (2) «Lotter to Henry Miller», CEJL, Vol. 1, p. 257.
(3) «Review of Black Spring», CEJL, Vol. 1, p. 257.
(*) Black Spring.

and scope, but finally he grows aggressive and abusive to **The Cosmological Eye.** His earlier praise of Miller contrasts very sharply with his tirade on **The Cosmological Eye,** so sharply contrasted that one wonders that the praise as well as the dispraise come from the same pen.

Orwell praises **Tropic of Cancer,** which seemed to linger in his memory in a peculiar way. He describes this novel, which he admits that he was wrong to underrate, as «a novel which opens up a new world not by revealing what is strange, but by revealing what is familiar.»(1) He likens the commonplaceness of its material to that of **Ulysses.** He even considers that in one way it bridged the gap between the intellectual and the ordinary man more successfully than **Ulysses,** in that it was not complicated by feelings of horror and repentance. «Miller is writing about the man in the street, and it is incidentally rather a pity that it should be a street full of brothers.»(2) He admires Miller's **Tropic of Cancer** for 'a mastery of technique and a feeling for character that are unapproached in any recent novel. His characters are not only credible but also completely familiar. Though he admits that **Tropic of Cancer,** as a novel, is inferior to **Ulysses,** Orwell claims that Miller has in common with Joyce a willingness to mention the inane squalid facts of everday life. Orwell writes in a letter to Henry Miller :

> ..I liked **Tropic of Cancer** especially for three things, first of all a peculiar rhythmic quality in

---

(1) Ibid., p. 542.

(2) Ibid., p. 543.

verse, nor even think about the universe, for that matter.»(1) He describes the twenties as «the golden age of the **rentier-intellectual**, a period of irresponsibility such as the world had never before seen.»(2) Even the best writers of this time «can be convicted of a too Olympian attitude, a too great readiness to wash their hands of the immediate practical problem.»(3) Orwell's view of the 1930's is no better. If the twenties' are negative, pacifist and socially indifferent, the thirties' are progressive in a facile way, and they dishonestly uphold Communist totalitarianism. The thirties' threw overboard the twenties's concept of 'pure' art, and the value of technical innovation, and stressing the importance of subject-matter, they stuffed their literature with Marxist material. But with his usual ambivalence, he admits that though much less popular and unsuccessful than their predecessors in the twenties' the writers of the thirties have enlarged the scope of literature.

Discontented with both decades. Orwell turns his attention to an American expatriate, namely Henry Miller, whom he praises for avoiding both the defeatism and pessimism of the twenties', and the belief in facile progress in the thirties'.

However, Orwell's criticism of Henry Miller is more than ambivalent; it is strikingly uneven. He enthuses over **Tropic of Cancer,** and, though in favour of the fine prose of certain parts of **Black Spring,** he is mildly critical of its substance

---

(1) & (2) «Inside the Whale», CEJL., Vol. 1, p. 558.

(3) Ibid., p. 359.

his early books by a violent propaganda against horses. The principal villain of this **Outline of History** is the military adventurer, Napoleon.(1)

Yet, Orwell refuses to subscribe to Wells's belief in order and a planned World State. Progress is not always a concomitant of science, which may be used to support the forces of Fascism :

> ..Much of what Wells has imagined and worked for is physically there in Nazi Germany. The order, the planning, the State encouragement of science, the steel, the concrete, the aeroplanes are all there, but all in the service of ideas appropriate to the Stone Age.(2)

Although he describes Weel's imagination as one-sided, he admits that Wells's prediction that the scientific men will soon direct the destiny of the world is probably true. But the romantic strain in Orwell makes him shy away from such a result. He charges that Wells and Shaw paved the way for the 1930's, a period which he attacks as stringently as he attacks the 1920's.

Orwell, attacks the 1920's for its passimism, defeatism and its frivolous notion that art is merely technique. He connects the pessimism of this period with a reactionary outlook. Expressing his resentment of this leisured pessimism, he says, «People with empty bellies never despair of the uni-

---

(1) «Wlls, Hitler and the World States», CEJL., Vol. 2, p. 169.

(2) Ibid., p. 170.

which are practically of no use. His judgment that Priestley lacks beauty is an example of such generalizations. Without bothering tc inform us wherein the beauty of a novel lies, Orwell debunks Priestley's **Angel Pavement** for its lack of beauty; and describes this novel as an elaboration on a middle article :

> ..His work has no damning faults, but neither has it a single gleam of beauty, nor any profundity of thought, nor even memorable humour; the book is simply a middle article spun out to six hundred pages, with all the middle article's high spirits and conscientious wit, and the same utter lack of anything intensely felt or profitably convenyed.(1)

Though Orwell's view of H. G. Wells is favourable in many respects, the gulf between the two men is not easy to bridge. He admits that Wells exercised a tremendous influence on him as well as on the totality of English writers between 1900 and 1920. Besides, Wells's non-military middle class attitude appeals to him.

> Mr. Wells, like Dickens, belongs to the non-military middle class. The thunder of guns, the jingle of spurs, the catch in the throat when the old flag goes by, leave him manifestly cold. He has an invincible hatred of the fighting, hunting, swash-buckling side of life, symbolized in all

(1) «Review of Angel Pavement by J. B. Priestley», CEJL, Vol. 1, p. 48.

in particular, the strangeness of his language and the astonishing beauty of some of the sound-effects he manages to bring off seem to overshadow everything else.»(1) Contrary to his general practice as a critic, Orwell, whose criticism of literature is usually non-technical, has here some technical remarks to make on Hopkins's poetry :

> ..Hopkins's own language is very Saxon, he tends to string several English words together instead of using a single long Latin one, as most people do when they want to express a cmplicated thought, and he deliberately derived from the early English poets, the ones who come before Chaucer.. he even uses several dialect words.. It will be seen that the poem is a synthesis- - but more than a synthesis, a sort of growing together - - of a special vocabulary and a special religious and social outlook. The two fuse together, inseparably, and the whole is greater than the parts.(2)

Now, we come to examining Orwell's critical attitudes to 20th century novelists.His criticism of J. B. Priestley seems to be concerned in a superficial way with aesthetic considerations. He is probably right to call Priestley a second-rate novelist, and he guesses that Priestley owes his popularity his cheerfulness and frank optimism. But he is superficial when he makes perfunctory references to form and aestheticism, as well as sweeping generalizations about literature,

---

(1) «The Meaning of a Poem», CEJL., Vol. 2, p. 1 : 8.
(2) Ibid., p. 160.

> ..What a relief it would have been at such a time, to read about the hesitations of a middle-aged highbrow with a bald spot ! So different from bayonet drill ! After the bombs and the food queues and the recruiting posters, a human voice ! What a relief !(1)

Obviously. this is a superficial view of «Prufrock». Discussing Orwell's limitations as an critic, Wayne Warncke writes :

> His approach to Eliot also illustrates a critical imbalance in over-emphasis upon content at the expense of form. Orwell's criticism of Yeats and Kipling, as well as Eliot, plainly reflects his primary concern for the subject-matter of literature, even of poetry. His treatment of poetic form, language, and technique, when they are touched upon at all, is awkward and indicates that Orwell was almost totally insensitive to their subtleties.(2)

Curiously enough, in the course of discussing Gerard Manley Hopkins, another conservative and a Roman Catholic priest, Orwell mentions that he appeals to people, who are professionally interested in points of technique. He surprises us by laying emphasis on Hopkins's use of language, and very lightly touching on his subject-matter. «And with Hopkins,

(1) Ibid.

(2) Warncke, Wayne. «Notes : George Orwell on T. S. Eliot», Western Humanities Review, Vol. 25, 1972, p. 269.

> As always, Mr. Eliot insists that tradition does not mean worship of the past; on the contrary, a tradition is alive only while it is growing. A class can preserve a culture because it is itself an organic and changing thing. But here, curiously enough, Mr. Eliot misses what might have been the strongest argument in his case. This is, that aclassless society directed by elites may ossify very rapidly, simply because its rulers are able to choose their successors, and will always tend to choose people resembling themselves.(1)

Orwell's criticism of Eliot does not mean that he does not appreciate his as a poet. Praising Eliot's literary merit up to about 1930, he says that «Eliot and Co.» see life very comprehensively, much more so than those who come immediately before or after them, and though they see it through the wrong end of the telescope, a great deal that was written in the period 1910-30 has survived, and is apt to continue to survive. Orwell even enthuses over «The Love Song of J. Alfred Prufrock». Praising it excitedly against the works of MacNeice and his group, he writes : «..by simply standing aloof and keeping touch with pro-war emotions, Eliot was carrying on the human heritage».(1) He adds that it must have been a great relief to an English soldier fighting in the trenches to read «Prufrock» :

---

(1) «Review of Notes towards the Definition of Culture», CEJL, Vol. 4, p. 515.

(2) «Inside the Whale», CEJL., Vol. 1, p. 575.

> in fact every poem contains a prose meaning, and when the poem is any good it is a meaning which the poet urgently wishes to express. All art is to some extent propaganda.(1)

He argues that there is a vein of anti-Semitism in Eliot among other English writers :

> ..Without even getting up from this table to consult a book I can think of passages in Villon, Shakespeare, Smollett, Thackeray, H. G. Wells, Aldous Huxley, T. S. Eliot and many another which would be called antisemitic if they had been written since Hitler came to power. Both Belloc and Chestertin flirted, or something more than flirted, with antisemitism, and other writers whom it is possible to respect have swallowed it more or less in its Nazi form.(2)

He also charges that Eliot is a believer in class distinction as his **Notes Toward the Definition of Culture** indicate, and that he subscribes to certain indefensible moral assumptions. But he adds that Eliot's insistence on tradition, however, does not seem to be unpalatable to him, which shows that there is a conservative vein in the 'progressive' Orwell, after all. Orwell seems to have a tender spot for Eliot. This is reffected in his tone of disagreement with Eliot. This tone is almost always amiable, which sounds unusual in this usually coarse polemicist.

---

(1) «Review of Burnt Norton, East Coker, The Dry Salvages,» CEJL., Vol. 2. p. 278.

(2) «As I Please», CEJL, Vol. 3, p. 113 .

..Pound did not stell himself solely for money But I think it probable that Pound did sell himself partly for prestige, flattery and a professorship. He has a most venomous hatred for both Britain and the U. S. A. where he felt that his talents had not been fully appreciated, and obviously belileved that there was a conspiracy against him throughout the English-speaking countries.(1)

Orwell's criticism of Eliot can be summed up as follows : before 1930 Eliot write good poetry, but when, after that date, he turned religious, his poetry became bad. He attributes Eliot's failure as a poet in the **Four Quartets** and other religious poems to his escape from individualism into the Church. He claims that Eliot's religious views have deprived his poetry of an effective poetic image. In other words, the content has caused damage to the form, and Eliot's conversion to Anglo-Catholicism is responsible for his deterioration as a poet; it reduced his poetry to 'gloomy mumblings'. Orwell's ambivalent remarks on Gerard Manley Hopking imply that orthodoxy in itself is not aesthetically harmful. He acknowledges that the most severe discipline, if honestly followed, is not necessarily damaging to a poet. Nevertheless, he attacks Eliot's «Burnt Norton», «East Coker» and «The Dry Salvages» on the ground that the meaning of a poem is integral to it. and that all art, to some extent, is propaganda.

..It is fashionable to say that in verse only the words count and the 'meaning' is irrelevant, but

(1) «As I Plese», CEJL, Vol. 3, p. 106.

ry, the concept of progress - - above all, of the idea of human equality. Much of the imagery of his work is feudal, and it is clear that he was not altogether free from ordinary snobbishness. Later these tendencies took clearer shape and led him to 'the exultant acceptance of authoritarianism as the only solution. Even violence and tyrannv are not necessarily evil because the people, knowing not evil and good, would become perfectly acquiescent to tyranny .. Everything must come from the top. Nothing can come from the masses'.(1)

Yet, Orwell credits Yeats with sincerity, and he praises him for using beautiful words in his poems, as well as for producing phrases «which suddenly overwhelm one like a girl's face seen across a room»(2), an embarrassing phrase that boils down to very little from the critical point of view.

Orwell's generosity dries up completely when he deals with Ezra Pound. Though in the habit of arguing that so and so is a Fascist or a reactionary, yet he has written good poetry of good fiction, Orwell's hostility, in Pound's case is unmitigated. Seeming to forget that Pound is primarily a poet, he launches a devastating attack on his political treachery as well as on his anti-semitism. The side Pound defected to was Italian Fascism, which offered him a professorship at Rome University.

(1) Ibid., pp. 313-4.

(2) Ibid., 213.

he relates Meville to his times».(1) This is precisely what orturn of speech».(1) He is, by implication, profoundly obscurantist and reactionary, and his mystical system is muddleheaded : «.. there must be some kind of connexion between his wayward, even tortured style of writing and his rather sinister vision of life».(2)

Orwell's general practice of literary criticism, with its emphasis on content, especially the sociological aspect of content, betrays a Marxist influence. And although he starts his essay on Yeats with an endeavour to point out the shortcomings of the Marxian approach to literary criticism : «One thing that Marxist criticism has not suceeded in doing is to trace the connexion between 'tendency' and literary style. The subject-matter and imagery of a book can be explained in sociological terms, but its texture seemingly cannot».(3) He does not succeed in showing us how the texture of Yeats's poetry cannot be explained in sociological terms. So, his treatment of Yeats remains an evidence that he is almost entirely attracted by content, that is, the propaganda element in literature. And one of the memorable passages of his criticism of Yeats sets out to prove, as it is his wont, that Yeats is at once a reactionary and a Fascist :

> Translated into political terms. Yeats's tendency is Fascist. Throughout most of his life, and long before Fascism was ever heard of, he had had the outlook of those who reath Fascism by the aristocratic route. He is a great hater of de-

(1) & (2) & (3) «W. B. Yeats», CEJL, Vol. 2, p. 311.

that, since Shakespeare's real genius lies in the realm of poetry, Tolstoy's attack on him would have been better answered through an examination of Shakespearean dramatic language and poetry. His omission of such an examination is simply due to the fact that, like Tolstoy, he cannot resist the temptation of talking about subject-matter or content whenever he sets out to analyse a work of art. The second point, which Orwell fails to see, is that Tolstoy is right when he says that Lear's motive in abdication is implausible. Orwell is wrong to object to this view, which is advocated by many eminent critics. The abdication-scene in Tate's version of the play seems to be more convincing that its equivalent in the Shakespearean text.

Orwell's criticism of many 20th century poets is characteristically ambivalent. He labels W. B. Yeats and Ezra Pound as Fascists. T. S. Eliot as a reactionary, and exceptionally, very exceptionally indeed, he approaches Gerard Manley Hopkins in purely technical terms, and even refrains from his habitual practice of attaching any label to his Christian poetry. He is partly harsh on Yeats, merciless to Pound, critical but kindly disposed towards Eliot, and silent about the subject-matter or Hopkins's poetry. And to the Leftist MacNeice - Auden-Spender group in the 1930's he is generally hostile (however, late in life he honestly admits that he has dealt with Auden unfairly, and apologizes for his unfairness).

Orwell considers Yeats's manner of writing very artificial, and claims that «one seldom comes on six consecutive lines of his verse in which there is not an archaism or an affected

> ons, villains, lunatics or persons who are shamming insanity or are in a state of violent hysteria. **Lear** is a play in which this tendency is particularly well marked. It contains a great deal of veiled social criticism - - a point Tolstoy misses - - but it is all uttered either by the Fool, by Edgar when he is pretending to be mad, or by Lear during his bouts of madness.(1)

Though Orwell has enough insight to realize the importance of the Fool and the madness scenes in the play, he fails to see some elementary matters of literary criticism, that the Fool is not superfluous as he represents the outward conscience of Lear, and that the sub-plot is integral to the play as much as the Fool and the madness scenes are. It is a commonplace but true that the subplot intensifies and universalizes the tragedy. Hence, our surprise at Orwell's agreement with Tolstoy that **King Lear** is not a very good play, as a play :

> . .It is too drawn-out and has too many characters and sub-plots. One wicked daughter would have been quite enough, and Edgar is a superfluous character : indeed it would probably be a better play if Gloucester and both his sons were eliminated.(2)

one cannot deny that **King Lear,** as a play, is full of complications, yet it is one of the best tragedies of Shakespeare. Furthermore, Orwell fails to observe two points. The first is

---

(1) Ibid., p. 345.

(2) Ibid., p. 347.

lief which Tolstoy in his old age not share».(1) Explaining this point, Orwell writes :

> ..The humanist attitude is that the struggle (between man and his fate) (*) must continue and that death is the price of life. 'Men must endure their going hence, even as their coming hither : Ripeness is all' -- which is an un-Christian sentiment. Often there is a seeming truce between the humanist and the religious believer, but in fact their attitudes cannot be reconciled : one must choose between this world and the next.(2)

According to him, **King Lear** disturbs the moral sensibilities of Tolstoy, because in it vice is punished, but virtue is notrewarded. And he finds the tragedy of King Lear particularly painful to him because Lear's folly reminds him of his own folly of distributing his landesates among the poor. He blames Tolstoy because he fails to see that Shakespeare voices in his play social criticism, perhaps he voices it feebly, but it is there all the same :

> ..He is also noticeably cautious, not to say cowardly, in his manner of uttering unpopular opinions. Almost never does he put a subversive or sceptical remark into the mouth of character likely to be identified with himself. Throughout his plays the acute social critics, the people who are not taken in by accepted fallacies, are buffo-

---

(1) & (2) **Ibid.**, p. 344.

* My own words.

Shakespeare» is diluted, it becomes quite vehement and explicit in his other essay «Lear, Tolstoy and the Fool». In his attack on Shakespeare's **King Lear** Tolstoy alleges that Shakespeare has no power of delineating characters or of making words and actions spring naturally out of situations. Besides, not only is the Shakespearean langage uniformly exaggerated and ridiculous but also its author «constantly thrusts his own random thoughts into the mouth of any character who happens to be handy; he displays a 'complete absence of aesthetic feeling', and his words have nothing whatever in common with art and poetry».(1) Tolstoy thinks that Lear's motive in abdicating is implausible. «He objects to the storm, as being unnecessary, to the Fool, who. . . is simply a tedious nuisance and an excuse for making bad jokes, and to death of Cordelia, which .. robs the play of its moral».(2)

Orwell repeats his basic argument in defence of Shakespeare, that a critic should approach him primarily as a poet : «Those who care most for Shakespeare value him in the first place for his use of language, the 'verbal music' which even Bernard Shaw, another hostile critic, admits to be 'irresistible'».(3) He says that Shakespeare might not even be remembered as a dramatist if he had not also been a poet. Orwell adds that Tolstoy is hostile to the humanist assumption of the tragedy of **King Lear**, which is difficult to reconcile to his religious outlook. Tolstoy is inimical which life to, although full of sorrow, is worth living, and that Man is a noble animal - -a be-

(1) «Lear, Tolstoy and the Fool», **CEJL**, Vol. 4, p. 333.
(2) **Ibid.**, p. 337.
(3) **Ibid.**, p. 336.

> stoy's but he very definitely **has** a moral code. which is apparent all through his work. He is much more of a moralist than, for instance, Chaucer or Boccaccio.(1)

He even draws our attention to karl Marx's admiration of Shakespeare. Shakespeare, he admits, is neither a thinker nor a philospher, and it is nonsense to talk of him as such. Orwell considers that Tolstoy's error is that he ignores Shakespeare as a great poet, and he blames Tolstoy for his narrow view of criticism, that is solely a criticism of subject and of meaning. «Tolstory criticizes Shakespeare not as a poet, but as a thinker and a teacher, and along those lines he has no difficulty in demolishing him».(2) Thus, his refutation of Tolstoy's attack on Shakespeare rests on the argument that, if we put content aside, good form can make good art; a view that all art is propaganda. However, he agrees to Tolstoy's view that many of Shakespeare's plays are incredible :

> ...it is quite true that Shakespeare cares very little about probability and seldom bothers to make his characters choerent. As we know, he usually stole his plots from other people and hastily made them up into plays, often introducing absurdities and inconsistencies that were not present in the original.(3)

Whereas Orwell's criticism of Tolstoy in «Tolstoy and

---

(1) «Tolstoy and Shakespeare», **CEJL**, Vol. 2, p. 153.
(2) **Ibid.**, p. 157.
(3) **Ibid.**, p. 155.

he relates Meville to his times».(1) This is precisely what orwell himself has done in his essay on Dickens. He regrets that the social changes in Melville's times caused his blossoming spirit to wither : «.. when industrialism was tightening its grip, something in Melville's spirit wilted the times».(2)

Orwell's essay on Leo Tolstoy, though it reveals his limitations as a critic, is an extremely interesting one. «Lear, Tolstoy and the Fool» is its title. It is of more value than his other essay on the subject «Tolstoy and Shakespeare». He very much admires the genius of Tolstoy; but he takes the side of Shakespeare when Tolstoy criticises him. His essay «Tolstoy and Shakespeare» is mush less vehement in its assault on Tolstoy than his susequent essay «Lear, Tolstoy and the Fool». Both essays, however, have the same drift; keen in judging him as a bad one.

In his earlier essay «Tolstoy and Shakespeare», Orwell gives expression to ambivalent ideas that are not easy to reconcile. As usual, he claims that art and propaganda are never quite separable; yet he adds that we cannot deny the existence of aesthetic judgement. He even regrets that in our troubled times, the aesthetic judgement of a work of art is often preverted by non-aesthetic considerations, i.e. by moral, political and religious loyalties.

Orwell rightly refutes Tolstoy's charge that Shakespeare is an immoral writer :

His moral code might be different from Tol-

(1) & (2) **Ibid.**, p. 43.

other nations. But Orwell's patriotism has made him quietly commend what he considers to be the typical qualities of the British people : gentleness, hatred of bullying, respect for the law, and, in general, a sense of decency.

Orwell's criticism deals with two more 19th century writers, who are not English. They are the American Herman Melville and the Russian Leo Tolstoy. In his review of Lewis Mumford's book **Herman Meliville,** Orwell finds fault with Mumford because he dares to analyse, dissect and interpret. «.. there are times when it is wise to accept without seeking knowledge (1)». a statement which shows how instinctively unacademic his critical approach to literature is, and which does not fit in with his rationalism. He alse takes Mumford to task because «It were much better to have discoursed simply on the form, which is the stuff of poetry, and left the meaning alone»(2), a curious statement that comes from a writer whose declared motto is 'all is propaganda', and whose critical practice is a testimony that he cares very little for the form, and cares very much, perhaps too much, for the content. Orwell's review of **Herman Melville,** though commonplace, reveals as early as 1930 his unmistakable concern with the social and political aspects of literature rather than with technical ones. Critics, who are really interested in 'from', do not, as he often does, pay much attention to the relation between literature and sociology. Commenting on Mumford's book, he writes «the best chapters of Mr. Mumford's book are those in which

(1) & (2) «Review of Herman Melville by Lewis Mumford», **CEJL,** Vol. 1, p. 41.

(2) **Ibid.,** p. 42.

they only English writer of our time who has added phrases to the language».(1)

Despite his ferocious attack on, and difference from Kipling, Orwell has affinities with him. Their differences and affinities are appropriately summed up by Richard Cook in his objective and well-balanced essay «Rudyard Kipling and George Orwell». Cook explains that Orwell and Kipling are similar in that both men were born of English parents living in India, and each was at an early age sent to England for education where he suffered from bigoted repressive authority that left an indelibly unpleasant impression on him. Each also was the victim of constant bullying and physical punishment.. Both men were guilt-ridden, and were subjected to an inhibiting puritanical religious doctrine that implanted in its victims a sense of their own innate and hopeless evil. But the reactions of both men to repressive school authority were not the same. Whereas Orwell became an aloof campus iconoclast and intellectual radical, Kipling's attitude does not seem to question the basic authority of his school-masters. Kipling grew up to identify himself with organized authority, and Orwell was quick to throw the custard-pie in the face of such authority. Deepite his ambivalent attitude to the British Empire, Orwell did not share Kipling's view of the colonial system as a sort of benevolent evangelizing service, primarily concerned with the spread of progress. Both Kipling and Orwell were sturdy patriots : but their patribotic feelings were not the same. Unlike Orwell, Kipling's patriotism was boastful and swaggering, derived from the jingoistic feeling that England is destined to lead

(1) **Ibid.**, p. 224.

According to Orwell, there is no use to deny (as T. S. Eliot does) that Kipling is a Fascist. There is even a definite strain of sadism in him. And «It is no use pretending that Kipling's view of life, as a whole, can be accepted or even forgiven by any civilized person.»(1) It is better to start by admitting that «Kipling is a jingo imperialist, he is morally insensitive and aesthetcally disgusting.»(2) He is so shallow that he is unable to grasp the economic forces underlying imperialism, which he sees as a white space man's burden, a sort of forcible evangelizing, whose aim is to establish the 'Law' among the primitive savages and the uncivillized :

> He could not understand what was happening, because he had never had any grasp of the economic forces underlying imperial expansion. It is notable that Kipling does not seem to realize any more than the average soldier or colonial administrator, that an empire is primarily a money-making concern.(3)

However, Orwell considers that, despite all his failings, Kipling has more itergrity than the Leftist intelligentsia of the West. Kipling, who is mistaken in his imperialist attitude, possesses a definite sense of responsibility, whereas they are hypocritical enough to attack the bourgeois systems which they do not really wish to destroy (for they are all beneficiaries of Western imperialism). Furthermore, «Kipling is

---

(1) & (2) «Rudyard Kipling», **CEJL**, Vol. 2, p. 215.

(3) **Ibid.**, p. 217.

Nothing can be more ambivalent than Orwell's judgement of another 19th century poet and novelist, namely Rudyard Kipling, about whom he writes :

> For my own part I worshipped Kipling at thirteen, loathed him at seventeen, enjoyed him at twenty, despised him at twenty-five, and now again rather admire him. The one thing that was never possible.. was to forget him. Certain of his stories.. . are about as good as it is possible for that kind of story to be. They are, moreover, exceedingly well told. For the vulgarity of his prose style is only a surface fault; in the less obvious qualities of construction and economy he is supreme.. And his verse, though it is almost a byword for badness, has the same peculiarly memorable quality.(1)

He proceeds to tell us that though Kipling was a detestable imperialist, there is no doubt about his personal decency :

> What is much more distasteful in Kipling than sentimental plots or vulgar tricks of style, is the imperialism to which he chose to lend his genius.. . The imperialism of the eighties and nineties was sentimental, ignorant and dangerous, but it was not entirely despicable.. . It was still possible to be an imperialist and a gentleman, and of Kipling's **personal** decency there can be no doubt.(2)

---

(1) & (2) «On Kipling's Death»,**CEJL**, Vol. 1 pp. 183—4.

tions in his novles is a feudal one. Charging that he fails to see in Dickens's literature the breaking down of the feudal relationship between servants and masters in England, Wilson writes :

> Nor is it true that in his attitude toward servants Dickens is not ahead of his age and created only comic servants. With his own family background of ladies' maids and butlers, he was able to see particularly clearly the breaking down of the feudal relationship betewen masters and servants in England.. (1)

Contradicting Orwell's claim that the proletariat are absent from Dickens's novels, an anonymous critic writes :

> 'He does not write about the proletariat.' And what, pray, are the Plornishes, the Toodles, the Vecks, Jo the crossing sweeper. Betty Higden and Hexam and Riderhood in **Our Mutual Friend,** Codlin and Short and the Nubbles, the pauper and criminal underworld in **Oliver Twist** ?(2)

It is certainly going too far to assume that Dickens presents us with proletarian characters in **Oliver Twist.** The fact is that none of these charcters is a real member of the proletariat. The argument that **Oliver Twist** is a proletarian book sounds as false as the allegation that King Lear talks like a socialist or a communist, when, in his insanity, he shows an awareness of social injustice.

---

(1) Wilson, Edmund, **George Orwell : The Critical Heritage, op. cit.,** p. 226.

(2) Unsigned Notice, **Times Literary Supplement, Ibid.,** p. 181.

prove that this 19th century novelist is not any sort of revolutionary, Marxist or otherwise. Philip Mairet, who has detected a Marxian strain in Orwell's approach to Dickens, puts the blame on him for 'clutching at a straw of his Marxist memories', and considers such memories rather an impediment to an adequate exercise of his critical faculty :

> Later he uses the monstrous Marxian phrase that 'all art is propaganda' while giving it a quite different and better content of his own. Such fragments of a Marxian chrysalis still cumber the wings of his thought and still, I think, a little impede its fight.(1)

Edmund Wilson argues that it is a mistake to think that Dickens is horrified by violence; on the contrary he found violence more attractive than repulsive. «Orwell does not see that Dickens was more attracted than repelled by horror and violence.»(2) Edmund Wilson makes a mistake here, because this is exactly what Orwell implies, when he tells us that Dickens 'delights' in describing scenes of horror :

> In the chapters dealing with the riots Dickens shows a most profound horror of mob violence. He delights in describing scenes in which the 'dregs' of the population behave with atrocious bestiality.(3)

But Edmund Wilson, perhaps rightly, adds that though orwell has gone over his ground quite thoroughly, he commits an error when he alleges that the servant-master rela-

---

(1) P.M. (Philip Mairet), **George Orwell : The Critical Heritage, op. cit.**, pp. 179 — 180.

(2) wilson, Edmund, **Ibid.**, p. 226.

(3) «Charles Dickens», **CEJL**, Vol. 1, p. 460.

bourgeois, of the shabby genteel, and his early experiences have given him a herror of proletarian roughness and vulgarity. «However much Dickens may admire the working classes, he does not wish to resemble them.» and «it would be next door too impossible for him not to think of a working-class exterior as stigma.»(1) And «In his attitude towards servants Dickens is not ahead of his age.»(2) And servitude in his novels appears tolerable because of his acceptance of the feudal relations between masters and servants. Dicken's characters are drawn with the most intense vividness but they are not functional members of society. «He has an infallible moral sence, but very little intellectual curiosity.»(3) He knows nothing about the Navy, or game or sport. With the doubtful exception of David Copperfield. his characters are not interested in their jobs, and his novels end with 'a sort of radiant idleness.' His well-known sympathy with childhood does not draw his attention to one crying evil of his time, that is child labour. He also shows less understanding of criminals than one would expect of him.

Despite Orwell's criticism of Dickens, Dicknes remains almost the only writer whom he approaches with genuine love and tenderness. And though his essay on Dickens is a literary masterpiece that is genterally applauded, some critics express opposition to some of its ideas. Discussing Dickens in a socio-economic context rather than a technical or strictly literary context, Orwelly uses a near Marxian argument to

(1) **Ibid.,** p. 478.
(2) **Ibid.,** p. 481.
(3) **Ibid.,** p. 488.

type».(1) «Dickens's views on the servant question do not get much beyond wishing that master and servant would love one another».(2) «He has no imperialist feeling, no discernible views on foreign politics, and is untouched by the military tradition».(3) Besides, «he shows no prejudice against Jews».(4) «There are plenty of pictures of suffering children in his books, but usually they are suffering in schools rather than in factories».(5) «No one, at any rate no English writer, has written better about childhood than Dickens».(6) And «A sympathetic attitude towards children was a much rare thing in Dickens's day than it is now».(7)

Orwell's extremely sympathetic views of Dickens are not uncritical. He describes Dicken's social criticism as negative in that it utterly lacks any constructive suggestion. His vision is limited. In spite of his generalized and vague sympathy with the working class, the agricultural and industrial labourers are outside his range; he does not know much about them. However, the narrowness of his vision. in a sense, is an advantage to his art as a novelist. «..ofcourse this narrowness of vision is in one way a great adavantage to him, because it is fatal for a caricaturist to see too much».(3) Dickens is not free from the special prejudices of the petit

---

(1) **Ibid.**, p. 482.
(2) **Ibid.**, p. 483.
(3) **Ibid.**,
(4) p. 475.
(5) **Ibid.**, p. 49.
(6) **Ibid.**, p. 464.
(7) **Ibid.**, p. 466.
(8) **Ibid.**, p. 472.

> Dickens attacked English institutions ferocity that has never since been approached. Yet he managed to do it without making himself hated, and, more than this, the very people he attacked have swallowed him so completey that he has become a national institution himself.(1)

Dickens was an optimist, but «he was not the kind of well-meaning idiot who thinks that the world will be perfect if you amend a few by-laws and abolish a few anomalies».(2) «In every page of his work one see a consciousness that society is wrong somewhere at the root».(3) Yet, he shows a most prohound horror of revolutions and mob violence. Furthermore, he suggests nowhere that laissez-faire capitalism is evil or that the economic system is wrong as a system. «Useless to change institutions without 'a change of heart', that, essentialy, is what he is always saying».(4) Dickens, who believes in Christian charity, suggests kindness as a remedy for all social ills. However, «even if Dickens was a bourgeois, he was certainly a subversive writer, a radical, one might truthfully say a rebel».(5) But he is far from being a proletarian writer; and being a petit bourgeois, he loathes not only the aristocrat but also the big bourgeois. «If one examines his novels in detail one finds that his real subject-matter is the London commercial bourgeoisie and their hangers-on-lawyers, clerks, tradesmen, innkeepers, small craftsmen and servants».(6) And when he wants to draw a sympathetic picture of a servant, he creates what is recognizably a feudal

---

(1) «Charles Ditkens», **CEJL**, Vol. 1, p. 455.
(2) & (3) **Ibid.**, p. 456.
(4) Ibid., p. 468.
(5) **Ibid.**, p. 455.
(6) **Ibid.**, p. 456.

that one of the main objects of this essay is to prove that Dickens is neither a communist nor a socialist, but only a bourgeois humanist and moralist, Orwell's approach to him is near-Marxian. This approach is essentially a socio-economic one, and it sets out to relate Dickens to his social background. And as Newton Arvin aptly remarks, Orwell's investigation of the relation between Dickens's literature and his urban background is unparalleled : «I don't know that anyone has shown quite so fully or so knowingly just what effect Dickens's urban-middle-class derivation had on his mentality, his imagination, and his sense of values».(1)

Orwell's essay on Dickens is as much revealing as it is self-revealing. Without openly saying so, he undoubtedly identifies himself with «Dickens, who had not the vision to see that private property is an obstructive nuisance, but had the vision to see that : «'If men would behave decently the world would be decent' is not such a platitude as it sounds».(2) The socialist Orwell, who had the vision to see that private property is an obseructive nuisance, believes, as much as Disckens himself does, in the value of decency. Hence his extreme sympathy with Dickens, the old-fashioned 19th century novelist.

Orwell points out that Dickens's attack on the English system, though ferocious, was swallowed by the very people whom he attacked :

---

(1) Arvin, Newton, **Ibid.**, p. 233.

(2) «Charles Dickens», **CEJL**, Vol. 1., p. 469.

Orwell is so ambivalent that one might say anything for or against him. Edmund Wilson describes him as a combination of Leftism and Blimpism (both of which, we should remember, Orwell never tires of attacking. Wilson adds that his thought is often inconsistent and his confident predictions often turn out untrue. Wilson even charges that he is insular. Critics approach him in such opposite terms that whereas a critic like Eric Bentley treats him as a conservative, another, namely Waugh, treats him as a Marxist doctrinaire. According to John Wain, he is sympathetic with and at home in 18th century values, and wishes we could really get back to them. Bentley claims that his essay on Dickens is «full of nostalgia», and that his collection of essays «**Dickens, Dali and Others** might be read as a dirge for nineteenth-century liberalism».(1) Wylie Sypher takes him, wrongly I think, as wavering between Marxism and aestheticism : «Orwell moves in the ill-defined area of 'popular culture' between rigd Marxist and aesthetic values».(2) Yet, he strikes me as being suspicious of aesthicism and indifferent to experimentalism. Intellectually, he seems to be a curious amalgam of three centuries. Probably, from the 18th century, he inherited its rationalism, from the 19th century, its liberalism and belief in human progress, and from the 20th century, a belief in socialism, mixed with a horror of totalitarianism, and a post-liberal doubt about the possibility of human progress.

Orwell's contribution to English literary criticism chiefly rests on his essay on Charles Dickens. In spite of the fact

(1) Bently, Eric, **Ibid.,** p. 220.

(2) Sypher, Wylie, **Ibid.,** p. 222.

and political attitudes rather than differences of style.(1)

He explains that Orwell's contradictions are a result of his rejecting imperialism, which he knows by experience to be evil, as well as of rejecting Marxian totalitarian practice while accepting Marx's analysis as generally correct.

It is this Marxian strain in Orwell that drives Evelyn Waugh, a devout Catholic, to oppose him. Waugh claims that Orwell represents at its best the new humanism of the ordinary man, which tends 'to concentrate on the base and ephemeral', meaning of course to concentrate on social problems and social improvement. Waugh also refuses to be persuaded by Orwell's near-Marxian diagnosis of the popular culture represented by the pulp magazines, which publish stories that appeal to intellectuals. "I think Mr. Orwell talks nonsense when he suggests that the antiquated, conservative tone of these stories is deliberately maintained by capitalist newspaper proprietors in the interest of the class structure of society».(2) (Incidentally, it may be of interest to know that Orwell had embarked on a detailed story of Evelyn Waugh's literature but death stopped him from making progress on it.) However, Waugh, who rejects his non-religious humanism, pays a tribute to him, and admits that «He has an unusually high moral sense and respect for justice and truth».(3) He adds, «It remains to say that Mr. Orwell's writing is readable as his thought is lucid».(4)

---

(1) Hampshire, Stuart, **Ibid.**, p. 209.

(2) Waugh, Eveyn, **Ibid.**, p. 213.

(3) & (4) **Ibid.**, p. 214.

freshing, that of the man whose first aim is to say something which he has quite clear in his head.»(1) Q. D. Leavis regrets that he must have wasted a great deal of his energy and talent trying to write novels, while nature did not intend his to be a novelist. «It looks as though if he would give up trying to be a novelist, Mr. Orwell might find his **metier** in literary criticism, in a special line of it peculiar to himself..»(2) This is true, because he has a uniquely independent critical mind, and because he has produced some of the best essays in English literature. These essays are written in a lucid style, which is characterized by manliness, masculinity and vigour. But it is only partly true because had he been a dedicated essayist, we would have regretted the loss of **Animal Farm** and **1984**, particularly the former. We must not forget that Orwell must have wasted much of his time and energy owing to his ill-health and poverty, and owing to his drudgery in journalistic activity and book-reviewing as well.

Stuart Hampshire's analysis of Orwell's critical essays is sound. Approaching him as a non-aesthetic moralist, Hampshire writes :

> Mr. Orwell is a moralist-critic and not an aesthete; he is interested in attitudes to Life rather than in Beauty. His own writing is forthright and vigorous, but never noticeably fine or elaborated; and in the prose literature which he criticises he distinguishes diseases of the mind

---

(1) Ibid., p. 188.

(2) Ibid., p. 189.

horrent. So, Q. D. Leavis is probably offering us a distorted judgment when she writies :

> ..he was potentially a good critic. For instance, he takes his own political line starting from an inside knowledge of the working-class, painfully acquired, he can see through the Marxist theory, and being innately decent (he displays approval of bourgeois morality) he is disgusted pro-Marxists.(1)

I think it might be more adequate if we describe him as a bourgeois writer with 'Leftist' and even Marxist' leanings, Marx (whom he seems to have read little) exercises some sort of indirect influence upon him. And despite his general approval of the Marxist analysis of society, his belief in socialism is an emotional attitude rather than, as in Marx's case, a comprehensive political, social and economic theory, and it seems to spring from his down and out experience, his intimate knowledge of working-class conditions, and his innate sense of decency. The Marxist leaning contributes to make a socialist of him, whereas his essentially bourgeois background induces him to adhere to a democratic version of socialism, and to reject internationlism which, theoretically, is a basic tenet in a socialist way of thinking. At any rate, Q.D. Leavis is right when she describes him as a potentially good critic. She is also right when she says that although his writings are not elegant, mannered or polite, «his style is re-

(1) Leavis, Q.D., **Ibid.**, p. 187.

ment with Burdett's suggestion that Carlye's occasional championship of the poor came more from a desire to thump society than from benevolence, and considers it regrettable that Carlyle puts his power of oratory to such a base use.

As a literary critic, Orwell's writings manifest a rather Marxian influence. His concept that «all art is propaganda» sounds Marxian. So does his attitude to pulp magazines, which he suspects to be created and circulated by capitalists to keep the **status quo.** He even now and then quotes Marx to support his point of view. «He is really a sociological writer, but the only traces of sociological theory that his work exhibits are remains of a Marxian which he has almost outgrown and which it is doubtful if he ever more than half accepted.»(1) However, though a part- time Marxist, he attaches the greatest importance to the 'value' of 'decency', which is not only a traditional value but also indistinguishable from the Christian kindness in which Dickens so much believed. No wonder then some Christian critics such as John Middleton Murry ultimately are reconciled to his religous unorthodoxy, and express their agreement with him. Murry agrees particularly «With his conviction that a certain basic human decency is the most precious thing in the world.»(2)

Orwell does not seem to find anything wrong with Marxism as a theory, but he certainly finds Marxist practice ab-

---

(1) P.M. (Philip Mairet), **George Orwell : The Critical Heritage, op. cit.** p. 179.

(2) Murry, John Middleton, **Ibid.,** p. 228.

Orwell's attitude to Carlyle is remarkably hostile. He is in agreement with Osbert Burdett, who sums up Carlyle, finally, as an egoist, and on the literary side as an orator :

> if we test him by **Heroes and Hero-Worship.** we find nothing better than oratory. There are fine panegyrics in it, fine adjectives — adjectives which, living a strange life of ldeir own, give an air of profundity - - but no real depth of thought. It is only a splendid vestment of words, draped about a few worn, rather mean ideas. (1)

Orwell puts down Carlyle's cult of hero-worship to frustrated egoism and buried ambition :

> Briefly, his love of a conqueror, his gusto in battle scenes, was a sort of vicarious bullying. And yet one must not forget that it was **unconscious** egoism; there was a mysticism in his ugly creed. With his sense of a world-purpose ('the great deep law of the world') he did feel that his conquering heroes served something noble, some scheme greater than their own. (2)

Discussing what he describes as Carlyle's ill-humour, instinctive sneer, rancour and spite, he approves Burdett's diagnosis of them as 'Clay in his blood, Calvinism in his head, dyspepsia in his stomach', and claims that spleen is the exact word for Carlye's peculiar temper. He to be in agree-

---

(1) & (2) «Review of The Two Carlyles by Osbert Burdett», **CEJL.**, Vol. I, p. 58.

of Socialism shows that Wain is right when he says that Orwell subscribes to the Christian doctrine of original sin, but on a mundane level. In the third place, he quotes Marx to sum up the meaning he wishes to convey.

Orwell's literary criticism is no less baffling in its sympathies and antipathies. Some classicists elicit his praise, others arouse his antipathy. Also some romantics appeal to him, whereas some others are anathema to him. Though different, both Carlyle and Byron are romantics, and they resemble each other in their cult of power. It is true that Orwell rejects the cult of power in either case. But whereas Byron gains his sympathy, Carlyle arouses his animosity. Swallowing his own patriotism, as he has done in Swift's case, he almost apologizes for Byron's allegiance to a foreign country, which happens to be Greece :

> 'The Isles of Greece' - - almost the only good English patriotic poem, though the patria in the case happens not to be England. Romantic nationalism means very little today, but the underlying mood of 'The isles of Greece', and the peculiar clear ring of its oratory, are permanently valuable.(1)

This becomes the more puzzling when we recall that his ceaseless and relentless attack on the English Leftist intelligentsia for owing their allegiance to Russia occupies a vast space in his writings.

---

(1) «Review of Byron and the Need of Fatality by Charles du Bos», **CEJL.** Vol. p. 121.

are accused of believing that society can be — and indeed, after the establishment of Socialism, will be — completely perfect; also that progress is inevitable ..

> The answer, which ought to be uttered more loudly than it usually is, is that Socialism is not perfectionist, perhaps not even hedonistic. Socialists do not claim to be able to make the world perfect : they claim to be able to make it better. And any thinking Socialist will concede to the Catholic that when economic injustice has been righted, the fundamental problem of man's place in the universe will still remain. But what the Socialist does claim is that that problem cannot be dealt with while the average human being's preoccupations are necessarlly economic. It is all summed up in Marx's saying that after Socialism has arrived, human history can begin.(1)

The bafflingly ambivalent quotation above is interesting in more than one sense. In the first place, it is one of the very rare occasions on which he gives expression to the metaphysical problem of man's place in the universe, which should be deferred until the more urgent economic problems of man are solved. Like Lawrence, he seems to have believed in a spirituality that has its roots in materialism (he only substitutes a decent standard of living for Lawrence's belief in Sex). In the second place, his qualified optimism about the future

(1) Ibid., p. 83.

proved : They believe that man is imperfectible,—that political changes lead to no amelioration, and that progress is an illusion :

> The connexion between this belief and political reaction is of course, obvious. Other-worldliness is the best alibi a rich man can have. 'Men cannot be made better by acts of Parliament; therefore I may as well go on drawing my dividends.'(1)

Orwell's argument here sounds almost Marxian, or at least materialistic. However, he admits that, up to a point, these neo-pessimists are right, and so long as one thinks in short periods it is wise not to be hopeful about the future. Orwell, who wants to dissociate socialism from Utopianism, founds his belief in socialism on some sort of qualified optimism that occasionally smacks of pessimism :

> By and large the prophets of doom have been righter than those who imagined that a real step forward would be achieved by universal education, female suffrage, the League of Nations, or what not.
>
> The real answer is to dissociate Socialism from Utopianism. Nearly all neo-pessimist apologetics consist in putting up a man of straw and knocking him down again. The man of straw is called Human Perfectibility. Socialists

(1) «As I Please«, CEJL, Vol. 3. p. 82.

Furthermore, the novel is not as false as its absurd incidents make it appear to be.

> ...the main theme — the hollowness of fashionable life and the superiority of country pleasures and family affection — is not so false as the absurd incidents which are meant to illustrate it make it appear.(1)

As we have already observed, Orwell's wavering betwwen classicism and romanticism makes him sympathize with such an odd assortment of 18th century writes as Swift, Defoe-Smollett and Goldsmith, together with such quite different modern writers as D. H. Lawrence and T. S. Eliot. In his romantic poem «On a Ruined Farm near the His Master's Voice Gramophone Factory», he painfully realizes the impossibility of escaping from the machine civillization, and regrets that he is unable to turn to the beauty of Nature, and that the only choice left to him is to loiter among the trees 'the smoke has slain.' In such a romantic mood he attacks T. E. Hulme for creating a movement of neo-reactionism and neo-pessimism. Hulme, he implies, misled many others in the two decades of the twenties' and thirties' into this neo-reactionism and neo-pessimism. He adds that Wyndham Lewis, T. S. Eliot, Malcom Muggeridge, Evelyn Waugh and Graham Greene are probably influenced by Hulme. And though Orwell himself is a pessimist he denigrates this school of neo-pessimism, and he attributes the motive behind it to privilege, economic security and exploitation. These neo-pessimists refuse to believe that human society can be fundamentally im-

(1) Ibid., p : 311.

18th century romantic. As a moralist Goldsmith is the opposite of Smollett. In his novel **The Vicar of Wakefield,** which Orwell describes as a sermon in fiction from «Virtue is rewarded and vice punished with relentless thoroughness.»(1) An in this novel «We are never indeed allowed quite to forget the connexion between cash and virtue».(2) Orwell citicizes **The Vicar of Wakefield** because it has none of the psychological realism, which characterizes the novels of Fielding and Smollett, and because the dialogue in it is quite exceptionally improbie. Besides, not only is Goldsmith's description of country life unrealistic and idyllic but also he inserts obtrusively his Tory political discourses into some of the chapters of the novel. «Goldsmith's concluston - no doubt it was a common Tory theory at the time - is that the only defence against oligarchy is a strong monarch.»(3)

Yet, Orwell finds Goldsmith a charming novelist :

> But though there is some serius social criticism buried under its artificialities, it is not there that the enduring charm of **The Vicar of Wakefield** lies. The charm is in its manner-in the story, which for all its absurdity is beautifully put together, in the simple. and yet elegant language, in the poems that are thrown in here and there, and in certain minor incidents..(4)

---

(1) «Review of The Vicar of Wakefield by Oliver Goldsmith», **CEJL,** Vol. 3, p. 309.

(2) **Ibid.,** p. 311.

(3) **Ibid.,** p. 312.

(4) **Ibid.,** p. 313.

Roderick Random and **Peregrine Pickle** which he looks upon as masterpieces that are frankly pornographic in a harmless way and that contain some of the best passages of farce in the English language. He finds Smollett a charming novelist because he is almost free from the sense of guilt. Duelling, gambling and fornication seem almost morally neutral to him. Comparing Smollett and Fielding, Orwell points out that whereas Fielding's sense of sin never quite leaves him, Smollett has almost freed himself from it. So, when Fielding starts with the intention of writing **Joseph Andrews** as a pure farce, he soon turns into a moralist who punishes vice and rewards virtue. But in smollett Orwell enumerates only three virtues. These are feudal loyalty (i.e. retainers being faithful to their masters through thick and thin), masculine 'honour', i.e. willingness to fight on any provocation, and female'chastity' whose object is to capture a husband. Apart from these three virtues which seem to me doubtful as virtues (especially the second and the third), Smollett.

> ...accepts as a law of nature the viciousness, the nepotism and the disorder of eighteenth century society, and therein lies his charm. Many of his best passages would be ruined by an intrusion of the moral sense.(1)

The really baffling thing about this kind of amoral criticism is that it is uttered by one of the most remarkable moralists in contemporary literature, one whose name has become inextricably associated with the value of 'decency'.

Orwell extends his sympathy to Oliver Goldsmith, an

---

(1) Ibid., p. 284.

a man who shudders at the prospect of falsifying objective truth in which he so strongly beleives. If viewpoints are more or less false than others, why all his fuss and bother about the value of objective truth ?

Orwell does not give his sympathy only to 18th century classicists such as Jonathan Swift. He seems to extend his sympaty to 18th century novelists in general. Despite the paucity of his references to Henry Fielding, his views of him are favourable. Eighteenth-century novelists are more realistic than their successors :

> But there is another sense in which the stilted, artificial novelists of the eighteenth century are more 'realistic' than almost any of their successors, and that is in their attitude towards human motives. They may be weak at describing scenery, but they are extraordinarily good at describing scoundrelism. This is true even of Fielding, who in **Tom Jones** and **Amelia** already shows the moralizing tendency which was to mark English novels for a hundred and fifty years. But it is much truer of Smollett, whose outstanding intellectual honesty may have been connected with the fact that he was not an Englishman.(1)

Orwell describes Smollett as a plagiarist of Cervantes, and a writer of long, formless tales full of farcical and improbable adventures. Nevertheless, he admires Smollett's

(1) «Tobias Smollett : Scotland's Best Novelist» , CEJL, Vol. 3, pp. 282—2.

isting aristocracy is degenerate and contemptible.(1)

Speculating on the relation between 'form' and 'content' Orwell's opinions vary from one place to another. Generally, he very much cares for the subject-matter of any work of art. But, in Swift's case, he seems not to have minded that the subject-matter of **Gulliver's Travels** is overtly reactionary, which implies that one can appreciate it independently of its 'content'. Not only does he admire it without reserve but also he admits that his political and moral disagreement with Swift has no adverse effect on the appreciation of his work. He even implicitly apologizes for the reactionary character of **Gulliver's Travels :**

> It is often argued, at least by people who admit the importance of subject-matter, that a book cannot be 'good' if it expresses a palpably false view of life. We are told that in our own age, for instance, any book that has genuine literary merit will also be more or less 'progressive' in tendency. This ignores the fact that throughout history a similar struggle between progress and reaction has been raging, and that the best books of any one age have always been written from several different viewpoints, some of them palpably more false than other.(2)

Although this argument is plausible in that what is reaction from the point of view of a certain age may be progress at an earlier age, yet it sounds strange when it is uttered by

---

(1) Ibid., p. 253.

(2) Ibid., p. 260.

Travels as rancerous and pessimistic, and its author's cast of mind as reactionary. Swift, like Tolstoy and Blake, is opposed to science, particularly 'pure science.' «In a number of places.. he goes out of his way to proclaim the uselessness of all learning or speculation not directed towards some practical end.», and he hates the very idea of studying processes of Nature.» (1) Both Swift and Tolstoy disbelieve in the possibility of human happiness. And in both men :

> ..you have the same anarchistic outlook covering an authoritarian cast of mind; in both a similar hostility to science, the same impatience with opponents, the same inability to see the importance of any question not interesting to themselves; and in both cases a sort of horror of the actual process of life.(2)

Dean Swift does not strike Orwell as being specifically religious; and he does not seem to believe seriously in life after death. Besides, Orwell finds that the virtues Swift exalts are essentially pagan virtues (such as courage and benevolence meaning public spirit and reason).

Orwell's criticism of Swift is ambivalent. After describing Swift as a reactionary he inconsistently proceeds to label him as a rebel, an iconoclast, and a Tory anarchist :

> We are right to think of Swift as a rebel and iconoclast.. He is a Tory anarchist, despising authority while disbelieving clearly that the ex

(1) Ibid., p. 246 & 247.

(2) Ibid., pp. 253-4.

an entirely totalitarian society where freedom and development come to a standstill. The Houyhnhnms :

> ...had reached, in fact, the highest stage of totalitarian organization, the stage when conformity has become so general that there is no need for a police force. Swift approves of this kind of thing because among his many gifts neither curiosity nor good nature was included. Disagreement would always seem to him sheer perversity.(1)

Incidentally, Bertrand Russel has detected similar implications in **Gulliver's Travels.** He writes :

> The account of Laputa is an early example of science fiction... it is, I think, the first to represent a scientific community in the manner familiarized for our generation by Huxley's **Brave New World.** Other writers, until nearly our own day, had thought of science optimistically as a liberator. Swift was, I believe, the first to think of it as affording a means of ruthless tyranny.(2)

Patriotic as he is, Orwell's treatment of Swift is sympathetic, though «Evidently Swift's animus is, in the first place, against England»(3), and though he describes **Gulliver's**

---

(1) **Ibid.,** p. 252.

(2) Russell, Bertrand. **Fact and Fiction,** George Allen & Unwin, London, 1961, p. 31.

(3) «Politics vs Literature». op. cit., 213.

Orwell's link with 18th century classicism is not confined to similarities between him and Dr. Johnson. It is also manifest in his excellent essay on Swift.

Both Orwell and Swift have insight into the nature of totalitarianism; and **1984** owes something to **Gulliver's Travels.** Orwell praises Swift's deep understanding of totalitarianism :

> He has an extraordinarily clear prevision of the spy-haunted 'police State', with its endless heresy-hunts and treason trials, all really designed to neuteralize popular discontent by changing it into war hysteria.(1)

Nevertheless, Swift's insight into the evils of totalitarianism does not make him a democrat or a hater of tyranny; and he does not seem to have been strongly in favour of freedom of speech and the press :

> ..his views, so far as one can discern them, are not markedly liberal. No doubt he hates lords, kings, bishops, generals, ladies of fashion, orders, titles and flummery generally, but he does not seem to think better of the common people than of their rulers, or to be in favour of increased social equality, or to be enthusiastic about representative institutions.(2)

Orwell claims that Swift's Houyhnhnms present us with

---

(1) «Politics vs Literature : An Examination of Gulliver's Travels», **CEJL,** Vol. 4, p. 249.

(2) **Ibid., p. 251.**

mental approach to human life. They both resisted any form of superficial optimism, any idea that a few wipes with a damp sponge could clean the slate and humanity could start again, freed from the burden of guilt and error. Johnson accepted the Christian doctrine of original sin, but Orwell, without this theological underpinning, had something of the same attitude on a mundane, historical level.(1)

Orwell's link with Dr. Johnson is further echoed by Jeffrey Meyers, who writes :

> Both Johnson and Orwell had unhappy childhoods, struggled long with severe illness and bitter poverty, spent many years as hack journalists and did not achieve fame until their mid-forties. Both men were independent, combative, harsh on themselves and others, and often wrong-headed in a fascinating way. Both had limited imaginations but great critical faculties; and their satire was an expression of high principle, integrity and compassion. Both were pessimistic, patriotic, pragmatic, courageous, commonsensical, intellectually curious, scrupulously honest, fundamentally decent, oddly humorous and quintessentially English.(2)

---

(1) **Ibid.**, pp. 77-8.

(2) Meyers, Jeffery, **A Reader's Guide to George Orwell**, Thames and Hudson, London, 1795, p. 9.

Wain maintains that the political loyalties of both Johnson and Orwell never diminish their objectivity and independence of judgement. (Though one generally agrees to Wain's basic views of Orwell's affinity with Dr. Johnson, one is not so sure of the objectivity of his literary criticism as much as one is sure of its independence of judgement) :

> Johnson was a Tory, and theroughout most of his life the Tories were very remote from power. But he did not imagine that this obliged him to spend a lifetime shouting abuse at the Whigs and crediting the dispossed Tories with impossible virtues. It amused him to use the word «Whig» as a synonym for 'rascal', yet when Whig statesmen took a line that happened to fit in with his own convictions, he was ready to support them.. His great contribution to Toryism was that he was an unshaken Tory who was at the same time utterly different from the obendient party hack, ready to lie and equivocate for his own side and to keep inconvenient facts out of sight. Is this not exactly Orwell's position vis-a-vis the Left in the 1930's and 40's ?.(1)

Wain adds that not only did Johnson and Orwell challenge people to «think their own thoughts down to the roots», but also both of them rejected facile optimism :

> But most deeply of all, at the bedrock level, both Orwell and Johnson had the same funda-

(1) Ibid., p. 77.

sets out to prove that there is a conspicuous romantic element in Pope; and the other is **The Course of English Classicism** by Sherad Vines, a die-hard classicist, who sets out to prove the opposite : that there is no romantic cant in classical Pope. He ambivalently describes the classical arguments as sound, while maintaining that nobody can do without Shakespeare the romantic.

John Wain traces Orwell's literary ancestory to the 18th century. Wain finds similarities between him and the well-known classicist Samuel Johnson; but he is surprised to find no reference in Orwell's writings to this eminent 18th century author. Pointing out Orwell's link with 18th century literature, John Wain writes :

> ..Obviously, it was one of Orwell's pleasures to spend a few hours in the 18th century now and then. He liked its directness; 18th century people were tough and coarse, but they were willing to make a few basic assumptions about life and then act openly on those assumptions. It had not yet become difficult for the left hand to know what the right hand was doing. Orwell would have fitted straight into the 18th century with very little trimming. It is not periwigged, but then a lot of 18th century prose is not prewigged either. There is a direct, conversational tone which such writers as Swift and Defoe carry on from Bunyan, and Orwell belongs to this tradition very exactly.(1)

---

(1) Wain, John, «Orwell & the Intelligentsia», **Encounter,** Vol. 31, 1968, p. 76.

from a tendency to generalize».(1) And, in some cases, his critical judgment is arbitrary. One example of his arbitrary statements is that **Uncle Tom's Cabin** is more enduring than the works of Virginia Woolf, a statement which is erroneous by his own criterion that survival is the only guarantee of the value of any literature. Not even knowing wherein the superiority of **Uncle Tom's Cabin** lies, he honestly but naively admits,«I know of no strictly literary test which would show where the superiority lies».(2) Nevertheless, he is more interesting than many who are professional critics. Much of the criticism one reads nowadays is unnecssarily ambiguous, abstruse and sophisticated. This criticism often misses the heart of the matter, leads the readers into mystifying labyrinths; it obscures rather than illuminates. And whatever the limitations, ambivalence and even inconsistencies of Orwell's literary criticism, it almost always has something clear and definite to say, and the clarity of his mind is as amazing as the clarity of his expression. His critical faculty may be less subtle and disciplined than that of many of his contemporaries. Nevertheless, it is more communicative, lucid and forceful.

Orwell wavers between classicism and romanticism. This wavering is epitomized by his review of two books, written from diametrically opposed angles. One of these two books is **Alexander Pope by** Edith Sitwell, an avowed romantic, who

---

(1) Wilson, Edmund,**George Orwell : The Critical Heritage,** Edited by Jeffrey Meyers, Routledge & Kegan Paul, London and Boston, 1975, 1975, p. 226.

(2) «Good Bad Books», **CEJL.** Vol. 4, p. 41.

ORWELL AS A LITERARY CRITIC

Ramses Awad

Though a journalist by profession, George Orwell has left to us a fairly big number of critical essays. Their range is varied, and they cover such an odd assortment as detective works of Dickens, Swift, Yeats and T. S. Eliot, to cite a few examples. As John Wain says, Orwell, as a critic, lacks an adequate academic bent of mind. He is obviously interested in what a writer writes rather than how he writes. On the whole, his literary criticism glosses over the technical aspects of literature, such as 'form', which, he argues, is determined in one way or another by 'content' or subject-matter. Unabashed, he expresses contempt for the academic critic : «Not to be made to think — and therefore, if possible, to prevent literature from developing — is often the aim of the academic critic». (1)

Orwell makes sweeping generalizations about literature. «His essays on Dickens and Kipling to some extent suffer

(1) «As I Please», CEJL, Vol. 3, p. 81.

cere protestation : 'Emma, tell me, have I no chance of ever succeeding' ? He stopped in his earnestness .. and the expression of his eyes overpowered her ! Emma was almost ready to sink under the agitation of this moment. The dread of being awakened from the happiest dream was perhaps the most prominent feeling. The author comments on the significance of this brief encounter : 'This one half hour had given to each the same precious certainty of being beloved, had cleared from each the same degree of ignorance, jealousy, or distrust'.

The above analysis will make it abundantly clear that Emma, like the tragic hero in Shakespeare, progresses from darkness to light, from illusion to reality, from self-deception to self-discovery; and that the chain of events constituting the plot are important in proportion as they become the incidents in the development of a soul. The centre of gravity has shifted from plot to character, and to the outer structure of the novel, a new dimension has been added - - a dimension to which we may apply the significant phrase of T. S. Eliot : 'musical organisation.'

Knightley was a gratifying point of self-illumination : 'She was most sorrowfully indignant; ashamed of every sensation but the one revealed to her -- her affection for Mr Knightley. Every other part of her mind was disgusting. How Harriet could have had the presumption to raise her thoughts to Mr. Knightley ? Who but herself had taught her that she was to elevate herself, if possible, and that her claims were great to a high wordly establishment.' Thus Emma realised the value of Mr. Knightley when she was threatened with the chance of losing him. A brief retrospection revealed to her that ever since her early youth she had been the first in the interest and affection of Mr. Knightley, who watched her behaviour all the time like a sleepless guardian-angel. She was resolved to keep him in that position, and as she was not ready to marry herself out of regard for her dear father she wished, with all her heart, that Mr. Knightley also should remain single. She made up her mind to observe very carefully the behaviour of Mr. Knightley as he returned to Highbury after his visit to his brother in order to find out the real state of his own heart in relation to Harriet.

Mr. Knightley arrived and found time to meet her. He thought it to be his first duty to console her in her supposed distress caused by the treacherous conduct of Frank Churchill. But he was pleasantly surprised to hear the categorical disclaimer of Emma : 'Mr. Knightley .. I have as much reason to be ashamed of confessing that I never have been at all attached to the person we are speaking of, as it might be natural for a woman to feel in confessing the reverse.' This confession induced Mr. Knightley to make his brief but sin-

ceptions and flattery.' Mr. Knightley had spoken prophetically when he once said, 'Emma, you have been no friend to Harriet Smith.'

But when Harriet actually met her she sprang more than surprise upon her by declaring that the person she adored was not Frank Churchill about whom she did not care at all : 'I hope I have a better taste than to think of Mr. Frank Churchill who is like nobody by his side.' She goes on talking about the encouragement her own words gave her - - 'that more wonderful things have happened, that there have been matches of greater disparity.' Emma listens to her in a state of mounting suspense which is shattered by the revelation that the person concerned was Mr. Knightley who had the generosity to dance with her in the ball after Mr. Elton had ignored and cold-shouldered her.

The effect of this 'bombshell' was stunning and plunged Emma into a prolonged introspection and heart-searching. 'Emma's eyes were instantly withdrawn; and she sat silently meditating, in a fixed attitude for a few minutes. A few minutes were suffiicient to make her acquainted with her own heart. **It darted through her, with the speed of an arrow, that Mr. Knightley must marry no one but herself.** Her own conduct as well as her own heart was before her in the same few minutes. She saw it all with a clearness which had never blessed her before.' Her thoughts pursued her and allowed her no moment of rest or relief. She had been imposed upon by others, and what was more mortifying, she had been imposing on herself. She had been blind to the position Mr. Knightley had occupied in her life, blind to this immense superiority over Frank Churchill, but the discovery of her love for Mr.

her's .. She was warmly gratified - and, in another moment still more so, by a little movement of more than common friendliness. He took her hand, pressed it and certainly was on the point of carrying it to his lips, when from some fancy or other he let it go .... The intention, however, was indubitable ... and she thought nothing became him more. It was with him, of so simple, yet so dignified a nature. She could not but recall the attempt with great satisfaction. It spoke such perfect amity : they parted thorough friends.

The last phase of the story is simply a chain of explosions which shake Emma, heart, mind and soul, with resistless violence and plunge her first into the abyss of despair and depression only to send her up again to the highest heaven of earthly felicity, the bliss of union with her beloved Knightley, which involved no separation from her adored father. We shall briefly glance at this succession of unexpected events and revelations. In the first place we are abruptly told of the sudden visit of Frank Churchill to announce that he and Jane Fairfax had been engaged even before they came to Highbury. Mr. and Mrs. Weston are thoroughly upset on Emma's account, as they had marked her out for this honour. Emma, however, removes their anxiety on this score, but does not disguise or moderate her severe censure of the young man's dishonourable behaviour towards them all : 'He has sunk in my opinion. So unlike what a man should be .... I shall always think it a very abominable sort of proceeding.' She was anxious, however, on Harriet's account : 'Poor Harriet ! to be a second time the dupe of her miscon-

ment of unquenchable adoration. At the last moment of the party Knightley asks Emma if she will dance with him, and she replies with alacrity : 'Indeed. I will. You have shown that you can dance, and you know we are not really so much brother and sister as to make it at all improper.' And Knightley rejoins : 'Brother and sister ! No. indeed'.

Mr. Knightley was the one person in that crowed of Frank Churchill's admirers who was suspicious of his integrity and ostentatious gallantry, and he was deeply pained to think that Emma was apt to forget her good manners in his company. In one of the gatherings she forgot herself so much, indeed, as to make an ironical hint at Miss Bates's tedious garrulity. Knightley noted this and at the end of the party as they stood together he gave vent to his anger in a severe remonstrance : 'I cannot see you acting wrong, without a remonstrance. How could you be so unfeeling to Miss Bates ? How could you be so insolent in your wit to a woman of her character, age and situation ; — Emma, I had not thought it possible.' The reproof went home and Emma was vexed and agitated beyond measure : 'Time did not compose her. As she reflected more, she seemed but to feel it more. She had never been so depressed.' She decided to make suitable atonement for her discourtesy and the very next day she paid a visit to the house of the poor lady to remove all traces of pain from her mind. When she returned home she found Mr. Knightley conversing with her father :

> .. she looked at Mr. Knightley. It seemed as if there were an instantaneous impression in her favour, as if his eyes received the truth from

you this caution now : let no name ever pass your lips . . He is your superior, no doubt,; but yet, Harriet, more wonderful things have taken place, there have been matches of greater disparity.' Harriet keeps these words tightly locked up in her heart, and when the time comes for unlocking them before Emma the situation has altered so much as to charge them with a new poignant meaning altogether.

The drift of events outlined above has brought us to the height of complication, with no satisfactory solution within sight. But a careful reading of the chapters occupied with these events will not fail to detect an interesting development behind it, which steadily points to the happy consummation of Emma's story. In one of the early parties Mrs. Weston informs Emma that Knightley and Jane Fairfax appear to be fairly on their way to matrimony. Emma is shocked at this hint and exclaims passionately : 'Dear Mrs. Weston, how could you think of such a thing ? Mr. Knightley must not marry. You would not have little Henry cut out from Donwell ? I cannot at all consent to Mr. Knightley's marrying ; and I am sure it is not at all likely:' The idea haunts her mind till the suspicion is proved to be baseless.

In the last ball held in honour of Frank Churchill all the young ladies have their dancing partners but poor Harriet sits alone without any offer from any male guest. Knightley, the ungallant-like gallant of unforced chivalry, takes her hands and starts treading the happy measure with her. Poor Harriet is translated into ecstasy and Emma is filled with gratitude for Knightley, little dreaming that his kindness has bound her neglected favuorite to Mr. Knightley with a senti-

sis were liars and that Churchill had really cooled down in isolation from her.

She, therefore, started contemplating the plan of bringing Harriet and Churchill together and uniting them in the end.Her dream suddenly came within the range of possibility when one day she was greeted by the amazing sight of Frank Churchill entering her lawn 'with Harriet leaning on his arm'. The explanation of the circumstances leading to this romantic phenomenon robbed it of much of its charm, but to her imagination it was a happy augury of their future union. So Emma reflected: 'Such an adventure as this — a fine young man and a lovely young woman thrown together in such a way ..' She had soon afterwards reason to believe that the beginning was already made, and could not but hope that 'the gipsy, though she had told no fortune, might be proved to have made Harriet's.' Emma, however, is surprised by Harriet in a meeting which follows this adventure where the latter declares that she is resolved never to marry. But Emma does not fail to guess that the resolution springs from the consciousness that the object of her love is far superior to her, and the conjecture is confirmed by Harriet's reply to her inquiry : 'Oh ! Miss Woodhouse — it is a pleasure to me to admire him at a distance and to think of his infinite superiority to all the rest of the world, with gratitude, wonder and veneration'.

Emma naturally concludes that the person referred to is Frank Churchill and proceeds to advise and instruct Harriet with an air of caution and prudence which the later revelation of truth only renders highly ironical : 'Be observant of him. Let his behaviour be the guide of your sensations. I give

The sensation created by this long expected event drove other occurences, like the arrival of Jane Fairfax and the marriage of Mr. Elton, to the rank of second-rate novelties. The actual appearance of Frank Churchill was overwhelming in its effect on the excited mind of Emma : 'He was a very good-looking young man; height, air, address were unexeptionable .. and there was a well-bred ease of manner and a readiness of talk' which impressed her profoudly. All this denoted that he was not 'unworthy of the distinguished honour which her imagination had given him; the honour, if not of being really in love with her, of being at least very near it .. the honour, in short, of being marked out for her by all their joint acquaintance'.

Frank Churchill stayed for a fortnight and showed great fervour of sentiment while parting from Emma, who was left disconsolate, weary and listless, like a forlorn maiden, mourning the departure of her young man. But a calmer reflection convinced her that he was more of her friend than her lover, because the thought of giving him up did not produce any struggle in her heart : 'I do not find myself making use of the word sacrifice .. I do suspect he is not really necessary to my happiness.' But 'he is undoubtedly very much in love, and when he comes agian, if his affection continues, I must be on may guard not to encourage it.' The news of his second visit agitated her mind, apprehensive as she was, of Frank Churchill's warmth, intensified by his absence, exploding into an open declaration : 'She wished she might be able to keep him from an absolute declaration.' That would be so very painful a conclusion of their acquaintance.' But she soon discovered that all her fears about the upleasant cri-

comic to us, but serious and tragic to her, whose growth, mental and emotional, depends upon repeated shocks of painful surprises.

She puts her benevolent resolve to practice by taking Harriet Smith, an orphan girl of sweet, docile disposition and great personal charms, under her care, and seeking to promote her union with Mr. Elton, the local Parson who is smart and cultivated and best fitted for the realization of her cherished purpose, namely, social uplift of an unfortunate girl who has the making of a lady of rank in her. The irony of the situation lies in her readiness to accept the compliments and courtesies of Mr. Elton, really addressed to her, as tributes to her charming ward. But the bolt comes from the blue when Mr. Elton at last unlocks his own heart in a manner at once violent and undisguised, which plunges her into the depth of anguish. Her reaction was two-fold : firstly, 'She remembered what Mr. Knightley had once said to her about Elton . . and blushed to think how much truer a knowledge of character had been there shown than any she had reached herself; and secondly, 'She was quite concerned and ashamed, and resolved to do such things no more. It was foolish, it was wrong to take so active a part in bringing any two people together.' The author, however, is prompt to remind us that "To youth and natural cheerfulness like Emma's, though under temporary gloom at night, the return of the day will hardly fail to bring return of spirits'. Emma recovered her cheerful optimism and the expected visit of Frank Churchill caused in her an excitement which made her quite oblivious of the misfortunes and distresses of poor Harriet whose prospects were blasted by her short-sighted solicitude.

tragedy hinged upon the non-appearance at the crossroads of the agreeable young man who danced so well at the ball'.

This society has been presented with detailed vividness and its principal personages are vivified by the animating pen of the novelist, but their principal function is to illumine the character and disposition of the heroine and mark out the stages in her progress towards her final destination. The story of Emma, thus, is the principal plot, which poses a riddle or problem at the very outset, and then proceeds to work out its satisfactory and destined solution. The initial problem is created by young Emma's resolution to remain unmarried herself, and prevent Mr. Knightley also from entering into wedlock with any other woman. And the happy solution designed by the novelist is the final union of the two, which will ensure Emma's stay at Hartfield with her father. This end can be achieved only by means of a psychological change in Emma, which will involve her progress from self-deception to self-discovery, resulting in the creation of the proper frame of mind in which she would be receptive to the final protestation of love to her by Mr. Knightley, her indulgent guardian and friendly ciritic who manages to keep his sentiment for her carefully corked up in the depth of his heart.

Emma learns her lesson through trial and error and her actions which form the staple of the plot are typical at once of her sex and of the society to which she belongs. She is interested in match-making, in promoting the love and understanding of young couples in order to bring them under matrimonial yoke. The situation is fraught with comic possibilities and her story is simply a chain of comic errors.

Emma Woodhouse, the heroine of the novel, has been sketched at the very beginning of it as 'handsome, clever, and rich, with a comfortable home and happy disposition, who had lived nearly twentyone years in the world with very little to distress or vex her.' To her youth and inexperience were added 'the power of having rather too much her own way, and a disposition to think a little too well or herself.' She is the sole mistress of Hartfield, the pivot round which everything revolves, and she is flanked, on one side, by her father, a good-hearted valetudinarian, naturally averse to any change, and consequently opposed to matrimony, in regard especially to the yong women who ministered to his comfort and well being, and, on the other by Mr. Knightley, a gentleman of eight and thirty, who gradually becomes 'the friend, philosopher and guide' of this young lady, watching her actions and behaviour with vigilant and unerring eyes and making her aware of her errors, dangers and pitfalls.

Beyond this narrow domestic circle there lies the larger social circle of Highbury and neighbouring localities, dominated by families of conventional culture and settled view of life, and habitually rooted in the narrow plot of their native ground, with eternal commonplaces of human existence, love, courtship, marriage, elopment and domestic felicity or misery, in which wealth plays a decisive part, and rank has a real meaning. The nature and occupation of this society have been etched by A. Compton-Rickett, a well-known historian of English literature, with incisive felicity : '— the tattle, the trivialities of life in a small country town, where tea-time was an exciting event, and subscription ball a crisis in one's career ; where romance expressed itself in country walks and

hamartia or error of judgement, and is out of proportion to his mistake, or even unmerited. This indirect emphasis on the protagonist considerably modifies Aristotle's prescription about the pre-eminence of the plot, and relegates his other remark, that there may be tragedy without character but not without plot, to the rank of 'exaggerated half truths'.

The inadequacy of the Aristotelian disccussion of the character-plot relationship becomes apparent when we examine this relationship in the major tragedies of Shakespeare where the centre of interest has shifted from the chain of the incidents to the character, passion and psychology of the protagonist. A typical Shakespearean tragedy has been described as a mechanism of many lenses, with only one focus, that is the hero, who occupies the centre and is surrounded by a number of subsidiary figures, who represent the social milieu and the various avenues through which light comes and falls upon him. During his career in the tragic world the hero has to face several situations to which he may react passively or actively and thus undergo a process of psychological change, which is measured, at every step, by the favourite Shakespearean device, known as the 'soliloquy' in which the protagonist unlocks his heart.

Austen's Emma is a prose fiction with a predominantly comic atmosphere and outlook, yet the character-plot relationship is almost identical with that in Shakespearean tragendies, with the only difference that the central figure here is an inexperienced yet vivacious girl, whose feelings and psychological reactions are presented not dramatically, but directly, by means of authorial comments. A brief analysis of this psychological process parallel to the current of the story will make the point clear.

JANE AUSTEN'S EMMA

K. S. Misra

Jane Austen's art has often been described as Shakespearean, though the implication of the comparison has seldom been explored. The present paper seeks to explain the character-plot relationship in **Emma**, one of the typical Austen novels, and in course of this exploration it would incidentally throw light on one of the meanings of the 'art Shakespearean'. It is a matter of common knowledge that the first real and detailed discussion of character-plot relationship occurs in Aristotle's **Poetics**, during the analysis of the main constituents of Tragedy. Aristotle states categorically that plot is the chief end, the soul, as it were, of Tragedy, while character occupies the second position. But while discussing the nature of the tragic hero he leaves no room for doubt about the fact that the proper tragic effect can be produced only by a man of a particular type - - that is, a man of illustrious position, who is neither eminently good or virtuous, nor morally depraved, whose misfortune arises from some

---

This paper was presented on the occasion of the 200th birth anniversary of Jane Austen organised by the Department of English, Sanaa University in 1975. The paper is intended to be laudatory rather than critical in nature.